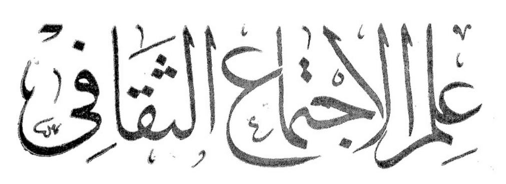
كتب علم الاجتماع



ومشكلات الشخصية في البناء الاجتماعي

الدكتور قباري محمد إسماعيل
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه


علم الاجتماع الثقافي



ومشكلات الشخصية في البناء الاجتماعي

الدكتور قباري محمد اسماعيل
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

صدق الله العظيم

من سورة العلق: الآيات ٣ و ٤ و ٥

الإهـــداء

إذا كان الفكر هو وعاء الثقافة ، وأداة الوعي بها ، فقد امتلأت مضامين الفكر دوماً بركام الزمان ، وتجارب الإنسان ، في تحدياته ومعاناته ، وأثناء تكيفه واستجاباته ، منذ ثبتت أقدامه على أرضية التاريخ ، كي يعيش ويستقر ويتحضر. فأخذ يبني ويعمر، بينما تنتشر قوافله سعياً وراء رزقها زمراً. فمن معين الثقافة على مايقول حكماء الهنود : شرب الناس من كأس واحدة .

ولما كان الفكر هو الإطار الصارم لهيكل الثقافة ، فلقد كنا نفتقد الثقافة لو لم يكن لدينا الإناء لنملأه . فإلى كل من يعمل على دفع عجلة الفكر ، وتحديث الثقافة ، أهدي هذا الكتاب . . .

دكتور قباري اسماعيل

تصدير

« على بركة الله ، وبتوفيقه وهداه ، أصدر
« هذه الكلمات ، تلك التي انطلقت في صدري
« كمعان أو خواطر ، حتى وجدت طريقها
« حين يتدفق وينساب فيض الخاطر حتى
« ينتظم وينضبط فتسجله ألفاظ اللغة ،
« بعد انطلاقه من عالم القوة والوجدان ،
« ثم تحققه لغتنا في صيغ وقوالب مستمدة
« من واقع الفعل والإمكان . فيلتبس كل
« معنى كسيم يصيب ما يناسبه من لفظ ،
« ومن هنا ترتدى شتى الأفكار والأنظار
« أرديتها ، وقد وردت كلها وصدرت عن
« بنية الثقافة . . . أما بعد . . .

فهذا كتاب في « علم الاجتماع الثقافي » ، عالجت فيه القصد من مفهوم الثقافة ، ما هو ؟ وماذا نعني به ؟ . ولا شك أن الثقافة هي سلوك ، وأن كل سلوك هو سلوكا هادف منضبط ، فتصبح أنماط السلوك وأهدافه وضوابطه ، هي بالضرورة ظواهر مستمدة مما يسود « البناء الثقافي » من معايير .

فالأوربى الذى يخلع أو يرفع قبعته مثلا ، بحركة مهذبة من يده ، إنما يسلك طبقا لنمط الثقافة الغربية ، تماماً كما يسلك العربى المسلم ، حين يخلع نعليه على باب المسجد . فالأول يعبر عن سلوكه الثقافى بالتحية والتبجيل والتعظيم ، برفع قبعته إلى أعلى ، بينما يعبر الثانى عن سلوكه الدينى بخلع نعليه إحتراماً لقداسة المسجد .

وعلى غرار « كارل مانهايم Karl Mannheim » وما انتهجه فى كتابه «Cultural Sociology» ، حاولت أن أعالج مسألة الثقافة والتربية Education ، وطريقة إعداد الطفل ودور المجتمع فى تثقيفه ، وتنمية قدراته العقلية والعضوية والاهتمام بصحته النفسية أثناء تعليمه وتدريبه ، حيث يبدأ الطفـــل منذ نعومة أظفاره يتشرب ثقافته مع لبن أمه ، فيتعلم ألفاظ اللغة ، ويردد الكلمات ، ويتسمى باسم ، ويتدين بديانة يؤمن بطقوسها وقيمها ومبادئها ، ويرتدى ما يناسبه من الأزياء والملابس التى يفرضها مجتمعه .

فكتابة الكلمات ونطق الألفاظ ، وطقوس الدين ، وما نرتديه من أردية وأزياء ، كلها أجزاء جوهرية من نمط الثقافة التى نعيش فيها . وسوف لا نقتصر على إبراز ثقافة الطفل ، وإنما سنهتم أيضاً كما فعل مانهايم بثقافة ذوى الياقات البيضاء White Collar ، . وسيدرس الكتاب الذى بأيدينا مختلف الأصول التاريخية والحضارية لتطور الثقافة على الأرض ، الأمر الذى يفرض علينا قسراً ، أن نبدأ من ثقافة الكهوف ، ونمط البداوة والرعى ، مع إبراز تحدى الانسان للبيئة الفيزيقية الصارمة ، ثم استجابة البيئة لهذا التحدى ، ومن هذه التجارب ، سكب التاريخ مضامين الثقافة وفلسفات الحضـارة ، كما تتابعت على أرضية الواقع الاجتماعى .

ولقد تغيرت قدرات الانسان ، وتعددت مواهبه ، وتفوقت طاقاته ، قبل أن يعرف كيف يكتب ؟ . فحاول أولا أن يعرف كيف يستقر أو يتحضر ،

فأقام لنفسه المأوى ، وثقف الفضاء ، وشطف الحجر ، واكتشف النار ، وظهرت مهارات الانسان الصانع « Homo-Faber » فى مواجهة قسوة الطبيعة ، وضراوة الحيوان ، وأصبحت تكنولوجيا صناعة الحجر ، هى أول تكنولوجيا ، تشبع أول حاجة للأمن والغذاء والدفاع (١) .

والسوف نجد فى هذا الكتاب محاولة جادة للكشف عن « وطأة الصناعة » و « محنة الثقافة » ، كما نعانى منها كل المعاناة ، فى هذه الأيام العصيبة ، حيث يظهر فى كل مجتمعات الدول النامية ، ذلك التخلف Underdevelopment الواضح فى أنماط الثقافة المادية واللامادية ، كما يتبدى لنا الصراع الظاهر والمكبوت ، الذى شجر عن عدم التوازن بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا ، ومع بطء التغير وتصنيع الدول النامية ، وتطبيق عدالة تكريم الطعام لكل فم ، صدرت الحاجة إلى تحديث الثقافة Modernizataion of Culture ، كما إتضحت لنا سائر الدوافع التى تعبر عن حاجتنا الماسة إلى كل ما هو جديد لتنمية المجتمع .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، سيشرح لنا هذا الكتاب كيف ندرس الثقافة ؟ ، وكيف نطبق مناهج البحث فى علم الاجتماع الثقافى ؟ مع إعطاء القارىء بعضاً من صور الفكر الثقافى ، وإبراز مشكلات الثقافة ، وانحرافات الشخصية ، بفضل انتشار أمراض العصر ، وتأثير الركام الثقافى على سائر ديناميات الشخصية ، فيفقد الانسان توازنه فى عصر تحكمه المادة وحدها ، فنحن فى عالم مريض تسوده الايديولوجيات الضارة ، وتنعدم فيه الضوابط الأخلاقية والدينية ، فاندثرت معالم الروح الانسانى ، وتبعثرت سماته تحت غطاء كثيف ، حجب عن الإنسان الرؤية

---

(1) Duvignaud, Jean', Sociologie de L'art. Press· univers. de France, Paris. 1967.

الصحيحة للأشياء ، وفقد المعايير السليمة ، فأعماه فحوى الزمان ، وغطاه مايجرى فى المكان ، وغشت عليه المادة ، وضاعت مع مبادىء النسبية والصيرورة ، كل قيمة ثابتة ومطلقة .

نسأل الله السلامة حتى تنزل علينا السكينة ، فيتمتع الانسان المعاصر بالطمأنينة ، التى تبعده تماماً عن مخاوف الرعب النووى التى تنتابنا كل لحظة . ووفقنا المولى سبحانه وتعالى ، وأنعم علينا بالمزيد ، و بإضافة الجديد إلى مكتبتنا العربية ، التى تزداد دوماً ثراء فوق ثراء ؟

ق. ا.

المندرة البحرية — رمل الاسكندرية

أول أكتوبر ١٩٨٢

الباب الأول

ماذا نعني بالثقافة ؟

- علم الاجتماع الثقافى عند كارل مانهايم
- الثقـــافة والأجناس
- تطور الثقافة على الأرض
- وطأة الصناعة ومحنة الثقافة
- الثقافة وعلوم الانسان

تمهيـــد

إن المفهوم العـام للثقافة إنمـا يحمل فى ذاته معنى « التكيف Adjustment » كما تـكشف الثقافة عن بعض « الدلالات » التى تشير إلى « تدخل الانسـان » فى تعديل الطبيعة أو تحويرها بإضافة « عناصر بشرية » على الوجود الطبيعى ، وإدخال أشياء إجتماعية Choses Sociales ، لم تكن موجودة فى الطبيعة . فكل « إضافة إنسانية » على الوجود الفيزيقى أو العالم الطبيعى « هى ثقافة » .

الثقافة والحضارة :

وفارق بين « الحضارة Civilization » و « الثقافة Culture » ، فالحضارة هى الجانب المادى من الثقافة ، وبالتالى تعتبر بمثابة الشق التكنولوجى الذى هو شكل من أشكال الثقافة ، على إعتبـار أن الثقافة إنما تشتمل أيضـاً على جوانب أخرى « لا مادية » كالدين والفن والفلسفة والقانون ، بالإضـافة إلى إتجاهات السياسة والأخلاق والقيم .

ونظراً للتغير الهائل الذى يطرأ على الجوانب المادية والتكنولوجيـة للثقافة ، صدرت أشكال ثقافيـة معقدة وعلى درجة عاليـة من التركيب والرقى ، تلك هى أشكال أو أنماط من الحضارة Civilization . بمعنى أن الحضارة هى « نوع ثقافى معقد » أو هى « ثقافة حضرية مركبة » ، وهذا هو السبب الذى من أجله اتجهت « ثقافة أهل المدن والحواضر » نحو أعقد الأنماط والأشكال الثقافية .

الثقافة والمجتمع :

تعتبر الثقافة عند علماء الاجتماع الحضرى ، هى ذلك الكل الذى يشتمل على التخطيط الإجمالى أو المجموع الكلى « للغايات البشرية » ، ويميز علماء الاجتماع

أيضاً بين « الثقافة » و « المجتمع » ، فيرون أنه إذا كان المجتمع يتحقق فى جماعة أو زمرة تعيش وتعمل فى معية togetherness ، فإن « الثقافة » هى « نمط الحياة » أو « طريقة العمل » وأسلوب المعيشة بالنسبة للجماعة ، وكيفية مشاركة الأفراد فى الفكر والعمل .

ويحدد علماء الثقافة المنهج العلمى لدراسة الظاهرات الثقافية بملاحظة السلوك ودراسة وفهم الانتاج الانسانى الجمعى ووظائفه ، بالإضافة إلى معرفة مدى التغيرات التى طرأت على البيئة الطبيعية بانتاج الأشياء الاجتماعية Choses Sociales ، بمعنى أن الثقافة هى مجموع جهود الانسان ، تلك التى تلخصها كلمة الحضارة حين تتمثل فى سلوك الانسان أو نزوع بنى البشر نحو تغيير ظروف البيئة الطبيعية ، والسيطرة عليها .

والثقافة عند عالم النفس الاجتماعى هى « مجموع العادات الاجتماعية » ، على اعتبار أن مسائل الثقافة والحضارة ، هى أقرب المسائل صلة بعلم النفس التربوى وبنظرية التعلم بالذات ، حيث أن إنتقال الثقافة وتراكمها إنما يتمثل أو يتحقق باستخدام عمليتى التعلم والتربية . ولذلك أعلن « فورد Ford » فى تعريفه للثقافة بأنها عبارة عن مجموع « الطرق التقليدية المتبعة فى حل المشكلات » أو هى الحلول المتعلمة الموجودة بطريقة مسبقة .

محتوى الثقافة :

ويسوق العالم الانثروبولوجى البريطانى إدوارد بيرنت تايلور Edward B. Tylor ، تعريفاً مشهوراً حين يحدد مفهوم الثقافة بقوله :

« إنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والعقيدة ، والفن ، والأخلاق ، والقانون ، والتقاليد والعادات التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى مجتمع » .

إلا أن هـذا التعريف يقتصر فقط على « محتوى الثقافة » ، فهو تعريف قاصر وناقص ، إذ أنه مجرد قائمـــة بمحتويات الثقافة ، ولـكن الثقافة هى « تنظيم Organization » قبل أن تكون « محتوى » ، فلم يغفل تايلور إلا أنه قام بعمليـة وضع أو « رص » لمحتويات الثقافة ورصوها رصا ، بحيث أننا إذا ما إستثنينا كلمة « كل » لتفرق وتبعثر هذا المضمون الذى يجمعه أو « رصه » دون ما « تنظيم » أو تنسيق .

وقد يذهب البيولوجيون إلى تعريف الثقافة بأنهـا هى « الوراثة الاجتماعية » إلا أننا نجد أن هذا التعريف البيولوجى لا يخلو من إنتقاد وتجريح ، حيث يوحى إلينا أن الانسان يكتسب ثقافته مثلما يكتسب «جيناته» أو مورثاته . فالثقافة عند البيولوجيين هى اكتساب وراثى أوفطرى تنتقل إلى الانسان دون أن يبذل أى جهد فى التكيف معها أو حتى مقاومتها , إلا أننا فى الرد على وجهة النظر البيولوجية ، نقول إن الانسان ليس مجرد الناقل أو الحامل السلبى لأنماط الثقافة وسماتها العامة ، ولكن الانسان هو خالق للثقافة وصانع لها فللانسان دوره الإيجابى الفعال فى عملية النقل الثقافى ، ولا يقتصر دوره على الحمل السلبى أو « النقل المحايد » ، ومن هنا تتهافت وجهة النظر البيولوجية فى تحديد مفهوم الثقافة .

وقد يفسر التاريخيون الثقافة بأنها « راسب التاريخ » على اعتبـار أن الثقافة عندهم هى مجموعة عمليات تاريخية الأصل ، وتتراكم خلال السياق الحضـارى أو تترسب فى الزمان التاريخى ، فتنمو وتنتعش وترقى وتنتقل وتهاجر من منطقة إلى أخرى . وقد يقال إن الثقافة هى عملية انتقائية توجه ردود أفعال البشر نحو منبهات داخلية وخارجية ، وهذا مفهوم سيكولوجى يتضمن دراسة « المنبه » أو « المثير » بالإضافة إلى « الاستجابة » أو « النزوع » .

وعلى هذا الأساس السيكولوجى ، تكون الثقافة هى مجموعة من أساليب «ردود الفعل» وأنماط السلوك البشرى ، وطرق النزوع أو النشاط الانسانى ، وما تخلفه جميعا من «آثار» أو «إضافات» من فعل البشر ومن نتاج الانسان كعضو فى جماعة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن عملية تناول الطعام ، هى استجابة لدوافع بيولوجية ، فنشعر بالجوع وخواء المعدة ، نظراً لانخفاض سكر الدم ، والشعور بانقباضات متصلة بسبب خواء ثم عواء المعدة .

هذا هو الجوع كدافع بيولوجى أو كعملية فسيولوجية بحتة ، ولكننا نشبع دافع الجوع بمجموعة من الاستجابات المختلفة ، وهنا تتدخل الثقافة ... تلك التى تنتقى نوع الطعام وتحدد كميته ، وترسم لنا طريقة طهيه ، وتنظم لنا آداب المائدة أو «اتيكيت» تناول الطعام . بمعنى ان الثقافة «هى التى توجه وتنظم عملية الأكل» فهناك مثلا ثقافات تأكل الجرذان وأخرى تشتهى الضفادع . وهناك من يستخدم يديه فى تناول الطعام ، ومن يستخدم الملعقة والشوكة والسكين ، بمعنى أن الثقافة يكون لها وظائفها ودورها فى تشكيل طرق أوأساليب إشباع الحاجات والدوافع البيولوجية ، وهى تختلف باختلاف الظروف وطرق الاستجابة .

والحاجات البيولوجية كثيرة ومتعددة ، كالحاجة الجنسية والحاجة إلى الطعام ، والحاجة إلى التنفس والحاجة إلى الراحة . وهناك أمثلة يمكننا أن نشير إليها كوسائل إيضاحية لعمليات بيولوجية ، مثل البكاء ، والضحك ، والإغماء والتبرز والتبول ، وكلها عمليات بيولوجية مرتبطة بغطاءات ثقافية . فحين يبلغ التوتر فى القولون أو المثانة درجة محددة من الشدة يتبول الطفل الحديث الولادة أو يتبرز . وفى حالة النضج تنتظم هذه العمليات البيولوجية لظهور تلك الاعتبارات الثقافية ، فلايتبرز الراشد إلامرة أو مرتين يوميا ، وفى أوقات وأماكن محددة بمعنى أن هناك رابطة أكيدة بين تلك الأبعاد البيولوجية والمؤثرات الثقافية .

ويدرس الأنثروبولوجيون الثقافة البدائيـــة Primitive Culture في المجتمعات والقبائل التي تتسم بالبساطة والعزلة النسبية . ويمكننا أن نحدد مفهوم الثقافة ، بأنه ذلك الكل المركب الذي يتضمن مظاهر الحياة العقلية والمادية والتي تشبع الحاجات البيولوجية والاجتماعية للانسان في تكيفه مع البيئة الفيزيقية .

حيث أن طبيعـة التكيف الانساني إنما تختلف وتتمايز من مجتمع إلى آخر ، ومن هذا التكيف البشري تظهر بعض الملامح البيولوجية الســـائدة التي نشاهدها واضحة في طول القامة وشكل الأنف ومقطع الشعر وحجم الجمجمـة ، وفي أثناء عملية التكيف بالبيئة الطبيعية ، يصنع الانسان ثقافته ويشيد حضارته .

يقول « زكرماق Zuckerman » إن الظواهر الثقافية لا تصدر عن أحداث فسيولوجية Physiological events ، حيث يوجد تمايز كامل بين الاستجابات الفسيولوجية Physiological Responses للحيوان ، وبين النزوع أو السلوك الثقـافي Cultural behavior للانســـان . فالثقافة بالضرورة هي ظاهرة إنسانية (١) .

وتتضمن كل ثقافة بعض المظاهر والجوانب التي يمكننا أن نصنفها في مجموعتين من الظواهر والسمات الثقافيـة . والمجموعة الأولى وهي الخاصـة بسمات الثقافة المادية material culture وتتصـل بدراسة المنتجات المادية ، ومعـــرفة الموضوعات أو الأشياء التي تشبع الحاجة أو الرغبـة ، مثل الأدوات والآلات والأسلحة ، وبناء المنازل ، ونقوش المعابد وصنع القوارب ، وكل ما يستخدم

(1) Herskovits. Melville, Cultural Anthropology, Alfred Knopf, New York. 1964. p. 324.

فى عمليات السحر وأغراض الدين . كما يدخل فى نطاق الثقافة المادية ، كل ما يندرج تحت ما يسمى بالتكنولوجيا Technology .

أما المجموعة الثانية ، الخاصة بالثقافة الاجتماعية Social Culture . وتتعلق بدراسة كل أشكال الثقافة اللامادية non - material كألوان الفن والمعرفة ، وضروب الفلسفات والقيم والمعتقدات ، وكل ما يتصل بالجوانب الروحية Spiritual فى المجتمع .

وهناك خصائص رئيسية تتميز بها سائر الثقافات البدائية المختلفة ، ويمكن حصرها أو تحديدها فى النقاط الخمس الآتية :

١ – تتميز المجتمعات البدائية بالجهالة والأمية illiteracy ، فالثقافة البدائية لا تاريخ لها ، نظراً لكونها ثقافات متخلفة لا تعرف الكتابة . إلا أن هناك رغم ذلك ثقافات بدائية ذات حضارة مثل « الأزتيك Aztec » و « المايا » فى أمريكا الوسطى والجنوبية، لما تمتاز به هذه الحضارات من تاريخ حافل بالتراث الثقافى .

وما يعنينا من كل هذا هو أن الثقافة البدائية تتميز بالبساطة ، على حين أن الثقافات المتقدمة ، فلها تاريخها وماضيها مما يفسر تعقدها ، هذا ما يميزها عن الثقافات الأولية ذات التاريخ غير المكتوب . بمعنى أن الكتابة سمة أساسية من سمات الثقافة والحضارات ، حيث تخلف لنا الكتابة تراثاً هائلا نجده مسجلا على بقايا المعابد والآثار .

٢ – يتميز التنظيم الاجتماعى للثقافات البدائية بالبساطة ، حيث يتألف من مجموعات صغيرة ومحدودة من التجمعات الانسانية والبناءات المعروفة ، مثل العشيرة Clan والقرية والقبيلة ، على حين أن حدود الثقافات المتقدمة ، هى حدود الدول والقوميات بل والامبراطوريات (١) .

---

(1) Piddington, Ralph, An Introduction to Social Anthropology. vol I, Oliver and Boyd, Edinburgh, Third Edition, 1960 p. 5.

٣ ـ إن الثقافة البدائية ذات نظام « تكنولوجى منخفض » المستوى بسيط - المحتوى ، يتمثل فى مجموعة من الحراب أو السهام المستخدمة فى الصيد أو الحرب ، مما يفسر لنا أن تكنولوجيا البدائى هى تكنولوجيا الصيد وصناعة القوارب أو القنص باستخدام القسى والرماح .

٤ ـ تقوم العلاقات الاجتماعية فى الثقافات البدائية استناداً إلى أنساق القرابة Kinship وصلة الدم والجوار المكانى ، الأمر الذى يفسر لنا طبيعة التجمعات البدائية .

٥ ـ ينعدم التخصص الاقتصادى فى الثقافات البدائية ، نظراً لبساطة تقسيم العمل الاجتماعى ، وتشابه الوظائف التى يقوم بها الانسان الفرد ، حيث يكون التضامن بين البدائيين آلياً ، وهو ما يفسر طبيعة السلوك الاستاتيكى الثابت بين البدائيين ، حيث يمكن التنبؤ به مقدماً ، تماماً كما هو الحال فى مجتمعات النمل وخلايا النحل (١) .

ومن مميزات الثقافات البدائية ، أنها ثقافات معزولة isolated ولعل هذه العزلة الثقافية هى السبب المباشر فى بساطة هذه المجتمعات وبدائيتها . الأمر الذى لم يتح لها فرصة « الاحتكاك الثقافى Cultural Contact » بسائر المجتمعات والثقافات الأخرى . ومثالنا على ذلك الثقافات الاسترالية التى تقطن شمال غينيا الجديدة New Guinea وتلك المجتمعات البسيطة التى تقطن صحراء كلهارى فى

---

(1) Durkheim, Emile., De la Divison dn Travail Social. Alcan, Paris. 1926. p. 85.

وأنظر أيضا فى هذا الصدد : كتابنا « علم الاجتماع الفرنسى » صفحات ١٧٩ ــ ١٨٩ دار الكتب الجامعية ١٩٧١ .

إفريقيا الوسطى مثل مجتمعات « البانتو Bantu » و « البوشمن Bushmen » و « الهوتنتوت Hottintots » .

ولقد ظهرت النزعة التطورية الثقافية Cultural evolutionism كرد فعل أو إنعكاس لظهور كتابات داروين ، وبخاصة كتابه الذى أصدره عام ١٨٥٩ عن « أصل الأنواع Origin of species » ، ومن هنا دخلت النظرية الداروينية فى صلب الأنثروبولوجيا الثقافية . بمحاولة تطبيقها على الحياة الاجتماعية وتطور الثقافة وهذا هو ما يؤكده « ملفيل هرسكوفتز Herskovits » (١) فى كتابه « الأنثروبولوجيا الثقافية » .

ولقد كانت كلمة « تطور evolution » تعنى قبل داروين ما يقابل كلمة « تحسين أو تحول development » وبعد صدور تلك الكتابات الداروينية ، إتجهت الأنظار نحو الدراسات الإثنولوجية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فكانت البيانات الأولى للنظرية الأثنولوجية التطورية، بظهور الإثنولوجيا الألمانية ، عند مشاهير الكتاب الألمان من علماء العهد القديم ، وعلى رأسهم « فيتز Waitz » و « باستيان Bàstian » و « باخوفن Bechhofen » . وبصدور كتابات علماء الأثنولوجيا الانجليز من أمثال « هنرى مين Maine » و « ماكلينان Mc Lennan » و « تايلور Tylor » هؤلاء الذين ظهروا فى الفترة ما بين عام ١٨٥٩ - ١٨٦٥ .

وظيفة الثقافة :

يضطلع الاتجاه الوظيفى بدراسة الثقافة إستناداً إلى فكرتى « البناء »

---

(1) Herskovits. Melville., Cultural Anthropology, New York. 1964, p. 431.

و « الوظيفة » ، مع تطبيق المنهج التكاملي في تفسير سائر الظاهرات الاجتماعية وتحليل الوقائع والسمات الثقافية .

وتستند النظرية الوظيفية في دراسة الثقافة البدائية إلى بعض المبادىء الضرورية التي في ضوئها نستطيع القيام بالتفسير العلمي لسائر الثقافات البدائية ، حيث أن سمات الثقافة أيا كانت بدائية أم حضرية ، ليست مجموعة من الأجزاء المبعثرة ، وإنما تقوم مكونات الثقافة باستنادها إلى وحدة من العناصر الثقافية المتكاملة ، التي تتجمع في « كل متكامل » لا تناثر في عناصره ، أو تباعد في سماته ، بالنظر إلى الثقافة « كوحدة عضوية Organic Unit » يرتبط كل عنصر فيها بسائر العناصر والأجزاء الأخرى .

وفيما يتعلق بأنساق الثقافة ومكوناتها ، نجد أن البناء الثقافي إنما يتكون من مجموعة من الأنساق والنظم التي ترتبط بمختلف مناشط الانسان وجهوده، كالنظم الإيكولوجية والاقتصادية ، والتنظيم الاجتماعي والسياسي ، كما ترتبط أنساق الثقافة بطقوس الدين وعمليات السحر وتجاربه .

بمعنى أننا ندرس كل هذه الأنساق والنظم في علاقتها بعضها بعضاً في وحدة كلية متكاملة ، حيث تسعفنا تلك الوحدة العضوية للثقافة بقضاء وإشباع الحاجات الملحة التي يرغب الانسان في الحصول عليها، لانها بوساطة تشبع الحاجات والشروط الضرورية لحياة الكائن الانساني ، كالحاجات البيولوجية Biological ، والحاجات السيكولوجية ، بالإضافة إلى تحقيق الحاجات الاجتماعية .

ولم يلتفت علماء الانثروبولوجيا الثقافية القدامى ، إلى تلك الوحدة التكاملية التي تمتاز بها أجزاء الثقافة ، ولم ينشغلوا بدراسة العوامل الديناميكية dynamic factors التي تقوم بدورها داخل إطار الأنساق والنظم

الاجتماعية ، ودراسة العلاقات القائمة بين تلك الأنساق والنظم ذات السمات البنائية المركبة .

أما علماء الأنثروبولوجيا المحدثين ، فقد التفتوا إلى مايسمى «بالبناء الاجتماعى» استناداً إلى إتباع الطريقة التحليلية ، فقامت الدراسات الحقلية Field - Work ، التى تعتبر الوسيلة الوحيدة لتحقيق المنهج الوظيفى Functional Method .

فقد استند المنهج القديم فى ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، إلى الدراسة الجزئية لماضى النظم الاجتماعية وإتباع المنهج التاريخى الظنى Conjectural History أو منهج التاريخ التخمينى ، الذى يتناول أو يتتبع النظم الاجتماعية بقصد التوصل إلى أصولها الأولية .

كما تقوم مناهج القدماء على دراسة تلك الاختلافات القائمة بين سائر المجتمعات البشرية والثقافات القديمة والحالية ، دون الالتفات إلى ما بينهما من مماثلات أو مشابهات . أى أن قدامى الأنثروبولوجيين قد إنشغلوا فقط بدراسة أوجه الاختلاف بين المجتمعات ، دون الرجوع إلى أوجه الشبه القائمة بينها .

أما المنهج الأنثروبولوجى الحديث ، فيهدف إلى التوصل إلى تحديد الحاجات الرئيسية لبنى البشر ، تلك الحاجات الضرورية التى قامت بفضلها مختلف ألوان الثقافات البدائية ، كما يتناول المنهج الحديث فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دراسة مختلف الطرق الاجتماعية المتبعة فى إشباع هذه الحاجات الملحة فى سائر المجتمعات البدائية .

ويمكن تقسيم حاجات الانسان الرئيسية إلى فئات ثلاث ، أولها ، الحاجات الأولية Primary Needs ، وهى الحاجات البيولوجية ، باعتبارها حاجات أو شروط ضرورية فى تكوين البناء العضوى للكائن البشرى .

ومثالنا على تلك الضرورات البيولوجيه الملحة يتضح ويتأكد فى كل ما يتعلق بحاجات الكائن العضوى كالجوع Hunger ويعبر عن الحاجة إلى الطعام ، مثل الجنس Sex وما يرتبط به ضرورات ، وكلها حاجات فسيولوجية بحتة لها ردود أفعالها فى السلوك الاجتماعى ، وهى حوافز أساسية لها أثرها الثقافى والحضارى ، باعتبارها عوامل جوهرية لتقدم أو تطور الجنس البشرى .

ففيما يتعلق بالجنس مثلا ، لا تقف الحاجة إلى الشريك الجنسى ، عند مجرد إشباع الحاجة البيولوجية ، فهذه عملية مؤقتة من الناحية الفسيولوجية ، ولكنها رغم ذلك تستمر بالضرورة فى مراحل الحمل والإنجاب ولقد أكدت «مارجريت ميد Margaret Mead » أن الفروق المزاجيــة بين الرجل والمرأة تحددها أنماط الثقافة ، فالعملية الجنسية وما يستتبعها من نتائج بيولوجية تحاط جميعها بسياج من سمات الثقافة ، هذا ما تؤكده « ميد » فى كتابها « الجنس والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية » Sez and temperament in three Primitive Societies . ومن هنا يبدأ الغطاء الثقافى كى يقوم بوظائف ضرورية فى عمليــة تربية الطفل ، بالنظر إليه كمخلوق عاجز ضعيف ، ينبغى رعايته وحمايته وإطعامه حتى يتمكن من مواجهة الحياة .

وتتطلب كل تلك العمليـات والوظـائف التى تنجم عن إشـباع الحاجات البيولوجية ، التى تبدأ عند الانتهاء من العمليات الفسيولوجية ، إلى إتباع بعض الطرق والمظاهر الثقافية ، وذلك أثناء عملية «رعاية الطفل» وطريقة تربيته وتثقيفه وأسلوب الأسرة فى سد حاجاته إلى الطعـام والشراب واللعب وإشـباع حاجته إلى الأمن .

فالحاجة هى الدافع الأول الذى يثير « التوتر » وطريقـــة الاستجابة أو

الإشباع ، هي طريقة مستمدة بالضرورة من نمط أو غطاء « الثقافة » . فقد تدعو الحاجة إلى الدفء إلى ارتداء الفراء أو الحياة فى داخل سراديب مستطيلة ، كما هو الحال فى مجتمعات الاسكيمو وثقافته البدائية ، وعلى العكس من ذلك نجد أن البدائى فى الغابات الحارة يقطن «الكوخ» ويغطى القليل من أجزاء جسمه للتكيف مع مناخ من نوع خاص .

الغطاء الثقافى :

بذلك يتبين لنا أن « الثقافة » هى وسيلة وقائية ، أو «غطاء» متوارث يتقى به الانسان غوائل البيئة ، وقسوة الظروف ، ولذلك قيل إن الانسان مثل الحيوانات «اللافقارية» الصدفية أو القشرية ، يعتمد فى بقائه على «هيكل خارجى» أو « غلاف ثقافى » يتألف مما يصنعه الإنسان ويقوم به من جهود وأعمال ، وما يتركه من مخلفات ، كالكهوف ، والأكواخ والسراديب والمنازل والقرى والمدن التاريخية ، وسائر أشكال الثقافة المادية ، حيث يدرس « المؤرخ الثقافى » أو « الأثرى » ماضى الانسان فى ضوء تراثه ومخلفاته ، فنجد فى عالم الآثار أن « الأحجار تتكلم » ، فيستخرج الباحث من دراسته للتراث الثقافى بعض المعانى الجديدة التى تعيد من تركيب الماضى فى صور وأشكال جديدة .

ومن هنا كان « الفن » عند الأثرى « هو ظاهرة ثقافية تشبع حاجات الانسان إلى القيم الجمالية ، فأصبح الفن لغة رمزية Symbolic Language ، حين تتكلم الأحجار كى تحكى تاريخ الفكر والوجدان . وبهذه الوسيلة أمكن ربط الفن بأجزاء التاريخ وأنساق الثقافة، كوسيلة للتعبير والإشباع لأرقى حاجات الانسان كما تتمثل فى مظاهرها العليا فى الذوق والفن والوجدان ،

ولقد كان الانسان الأول جامعاً للطعام كما كان يستخدم أدوات صيد الأسماك ، كالشباك والصنانير والخطاطيف والقوارب ، وكلها سمات أساسية فى ثقافة الصيد.

وفى مجتمعات بدائية أكثر تطوراً و تقدما كالمجتمعات القروية والثقافات الرعوية ، استخدم الانسان مختلف الأدوات الأكثر تركيبا وتعقيدا وخاصة فى ميدان الزراعة وفى المناطق الجبلية والرعوية ، مما يؤكد أن الحاجة إلى الطعام قد أدت إلى إشباعها بمختلف أساليب وطرق وادوات الثقافة . أى أن ثقافة الصيد والقنص بأسلحتها وحرابها ، إنما صدرت كصدى أو رد فعل لحاجة بيولوجية ملحة ، مثل الحاجة إلى الطعام . وجملة القول فإن الثقافة هى استجابة لحاجات بيولوجية صرفة ، فلكل حاجة أولية Primary Need استجابة ثقافية Cultural Response(1) .

كما أن سد وإشباع هذه الحاجات البيولوجية ، قد يصاحبه فى نفس الوقت بعض الدوافع الاجتماعية Social motives ففى ثقافات الصيد والقنص وجمع الطعام . تستند كافة المناشط الاقتصادية والاجتماعية إلى أصول جمعية تفسرها ظاهرة تقسيم العمل division of labor ، حيث نجد فى المجتمعات الاسترالية البدائية ، تقوم النساء بعملية جمع الطعام ، ويقوم الرجال بصيد الأسماك وقنص الحيوان ، كما نجد أن النساء حين يذهبن فى جماعات للعمل ، إنما لا يذهبن للزيادة فى جمع البذور والجذور والثمار ، ولكن بقصد الصحبة والعمل فى جماعة وفى مشاركة جمعية ، كما يتعاون الرجال أيضا فى المجتمعات الاسترالية أثناء ممارسة عمليات الصيد تحقيقاً لمبدأ المشاركة الجمعية ، وتأكيداً للوظيفة للدوافع الاجتماعية فى القيام بكافة مظاهر النشاط الجمعى (٢) .

الاتجاه التطورى الثقافى :

وينقسم أصحاب الاتجاه الثقافى التطورى إلى ثلاثة مدارس متمايزة ، ينادى

---

(1) Piddington, Ralph; An Introduction to Social Anthropology, Vol. I, Oliver and Boyd, Ediuburgh, 1960. p. 212.

(2) Ibid : p. 222.

كل منهـا بمجموعة من القضـايا العامة ، حين تأخذ كل مدرسـة تطورية ببعض المسلمات التى تميزها عن الأخرى .

وتأخذ المدرسة التطورية الأولى ، بتلك المسلمة القائلة بأن التاريخ الانسانى إنما يتجه فى تتابع وحيد ، حيث تتطور النظم والعقائد استناداً لمبدأ الوحدة السيكولوجية لبنى البشر Psychic Unity of Mankind . ومن هنا تتطور الثقافة فى العالم الانسانى ، حيث تتشابه الظروف العقلية والتاريخية .

أما المدرسة الثانية ، فتأخذ بالمنهج المقارن ، حين تعالج هذا التتابع التطورى evolutionary s. quence للنظم والمعتقدات الانسانية ، بعقد المقارنات المنهجية المنظمة بين الشعوب والثقافات فى سائر المراحل المبكرة لأطوار الثقافه بحثاً عن المصادر الأثنولوجية للسمات الثقافية .

أما المدرسة الثالثة فتأخذ بفكرة « البقايا » أو المخلفات والرواسب الثقافية ، على اعتبار أن هذه البقايا القائمة فى المجتمع ، إنما هى بمثابة « شواهد » من الناحية المنطقية البحتة ، على إعتبار أن هـذا المجتمع موضـــوع الدراسة ، قد مر أصلا بمراحل أقل تطوراً ، ثم تقدم إلى مراحل أكثر تركيباً .

تلك هى أهم القضايا العامة السائدة فى دراسة أصول التطور الثقافى ، أو تاريخ ثقافة الشعوب . تلك التى تندرج جميعاً فى مجال « علم الثقافة » ، وهو العلم الذى يبدأ بدراسة ثقافة المجتمعات البدائية المنعزلة أو المجتمعات التى لم تمس Untouched Society على حد تعبير « هرسكوفتز Herskovits » (١) .

الاتجاه التكاملى :

ويأخذ به « فرانز بواس Franz Boas » وتلميذته « بندكت Ruth Benedict »

---

(1) Herskovits, Melville, Cultural Anthropology, New York, 1964 pp. 438 — 441.

وتتميز المدرسة التكاملية عن المدرسة الوظيفية ، حيث أن الأولى تركز على على الاتجاهات الأساسية في الثقافة دون محاولة دراسة العلاقات الوظيفية القائمة بين عناصر الثقافة. والغرض من هذا الاتجاه التكاملي هو فهم الثقافة ككل، ودراسة السلوك المقنن Standardized كخطوة أولى لهذا الفهم ، بمعنى أننا نستطيع فهم الانسان في ضوء ثقافته ، كما نستطيع أيضا فهم الثقافة كما يعيشها الانسان الفرد ، باعتباره « حامل الثقافة » .

وتذهب « روث بندكت » إلى أنه لكي نفهم الصلة بين الانسان وثقافته ، فإنه يتعين علينا أن ندرس مايسمى بالصيغة الكلية للثقافة ، الأمر الذى معه ينبغى فهم السلوك الفردى والجماعى ، لكي نتوصل إلى فهم هذه الصيغة الكلية للثقافة ، تلك التي تتميز بصفة الدوام ، على العكس تماماً من تلك التغيرات التي تصيب المحتوى الثقافي نفسه .

والثقافة عند « بندكت » ليست مجرد مجموع الملامح والعناصر الثقافية ، بل تميل الثقافة إلى التكامل . فلقد كانت الدراسات الأنثولوجية المبكرة تهتم بتحليل ومقارنة الملامح والعناصر الثقافية ، بانتزاعها من شتى البناءات التي تعطيها معناها ومبناها ، كما كانت تهتم بمنهج الوصف والسرد من واقع قصص الرحالة وكتابات المبشرين والمستكشفين ، فكانت مجرد تحليل للملامح الثقافة ، مع إهمال أهم ما يميز هذه الثقافات وهو « عامل التكامل والوحدة الكلية لصيغة الثقافة » .

الاقتصاد وتطور الثقافة :

بمقدار ما يتفوق الانسان الاقتصادى ، بمقدار ما يبدو ثقافيا عبر التاريخ ، حيث يعبر التقدم الاقتصادى بوضوح عن النمو الثقافي ، فإذا كانت الثقافة هى إضافة الانسان إلى الوجود الطبيعى وتغييره ، فإن الاقتصاد هو تنمية لقدرات هذا الانسان لإشباع حاجاته . ومن ثم زرع الانسان الأرض ، وخرق الجبال

وأقام الجسور والأنفاق ، وصنع الشباك والأدوات ، وأنشأ الكبارى وشيد المنشآت والمؤسسات .

وكما بدأت الثقافة بسيطة ، بدأ الاقتصاد حين أكد الانسان الحضرى مهارته فى صناعة الآلات الحجرية ، حيث أظهر الانسان السوليتيرى درجة عالية من الإتقان والتناسب و « السيمترية » فى صناعة الآلات المدببة والمسنونة كرؤوس الحراب ، ولقد كانت لها وظائفها السيكولوجية والاقتصادية ، كوسيلة دفاعية أو كعامل أمن أو حتى كأداة للصيد والقنص .

واصبحت تكنولوجيا صناعة الحجر عند الانسان الحفرى أهم الفنون التى ابتكرها الاقتصاد البدائى ، فكانت « الحاجة هى أم الاختراع » وكانت عوامل الأمن والاقتصاد والذكاء ، هى أهم الدوافع التى وجهت الانسان نحو اختراع القوس والسهم والحربة . كما بدأت الحيوانات الضخمة والمكتنزة اللحم فى الانقراض والتناقص ، منذ العصر الحجرى الوسيط ، نظراً لتحول السهول الفسيحة إلى غابات إنتشرت فيها الخنازير البرية ، وهاجرت الرنة مع الثلاجات Glaciers إلى الشمال بينما إنقرض « الماموث Mammouth » والبيسون والحصان الآسيوى ، فأصبح القنص أكثر صعوبة فى صيد الحيوانات الصغيرة نسبياً ، ولذلك استخدم صياد العصر الوسيط السهام المدببة والخشبية ذات الرؤوس الغليظة مع استخدام القوس ، على ما يفعل « البوشمن Bushmen » فى صحراء كلهارى .

وكان لظهور الكلاب ، واستئناس الانسان لها ، من أهم المخترعات التى استخدمت مع صياد أو قناص العصر الحجرى الوسيط ، ولا ندرى تاريخيا من الذى اكتشف الآخر على وجه الدقة ، الانسان أم الكلب ؟ ومن الذى بدأ أولا بالصداقة ؟

ولامشاحة فى أن إنسان الكهوف كان يلقى بفضلاته فحامت حولها الكلاب ،

وتركها الانسان تحوم حوله وتلازمه ، فصارت له مألوفة ، فصاحبته فى رحلاته وجولاته ، حتى ظهرت مواهبها فى عالم الصيد والقنص ، فاستعان بها الانسان واستأنس المتوحش منها .

ولم يكتف صياد العصر الحجرى الوسيط بصيد البر ، فاعتمد على صيد البحر أيضا ، ولذلك استخدم سكان السواحل المحار فى طعامهم . كما استخدموا الحراب فى صيد السمك . وعثر علماء آثار ما قبل التاريخ على صنانير خاصة بصيد السمك تتعلق بمخلفات وبقايا العصر الحجرى الوسيط ، كما استخدموا أيضا القوارب والشباك والفخاخ .

وإذا أردنا أن نعرف شيئا عن ثقافة العصر الحجرى الوسيط ، لوجدنا أن ثقافة « البوشمن » تعطى صورة حية تكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية فى تلك العصور ، حين تخلط ثقافة البوشمن بين الجمع والقنص . ولذلك تعتبر ثقافة البوشمن من أقدم الثقافات حيث ظهر إنسان روديسيا قبل ظهور البوشمن الذين امتازوا بضآلة الحجم وقصر القامة والبشرة البنية المشوبة بالصفرة ، والشعر الجعد ، والعيون المغولية المنحرفة ، والوجوه المثلثة .

وإنسان « البوشمن » صائد ماهر ، يعرف صنوف الحيوان وسلوكه ، وكيفية صيده ، إن كانت بالرمح أو القوس ، أو السهام المسمومة ، حيث يخلط صيادو البوشمن فى تركيب السم بعض الأعشاب والجذور السامة ، ثم يمزجونها بسم الأفاعى والثعابين ، ولكى يصبح السم هلاميا له قوامه الشمعى ، يغلظ السائل المركب فوق النار ، ثم تغرس فيه السهام والحراب فتصبح سامة وقاتلة .

ونظراً لمهارة البوشمن فى صيد الحيوان ، فإن بصره الذى يتجه خلال الفضاء الممتد ، فيشير إلى الأفق البعيد ، فيؤكد بشكل قاطع أنه يرى حماراً وحشياً ، على

الرغم من أنه لم ير حماراً ، ولكنه بخبرته وتجربته وقوة ملاحظته وفراسته ؛ يجد أن ما يراه هناك إنما « لا يصدر إلا عن حمار وحشى يقف بعيداً » .

وإذا ما تتبعنا تاريخ البوشمن الاجتماعى والثقافى ، لوجدنا أن « الهوتنتوت » Hottentots قد نزحوا منذ زمن بعيد إلى مجتمعات البوشمن القديمة التى استقرت فى كل مناطق إفريقيا الجنوبية . ثم استغل الشعب الغازى أراضى الصيد الخاصة بالبوشمن ، فثاروا ضد الشعب الغازى وحاولوا القضاء عليه . ثم جاء زنوج البانتو Bantu Negroes ، واستعمروا الأرض بطريقة أكثر قوة وتماسكا ، وحاولوا إبادة البوشمن ، فتقهقروا أمام البانتو ، كما تواجهوا أيضا أمام المستعمر الهولندى الذى جاء إليهم عن طريق استعمار رأس الرجاء الصالح ، واستقر البوشمن أخيراً فى المناطق الجبلية المجدبة فى صحراء كلهارى ، وهى منطقة قاحلة لا حياة فيها ، لذلك يحرص البوشمن على الاحتفاظ بموارد المياه سراً خاصاً بينهم .

وقد يتزوج البوشمن من أكثر من زوجة ، وهم لا يحفلون بالزواج ، ويتحاشى الرجل حماته ، ولا يتصل بكل المحارم من حوله . ولذلك يعتبر الاتصال بالمحارم من الأمور غير المعروفة بينهم . ويقدس البوشمن القمر ، ويستعينون بالسحر ، ويؤمنون بالأمراض التى تصدر عن الأرواح الشريرة وهى أجسام صفراء دقيقة تدخل الجسم . ويحتفل البوشمن ويتسامرون ليلا بعد رحلات صيدهم فتدور حلقات الرقص والغناء ، ويأخذون فى سرد القصص الممتعة ، كما تكثر مناقشاتهم اليومية التى كثيراً ما تدور حول مهاراتهم فى عمليات الصيد والقنص .

الفصل الأول

تطور الثقافة على الأرض

- تمهيد
- الأصول التاريخية والحضارية للثقافة
- ثقافة الكهوف
- ثقافة الجمع والقنص
- نمط البداوة والرعى
- التحدى والاستجابة
- العمل كأصل للثقافة والحضارة

تمهيد :

لقد اصطدم الانسان الحفرى ، منذ بدأ يدب بأقدامه على الأرض بمشكلتين رئيسيتين ، المشكلة الاقتصادية من جهة ، ومواجهة البيئة الفيزيقية الصارمة من جهة أخرى . فمضى وهو الكائن الاعزل إلا من بعض أحجار مشطوفة ، وقضى شطراً هائلا يفوق على ٩٩ ٪ من حياته - التى بدأت منذ حوالى نصف مليون سنة - ظل فيها يجمع طعامه، ويفتش فى الأرض، بحثاً عما فيها من جذور وبذور. ولذلك واجه الانسان الحفرى الصعوبات القاسية حين حاول استئناس الحيوان واستنبات النبات ، وحين حاول أن يترقى حضارياً واقتصادياً ، فانتقل من ثقافة « الصيد والقنص » ، ثم حاول أن يستقر فى الأرض كى يشيد أول حضارة الزراعة وكى يبنى « ثقافة القرية » .

تطور الثقافة على الأرض :

لا شك أن العقل هو ميزة الإنسان عن سائر الحيوان ، ولهذا السبب نفسه كثيراً مايوصف الانسان وينعت بأنه حيوان، «صانع الآلات» . بمعنى أن الانسان الاقتصادى هو كائن من نوع خاص ، يتميز بالذكاء والابتكار وسرعة التعلم ، كما أنه يتكيف ويتعلم خلال تاريخه الطويل . بالإضافة إلى صراعه الرهيب وكفاحه المستبسل بفضل استعداداته المبكرة للعمل ، فكان صانعاً صبوراً . بدأ اولا بصناعة الأدوات البسيطة للصيد، و الآلات غير المعقدة للقنص وجمع الطعام.

ثم تطورت جهود الإنسان الاقتصـــادى ، فأصبحت بمثابة انتاج تاريخى Historical Product ، صدر عن عمليات الانتاج والتراكم وزيادة القدرة على التحكم والضبط فى استخدام الأدوات والأشياء وتطويرها وتصنيعها ، ومن هنا تتحقق الظاهرة الاقتصادية وتتجسد فى ذلك العنصر المادى من الثقافة ، ولقد درج علماء الآثار فى الماضى ، على أن يتكلموا عن « فترات » أو « أدوار »

العصر « الحجرى القديم الأعلى » كما يتحقق فى الدور الأورجناسى Aurignacian والسوليتيرى Solutrean والدور الجدلينى Magdalenean ، حيث انتشرت بانتهاء « العصر الجليدى Ice age » تلك الشعوب التى كانت تعيش على صيد الحيوان . فظهرت مرحلة إقتصادية جديدة ، امتازت باستخدام الفؤوس الحجرية المشطوفة . وذلك بعد أن قامت « الثورة الصناعية الأولى » وبعد أن توصل الانسان عن طريق « التحدى والاستجابة » أو الاكتشاف عن طريق المصادفة Chance discovery ؟ (1) إلى زراعة الغذاء وتربيته ، فلم يكتف الانسان بجمع الطعام ، وانما صار منتجا للغذاء ، الذى كان ينمو وحشيا أو بريا ، ثم أصبح أليفا مستأنسا . هنا قام الانسان بتخزين الطعام وتهجين البذور واستئناس الحيوان وتدجينه خلال العصر الحجرى الحديث مما أدى إلى انتشار القرى فى الشرق الأدنى القديم ، وخاصة فى مصر والعراق وإيران . حيث عاش «الانسان الاقتصادى» فى هذه الفترة ، فى بيت من اللبن مع فروع الشجر وأغصانها . وكان الانسان يزرع القمح والشعير ، واستخدم المنجل فى الحصاد ثم أقام الصوامع فى باطن الأرض حيث تحفر وتبطن بالسعف ، وذلك لتخزين القمح والحبوب . ولقد دار النشاط الاقتصادى فى قرى الشرق القديم حول الزراعة وتربية الأبقار والماعز والخنازير ، كما استخدم الانسان الكلاب لصيد الطيور والحيوان البرى ، وعرف صناعة الأوانى والأوعية الفخارية ، كما نسج ملابسه من الكتان .

وبصدد ظاهرة الاختراع أو الابتكار عند الانسان الاقتصادى تقول « روث

---

(1) Mannheim, Karl, Man and Society in an age of Reconstruction, trans From German by Edward Shils, Kegan Paul. London. 1942, p. 163

بندكت Ruth Benedict »[1] : إن الحاجة الاقتصادية ليست بالضرورة كما يشاع عنها بأنها « أم الاختراع » ، فلقد اكتشف الانسان الاقتصادى البرونز خلال صراعه الطويل فى ماضيه التاريخى ، ثم اكتشف الحديد بعد ذلك بفترة طويلة ، وعلى الرغم من ذلك الاكتشاف الجديد ظل البرونز هو المعدن المفضل رغم وجود الحديد . وقد يقال إن الانسان هـــو « وليد تجربته ، وسجين خبرته وثقافته » . ومع ذلك نجده يعمل دائما على تغيير تجربته وتبديل ثقافته وتعديل خبراته بالثورة على ظروفه الوضعية وبالتمرد على أوضاعه وأحواله الراهنة . فوجدناه يخرق الجبال ويحيل الصحراء إلى جنات خضراء تنتج بعد طول جدب ، كما يتحكم فى مياه الأمطار والأنهار ، ويقيم الجسور والسدود والأنفاق .

وعلى العكس من ذلك ، فقد يشبع الانسان حاجاته حتى يتكيف مع بيئته تكيفاً خاصاً . الأمر الذى معه تتعدد تلك الاختلافات الواضحة فى الأنماط الاقتصادية المتباينة ، فقد يستخدم الانسان البدائى مغارة أو كهفاً غائراً فى صخور الجبال ، أو كوخاً يصنعه من أغصان الشجر ، أو سرداباً من جليد ، أو خياماً من جلود الحيوان ووبر الجمال ، وكلها أشكال متمايزة لإشباع حاجات الانسان الاقتصادى البدائى الأمن والتجمع والاستقرار .

وعلى سبيل المثال لا الحصر، تعتمد قبائل شرق سيبيريا إقتصادياً على رعى الرنة وتربيتها وإستخدامها فى جر العجلات ، التى تنتقل من مكان إلى آخر مما أدى إلى عقد الصلات التجارية مع جماعات الاسكيمو . وبالرغم من وجود هذا التبادل

(١) ولدت روث بندكت فى نيويورك فى ٥ يونيو سنة ١٨٨٧ من أب جراح ، توفى خلال طفولتها المبكرة ، ومن أشهر ما لها من كتب «أنماط الثقافة Patterns of Culture » وهى باحثة جادة وكاتبة معاصرة من تلاميذ فرانز بواس Franz Boas ومن زميلاتها الباحثة الأنثروبولوجية « مارجريت ميد » .

التجارى الدائم والمستمر ، إلا أننا نجد اختلافاً ثقافياً واضحاً . وإذا ماقارنا بين النمط الاقتصــــادى عند جماعات الاسكيمو من جهة ، وقبائل شرق سيبيريا من جهة أخرى ، حيث تتمسك قبائل شرق سيبيريا بنمط ثقافى يتعلق بوجود مجموعة من الخيام المصنوعة من الجلود ، والتى يشدونها يومياً وينفضون عنها ما علق بها وعليها من الجليد والصقيع للتجدد طلبا للحركة اليومية والسعى الدائب والتنقل الدائم . بينما يشيد الاسكيمو بيوتهم من سراديب الجليد ، ويجلبون إليها الدفء من زيت الحيتان يوقدونه ، ويبطن السرداب بجلود وفراء الحيوان .

وعلى الرغم من وجود الاتصال الثقافى والتبادل التجارى الدائم بين جماعات الاسكيمو وقبائل شرق سيبيريا ، يلتزم الاسكيمو بنمط إقتصادى محدد يختلف عن ذلك الذى نجده بين قبائل سيبيريا ، على الرغم من الصعوبات التى يواجهونها فى حياتهم الخاصة بسبب الخيام ، وصعوبة استخدامها فى المناطق القطبية ، بينما يلتزم الاسكيمو بالاستقرار وينفرون من حياة الرعى والتنقل أو التجوال لتربية الرنة رغم ما قد تدره عليهم من مكاسب إقتصادية .

الانسان الاقتصادى :

لا شك أن تاريخ الجنس البشرى ، إنما يؤرخ لنا ويحدد زمان وطبيعــــة إقتصاديات الانسان القديم فى ضوء فهم أساليب حياته ، كما يروى لنا هذا التاريخ قصة تقدم الانسان الاقتصادى حين يسجل مناشطه ويكشف عن ثقافته ، « فتتكلم آثاره ، حين يحكى الماضى أعماله ويروى كفاحه ، كما يشيد تاريخ الانسان ويشهد بجهوده خلال نسيج الزمن ، ولقد تمكن « الانسان الصانع Homo Faber » من خلق أدواته وصنع أسلحته من عظام وجلود مايصطاده أو يربيه من حيوان .

ولقد صنع الانسان القديم حضارته الأولى من الحجر الأصم ولهذا السبب أطلق على الانسان بأنه حيوان « صانع للآلات » لأنه إبتكر تلك الأدوات الأوائية

البسيطة من الأحجار المشطوفة التي تحكي لنا كيف بدأ حضارته وثقافته .

وعلى هذا الوضع التاريخي شيد الهندي الأحمر حضارة الأزتك Aztek والمايا والانكا وغيرها إذا ما أرخنا لثقافات أمريكا القديمة . وعلى الرغم من أن أدوات الانسان الأول وآلاته كانت شديدة البساطة والبدائية ، إلا أنها نظراً للمهارة اليدوية الفائقة أصبحت أقرب إلى الفن منهما إلى الصناعة والتكنولوجيا ، حيث ظهرت مختلف الصيغ والأشكال في صناعة الأدوات الحجرية .

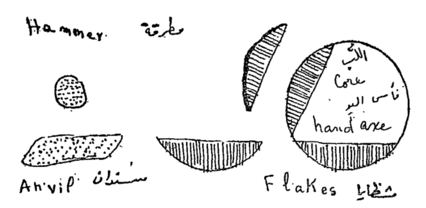
ويمكننا أن نميز في هذا الصدد بين الظواهر الطبيعية من جهة ، وظواهر الحضارة أو الاقتصاد والتاريخ من جهة أخرى . فإذا أخذنا قطعة من الحجر لوجدناها بالطبع ظاهرة جيولوجية تخضع لدراسة علماء التربة والصخور أو طبقات الأرض إلا أن قطعة الحجر هي إما منحوتة من الجبال ، أو مأخوذة من طبقة أو سطح ، أو منتزعة من بقية من بناءات التربة . ولا شك أن الأحجار كأجزاء منتزعة من العالم الطبيعي ، إنما تمايز تماماً عن تلك الأحجار التي وردت من عالم التاريخ ، فهي مشطوفة من جهة وتكشف عن وظائف ماضيها من جهة أخرى ، وهي أحجار تتكلم ، وتحكي تاريخها بل وتحفظه . فالفأس الحجرية مثلا هي قطعة من الحجارة المشطوفة بمهارة ، والمهيأة للقيام بوظيفة إقتصادية معينة . فهي ظاهرة لا يدرسها الجيولوجي ، وإنما يشتغل بها كل من الأثرى والمؤرخ وعلماء الانثروبولوجيا والاجتماع والحفائر Excavation والحفريات Fossils .

ولاشك أن هناك الكثير من ألوان الجهد البشري التي تتجلى في مهاراته وصناعاته والتي تكشف عنها مخلفاته التي تركها الانسان القديم خلال عصور الحجر . ولقد بدأت حضارة الانسان الأول بصناعة الحجر بشطفه وتشكيله بمختلف الصور والنماذج ، كما بدأت الاقتصاديات الحجرية بصناعة النصل Blade الذي هو عبارة عن شطفة ذات جوانب متوازية تستخدم كآلة مأخوذة من النواة أو اللب Core

حيث تنزع النصال منها كما تنزع أوراق الخرشوف (١) .

---

(١) اللب هو آلة حجرية كمثرية الشكل ظهرت فى كهوف فرانسا ، ولقد إستخدمها الانسان الأول فى اقتلاع الجذور والمضروات ، وكسر غلاف الفواكه وجوز الهند ، ثم هذبت الأحجار وصارت أكثر صقلا ، وأسهل فى القبض اليدوى ، ثم أصبحت أكثر فائدة فى انجاز الأعمال والأنشطة الاقتصادية ، وفى هذا الصدد يقول كيسنج Keesing : لقد كانت المادة الرئيسية فى حيازة الانسان القديم هى الظران Flint أو الصوان . ثم يتحول الظران بعد كسره إلى لب أو شظايا Flakes . والنواة Core أو nucleus هى الأصل الذى صدرت عنه الشظايا بعد عملية الكسر بواسطة مطرقة Hammer ، وسندان Anvil .



ولقد أعلن كيسنج أيضا أن هناك آلة بدائية تسمى « فأس اليد » hand axe أو فأس القبض Fist axe وهى عبارة عن لباب Core يستخدم فى الكسر أو الحفر عن طريق ضم أو جمع الأصابع حول اللب . وهذا هو الساطور أو الفأس الحجرى ، كما صنع انسان العصر الحجرى السكين والمثقب Borer والمكشط Scraper والأزميل والمنحت Chisel لاستخدامها فى النقش والنحت والحفر . وكلها أدوات حجرية هامة إقتصاديا ، بالإضافة إلى استخدام الأسلحة « والأدوات النافذة projective tools » وهى أدوات وجدت فى الحفريات القديمة ، مما يؤكد استعمال الانسان الأول لها فى بداية حياته الاقتصادية .

أنظر أيضا فى هذا الصدد :

Keesing, Felix., Cultural Anthropology, New York, 1960; pp. 88—89.

ومع تقدم منتجات الاقتصاد الحجرى ، إستخدم الانسان أدوات صغيرة من العظام لنزع النصال من الأحجار ، بالضغط على الشظية ، وتعرف باسم طريقة «الشطف بالضغط Pressure Flaking » . ولقد استخدمت هذه الطريقة لتهذيب الأحجار وتشذيب النصال .

وفى كهوف فرنسا ظهرت المسنونات المدببة التى كانت تستخدم كرؤوس الحراب ، واتخذت شكلا مدببا ومخروطيا من الجانبين ، لكى تبدو غاية فى المهارة والدقة ، حيث عشق الانسان القديم لغة الأحجار كفن بلغ فى العصور الأولى لحضارات الحجر درجة عالية من التقدم والاتقان .

الأصول الحضارية للثقافة :

لا شك أن الظاهرة الاقتصادية هى نتاج التفاعل المستمر والاحتكاك الدائم القائم بين عنصرى «الطبيعة» أو « البيئة environment » من جهة ، وبين مايسميه « سبنسر Spencer » بما « فوق العضوى Super Organic » ، من جهة أخرى .

ولقد شاع هذا الاستعمال عند علماء الاجتماع الألمان ، حيث استخدموا هذا المصطلح كى يقصدوا به دراسة كل الظـــواهر التى تنجم عن احتكاك الانسان والبيئة ، من لغة ودين وتقاليد وقوانين ، وكلها أجزاء ضرورية لما يسمى « بما فوق العضوى » ، بالإضافة إلى أنها بمثابة « أنساق » تدعم البناء الثقافى فقط .

ويجدر بنا فى هذا الصدد ، ألا ننظر إلى الظاهرة الاقتصادية على أنها مستقلة Independent ، استقلالا كاملا عن الأفراد كأفراد ، وإنما هى ظاهرة تراكمية و « جمعية » تتصل إتصالا وثيقا بالمجتمعات والثقافات بالنظر إليهما على أنها « بناءات » منتجة وخلاقة بفضل ذلك الصراع القائم بين « الكتل البشرية » و « البناءات الفيزيقية » تلك العملية البدائية والدائمة التى أطلقنا عليها اسم « مافوق العضوى » (1) .

---

(1) Ibid : p. 36.

واستنادا إلى هـذا الفهم ، لما هو « فوق العضوى » هو ظاهرة كلية وعامة يتميز بها « بنى البشر » ، كما أنها صفة إنسانية واجتماعية تميز الانسان عن غيره من سائر الحيوان .

فالسلوك الاقتصادى ، هو سلوك إنسانى ، وهو سلوك « مكتسب » ينتقل بالتعليم والتربية والإعداد للحياة « حيث أن ظواهر الاقتصاد لا تظهر « طفرة » وهى ليست شيئا « فطريا » أو أفرازا طبيعيا أو غريزيا .

وإنما ينبغى النظر إلى الاقتصاديات على أنها « أشياء اجتماعية des choses Sociales » ، يتوصل إليها الانســـان بفضل كفاحه الدائم ، وصراعه المستمر الدائب مع بيئة فيزيقية صارمة ، وباستخدام طاقاته العقلية وقواه الفكرية .

وقد تعقدت الظاهرة الاقتصادية وتنوعت وتحولت ثم تخلت عن بساطتها البدائية المعهودة ، بفضل التطور والتاريخ ، وأصبحت الظواهر الاقتصادية هى « نتاج تاريخى » لعمليات مستمرة نجمت عن ذلك الركام الثقافى الهائل الناجم عن جهود البشر ، والناتج عن صراع الانسان الجمعى وكفاحه الدائم الدائب . بالنظر إلى الاقتصاد على أنه ذلك الجانب « المادى » من الثقافة ، أو أنه هو نفسه ما يسميه علماء الثقافة والاجتماع الثقافى ، بالثقافة المادية ، تلك التى تغلب على حياة الجماعة ، وتغلف المجتمع من الخارج بغطاء مصطنع تفرزه سائر الوحدات والجماعات والزمر « السوسيو إقتصادية » ، بما تقدمه من فنون الصناعة خلال تطور التكنولوجيا .

ثقافة الكهوف :

على جدران الكهوف ، ترك الانسان البدائى الحفرى الكثير من اللوحات الفنية الرائعة ، تلك التى تزدان بالنقوش والزخارف ، كما هو الحال فى كهف Lascaux الشهير فى جنوب فرنسا ، وبالقرب من جسر نهر « فيزر Vèzere » حيث تواجهنا

الكثير من الألوان الصارخة كالأحمر والأسود والأصفر، وفى تداخل منسق رتيب رسمت مجموعة من النيران الضخمة والخيول الصغيرة فى أشكال وظلال يمثلان تقدما وحضاريا، واضحا، بل ومذهلا. ومما يثير الدهشة أنهم صنعوا الألوان من الفحم الحيوانى الممزوج بشحم الحيوان المضاف إلى التراب الطبيعى.

تلك هى حضارة إنسان الكهوف التى دارت كلها حول عملية الصيد والقنص، وبخاصة صيد الغزلان والجاموس الوحشى. والتعبير عن هذه الاهتمامات اليومية، كان للاقتصاد صداه حين كشفت رسوم الفن البدائى عن صورة بليغة معبرة لجاموسة وحشية جريحة، وقد تدلت على حائط الكهف أحشاؤها من أثر السهام وفعل الحراب.

ثقافة الجمع والقنص:

إذا ما حاولنا أن نعالج طبيعة الاقتصاد البدائى، لوجدنا أن هناك الكثير من أوجه الشبه بين إقتصاديات «البوشمن» وأقزام الكونغو وبين الاقتصاد الاسترالى البدائى. حيث وجدنا أنماطا إقتصادية واحدة، قد نجمت عن ظروف فيزيقية وإهتمامات ومصالح لا تمايز بعضها بعضا، حيث يسود النمط الاقتصادى الخاص بالجمع والالتقاط والانتقال الدائم وراء الصيد(١).

وتتميز تكنولوجيا الأدوات والآت بالبساطة وتشبه فى حالاتها الراهنة بتكنولوجيا العصر الحجرى الوسيط. حين يقوم الاسترالى أو «البوشمن» باستخدام أبرع الطرق فى الصيد البدائى وحين يتجول بعيداً وطويلا بحثا عن صيده وجامعا لطعامه، بينما تجمع النساء والفتيات جذور النباتات وبذورها.

وحين يبدأ الشاب البدائى فى الاعتماد على نفسه ليدخل طور الرجال ويشعر

---

(1) Service, Klman R., The Hunters, printice-Hall, 1966. pp. 9 — 12.

بالاستقلال الاقتصادى ، عليه أن يمر بعمليات قاسية ليدخل « شعائر المرور Rites de Passage » أو طقوس التكريس وفيها قد يحرم الشاب من الطعام والشراب وقد يترك وحيداً يتجول فى الغابة ولفترة طويلة . وهناك عمليات أخرى صارمة كنزع الأسنان وتشويه الأنف أو الجبهة، وعمليات ضرورية وتربوية القصد منها قياس درجة إحتمال الشاب ومدى إستعداده للبطولة والرجولة لمواجهة نمط الحياة الاقتصادية الحافلة بتجارب الصيد وعمليات القنص الصعبة ، فقد يطلب من الشاب أن يقتل ثوراً قوياً هائجاً بطعنة رمح واحدة .

فالتكريس عملية بدائية وضرورية فى إقتصاديات الجمع والقنص ، حتى يترقى الشاب ويشعر بالاستقلال بدخوله مجتمع الرجال ، فتتحدد وظائفه وتتغير أدواره الاقتصادية والعسكرية والجنسية ، وهناك من يتصور أن البدائى يمتاز بالشراسة والشهوة والفظاظة ، وهذا أمر بعيد عن الصواب . إذ أن البدائى إنسان هادىء ، طيب القلب ، ليس قاتلا أو مجرما بطبيعته . ففى إقتصاديات « البوشمن » رغم شدة الحاجة وقسوة الظروف فى صحراء قاحلة وحارقة ، فإن « البوشمن » لا يأكلون القردة رغم وفرتها ، نظراً لشدة الشبه بينها وبين الانسان .

نمط البداوة والرعى :

وتنتشر أنماط البداوة فى ثقافة الصحراء، وبخاصة فى الواحات وحول العيون والآبار . فقد يعتمد البدوى على تربية الجمال مثل عشائر الجمالة والإبالة ، وهم رعاة الجمال والإبل ، مثل قبائل الطوارق أو الملثمين فى صحراء شمال أفريقيا ، ومثل العشائر والقبائل المتنقلة فى الصحراء الكبرى، تلك التى لاتثبت فى أرض ولاتستقر على حال سعياً وراء الكلأ ، وهذا هو نمط « البداوة الخاصة » .

وهناك عشائر من البدو أكثر إستقراراً من الجمالة ، وهم « الغنامة » ويقومون

برعى الأغنام والماعز . ومن أنماط البداوة الرعوية « الشاوية » وهم رعاة الشياه بين التلال وسفوح الجبال. وهناك نمط البداوة الهامشية Marginal ، وهم عشائر نصف رحل ينتشرون بالقرب من الحواضر ويعيشون كجماعات متنقلة تتجول فى الهضاب والمرتفعات والجبال المتاخمة للمدن . وإلى جانب الجمالة والغنامة ، هناك أنماط أخرى من البداوة ، مثل « بداوة الخيل» و « بداوة الأبقار» فى المجتمعات البدائية الإفريقية .

وهناك أيضا فى الصحارى « بداوة النخيل » و « بداوة الطير » ففى مواسم الحصاد ، يتجمع البدو حول النخيل . وفى هذه الفترة تبدأ الطيور المهاجرة من أوروبا فى فصل الخريف ويجتهد البدو فى هذه الفترة فى نصب الشباك لصيد السمان الذى يتوافد فى أعداد كبيرة هربا من برد أوروبا القارس .

وتدور إقتصاديات البداوة والرعى ، حول الكلأ والتمر والطير والماء ، كما يعتمد البدو على منتجات الحيوان مثل صوف الأغنام ووبر الجمال ، وشعر الماعز ومنها يصنع خيامه وملابسه ، وقد تستخدم حيوانات الرعى كوسيلة من وسائل التبادل الاقتصادى بالإضافة إلى إستخدامها فى عمليات البيع والشراء والتجارة . وقد يحصل البدو على منتجات حيوان الرعى كالشحم واللحم واللبن .

وعلى هذا الأساس كانت المصادر الحقيقية للثروة التقليدية فى ثقافات البدو ، هى ملكية « الحيوان » والآبار . كما تعتبر السيول والأمطار من المصادر الطبيعية للاقتصاد البدوى . وتحاول الحكومات والدول الاهتمام بتنمية المجتمعات البدوية فى المجالات الاقتصادية ، بقصد زيادة وتطوير الأجهزة المتخصصة وإتاحة ظروف الانتاج وزيادة الثروة وهجرة رؤوس الأموال ، مع إعداد الأيدى العاملة

المافرة . ومن هنا تصبح عملية التنمية عملية متكاملة تضم كافة القوى الاجتماعية والمادية للمجتمع .

وإذا ما عقدنا المقارنات بين بداوة الصحراء ، ورعاة شرق إفريقيا ، لوجدنا أن الثقافة الأولى تعتمد على « الخيام » أما الثقافة الإفريقية النيلية ، فهى ثقافة « الأكواخ » الأولى عشائر رحالة أو نصف رحالة ، لا تستقر على حال ، والثانية عشائر مستقرة تهتم بالماشية وبملكية الثروة .

ويمتاز البدو بالشجاعة والعصبية والصدق والتكافل الاجتماعى ، وتقديس القوة والعفة والكرم واحترام الشيوخ وكبار السن ، وهذه هى جماع القيم البدوية والبداوة إقتصادياً هى أول نمط من أنماط الحضارة وهى مرحلة حضارية بسيطة تقوم على السعى فى طلب الرزق ، بإستخدام أدوات ووسائل بدائية ، فقد يتخذ البدو بيوتهم من الخيام أو الطين أو الحجارة ، وقد يأوى البدوى إلى الكهوف والمغارات .

والقبيلة البدوية هى وحدة إقتصادية وسياسية بالإضافة إلى أنها تنظيم اجتماعى وقضائى . وتعتمد القبيلة على توافر عنصر « الأمن » إستناداً إلى القانون البدوى أو العرف الناجم عن مجموع القيم والعادات والتقاليد التى فرضتها ظروف الحياة الإقتصادية فى الصحراء . وأهم ماتمتاز به القبيلة سيكولوجيا هو مدى سيطرة أو قوة تأثير الرأى العام فيها على أفرادها ، وخشيتهم من الخروج عليها ، ويرأس القبيلة شيخ له سلطته العليا التى تنتقل وراثياً طبقاً للنظم الارستقراطية البطريركية ، ومسئولية شيخ القبيلة مسئولية إقتصادية ، لأنه يحدد ويبين أماكن الرعى ، ويضع قواعد الانتفاع بأماكن الرعى ويحدد مواعيد العمليات الرعوية . ولما كانت الأرض عادة ملكية مشاعة للقبيلة فيقوم شيخ القبيلة بتوزيع أماكن الرعى والكلأ والآبار وتوفير أسباب المعيشة لسائر عشائر القبيلة .

واقد شهدت بعض المجتمعات الصحراوية والبدوية مثل ليبيا والكويت الكثير من التغيرات البنائية السريعة ، نتيجة لظهور البترول واستخراجه وعمليات تصنيعه وتكريره ، ولذلك تغيرت الكثير من أنماط البداوة ، نظراً لإنجذاب البدو نحو هذه المناطق الجديدة ، حيث الأجور العالية وظهرت وسائل المواصلات والطرق الفسيحة التي تربط بين أطراف المكان .

وبالرغم من إقامة غالبية هؤلاء البدو بالقرب من مراكز ضخ البترول ، في مساكن حديثة ، إلا أنهم ما زالوا يتمسكون بقيم البدوى ، رغم دخول الراديو والتليفزيون - وحين إزدحمت الحواضر في مجتمعات الصحراء ، نقصت الأيدى العاملة في ميادين الزراعة والرعى ، والخدمات ، فتدهورت الثروة الحيوانية التي كانت ركيزة الإقتصاد البدوى وعماده ، كما إرتفعت الأجور وإزدادت أسعار اللحوم ، ونتيجة للامتداد العمراني نقصت الرقعة الزراعية .

ويمكن لحل هذه المشكلات الاقتصادية ، الاهتمام بعملية التنمية الاجتماعية ، وتعبئة وتنظيم الأفراد ، وتهيئة عوامل التقدم الإجتماعى ، مع محاولة خلق الأهداف والأنماط الجديدة ، لكي تحل بطريقة تدريجية ، كبدائل للاهداف والأنماط القديمة .

- رعاة أوربا وأفريقية :

وينتشر نمط الرعى في كل من أوربا وإفريقية وآسيا ، وفي شرق إفريقيا مثلا ، تجد رعاة الثقافة النيلية ، كالدنكا والنوير والشلوك ، بينما يعيش الماساى على قنص الأسود ورعى الماشية فالرجل صائد قناص ، يعرف كيف يستخدم القوس والحربة والسهم والرمح ، كما يعرف في نفس الوقت كيف يربى الماشية ويرعاها ، لأنها مركز الإهتمام الإقتصادى ، ودليل المكانة الإجتماعية . والماشية عندهم ليست مجموعة من الأغنام والأبقار ، وإنما هي حيوانات مدللة لا تعمل

ولكل منها اسمها ، وهى مصدر الثروة ووسيلة التبادل التجارى ، ويزداد المركز الإقتصادى بإزدياد ملكية عدد الماشية لأن قيمتها تعادل قيمة النقود فى المجتمعات الحديثة ، فهى الغاية التى يتدافع ويتصارع الناس من أجلها وفى الحصول عليها .

وغالبا ما يعيش رعاة ثقافة شرق إفريقيا على اللبن ، ونادراً ما يأكلون لحم الأبقار لأنهم يحصلون على حاجتهم من اللحوم عن طريق الصيد والقنص . أما الماشية والأبقار فتلعب فى الاقتصاد الرعوى دورا هاما فى تدعيم الروابط الاجتماعية ، وبخاصة رابطة الزواج ، فى حالات الخطوبة وتقديم « المهر » « Lobola » .

و « اللوبولا » أو المهر عبارة عن عدد من المواشى يقدمها العريس وأقاربه إلى أسرة العروس . وقد تطلب العروس مهراً كبيراً لا يستطيع العريس أن يقدمه إلا بعد أعوام طويلة ، وقد يستمر العريس فى تقديم المهر حتى بعد القيام بالزواج ، بل وحتى بعد الإنجاب ولهذا السبب الإقتصادى ، أصبح الزواج فى ثقافات شرق إفريقيا هو الفرصة المواتية لتوطيد العلاقات الإجتماعية بين أسرتين فالزواج هو الذى يساعد على إنتقال الثروة والماشية بين العائلات والعشائر .

وفى ثقافة الشيلوك ، من الطريف أن المرأة لا تستطيع أن تنفصل عن زوجها بطلب الطلاق إلا إذا قدمت عشيرتها عدداً من الابقار والماشية يعادل ما دفعه زوجها مهراً . وإلا يحق للزوج أن يسترد ويحتفظ بأولاده الذين أنجبهم نتيجة لاقترانه بزوجته وإذا ما تزوجت الزوجة الأرملة التى توفى زوجها ، فان أبناءها من الزوج الجديد يصيرون أبناء الزوج السابق الذى دفع المهر ثم مات ، فالأبناء هم أبناء الزوج الذى يدفع « اللوبولا » (١) .

---

(1) Radcliffe- Brown, A.R. Structure and Function In prim - itive Society. London. 1956.

وفى حالة وفاة الزوجة التى لم تنجب ، أو التى تركت عدداً من الأبناء ، وجب على أسرتها أن ترسل أختها إلى الزوج لأنه صاحب « اللوبولا » فله الحق فى الزواج من شقيقة الزوجة المتوفاة ، دون أن يدفع مهراً .

وإذا ترملت المرأة وهى طاعنة فى السن ، وأرادت أن تحظى بمكانة إجتماعية مرموقة بتدعيم سلالتها ، كان عليها أن تطلب الزواج من فتاة صغيرة السن وتدفع لها « اللوبولا » وتختار ما ينوب عنها من الرجال من أجل إنجاب الأطفال الذين ينتسبون بالطبع إلى الأرملة التى دفعت المهر .

ومعنى ذلك أن الأب الحقيقى أو البيولوجى إنما يتمايز تماماً عن الأب الإجتماعى Social Father فالأب الفيزيقى هو الذى ينجب الطفل حقيقة ، سواء أنتسب الطفل إلى أبيه أو لم ينتسب . وعلى العكس من ذاك فان « الأب الإجتماعى pater » هو الذى يضفى الأبوة ويهب الاسم الذى ينتسب اليه الطفل وهو الذى يعطى الطفل طبقته ومكانته الإقتصادية .

التحدى والاستجابة :

ولقد بدأ الإنسان الإقتصادى Homo-Economicus طوال عصور الحجر والنحاس والبرونز والحديد يصنع الآلات والأدوات منذ ثلاثة آلاف سنة . حيث بدأ الإنسان العاقل Homo-Sapiens (١) بتسجيل آثاره بالكتابة بعد إختراعها . وبعد قيامه بصنع الآلات لتطوير صيده وقنصه ، ومع ظهور العصر الحجرى الحديث ، ظهر أول إنسان منتج للطعام ، وبدأت الثورة الصناعية الأولى .

بدأ الإنسان الأول باستغلال موارد الطبيعة ، وقصد تعديل هذه الموارد

(١) قدر عمره بنحو نصف مليون سنة ، حيث بدأ الإنسان العاقل جامعا للطعام ، وظل هكذا حتى ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

لإشباع حاجاته الملحة ومن أجل إكتساب السلعة الضرورية وتوافرها لحاجة التداول أو الاستهلاك أو الإنتاج . ولقد قامت الثورة الصناعية الأولى ، حين إكتشف الإنسان الأول الزراعة منذ بداية العصر التاريخى ، حيث إكتشف الكتابة لتسجيل إنتاج الأرض ومحصولها .

وللاستاذ أرنولد توينبى Arnold Toynbee نظرية إقتصادية وإجتماعية وحضارية مشهورة ، فى هذا الصدد ، حين ينظر إلى البيئة وظروفها وعواملها ودوافعها ، تلك العوامل والدوافع والظروف التى دفعت الإنسان دفعاً نحو الإستقرار فى الأرض نتيجة التحدى المستمر لقسوة الطبيعة « التى تهاجمه بلارحمة فلجأ إلى أودية الأنهار » واحتمى بالكهوف . وهبط الواحات ، وتسلل إلى المنخفضات ، حيث وجد صيده الوفير ، وحيث يستطيع أن يحصل على ما يسد رمقه بين الينابيع والوديان ، تلك التى تكونت وأنتشرت فى العصر المطير ، فازدادت كمية المياه الجوفيه وظهرت الواحات التى لجأ إليها الإنسان ، لكى ينشىء مساكنه ، ويشيد قراه فى وديان الأنهار . وبعد أن كان الإنسان البدائى يكتفى بما تقدمه له الطبيعة من غذاء ، نظراً لأنه لا يعرف طريقه لتوفير طعامه وزيادة إنتاجه ، إلا أنه إكتشف بصفـــة مستمرة وبعد الكثير من الصراع والكفاح فى المحاولة والخطأ . حيث وجد عن طريق المصادفة (١) أن النباتات يمكن أن تزرع وأن الحيوان يمكن أن يستأنس .

ولقد بدأت حياة الإنسان الحفرى الاقتصادية، حين كشفت الحفريات والحفائر التى قامت بجوار الأنهار عن «مخلفات حجرية وآلات وأدوات» ، وقد غلب عليها

---

(1) Mannhiem, Karl, Man and Society in An age of Reconstruction, Trans - From Getman by Edward Shils. Kegan Paul. London 1942. p. 163.

طابعاً إقتصادياً مميزاً يختلف عن ذلك الطابع الإقتصادى الذى ميز عصر إنتاج الطعام بعد إكتشاف الإنسان لكيفية إستنبات النبات واستئناسه .

ولقد لاحظ الإنسان الأول مجموعة من الظواهر النباتية التى تتكرر ، مثل ظاهرة نمو القمح ، وسائر النباتات والمحصولات التى تنمو وتنضج وتتكرر فى صورة رتيبة ومنتظمة . فأدرك بذكائه وبتجاربه وصراعه الدائب مع الأرض الأهمية الإقتصادية لهذه النباتات البرية التى تتواتر وتتكرر لكى تنمو كل عام . فحاول الانسان أن يكشف الغطاء عن هذا السر ، وأن يكتشف العلة وراء هذا التكرار المنظم ، فاستزرع الأرض وقلد الطبيعة واستنبت الحبوب فى مناطق محدودة من الأرض ، ثم توصل إلى أعظم إكتشاف إقتصادى ، حين أصبحت الزراعة ومايتبعها من صنع الآلات والمناجل والأجران هى « أول ثورة صناعية » First industrial Revolution « فى تاريخ الاقتصاد . الأمر الذى معه ظهرت مع إكتشاف الزراعة ، صناعات بدائية كالأسبتة والأقفاص والفؤوس ، وكلها أدوات خشبية أو صدفية ، وكلها أيضا ظواهر إقتصادية ، ظهرت مع بداية التحضر الإنسانى ، ومع ظهور القرى وإستقرار الإنسان إلى جانب أرضه ومجهوده وإنتاجه .

ولقد تطورت النظم الإقتصادية مع تطور المجتمعات فى أنفسها ، حين بدأت بمرحلة جمع الطعام Food gathering ، وصيد الحيوان دون إستخدام الأدوات والآلات ، كما كان التبادل الإقتصادى يتم على أساس الهدايا لا النقود . واقد دخل الانسان باكتشافه الزراعة ، مرحلة إستئناس الحيوان كما بلغ مرحلة التحكم فى الانتاج الاقتصادى والحيوانى ، حين تكونت القرى وظهرت مجتمعات الزراعة البدائية .

وحين فاض الإنتاج الاقتصادى الزراعى ، وزاد عن الحاجة الضرورية ، ظهرت أهمية الملكية « وتحكم الإقطاع » ، وانقسم المجتمع إلى طبقتين ، سادة وعبيد ، فاستعان الغنى بالفقير من أجل الزراعة وزيادة الإنتاج الإقتصادى ، فظهر الرق ، ومنح الملوك والولاة المساحات الشاسعة من الأقاليم والأمصار ، كعطايا للفرسان ورجال الدين ، كما ظهرت طبقة أهل اليسار من التجار بقصد محاولة العمل على تسويق فائض الإنتاج الزراعى .

وعن طريق المحاصيل الزائدة ، ومع تبادل الانتاج الزراعى ، إزدادت طبقة التجار ثراء فوق ثراء ، فظهرت الرأسمالية التجارية بأسواقها وعرباتها ، وخيولها المطهمة ، وحين تقدمت المناشط التجارية المختلفة ، إزدادت قيمة النقد بسيولته وسهولته كطريقة للتبادل ، بدلا من طريقة المقايضة التى كانت هى الطريقة الوحيدة للتبادل الاقتصادى .

ومع ظهور الرأسمالية الصناعية تعقدت نظم التبادل وتطورت ، ففى انجلترا إزدهرت صناعة النسيج ، ومع قيام الثورة الصناعية ، ظهرت الآلة التى حلت محل محل العمل اليدوى ، فتوسع الإنتاج الآلى .

نمط الثقافة المتخلفة :

وعلى العموم يتسم « نمط الاقتصاد البدائى المتخلف » بسمات عامة ، أهمها بساطة التنظيم واستاتيكية النسق الاقتصادى ، وتشابه الأدوار والمراكز فى نسق صغير الحجم قليل الموارد ، يأخذ بنظام التبادل والتهادى قبل ظهور «فكرة السوق» ومايدور حولها الآن من نظم معقدة فى بورصات التجارة والمال ، والعقود والنقود. ويماثل نظام التبادل التجارى نظام الاقتصاد الطبيعى L'èconomie Naturelle الذى يسود فى كل المجتمعات المتخلفة . فظهرت فكرة المقايضة الجبرية التى اكتشفها الانسان الاقتصادى البدائى ، قبل ظهور أهم اختراع تجارى ، وأعنى

به اختراع النقود ، وكوسيلة للمقايضة استخدمت مجتمعات « الصيد والقنص » السهام والجلود ، واستعان الرعاة بالماشية والأبقار ، ويستعين القرويون حتى الآن بالحبوب والغلال .

ولا شك أن نظام النقود هو من الناحية الاقتصادية البحتة ، هو أكثر تقدما من نظام المقايضة . فالنقود «مقياس اقتصادى دقيق وحديث ، يحدد قيمة السلع ، كما تمتاز النقود بأنها مقياس موضوعى وثابت . كما وقد أصبحت النقود أداة لحفظ الثروة ، لما امتازت به من « سهولة وسيولة » فى الأخذ والعطاء ، ولما تقسم به من التجانس والقابلية للعد وللتقسيم ، والتمييز فيما بينها .

— النمو الاقتصادى فى التاريخ :

أ — إذا ما إلتفتنا إلى كتابات مؤرخ إنثولوجى مثل « جوردن تشيلد » Gordon Childe ، حين يعرض ويسجل لنا كل ما يتصل بماضى الشعوب والحضارات القديمة ، لوجدناه يحاول تقسيم تطور الثقافات والمجتمعات خلال مسار تاريخ التحضر البشرى ، فيقسم هذا المسار التاريخى تقسيما إقتصاديا ، إستناداً إلى قياس « درجة التطور الحضارى مع بداية ظهور التغيرات الاقتصادية الحاسمة التى تطرأ على حياة المجتمعات (1) » .

وفى كتابه « الإنسان الذى صنع نفسه Man Makes Himself » أشار «جوردون تشيلد» إلى ما أسماه بالثورات الإقتصادية Economic Revolutions تلك التى كان لها رد فعلها فى محيط الإنتاج والعمل ، فتؤدى بالتالى إلى التغيرات الإقتصادية والسياسية الهائلة . ولقد كانت الثورة الصناعية الأولى ، تتمثل فى محاولة الإنسان « لإنتاج الطعام Food Production » وبداية الاستقرار ، باكتشاف

---

(1) Childe, Gordon., Man Makes Himself, Fontana: 1966..

الإنسان لكيفية استزراع الأرض وإستنبات النبات بطريقة صناعية . وبذلك تحولت المحاصيل والمنتجات الزراعية بفضل تدخل العامل البشرى ، من « منتجات برية » ، إلى محصـــولات و « منتجات إنسانية » نظراً لتدخل فكر الإنسان والاستخدام المستمر الرشيد لذكائه وتعديل سلوكه ، وتبديل أنماطه المسبقة .

وبدأت الثورة الاقتصادية الثانية مع هجرة الفلاح من القرية إلى المدينـة ، ويسميها « تشيلد » بالثورة الحضرية « Urban Revolution » فانتقل النمو الحضرى للانسـان من حالة البداوة ، وترقى إلى الحالة الحضرية « Urbanism » ومن هنـــا نشأت المدن فى عصور الحجر والبرونز والنحاس، وكلها عصور « ذات طابع ومضمون إقتصادى » .

ويتجه هذا التقسيم ويعتمد عند « تشيلد » على أساس الطاقة الإقتصادية التى تمكن الإنسان من إكتشافها وضبطها والاستفادة منها ، نتيجة لكفاحه المستمر مع البيئة ومحاولته الدائمة والدائبة للسيطرة عليها وعلى كنوزها .

أما « الثورة الإقتصادية الثالثة » ، فقد إندلعت مع تباشير الثورة الصناعية الحديثة فى إنجلترا منذ أواخر القرن الثامن عشر حين توصل الإنسان إلى « كيفية إستخدام البخار كقوة محركة للآلة » ومنظمة للحياة الإقتصادية المنتجة .

ولقد كان إكتشاف الذرة Atom ، هو بمثابة الثورة الإقتصـادية الرابعة التى نجمت عن القوة النووية ، بتفتيت الذرة وتفجير اليورانيوم ، وتحويل « المادة » إلى « طاقة » تتمثل فى « أضواء وحرارات وإشعاعات » وتفاعلات أخرى يمكن إستخدامها فى ميادين الصناعة والزراعة والطب والهندسة .

ب – ولقد رفض الأنثروبولوجى الأمريكى « ردفيلد Redfield » نظرية الأركيولوجى « جوردون تشيلد » تلك التى تأخذ بفكرة المراحل ، أو الثورات الإقتصادية الأربع . وذهب ردفيلد إلى أن الحيـــاة فى المجتمع هى إما مدنيـة

« civitized » وإما « غير مدنية uncivilized » وإما سابقة على الحالة المدنية Precivilized . ومع ظهور المدن أو نشأتها ظهرت المدنية ، وهي بمثابة مرحلة الانتقال الكامل نحو الاستقرار الإقتصادى والتنظيم الاجتماعي والسياسي (١) .

والمرحلة السابقة على المدنية ، هي حالة بدائية ، لم تصل بعد درجة الكتابة ، حيث كان المجتمع أمياً لا يعرف الكتابة preliteral ، وتلك المرحلة التي تسمى بمرحلة العشائر Folksociety حيث لا يبدأ التسجيـل والتدوين ، وهي حالة اجتماعية لم تصل بعد مرحلة المدن والتنظيم المدنى .

ويميز « ردفيلد » بين مفهوم « الثورة Revolution » ، وبين مرحلة الانتقال Transformation ، فالثورة تتضمن عنصر المفاجأة ، أو هي تغير فجائي جذري وعميق ، على العكس من حالة « التمهيد » أو مرحلة الانتقال . فثورة إنتاج الطعام Food production ليست ثورة لأنها لم تكن حالة فجائيـة ، أو تغير جذري عنيف ، وإنما مهدت لها بالضرورة بعض المراحل الإقتصادية المسبقة ، تلك التي ساعدت على التوصل إلى إكتشاف أو ابتكار الطرق الجديدة لتخزين أو إنتاج الطعام .

وإستناداً إلى هذا الفهم يقول « ردفيلد » يستطيع الفيلسوف أن يبدأ فلسفته

---

(١) ليست الفوارق الحقيقية بين الناس ، كما يذهب « ردفيلد » ، هي فوارق بيولوجية عرقيـة ، وإنما تتمثل في ذلك التمايز القائم بين تصـورات ومعتقدات الناس ، وأوهامهم ، وما يستحوذ على اهتمامهم ، ويستلفت إنتباههم ، ويؤثر في تصرفاتهم ، ويحدد اختياراتهم وتفضيلاتهم الشخصية . انظر في هذا الصدد :

لنتون ، رالف : الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية . بيروت ١٩٦٧ ص ١١١ .

بالكتابة عن أرسطو ، كما يبدأ البيولوجى بالاميبا ، أما الأنثروبولوجى فينطلق من الأندمان Andaman (١) .

حـ ـ ولا شك أن الظواهر الاقتصادية إنما تدور أصلا حول حاجة الإنسان وقيمه وظروفه ونظرته إلى الحياة ، بالاضافة إلى معرفة كيفية إشباعه لحاجاته عضوية كانت أم سيكولوجية . الأمر الذى معه يهتم الاقتصاديون بظواهر الإستهلاك ؛ وعمليات الإنتاج Production ، وذلك مع دراسة النفقة الإقتصادية (٢) الخاصة والعامة ، ومن أجل تحقيق الرفاهية « بأقل قدر ممكن » من الإنفاق والتضحية المادية .

ومن أجل حل هذه المشكلة ظهرت المذاهب الرأسمالية والماركسية والتعاونية والفابية . ومع ظهور الرأسمالية تعقدت « الآلة » وتطورت التكنولوجيا وإزدادت حركة التسويق ، وظهر « التاجر المخاطر » الجرىء ، و « الوسيط » الذى يشترى من المنتج كى يبيع إلى المستهلك ، وإنتقلت الأهمية الإقتصادية ، والمكانة الإجتماعية ، من مجرد ملكية الأرض إلى أهمية ووظيفة رأس المال .

ومع بداية الثورة الصناعية فى انجلترا ، تطور الفكر الاقتصادى بشكل ملحوظ بعد إنتهاء القرن التاسع عشر ، فلقد ساهمت حركة التصنيع الآلى التى صاحبتها ونجمت عنها ظهور مختلف الأزمات التى أجتاحت أوربا ، حيث تراكمت

---

(1) Issa, Aly., Social Anthropology, Theory and practice, Cairo, 1964. p. 234.

(٢) يعرف الاقتصاديون « الانتاج » بالمعنى العلمى ، بأنه محاولة « خلق السلعة » أو زيادة منفعتها . عن طريق الاضافة أو « تحويل مادة أولية » غير قابلة للاستعمال » إلى مادة قابلة للاستهلاك أو الاشباع ، وقد يكون العمل المنتج عبارة « عن مجهود عقلى أو ذكائى أو فنى » كإنتاج الفيلسوف والاديب ، ومجهودات الفنان والطبيب .

وازدادت البطالة الظاهرة والمقنعة بين جماهير العمال ، وظهر الفراغ Vacuum الهائل الذى فصل فصلا كاملا بين صاحب العمل ومساعديه وغلمانه ، وإزدادت بل وتعقدت المسافة الإقتصادية ، كما تنوعت وتمايزت العلاقات بين سائر الطبقات .

د ـ ونظراً لوجود هذه الأزمات ، شجرت الصراعات ونجمت الكراهية وتعقدت العلاقة بين مختلف الفئات المنتجة . وحين تضخمت وانتشرت المنتجات وتعددت مصادر الانتاج عبر الأسواق ، خضعت جماهير العمال لصرامة قانون العرض والطلب . وأصبحت العمالة مهددة فى رزقها ، فظهرت مشكلات الأجور Wages ، وضاعت قيمة الإنسان . . . وتحت وطأة التصنيع ، تجمعت الطاقات الجديدة ، وظهرت « التكنولوجيا المتقدمة » والموارد المتعددة ، كما ازدادت قيمة العلم ، وتعقدت المعرفة التجريبية مع الاهتمام بالمنهج العلمى وتطبيقاته . كما إزدادت معدلات المواليد، وقلت أو خفت حدة معدلات الوفيات حين تقدمت علوم الطب العلاجى والوقائى ، مما أدى إلى التضخم فى أعداد السكان .

العمل كأصل للثقافة والحضارة :

إن الحياة هى مبعث « العيش والعمل والانتاج » ، ومع تطور الحياة على الأرض ، تطور العمل وتطورت أساليب العيش . والعمل هو الواجهة الحقيقية لكل « نتاج إقتصادى » أو فنى أو أدبى ، حيث يخلق الكاتب والفيلسوف ، ويبدع الفنان ، كما ويعمل الفكر دائماً من أجل الحياة . ولذلك إرتبط العمل حضارياً بمدى فهمنا لحقيقة « الزمان Time » و « المكان Space » ، بل وتعقد فهمنا للزمان والمكان مع تعقد وتطور الحضارات والثقافات ، فلا قيمه للزمان والمكان بين المتخلفين والمتأخرين ، بل ولا معنى لهما عند البدائى والقروى ، حيث لا يشعر كل منهم بقيمة الزمان الإقتصادى ، حين يرتبط بحضارة العمل .

والعمل هو حلقة الوصل بين فكر الانسان وجهده ، وهو الواسطة التى تربط بين العقل والوجود ، فالعمل يخلق النشاط والحيوية ولا تصدر الأفكار عن « حركة العقل » وحده ، وإنما تصدر عن حركة العمل ، والاحتكاك بالوجود ، وتطوير المادة ، وتحويل الطبيعة لإشباع حاجات الانسان .

وإستناداً إلى هذا الفهم الاقتصادى والحضارى ، أصبح العمل هو مبعث النشاط والانتاج ، بل إن العمل هو الشرط الضرورى لوجود الانسان نفسه . فالعمل شرط طبيعى من شروط الحياة والوجود ، وليس العمل نشاطاً فردياً ، وإنما هو نشاط جماعى وإجتماعى ، أى أنه نشاط تاريخى وجمعى يتراكم لإنتاج أشياء طبيعية تغير من الطبيعة ، فتتبدل وتتعدل ، أستناداً لعملية ثقافية يتطور معها الإنسان خلال حركة مسار التاريخ .

فالعمل هو أصل الثقافة Culture ، وأصل المجتمع والحضارة ، وبفضل العمل كظاهرة جمعية تحول الإنسان من دنيا الحيوان ، ودخل عالم البشر ، حين ترقى إلى درجة « الإنسان العاقل Homo-sapiens » ، وهو الإنسان الحامل لكل الخصائص الإنسانية (١) .

ولقد قلنا إن الثورة الصناعية الأولى ، قد صدرت طلائعها ، حين أكتشف الإنسان الزراعة ، وظهر الإنسان القديم ، ليصنع حضارته بيديه مارآ كإنسان صانع للالات فتأثرت صناعاته ، بعصور الحجر فالبرونز فالحديد . ثم تطور « العمل الإنسانى » من مرحلة إستخدام الايدى ، وبذل الجهود المضنية ، إلى إستخدام طريقة أخرى تقلل من مجهوده ، وتخفف من حدة عمله الشاق ، فأدى به ذلك إلى أستئناس الحيوان واستخدامه فى بذل الجهد ، حتى ينتج طعامه ، فأصبح

---

(1) Engels, Frederick., Dialectic of Nature, Progress publishers, Fourth printing, Moscow. 1966 p. 170.

منتجاً للطعام Food producer بعد أن أمضى معظم حياته جامعاً للطعام Food gatherer حين إقتصر العمل الإنسانى حينئذ على جمع « ثمار النبات والعسل البرى » بالإضافة إلى جمع البذور والفاكهة . ثم أخترع الإنسان القوس والسهم Bow and arrow فى نهاية مراحل الأطوار الهمجية Savagism ، ثم بدأ فى المراحل البربرية Barbarism ، بصناعة الفخار pottery ثم آكتشف الحديد واخترع المحراث ليشق به الأرض ليفلحها بالزراعة .

تطور الحضارة :

وقبل أن يبدأ نمط الحضارة Civilization فى الظهور ، دخل العمل الإنسانى مرحلة جديدة ، حيث بدأت ظاهرة تقسيم العملDivision of labor وتطورت القبائل الرعوية والبربرية Pastoral barbarian tribes ، وتحولت من حياة البداوة والتنقل والترحال ، وظهرت القرى والمدن ، وانتشرت الآلات والأدوات التى بواسطتها يتطور « شكل العمل الصناعى » حيث يبدأ الانتاج الواسع ، بفضل تقدم ظاهرة « تقسيم العمل » وتطور « عمليات الانتــــاج Processes of Production » (1) .

وينبغى التأكيد على أن العمل سواء أكان زراعياً أم صناعياً ، إنما لا تقوم به « الآلة » وحدها ، وإنما نجد أن « وسائل العمل » إنمـا لا تعمل « دون طـــاقة بشرية » ، أو قوى إنسانية منتجة ، ومنظمة للعمل ، ومحركة للآلآت ، حيث يكون للكم البشرى وعلاقاته أهميته الكبرى فى سرعة الأنتاج وإنجاز العمل .

فالطاقة البشرية، تعطى للعمل قوة محركة ، حيث أن إنتاج خمسة من العمال ، يتمايز عن إنتاج مائة متجمعين أو حتى متفرقين . ولذلك نجد أن الطاقة البشرية ليست

(1) Marx Engels., Selected Works, Fifth impression, Vol : II Moscow. 1962. P. 170.

كما عددياً aggregate عشوائياً ، وإنما ينشأ عن تجميع العمال ، قوة جمعية جديدة تختلف كلية عن مجموع القوى المتراكمة ، أو الطاقات الفردية لهؤلاء العمال ، حيث يتميز العمل الجماعى عن العمل الفردى ، بتوافر عناصر الحماس ، وتضافر الجهود والمنافسة من أجل زيادة الانتاج ، وإنهاء العمل ، فى فترة محددة بالذات ، بفضل الجماعات العضوية organic groups التى تتمايز كلية فى إنتاجها عن الجماعات العددية aggregate groups .

من عصر « الرق » إلى عصر الصناعة :

لقد كان العبيد يقومون بوظائف « العمل اليدوى » الذى إحتقره أشراف اليونان وفلاسفتهم ، فالعبد عندهم هو « آلة بيولوجية » تقوم بالوظائف الدنيا ، والخدمات العملية . وهذه نظرة « لا إنسانية » ووصمة عار فى جبين الفكر اليونانى وتلك هى نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها فلسفات « أرسطو » و « أفلاطون » على الرغم من عظمة الفكر اليونانى وإشراقه وأثره فى حضارة الإنسان المعاصر وفكره ومثله العليا ، « فنحن أبناء اليونان » . إلا أن هذين الفيلسوفين ، رغم كونهما من أساطين الفكر الإنسانى على العموم ، إلا أنهما للاسف الشديد إنما ينظران إلى العبد نظرة « رجعية » على أنه « آلة متكلمة » ، وهما فى ذلك إنما يعبران عن روح « العصر الارستقراطى اليونانى » خير تعبير .

وطبقة السادة هم طبقة الأحرار Freemen ، من النبلاء والاقطاعيين ، أما طبقة العمل ، فهم طبقة العبيد Slaves من الأتباع والصناع . وكان القن Serf فى البناء الإجتماعى الرومانى القديم ، يقوم بخدمة النبلاء والفرسان من أتباع كبار رجال الدين والسياسة والاقطاعيين . أما العبيد والأرقاء ، فهم نتاج الصراعات القبلية والعشائرية من سبايا الحرب والصراع السياسى ، فظهر الرق Serfdom

فى التاريخ ، وسادت تجارة العبيد طـــوال عصور الاقطاع . وبدأت بذور « بروليتاريا العمال » فى الظهور ، فى أحشاء عصر العبودية والرق والرجعية .

حين هرب عبيد الأرض من ظلم الأقطاع فترك الفـــلاح العمل الزراعى ، وظهرت « البروليتاريا الصناعية » التى هى بروليتاريا عصور الأقطاع . وتلك هى بروليتاريا الرق التى هربت من المقـــاطعات الكبرى ، التى أمتدت حول الأديرة وقلاع الأقطاع واتجهت ، إلى مصانع البورجوازية فى المدن الكبرى والحواضر .

وإذا كانت الطبقة الأستقراطية اليونانية ، هى طبقـة الصفوة Elite فهى التى تسعد بالنعيم . وكانت « اللذة » عند فلاسفة اليونان من نصيب الصفوة الارستقراطية ، أما « التقشف » و « الحرمان » فللطبقات الدنيا البروليتارية من « عبيد الأرض » أو « القطيع » على حد تعبير الفيلسوف الارستقراطى الألمانى نيتشة Nietzsche .

ثم رفضت « البرجوازية » مبدأ اللذة الأرستقراطى، وجعلت من المنفعة utilitarianism ، مقولة إقتصادية ، توصلنـــا إلى مقولة « الرفاهية والترف » Luxury .

وتمسكت الاقتصاديات البورجوازية الصناعية ، بأخلاقيات خاصة تدور حول قيم « الربح » و « الانتاج » و المنفعة » وكلها قيم مادية تدور حول مكاسب ووظائف « ورأس المـــال » ، وما ينجم عن هذه المكاسب من « فائدة » بالمعنى الإقتصادى ، وما ينشأ عن رؤوس الاموال ، من « فائض » أو عائد .

ولقد ثار الجدل القديم ، منذ عصر الرومان ، بعد قيام ثورة العبيد فاشتهر « العبد » الرومانى « سبارتاكوس Spartacus » ذلك المصارع المشهور Gladiator الذى ثار مع غيره من العبيد ضد النظم الرومانية ، حيث كان لكل من العبد والسيد طبقته ومعتقداته ، وأنماط سلوكه ، وأساليب تفكيره ،

ولقد شبه الفيلسوف الألمانى « هيجل Hegel » مقولة « السيد » بأنها تعبير عن « الوعى بذاته » ، الذى يمتاز بالدولة والاستعلاء والاستقلال عن الطبيعة . وتلك هى سمات « السيادة » ، تلك التى تتمايز تماما عن سمات « العبودية » . فالعبد مجعول للعمل ، ومشغول بالطبيعة لأنه مرتبط بالمادة ، ثم أصبحت بيده حركة التاريخ . وكانت طبقة السادة لا تنسب إلى طبقة العبيد ، فالعبد هو الذى ينتسب إلى سيده ، كما تنسب الزوجة إلى زوجها ، على الرغم من الفروق الجوهرية فى المواقف ، واختلاف الأدوار الاجتماعية . حيث يخلق « نظام الإقطاع » أيديولوجيات وطبقات ، بينما لا يخلق « نظام الزواج » أية تصورات طبقية ، وإنما يمثل الزواج نسقاً من العلاقات الصورية Formal أو المقولات والتصورات الاجتماعية .

ولقد عمل العبد لإرضاء « السيد » ، ومن أجل « الإبقاء على الحياة » ، على أن يكون ذلك بثمن العمل والجهد والخدمة ، حين يسيطر العبد على « المعصرة » أو « الطاحون » ، ويقوم بتشغيل أو حركة الأدوات ، أو بتحويل السلع ، وجعلها من « الأشياء النافعة » القابلة للاستهلاك ، أو « التبادل » أو القيام بالخدمة وتعديل الطبيعة . وهنا يستطيع أن يشعر العبد لأول مرة ، بقدرته على التسلط على الأشياء وباستطاعته التحكم فى خلق السلع ، فشعر العبد بنوع من السيادة على الطبيعة ، ومع شعور العبد بالسيادة « حدث التناقض بين الحاكم والمحكوم » ، والضاغط والمضغوط فبدأت طلائع الحرية ، عند شعور العبد بحريته فى العمل ، وسيطرته على الطبيعة .

وحين تذوق العبد « معنى الحرية » حاول أن يشترى صك الحرية ، بمجهوده وعمله ، فكان العمل هو ثمن الحرية ، ودخل العمل مرحلة الصناعة ، بعد أن تحرر العبيد من الرق ، فكانت الصناعة هى « الحقيقة النهائية » التى تحرر معها العامل من ظلم العصور ، ومن إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ،

ومع ظهور الصناعة ، تطور العبد فأصبح عاملا ، وأصبحت « الخدمة » عملا له أجره . فتطورت الخدمة إلى « عمل » وتطور العمل إلى صناعة industry . ولقد كان الزنجى الأمريكى يوما ما عبداً فى حالة الاسترقاق ، ثم أصبح عاملا يأكل بعرق جبينه ، وبالعمل تحرر العبد من الخدمة ، وأصبحت الحرية هى ثمرة العمل ، حين دفع العبيد من أجورهم ما يعطيهم حق الحياة الحرة الكريمة .

وبعد أن كان العبد يقوم بخدمة طبقة السادة ، أصبح خادماً للطبيعة فحسب . ولا يقوم العامل أو العمال بأعمال خاصة بهم أو لإشباع حاجاتهم ، وإنما يعمل العمال من أجل الآخرين من أصحاب ومديرى العمل ، ولإشباع حاجاتهم طبقا لما تمليه حاجة العمل وصالح المشروع الصناعى .

ولقد أشار ماركس فى الثامن عشر من برومير Eighteenth Bromaire إلى كلمة مشهورة للويس بونابرت Louis Bonaparte فقال عن جموع الفلاحين الفرنسيين ، حين تولى سلطاته كرئيس لجمهورية فرنسا ، « إنهم طبقة ينقصها الوعى الطبقى ، مما يؤكد ضعفها وسلبيتها فى ذلك الوقت » .

ومن خلال ما يصدر عن الوعى الطبقى من تصورات مشتركة ، يتعامل أعضاء الطبقة الواحدة ، ويتحدون فى « رمز » أو « ربط » . وكان السادة فى المجتمعات القديمة ، يتعاملون لا باعتبارهم « سادة Masters » بل باعتبارهم طبقة . وتدافع الطبقة عن وجودها وأهدافها ومصالحها ، فيقع الصراع الأيديولوجى مع الطبقات الأخرى . ويحمى « السادة » مثلا أنفسهم من « ثورة العبيد » ، فيدافعون دائماً عن طبقتهم ويقننون لمصلحتها القوانين ، وكذلك يحمى زنوج أمريكا أنفسهم من طغيان البيض ، ولاشك أن العنصرية هى خرافة مبنية على فكرة الجنس النقى ، فلقد كان « جوته Goethe » وبتهوفن Beethhoven رغم عبقريتهما ، لا ينتسبان إلى الجنس الأبيض ، فكلاهما كان أسمر الوجه ولا يتفق مع الدم النوردى الصافى .

وكان « بوشكين » شاعر روسيا الكبير حفيداً لزنجى جلبه أحد القياصرة ورباه وأزوج من روسية ، ثم كان بوشكين من أحفاده .

الطوائف والاتحادات الحرفية Craft Guild :

ظهرت الطائفة Caste كطبقة مغلقة Closed class ، بين طوائف الهنـــد بالذات ، تلك التى تمنع دخول الأفراد إليها أو الخروج منها . بينما تمتاز الطبقة الاجتماعية Social class بأنها مفتوحة ومتسعة ، بل وعالمية لا وطن لها ، فالطبقة العاملة ، تشمل العمال والزمر الاجتماعية Social gronp التى تدور حول المهن والحرف والصناعات ، ولذلك كان ماركس يخاطب طبقة العمال العالمية ، كطبقة مطلقة تعيش فى كل زمان ومكان ، فيبدأ كل كتاباته بالشعار الماركسى المشهور حين يشير إلى النداء القائل : « أيها العمال ، فى كل مكان . . . إتحدوا » .

ويميز ماركس الطبقة ، طبقاً لنوع الملكية وشكلها ، كما يحدد مدى فاعلية تلك الطبقة وتأثيرها فى النسق السياسى ، وفقاً لتقدير ثرائها وأهميتها ، مما يضفى عليها طابعاً يعطيها فرصتها أو دورها القيادى فى البناء السياسى ، ولكل طبقة آمالها وتطلعاتها وأحلامها ، فطبقة الملاك تريد الثروة وجمع المال ، وطبقة « الإقطاع » الثرية تبغى السلطة والسيطرة على الحكم بمزيد من القوة والسلطان السياسى ، أما طبقة العبيد ، فتأمل فى التحرر من الظلم الاجتماعى .

هذه هى الخريطة الاجتماعية Social Map التى تبرز اتجاهات الطبقات ، حيث نجد الكثير من التعـارض فى الخطوط العامة ، وعدم تطابق الاتجاهات ، إذ أن « خطوط التقسيم » بين سائر الطبقات ، إنما تتعارض ولا تتحدد أو تتفق ، وما يميز الطبقة عن الزمرة الاجتماعية social group ، هو درجة شمول الطبقة على مختلف الجماعات المهنية التى تقوم بجهود وأعمال ، طبقاً لنوع المناشط الاجتماعية social activities ، فتتشكل الزمرة الاجتماعيـة ، طبقاً لنوع « العمـــل »

أو «النشاط» حين يكون جماعياً ودائماً ، كما ويرتبط فى نفس الوقت بنوع من «الاهتمامات» أو «المصالح» تلك التى تصدر عنها «الأفكار ideas» ، فيتحدد الوعى الطبقى ، من خلال «حركة العمل» ونوع الأفكار ، تلك التى تمايز طبقاً لدرجة أو نوع التضامن Solidarity أو الاحتكاك Contact الاجتماعى ، بين أفراد الزمرة أو الطبقة ، فتنشأ أيديولوجية الطبقة ، التى تحمل كل عناصرها القائمة فى سيكولوجيا الزمر الاجتماعية ، تلك التى تشتمل عليها كل طبقة اجتماعية (١) .

نظام الطوائف Caste :

إن دراسة الطوائف الهندية «هى أول مساهمة حقيقية فى سائر الدراسات الخاصة بميدان البحث فى علم الاجتماع الهندى Indian Sociology كما أعلن «هوكارت Hocart» و «ديمونت Dumont» و «بوجليه Bouglê» ولقد نشر الأخير دراسة Essays on the Caste system عام ١٩٠٨ ، فى مجلة «السنة الاجتماعية» أو الذشرية السنوية لعلم الاجتماع L'annèe Sociologique التى أشرف عليها شيخ علماء الاجتماع «إميل دوركايم Emile Durkheim» (١).

ويقول «جيزو Guizot» إن نظام الطوائف الهندية يقوم على التخصص specialization الذى ينتقل بالوراثة فى صورة «مهن» أو «حرف» تتناقلها الأجيال ، فيقوم الأب أثناء عملية الإعداد والتربية ، بتدريب الأبناء ، وتعليمهم أصول الحرفة ، فتنتقل المهارات والقدرات ، طبقا لدرجة الذكاء ونوع الإمكانيات والأدوات السائدة بين هذه الطوائف ، الأمر الذى معه تنتقل المهن

---

(١) أنظر كتابنا «علم الاجتماع والايديولوجيات» الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية ١٩٨٠ ص ١٩٨ .

(٢) انظر كتابنا «إميل دوركايم» مؤسس علم الاجتماع المعاصر ، نظريا وحقليا ، منشأة المعارف ١٩٧٥ .

والحرف عن طريق الوراثة من الآباء إلى الأبناء ، حيث تتوارث أجيال الشباب في طوائف الهند تركات الأجداد Ancestors ، وحيث تتسلسل الوظائف والحرف والمهن في نسق إقتصادى مرتب ، ومحدد ، بل وصارم (١) .

ونظام الطوائف ، هو « جهاز طبقى مغلق على ذاته » ، يقوم على توارث المهن والحرف ، وهو أشبه بالاتحاد الحرفى Craft Guild ، مما يعوق التقدم الاقتصادى ولا يحقق المساواة أو الديمقراطية أو حق العدالة الاجتماعية (٢) .

ولقد ظهرت الطبقات الاجتماعية والصناعية الحديثة ، وتحررت من النزعات الطائفية والإتحادات الحرفية Craft guild العتيقة ، بعد دخول أو إنتشار «ظواهر التصنيع» فأصبحت الطبقات الاجتماعية ، من سمات وملامح عصر التعقيد الصناعى ، بدلا من الطوائف والحرف المتوارثة ، الأمر الذى جعل من الطبقات المعاصرة ، أكثر ملاءمة لإشباع حاجات المجتمع الصناعى الراهن . فلقد انقرضت بعض الصناعات والمهارات القديمة ، لأن تكنولوجيا العصر قد امتصت سائر

---

(١) يقوم نظام الطوائف الهندية ، على أســاس دينى واقتصادى وسياسى وقبائلى أو جينالوجى genealogical ، حسب أنســاب العشــائر الهندية ودرجة القرابة Kinship فالبراهمة هم طبقة الكهانة ، ولها أن ترتدى الخيوط المقدسة التى ترمز إلى النقاء الروحى، والتى ترتديها أيضا طبقة الحرب ، وهى الارستقراطية العسكرية ، وهم أقل مكانة من البراهمة . أما الطبقة الثالثة فهم طبقة التجار والفلاحين والحرفيين ، ثم تنتهى كل هذه الطبقات بطبقة رابعة ، هى الخدم والأرقاء والعبيد والفعلة أو السودرا Sudra ، ويقومون بالأعمال الدنيا ، ولاشك أنهم أرق درجة من طبقة « المنبوذين » من الخارجين على معايير الدين ، وهم من المطرودين من نظام الكاست out castes .

(2) Bouglé, Celéstin., Essays on the Caste System., trans. by Pocock, Cambridge 1971.

المهارات اليدوية ، فقللت الآلة والأرتمية Automation من الجهد والوقت ، وحلت تلك المهارات والقدرات الحرفية، وانتقلت إلى جسم الآلة الحديثة ، وما زالت بعض الصناعات القديمة قائمة حتى الآن تقوم بوظائفها الفلكلورية ، على اعتبار أنها «تكنولوجيا شعبية» تركت بقاياها Survivals حتى الآن دون أن تنقرض(١).

وما زالت بعض الحرف اليدوية القديمة قائمة حتى الآن كفنون فلكلورية أشتهر بها حى « خان الخليلى » فى القاهرة ، حيث يكشف لنا هذا الحى التاريخى العتيق عن بقايا الحرف ، التى تبرز لنا أصالة الفن المصرى ، وتكشف لنا عن جوانب فلكلورية ، أشتهر بها الفن الشعبي الأصيل .

العمل يخلق الثروة :

بعد أن أشرنا إلى « مقولة العمل » ، نحاول الآن أن ننقل إلى مقولة أخرى من مقولات علم الإقتصاد السياسى الماركسى ، وأعنى بها مقولة « الانتاج » ، ولقد أعلن الماركسيون أن « العمل هو أصل كل ثروة labour is the source of all wealth » بمعنى أن العمل هو أصل « الإنتاج Production » و « العمل المنتج » وحده هو الذى يخلق الثروة wealth » .

وفى هذا الصدد ينبغى أن نميز ، بين مقولتين إقتصاديتين رئيستين هما « علاقات الإنتاج Relations of Prduction من جهة ، « وقوى الإنتاج Forces of Production » من جهة أخرى .

---

(١) إنتشرت طوائف المهن والحرف بين الهندوس والبرهمة Brahmans والمسلمين وأتباع بوذا Buddha ، فظهر الرعاة وصيادى الوحوش والأسماك والطيور ، إلى جانب « التجار » و« النساج » و « الملاحين » وأسطوات النجارة والحدادة ، وصاغة الذهب وصناع الفخار ومعاصر الخمر وأنوال النسيج ، بالاضافة إلى فئات الخدم والعبيد .

ولقد بدأت الصناعة فى جمهورية مصر العربية ، قبيل وصول الحملة الفرنسية ، على أساس طائفى يحتكر الحرف والمهن ، وما زالت بعض الحرف اليدوية ، تحتكرها بعض الطوائف ، كصناعة أدوات الموسيقى كالكمان والبيانو والعود ، ومع وجود صناعات أخرى مثل تطريز وحياكة كساوى السرادقات ، وعمل المشروبات وصناعة الطرابيش .

وتتضمن « علاقات الانتاج » ، مختلف أشكال وسائل ملكية الانتاج Means of Production وأوضاع الطبقات ، ومكانة الزمر الاجتماعية Social Groups وحجمها ودورها فى العملية الإنتاجية ، كما وتتضمن علاقات الانتاج أيضاً ، طريقة التركيب والتفاعل الطبقى ، وأشكال توزيع المنافع المادية ومدى تحقيق العدالة الإجتماعية فى هذا التوزيع (١) .

هذا عن علاقات الانتاج ، أما عن « قوى الإنتاج Forces of Production » فهى مجموع الطاقات المادية والبشرية التى تتوظف فى العملية الإنتاجية ومن ثم تشمل قوى الانتاج كل « وسائل العمل Means of Labour » وأدوات الانتاج كالآلات والأجهزة والمبانى ، بالإضافة إلى قوى العمل ، حيث أن الطاقة البشرية هى العنصر الرئيسى فى قوى الانتاج فالعامل هو المنتج الأول The First Producer الذى يعمل وينتج الثروة المادية ، حيث أن الجانب الإنسانى هو الجانب الجوهرى الذى يحرك كل القوى والوسائل الانتاجية (٢) إذ أن « قوة العمل » فى واقع أمرها ، ليست إلا مجموع القدرات الفيزيقية والذهنية والذكائية الكامنة فى شخصية الإنسان ، والتى عليه أن يستخدمها فى إنتاج الأشياء النافعة .

علاقات العمل :

وفى الواقع ، إن أشكال الانتاج Forms of production ، إنما تؤكد الصورة الحقيقية للبناء الاجتماعى ، فى أشكاله أو أنماطه القروية أو البدائية ، كما ترسم أشكال الانتاج ملامح المجتمع الحضرى أو الصناعى . ويسوق « ماركس »

---

(1) An Outline of Social Development. II, Capitalist Society Progress Publishers, Moscow. P 7

(2) Afanasyev, V., Marxist Philosophy, Second Revised, Moscow 1965. p. 183.

على ذلك مثالا ، حين أعلن أن الآلات اليدوية والخشبية كالطنبور والشادوف إنما تخلق « مجتمعاً إقطاعياً » على حين أن « الآلة البخارية » قد خلقت نمطاً إجتماعياً جديداً فى بناء المجتمع الرأسمالى ومن هنا يؤكد ماركس على العنصر التكنولوجى فى عملية الانتاج .

واستناداً إلى هذا الفهم ـ تؤكد التكنولوجيا Technology عند ماركس جهود الإنسان وأعماله وموقفه إزاء الطبيعة ، كما تفسر الظاهرة التكنولوجية ظروف الإنسان الإجتماعية وتؤكد على تلك الأفكار والتصورات الصادرة أصلا عن طبيعة تلك الظروف الاجتماعية .

وفى أثناء العملية الانتاجية ، يقيم الناس فيما بينهم ، بعض العلاقات الضرورية وهى التى نطلق عليها إسم «علاقات الانتاج » ويتألف « البناء الإقتصادى للمجتمع The Economic Structure of Society من مجموع تلك العلاقات الإنتاجية.

كما أن البناء الإقتصادى للمجتمع هو الأساس الواقعى Real Foundation الذى إليه يستند البناء الاعلى Supra-structure ، كالسياسة والتشريع والفن والفلسفة والاخلاق والقيم .

ويستند الاقتصاد الماركسى ، إلى إيديولوجية طبقية ، حين يؤكد الماركسيون على « طبقة الانتاج » وعلى أن عهد الثورة الإجتماعية Social Revolution ، سوف ينفتح حين تتغير علاقات الانتاج Relations of Production أو حين تبلغ قوى الانتاج forces of Production درجة معينة فى تاريخ تطورها ، فتحدث « الثورة » كى تنادى بحل هذا التناقض القائم فى علاقات الملكية ، بين طبقة « تملك ولا تعمل » وطبقة « تعمل ولا تملك » وليست هذه الثورة الإجتماعية إلا زمجرة جماعية وظاهرة حتمية ، فى التعبير الشرعى وفى تغيير « قانون العمل » وتأكيد هذا التغير الإجتماعى الحتمى بإزالة الظلم الإجتماعى ، وانتصار

البروليتاريا واندحار البورجوازية واعلان إنتهاء أو رفع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان (١) .

وإستناداً إلى هذه المفهومات ، يذهب بعض شراح ماركس من أمثال « سدنى هوك Sidney Hook » إلى أن المادية التاريخية ، التى أعلنها ماركس ماهى إلا ضرباً من « المثالية Idealism » حيث يذهب « هوك » إلى أن ماركس لم يرجع ظواهر الدين والفلسفة إلى مجرد أصول إقتصادية ، ولم يردها إلى مصادر مادية ، إنما كشف ماركس فقط ، عن الزاوية الاقتصادية التى تصوغ ظواهر الفكر السياسى والقانونى ، والتى تفسر ظهورها أو أندحارها(٢) .

ولكننا نسأل ماركس ، عن تلك الاسباب الاقتصادية والانتاجية التى توصلنا إلى « حالة الصراع الطبقى » !؟ وما هى الدوافع الاساسية التى عنها ينجم هـــذا الصـــراع ؟ ! الذى قد تنجم عنه الثورة Revolution تلك التى تعلن عن نفسها بظهور حالات فجائية من حالات العنف Violence (٣).

فى الرد على هذه المسألة ، يذهب ماركس إلى أن هناك تناقضاً جوهرياً واضحاً بين « وسائل الانتاج » و « قوى الانتاج » ، بمعنى أن هناك بوساطة نوعاً من التعارض ، بين « ظروف العمل » وهى ظروف مادية ، وبين « قوة العمل » وهى ظروف وقوى إنسانية لدفع عجلة الانتاج . وبكلمات أكثر دقة ، هناك صراع بين مصلحتين ، مصلحة رأس المال ، من جهة ، و « مصلحة العمال » ، من جهة أخرى

---

(1) Lenin Selected works, Vol, I. Progress Publisher Moscow 1967, p. 12.

(٢) الدكتور حاتم الكعبى « الطبقة الاجتماعية عند كارل ماركس » فصلة من مجـــلة « الاستاذ » التى تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد ، المجلد الثانى عشر ، ١٩٦٣ - ١٩٦٤

(٣) أنظر « العنف » فى المجلة الدوليه للعلوم الاجتماعيه ، العدد السابع والثلاثون السنه العاشرة ١٩٧٩ . اليونسكو .

وهنا يكمن التعارض بين البورجوازية والبروليتاريا . بين « وسائل الانتاج » و « علاقات الانتاج » . ومن هنا ينشب الصراع الطبقي إستناداً إلى أسباب إقتصادية ومصادر إنتاجيه ومصالح طبقية .

ولقد تطورت على مر التاريخ أشكال « العلاقات الإنتاجية » كما تطورت فى نفس الوقت وفى معيته الزمانية ، أشكال « الصراع الطبقى » . ولقد كانت فرنسا هى البلد التى كان « الصراع الطبقى التاريخى » يصل فيه إلى نهايات فاصلة ، حيث كانت الاشكال السياسية وأنماط الاقتصاد المتغيرة ، هى العلل والبواعث الخلفية التى تسبب هذا « النضال الطبقى » .

وعلى سبيل المثال ، فلقد كان البناء الاجتماعى الفرنسى فى القرون الوسطى ، ممثلا إلى حد بعيد لكل ملامح البناء الإجتماعى الإقطاعى فى أوربا . حيث كانت فرنسا هى مركز الإقطاع منذ عهد النهضة ، ثم قامت فرنسا بهدم الاقطاع الملكى فى ثورتها الكبرى ، ثم أقام الفرنسيون الثوريون « حكم البرجوازية الصرف فى نقاء كلاسيكى » . على حد تعبير « ماركس » فى مقدمة كتابه « الثامن عشر من برومير لويس بونابرت » (1) .

وهذا هو السبب الذى من أجله ، التفت ماركس إلى تاريخ فرنسا ، حيث درسه فى شغف على إعتبار أنه التاريخ الحقيقى لماضى الصراع الطبقى ، وبخاصة فى ميادين السياسة والفلسفة والايديولوجيا ، حيث صدرت طبقات الدين وفئات العمال ، كما إصطرعت قوى الاقطاع والبورجوازية على « مسرح تاريخ الاقتصاد الفرنسى » .

ولقد كشف « ماركس » فى ضوء هذا التاريخ الفرنسى ، عن قانون النضال

(1) Marx-Engels, Selected works, Vol: I, Fifth Impression. Moscow. 1962 p 245.

الطبقى حيث أن وجود الطبقات ، فى تنازعها واصطدامها ، إنما يحدد فى الواقع درجة تطور الوضع الاقتصادى الطبقى ، كما تبدو من أساوب الانتـــاج ، فظهر أبطـــال الثورة الفرنسية من أمثـال « دانتون Danton » ، و « روبسابيير Robsepierre » و « سانت جوست Saint-Just » و « نابليون Napolion » .

هؤلاء الأبطال الذين نسفوا بثورتهم العارمة ، أصول الاقطاع ، وحصدوا روؤسه . ولقد أتاح « نابليون » تلك الفرص والظروف التى يتسنى فيها وحدها ظهور « المنـــافسة الحرة Free Competition » ، وتوزيع الأرض المستغلة ، وإستخدام الطاقة الانتاجية والصناعيه . ثم أنطلق نابليون بعد ذلك إلى « هدم النظم الاقطاعية فيما وراء الحدود الفرنسية » إلى المدى الذى كان فيه ذلك ضرورياً لتزويد المجتمع الفرنسى البورجوازى ببيئة ملائمة فى القارة الأوروبية (١) .

وظهرت فى المجتمع البورجوازى ، بعض الأنمـاط الاقتصادية التى لم تكن معروفة فى القرون الوسطى . فلقـد كان صنع « عربه الركاب » فى تلك العصور ، يحتاج إلى عدد من المهن والصناعات اليدوية ، حين تتضافر جهود « الحداد » و « الخراط» وصانع العجلات ، و « عامل الزجاج » و « النقاش » . ولكن المجتمع البورجوازى فى فرنسا ، قفز قفزة إقتصادية هائلة ، فانتقل من نطاق « الورشة الصغيرة » إلى نطاق « المصنع الكبير » ، حيث ظهرت نظم « تقسيم العمل » إستناداً إلى مهنة أو « تخصص » أو حرفة كل عامل ، يساهم فى عملية الانتاج .

وتحول العامل ، فى المجتمع البورجوازى ، من عامل يزاول مهنة متكاملة ، إلى عامل يؤدى عمليات جزئية ، تزيد من القوة الانتاجية ، وتستند علاقات الانتاج فى المجتمع الرأسمالى ، وتعتمد على الملكية الرأسمالية الخاصة Private Ownership لوسائل الانتاج ، تلك التى تختلف عن سائر أشكال الملكية الفردية ، وبخاصة

(1) Ibid : p. 247.

عند أصحاب الملكيات الصغيرة أو المحدودة لدى صغار المنتجين .

حيث أن الملكية الخاصة لدى « صغار المنتجين Small producers » ، إنما تستند إلى الجهد أو « العمل الشخصى Psrsonal labour » ، بينما نجد أن الملكية الرأسمالية ، إنما تستند إلى استغلال وتسخير العمال ، بمعنى أن ملكية صاحب رأس المال ، إنما لا تصدر عن جهده الشخصى ، بل تصدر فقط عن « جهود العمال ونتاج عملهم » فى المشروعات الرأسمالية (١) . ثم أن المنتج القديم ، كان يستغل بعضاً من جهود أو قوى فردية ، ولكن المنتج الرأسمالى الحالى ، قد أصبح يستغل جهود العمال المتراكمة أو « قواهم الجمعية » ونتاجهم الجماعى Collective .

الرأسمالية والتصنيع :

ولقد استغلت الرأسمالية ، ظهور العصر الآلى الميكانيكى استغلالا رهيباً ، فلقد خرجت « الأداة » التى كان يستخدمها العامل الماهر القديم ، وانتقلت من يد العامل كى تلتحم فى جسم « الآلة » التى تعمل ذاتياً وتنتج إنتاجاً هائلا فى وقت قصير . ولذلك أصبحت الآلة أو « الماكينة » ضرورة تاريخية فى الانتاج الرأسمالى ، كما استخدمت الأعداد الهائلة من العمال فى المصانع والمؤسسات ، كما كان للآلة آثارها المباشرة على سيكولوجية العامل ، وكان لها أيضاً نتائجها السوسيولوجية على مختلف فئات العمال .

فلقد اقتصدت الآلة جهود العامل ، ووفرت واختصرت الكثير من حركاته ، وبذلك أدت « الآلة الميكانيكية » إلى إعفاء الكثير من العمال . فظهرت البطالة الشنيعة ، بين أصحاب « المهن المتكاملة » و « الصناعات المهنية » وبين أرباب الحرف اليدوية حيث قاوم العصر التكنولوجى تلك المهارات الذكائية والحركية والمهنية

(1) An Outline of Social Development. Part 11 Capitalist Socicty, Progress Publishers, Moscow, p. 7.

وتحدث الآلة تلك الخبرات اليدوية التى كان يتميز بها العامل القديم .

وفى عصر التكنولوجيا ، ازداد الاهتمام بتكثيف العمل وزيادة الإنتاج ، إلى الدرجة التى معهـا يستخدم البورجوازيون جهود العلمـاء والخبراء فى علم النفس الصناعى Industrial Psychology ، من أجل إبتكار مختلف الطرق والأساليب التى تزداد معها نسبة الإنتاج . وعلى سبيل المثال ابتكر « تايلور » طريقة إنتاجية، تقلل إلى حد كبير من عدد الحركات التى يقوم بها العـامل أثناء قيامه بالعملية الانتاجية ، وإذا ما قلت عدد الحركات التى يتطلبها العمل ، قلت معها قيمة « الجهد المبذول » فى العمل .

موقف « خبراء النفوس » من الصناعة :

ولكن « خبراء النفوس » فى مجال الصناعة وفى ميدان علم النفس البورجوازى بالذات ، لم يقللوا تلك الحركات ، حباً فى العـامل ، ورغبة فى تخفيف أعبـائه ، بقـدر ماكانوا يرغبون فى إستخـدام علم النفس كأداة فعالة فى أيدى البرجوازيين فلقد قلت عدد الحركات المطلوبة ، ولكن كان على العامل أن يقوم بإنتاج « أكبر كم ممكن » بمعنى أن الهدف كان يقتصر فقط على ازدياد ناتج العمل ، و « تكثيف العمل » الذى يفرض على العامل فرضا وعلى الرغم من تلك المعاونة السيكولوجية فى تقليل حركاته ، إلا أن البورجوازى هو إنسـان جشـع ولا يرتاح له بال ، ولا تهدأ نفسه إلا بإزدياد « كم العمل » الذى ينبغى على العامل إنجازه .

وفى عصر التصنيع ، كثرت ورخصت الأيدى العاملة نظراً للزيادة الهائلة فى أعداد العمال العاطلين ، فاضطر العامل أن يبيع « قوة عمله » التى هى مجهوده ومهارته وذكائه ، بأبخس الأثمان ، نظراً لعـدم قدرته على شراء وسـائل الانتاج الآلى ، مما كان له آثاره ونتائجه الاجتماعية ، فى استغلال أصحاب رأس المال ، لمختلف طبقات وفئات العمال من نساء وأطفال « وشراء قواهم الانتاجية بأقل الأجور » .

نظراً « لازدياد عرض العمال وقلة الطلب عليهم ، فانخفضت القيمـــة المادية لقوة العمل البشرية ، فباع العامل جهوده وجهود « زوجته » وقوى « أطفـاله » من أجل زيادة دخل أسرته ، واضطر العامل اضطراراً إلى تحويل زوجته وأطفاله « إلى مجرد « أشياء مخصصة للعمل » من أجل سد رمقه .

أو على حد تعبير ماركس ، اضطر العامل ، إلى أن يتحول إلى « تاجر رقيق» حين تتقدم النساء ومعهن الأطفال ، لبيـــع قواهم الانتاجية ، وبالتالى حدثت التغيرات الاجتماعية الهائلة فى محيط الأسرة وتغيرت أنمـاط السلوك الاجتماعية والعائلية وانهارت القيم ، واضمحل مستوى الفكر ، وتفككت سمات الثقافة ، واهتزت أنساق البناء الاجتماعى ، وفى ضوء هـذا الوسط التكنولوجى المتغير « ضاعت قيمة الانسان » .

الفصل الثانى

وطأة الصناعة ومحنة الثقافة

* تمهيـــد
* طبيعة الأنساق والتنظيمات الصناعية
* كيف صدرت الحاجة إلى علم لتنمية المجتمع ؟
* بطء التغـــير
* الطعـــام لكل فم
* تصنيع الدول النامية وتحديث الثقافة

تمهيد :

١ ـ ليس النشاط الانسانى ، سواء أكان زراعياً أم صناعياً ، ظاهرة فردية ، وإنما نجده ظاهرة اجتماعية وجماعية . ولانعمل « الآلة » وجدها فى ميدان الصناعة فهى فى حاجة إلى ما يحركها من جهود وطاقات بشرية منتجة ومحركة للآلات ، فالصناعة ظاهرة اجتماعية . والطاقة البشرية ليست كما هى « كماً عددياً عشوائياً » ، وإنما هى قوة جمعية موجهة عن طريق تضافر الجهود والحماس والمنافسة من أجل زيادة الإنتاج .

وتعتمد الصناعة على تقدم التكنولوجيا ، فإذا كانت الآلات اليدوية والخشبية كالطنبور والشادوف قد خلقت المجتمع الإقطاعى، فقد خلق ظهور «الآلة البخارية» نمطاً تكنولوجياً جديداً فى الانتاج ، ومع إنتشار التصنيع وتطويره وظهور عصر الصناعة الثقيلة حدثت التغيرات الهائلة التى طـــرأت على البناءات والتنظيمات الاجتماعية ، فقد بدأ «رأس المال الصناعى» فى تدمير بيوت العمال بانتشار الاستغلال والإحتكار والبطالة . ويتلون « رأس المال » بلون « الطبقة » و « شكل الانتاج » ونوع الاقتصاد الموجه وغير الموجه . فهناك رؤوس أموال « إقطاعية » و « بورجوازية » ، وأخرى « صناعية » شيوعية كانت أم رأسمالية .

---

(١) أن الأدوات الخشبيه التى تدار باليد تخلق معنى «الثبات الاستاتيكى» ولـكن حين اخترع « جون كاى » آلة النسيج عام ١٧٣٣ ثم اخترع « اركرايت » عام ١٧٧١ آلة الغزل المستمر دخلت الآلة كعنصر تكنولوجى فى تطوير الصناعه . وتحت وطأة الصناعه طرأ على سطح البناء الاجتماعى الكثير من التغيرات . حيث تعقدت النظم ، وتعددت « وظائف تقسيم العمـــل division of labour » لأن الآلة قد قامت باختصار الوقت واقتصاد الجهد وتوفير الأعداد الهائلة من العمال .

ب ـ ومع تراكم رأس المال ، يتراكم شقاء الإنسان ، فكلما زاد الإستغلال واستفاضت الثروة ، وتراكمت في جيوب الرأسماليين ، كلما ازداد الفقر والفاقة بين صفوف العمال ، لزيادة عرضهم على طلبهم ، فتقل الأجـــور ، وتنهار القيم الخلقيـة ، وتتغير أنماط الفكر وتتفكك سمات الثقـافة ، كما يهتز ويتحلل البناء الاجتماعى مع هذا التطور الصناعى التكنولوجى , واستناداً إلى ماطرأ على سطح المجتمع من ظواهر التحلل والتفكك ، ضاعت قيمة الانسـان » . وإذا ما عقدنا المقارنات بين هذه الظروف والمشكلات المعقدة ، و بين المقدمات الأولى للصناعة ، لوجدنا أنه فى بداية التصنيع ، ظهر شكل العمل الصناعى أولا فى «الورشة» حيث ظهرت فئات العمال والصناع وتطورت مهاراتهم الفنية و صناعاتهم اليدوية والآلية التى يقوم بها العامل الماهر المتخصص ، وكان « الأسطى Artisan » فى مبدأ أمره «سيداً» و «رئيساً» على أعوانه من صغار الصناع من طلاب المهنة . وكان هؤلاء الصغار ينظرون إلى رئاسة « الأسطى » نظرة روحية كنظرة الطالب إلى أستاذه ، ومثل نظـرة المتدين إلى « آباء الكنيسة » ، حيث يتلقى الصغار من كبار العمال المهرة أسرار المهنة وفنونها ، ويسترشدون بإرشاداتهم، ونظراً لوجود علاقات المحبة والمودة التى تربط « الأسطى » بصغار العمال ، ونظراً لصغر حجم الورشة ، وقلة حجم القوة العاملة ، وبساطة التنظيم الصناعى ، لعدم تعدد الأدوار والمراكز ، نشـأ ما يسمى « بالقشاء الأيديولوجى Vétement idéologique » كـرابطة روحية بين الأسطى وعماله .

هذه هى سمات الصنـاعة كما صدرت فى العصور الوسطى ، حيث كان صنـع «عربة الركاب الإقطاعى» يحتاج إلى عدد من المهن والصناعات اليدوية حين تتضافر جهود « الحداد » و «عامل الزجاج» وصانع العجلات و « النقاش » ، ومع تطور الطاقة الإنتاجيـة بظهور تكنولوجيا الصناعة ، إنتقل المجتمع الفرنسى من نطاق

« الورشة الصغيرة » حيث قفز قفزة صناعية هائلة ، فظهر « المصنع الكبير » وما فيه من بناء وتنظيم وتقسيم للعمل ، إستناداً إلى توزيع المهن والتخصصات ، حين يساهم مختلف العمال فى عملية الانتاج الكبير .

حـ - وبظهور العصر الآلى الميكانيكى ، ضعفت المهارات اليدوية والفنية ، وخرجت « الأداة » التى كان يستخدمها العامل الماهر القديم ، لكى تنتقل من يد العامل ، وتستقر وتلتحم فى جسم « الآلة » التى تعمل ذاتيا وتنتج إنتاجا هائلا فى وقت قصير . فكان للآلة آثارها المباشرة على سيكولوجية العامل ، ونتائجها السوسيولوجية على مختلف فئات العمال . حيث إختصرت الآلة الكثير من حركات العامل ، كما أدت الآلة إلى إعفاء الكثير من العمال . وقاوم عصر التكنولوجيا تلك المهارات الذكائية ، وتحدت الآلة الحركات اليدوية ، التى كان يتميز بها العامل القديم . ولقد ارتبط التقدم التكنولوجى وتطوير التصنيع وانتشاره ، بتغيير الأنماط القروية ، وظهور الأنماط الحضرية .

فلقد ظهرت « المدن » و « الحواضر » ، حول المصانع ، وارتفعت الأجور وزادت دخول الأفراد ، وأصبحت « المدينة » مركزاً من مراكز « الجذب » للأعداد الهائلة من القرويين ، الذين يندفعون نحوها هرباً من ظلم الإقطاع ، فبدأت الهجرة من القرية إلى المدينة ، وقامت بانتشار التصنيع المشروعات الصناعية نظراً لتراكم رأس المال ورخص الأيدى العاملة .

ولا شك أن ظهور العلم الحديث بمكتشفاته فى ميادين الطبيعة والميكانيكا ، قد أدى إلى تقدم البحث التكنولوجى ، والاهتمام بالصناعة والتصنيع . الأمر الذى جعل « سان سيمون Saint Simon » يعلن نهاية طبقة النبالة ، ويؤكد على حتمية التطور حين ينتقل المجتمع من « نظام حكم الانسان Gouvernement des Personnes إلى نظام السيادة أو التسلط على الأشياء L'Administration des Choses » .

د ـ وفى عصر التكنولوجيا ، ازداد الاهتمام بتكثيف الانتاج ، إلى درجة استخدام رجال الصناعة وأصحاب المصانع ، لجهود العلماء والخبراء فى علم النفس الصناعى Industrial Psychology ، من أجل إبتكار مختلف الطرق والأساليب التى تزداد معها نسبة الانتاج . وعلى سبيل المثال إبتكر « تايلور » طريقة إنتاجية ، تقلل إلى حد كبير من عدد الحركات التى يقوم بها العامل أثناء قيامه بالعملية الانتاجية . وإذا ما قلت عدد الحركات التى يتطلبها العمل ، قلت معها قيمة الجهد المبذول فى العمل [1] .

والحقيقة أن خبراء النفوس فى مجال الصناعة ، من أمثال «تايلور» و «جابرت» لم يقللوا الحركة ولم يخفضوا نسبة التعب أو المجهود ، حبا فى العامل ، ورغبة فى تخفيف أعبائه ، بقدر ما كانوا يرغبون فى استخدام علوم النفس والاجتماع والفسيولوجيا Fhysiology فى ميدان الصناعة ، لخدمة رأس المال وأصحاب مشروعات التصنيع فى الشركات الكبرى .

ولقد قل فعلا عدد الحركات المطلوبة ، ونجحت التجارب ، ولكن كان على العامل أن يقوم بإنتاج أكبر قدر ممكن ، بمعنى أن الهدف كان يقتصر فقط على ازدياد ناتج العمل ، أو « تكثيف كم العمل » الذى يفرض على العامل فرضا . وعلى الرغم من تلك المحاولة السيكولوجية فى تقليل حركات العمال ، إلا أن

---

(١) اهتمت حركة الادارة العلميه التى قام بها فردريك تايلور وتلميذه «فرانك جابرت» بدراسة عنصر الزمن وصلته بالانتاج . وبتحليل حركات العمال لزيادة انتاجهم عن طريق دراسة « فسيولوجيه العمل Physiology of Work » وتقليل نسبه أو عدد حركات العمال لتخفيض نسبه التعب أو الجهد إلى أقل حد ممكن . انظر فى هذا الصدد :

Gillbreth F. B., Motion Study., Amethod for increasing the efficiency of workmen 1911,

صاحب المشروع الصناعى ، هو « إنسان نفعى جشع ، ولا يرتاح له بال ، ولا يهدأ له حال ، إلا بازدياد « كم العمل » الذى ينبغى على العامل إنجـــازه فى أقل وقت ممكن ، وهذه هى مصلحة رجال الصناعة التى تنادى بشعار « تكثيف العمل وزيادة الأرباح » .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التركيز على تطور التصنيع والميكنة Automation وما نجم عنهما من تحولات جوهرية فى البناء الإجتماعى نتيجة لإستخدام الآلة وتحول رقيق الأرض إلى صنـاع ، فاختفت الحرف وضعفت الفنون ، مع ظهور الأجراء والصناع ومختلف طبقات وفئات العمال .

ولا يفوتنا فى هذا الصدد ، أن نؤكد ردود الأفعال الخاصة بفاعليـة « التنظيم الإقتصادى » وصـــداها فى عالم الفن والأدب والابداع ، فنى عصور الاقطاع راجت الفنون والآداب ، فقد عكست أشعار وقصـائد فيكتور هوجو Hugo فكشف عن شقاء الإنسان ، وكتب عن آلام البؤساء ، وما يعانونه من فقر ، وانخفاض مستوى المعيشة وهبوط الأجور فى النسق الإقتصادى الإقطـاعى كما وسجل لنا صورة عن « البؤس » فى أشعاره وكلماته ، بحيث صور وروى فى أدبه كل مايدور حول « قيم الإقطاع » كالشجاعة والمروءة والفروسية ، حيث تمجدت أخلاقيات النبالة والبطولة ، والوفاء والرجولة .

ومعنى ذلك أن إقتصاديات القرون الوسطى كان لها صـداها فى تشكيل روح العصر التى تميزت بالخصوبة والخيال ، فكان الإقطاعى يشجع الفنانين والرسامين فظهر عباقرة النحت والتصوير والعـمارة وسائر الفنون التشكيلية التى إتجهت نحو الإنتصار الكامل لقيمة العقل .

وسرعان ما تغيرت فنون وآداب مابعد الاقطاع ، فبرزت على السطح « قضايا جديدة » تستكشف أعماق الإنسان وتكتشف ضميره وأناه ، كما تهتم باحساساته

وسيكولوجيته وإبراز قضاياه الوجودية . ففي الاقتصاد الاقطاعي إتجه الفكر نحو الإيمان بقواعد الدين والتزاماته، مع تقديس النظام واحترام الملكية، وتبجيل ماهو عام ، مما أدى إلى سيادة « النمط السياسي المستقر » .

وعلى العكس من ذلك نجد أن الفكر الرأسمالي قد أخذ يتجه نحو ماهو خاص ، مع إبراز الجوانب الشعورية والأبعاد السيكولوجية والاهتمام بالعنصر الذاتي أو الفردي .

طبيعة الانساق والتنظيمات الصناعية :

أ ـ يمكننا أن نتساءل : ما هي طبيعة النسق الإقتصادي ؟ هل هو حقيقة إستاتيكية ثابتة ؟ وهل هناك « تماسك عضوي متكامل » يعمل داخل الأنساق الصناعية والإقتصادية ؟ . أم أن هناك حالة من « عدم التوازن » الديناميكي تعمل في قلب البناءات الصناعية ؟ !

في الرد على هذه المسائل ، حار علم الإجتماع الصناعي ، كما إنشغل علماء الإجتماع الإقتصادي ، وإنقسموا فيما بينهم إلى « مدارس » أو « مذاهب » ، تذكرنا بمدارس ومذاهب الفلسفة . حيث يرى فريق منهم ، أن الأنساق والتنظيمات في البناءات الصناعية والإقتصادية ، هي أنساق ثابتة نسبياً، كما أنها متماسكة ومتكاملة ، وهذا هو « فريق المحافظين التقليديين » . بينما ذهب فريق آخر ، إلى أن الصراع قائم في باطن النسق الصناعي ، حيث يعمل ولا يهدأ ، في حركة تغيرية دائبة ، وهذا هو السبب السوسيولوجي في عملية التقدم الديناميكي للانساق ، ذلك التقدم الذي لا يتم إلا بعد أن يعترى « بناء النسق التنظيمي » شيئاً من التفكك والإنحلال ، الذي يعقبه بعد ذلك حالة من إعادة التوازن في التنظيم . ويذهب هذا المذهب في طبيعة التنظيمات الإجتماعية ، أصحاب التيارات الماركسية الثورية .

فلقد ذهب المحافظون من أمثال « دوركايم » و « رادكليف براون »

« Radcliffe-Brown » ، إلى أن « البناء الإجتماعى الصناعى » إنما يمتاز بالتضامن Solidarity ، والمشاركة Participation من جهة ، وبالتماسك والاطراد ، من جهة أخرى .

ولقد أعلن المحافظون التقليديون ، أن هناك الكثير من العوامل التى تضبط البناء ، والتى تبقى فى نفس الوقت على تماسكه وإستمراره ودوامه . وكان أول هذه العوامل ، هو « عامل تماسك » التنظيم الإجتماعى Social organization نظراً لوجود عنصر المشاركة الفعلية بين سائر أعضاء التنظيم الإقتصادى أو السياسى سواء داخل البناءات الإجتماعية فى المصانع ، أو من خلال بناءات القوة والسلطة التى تعمل فى قمة الأشكال الهرمية لسائر التنظيمات السياسية والإجتماعية .

وبالإضافة إلى وجود عامل تماسك التنظيم ، أو ثبات الوحدات الجمعية Collective units ، نظراً لثبات اللغة والتقاليد والمصالح المشتركة ، من جهة ، وتوافر مبدأ التضامن والتعاون Cooperation من جهة أخرى . وكل هذه عوامل جوهرية تؤدى إلى تكامل النسق System integration وأستمراره ، نظراً لوجود الاعتماد الوظيفى Functional interdependence بين سائر المكونات الداخلة فى التنظيم أو المركبات العاملة فى البناء ، بمعنى أن ثبات الحياة الإجتماعية واستمرارها وتكاملها ، إنما يعتمد بالضرورة على وجود « السلطة والمشاركة » فى المصالح والقيم ، تلك التى تدعم لنا كل البناءات والتنظيمات ، كما وتؤدى إلى تماسك سائر الأنساق الإجتماعية القائمة فى هذه البناءات الكلية .

ب ـ هذا عن مزاعم المحافظين التقليديين ، ولكن القائلين بالتغير الثورى الكلى أو المفاجىء ، والقائلين أيضاً بالتطور الجزئى أو المرحلى . فقد أنشغلوا جميعاً بعوامل التغير وبدوافع التمرد والثورة ، وفسروا وجود الصراع Conflict وعدم التكامل Malintegration ، بأسباب تتعلق بالتكيف والتفاعل الثقافى مع

جهة ، وبعوامل أخرى تكنولوجية Technological وإقتصادية كالبناء الأسفل وقوى وعلاقات الانتاج من جهة أخرى . بالأضافة إلى عوامل فكريه Ideational تؤدى إلى تجديد التنمية ، نظراً لوجود التخلف الثقافى Cultural lag ، القائم بين تقدم التكنولوجيات وتأخر الايديولوجيات ، كما ويؤثر هذا التخلف بالطبع على صور البناءات الإجتماعية ، ومكوناتها وأنساقها من جهة وعلى سماتها وعناصرها ومركباتها الثقافية من جهة أخرى .

ويستطيع أى فرد فى المجتمع عن طريق تصوره أو خياله السوسيولوجى ، أن يدرك طبيعة البناء الإجتماعى ومكوناته ، ومدى تماسك أو تفكك هذه المكونات والأجزاء . ولسوف يدرك فوراً أن البناء الاجتماعى رغم مايعتريه من تغير ومايطرأ عليه من تفكك ، إنما يكون له وظائفه الضرورية ، التى تتصل بالتكامل وتدعيم النمط ، من جهة ، وبالتكيف وتحقيق الأهداف من جهة أخرى . وعلى هـــذا الأساس حاول « تالكوت بارسونز » أن يؤكد فى نظريته البنائية الوظيفية ، على الجوانب السلوكية والسيكولوجية ، وذلك بالتركيز على « بناء الفعل الاجتماعى » .

وفى تلك النظرية البارسونية ، تقسم أنمـــاط السلوك الاقتصادى والسياسى والدينى ، طبقاً لتقسيم البناء الاجتماعى أصلا إلى « مجموعات أو أنساق » إقتصادية وسياسية ودينية وخلقية وتشريعية ، تقوم فيما بينها « علاقات بنائية » . وحين يطرأ التغير على بنية أى نسق من تلك الانساق المتكاملة ، فان ذلك يسبب بالضرورة تغيراً مصاحباً ومماثلا فى سائر الأنساق الأخرى . بمعنى أننا نجد نوعاً من الترابط الوظيفى والأعتماد المتساند بين مجموعـــات الأنساق ، وتلك هى الفكرة الوظيفية البنائية ، كما تتجلى فى كل نسق إستاتيكى ثابت ، بحيث يتكامل فى حالة « التعاصر Coexistence » ودوامه مع سائر الأنساق الاخرى فى علاقاتها الكلية ،

ومن هنا يمكن دراسة أنماط السلوك ، من خلال فهم المواقف والعناصر الاجتماعية ، بانتزاعها من ذلك الكل التي هي جزء فيه ، والذي يعطيها أيضاً معناها ومبناها .

وفي هذا الاتجاه البنائي الوظيفي نفسه ، أكد روبرت ميرتون Merton على أن الأفراد إنما يستجيبون لمواقف معينة ، تسود النسق كله ، ثم يقومون بتعميم هذه الاستجابة نفسها بالنسبة لكل المواقف والظروف المتشابهة ، كما يعلن « ميرتون » أن التغير الذي يطرأ على سمات الشخصية إنمـــا يتأثر بما يطرأ على النسق أو البناء الاجتماعي من تغيرات (١) .

فالشخصية ، مثلا تعبر في الواقع عن علاقة ثابتة بين منبهات من جهة ، واستجابات من جهة أخرى . ولقد أهتم « ميرتون » أيضاً بفكرة الضبط في النسق الاجتماعي ، كما أهتم أيضاً بهذا التيار الجديد ، أحد الذين تتلمذوا على « ميرتون » فتأثر به في كتاباته تأثراً واضحـاً ، وأعني به « الفن جولدنر Gouldner » (٢) ، حيث أكد الأخير على أن وظائف الضبط إنما تحدث التوازن Equilibrium بين سائر أجزاء النسق أو البناء الاجتماعي . ولا يرجع ذلك التوازن إلا لتحقيق التكامل بين « ميكانيزمات الضبط » القائمة في النسق الاجتماعي ، الأمر الذي معه يؤدي النسق وظائفه بطريقة ديناميكية فعالة .

ووفقاً لأي تصور أو خيال سوسيولوجي لأي فرد من أفراد المجتمع ، يكون « العنصر السيكولوجي » هو العامل الاساسي والحاسم في دراسة « الأنماط والانساق الاجتماعية » تلك التي تستند إلى وظائف « المجال » و « الموقف » و « ميكانيزمات

---

(1) Cohen,Percy , Modern Social Theory. London- 1968.

(2) Gouldnsr, Alvin , Modern Sociology., An Introduction to he study of Human Interaction, U.S.A. 1963. pp. 107-122.

القوى الدافعة » ، بالاضافة إلى فهم البناء والنظم وماضى الثقافة ، بسماتها المختلفة التى تضم التراث والتقاليد والمعايير والقيم .

حـ - والنقد الهادم الذى يوجه لنظرية بارسونز الوظيفية ، إنما يتمثل فى أنها نظرية لا تقوم على « فرضيات » ، ولا تقدم لنا أية تنبؤات ، وإنمـــا هى نظرية سردية ووصفية بحتة ، وليست بالنظرية التفسيرية المتكاملة (١) .

ومن الانتقادات الموجهة إلى النزعة الوظيفية البارسونية ، أن كل نسق اجتماعى كما يذهب الوظيفيون هو موجه بالضرورة توجيهاً هادفاً ، حين يتجه نحو « إشباع حاجاته » وتدعيم وجوده وتأكيد إستمراره . وهذا يعنى فى نفس الوقت أن كل أجزاء النسق لا تلائم بالضرورة مختلف الحاجات التى يسعى النسق إلى إشباعها .

ومن الخطأ أن نقول مع الوظيفيين ، إن تساند الاجزاء هو أمر مطلق ، فالتساند أو التعامد ليس أمراً مطلقاً ، حيث أن هناك بالضرورة درجات مختلفة لأنماط التساند الوظيفى .

وحين يوصف أى نمط من الأنمـاط بأنه « وظيفى » لأنه يسهم بصفة عامة فى تدعيم النسق ككل ، فان مثل هذا الوصف يعتبر من قبيل « اللغو Tautology » . ذلك لأن كل أجزاء النسق متساندة ، وتسهم فى تدعيم الكل ، وهذا لا يقدم لنا شيئاً جديداً (٢) ، حيث أن هناك إختلافات واضحة فى « درجة التعامد degree of interdependence » .

---

(١) دكتور محمد عاطف غيث . الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٧ ص ٢٨ .

(٢) أنظر الانتقادات التى سقناها لتجريح النظرية الوظيفية عند بارسونز خلال الفصل الثانى من هذا الكتاب .

ومن الإنتقادات المشهورة للنزعة الوظيفيـــة هى أنها نظرة أيديولوجية ، تنعكس على منهج البحث فى الدراسة السوسيولوجية ، حين تطبق وجهات النظر المحافظة Conservative فحسب ، مع إستبعاد الجوانب الثورية والتغيرية لأنها جوانب غير مرغوب فيهـا بالنسبة للاتجاه الوظيفى المحافظ ، الذى يؤكد فقط على على ذلك الانسجـام السائد فى العلاقات ، والتضامن الظاهر بين سائر الأنسـاق الاجتماعيـة . ولعل النقد الخاص للنظرة السوسيولوجية البنائية إنما يتمثل فى أنهـا ذو إتجاه كلى النزعة Holism ، وتلك نظرة فلسفية وافتراض لاعلمى ، واتجاه نظرى بحت لا يستند إلى مصادر تجريبية أو شواهد حقلية .

د ـ وختاما ، هناك بعض الانتقادات المتعلقة بمسائل الصراع Conflict، والتغير Change ، وذلك فى مقابل ثبات المعايير norms ، وآليـة أو عضوية التضامن Solidarity . حيث تؤكد النظرية الوظيفية على وجود التضامن والثبات وتقلل كثيرا من أهمية الصراع والتغير الاجتماعى ، وذلك لأنهـا نظرية رجعية محافظة ، تعلى من قيمة التساند والإنسجام والتناغم Harmony ، من أجل تحقيق التضامن والتماسك بين سائر الأنساق والنظم والعلاقات السائدة فى البناء الاجتماعى . الأمر الذى أخفقت معه النظرية الوظيفية ، إلى حد كبير فى تفسير ظواهر التغير والصراع والتفكك ، تلك التى ينظر إليها الوظيفيون (١) على أنها ظواهر مرضية أو غير سوية abnormal ، لأنهـا تصيب البناء الاجتماعى بالإنحلال والاعتلال فتصبح من الظواهر المرضية المعتلة المضادة للتضامن والتماسك والإنسجام . وهو القائم على نحو مطلق ودائم فى البناء الاجتماعى (٢) .

---

(1) Cohen Percy., Modern Social Theory.. Heinemann, London. 1968 p. 58.

(2) Ibid, p. 56.

ولقد أثبتت الدراسات السوسيولوجية المعاصرة أن كل تنظيم من التنظيمات الاجتماعية ، ليس استاتيكيا ثابتا وإنما هو « تنظيم دينامى » حافل بما يحويه من تغيرات ، كما ينشب الصراع ويسود فى بناء التنظيم من حين إلى آخر ، مما يؤكد على مدى حاجة كل تنظيم إلى تلك الصراعات والتغيرات التى تعمل فى أحشائه ، فيصبح « الصراع تنظيمياً » ، كما يكون التغير هو الآخر حاجة ضرورية من حاجات التنظيم الداخلى لأى « بناء اجتماعى » يخضع لظروف اقتصادية وعسكرية وثقافية من خارجه . كما يخضع داخليا لواقع تنظيمى دينامى متغير طبقا لتوزيع « القوة أو السلطة » داخل إطار أى « نسق اقتصادى » أو « تنظيم دينى » أو « بناء ثقافى » أو « تطوير سياسى » فورى أو ثورى (١) .

وإذا ماعدنا ثانية إلى النظرية الوظيفية وبخاصة عند « بارسونز » فلسوف نلاحظ فوراً مدى تأثر النزعة البارسونية بمواقف وتفاسير علم النفس ، ولم يضع « بارسونز » فى اعتباره ذلك « الشكل المتكامل » الذى يؤلف بين حالات الفرد ومعايير المجتمع ، ولم يلتفت إلى ذلك « التركيب الفريد » الذى يجمع بين الإنسان ومجتمعه ، . فليس الإنسان كائناً منعزلا » وكأنما ألقى فى هذا العالم » ، وإنما يعيش الانسان فى أسرة ، وينخرط فى زمرة ، ويتعقل مدركاته ، من خلال احتكاكه بالآخرين .

ولقد خلط « بارسونز » إلى حد كبير بين أنظار « ماكس فبر » و « كارل ماركس » فى تركيب متناقض ، يؤلف بين حكم القيمة Value ، ودور الصراع ووظيفته ، حيث جمع « بارسونز » بين حالة القسر والإجبار والإلزام ، وبين

---

(2) Weber, Max', The Theory of Social and Economic Organization trans. by Henderson and Parsons, Glencoe, 1967, p. 126.

حالة التمرد والثورة . وقد يكون « التغير مرضيا ومعتلا » حين يصيب البناء بالتخلخل ، فتتحلل القيم ، وتنهار أنساق الاقتصاد وقواعد السلوك ، وتزحف الانحرافات بانتشار جرائم العنف السياسي ، ويسود التسيب وعدم الانضباط . أما «التغير التنظيمي» فهو تغير ديناميكي صحي وتقدمي ، يعمل على «تنمية التنظيم» وتطوير البناء، وتطهير جيوب الانحراف، وتغيير عيوب القيم وتسيب الضوابط.

ولقد كشف « رالف دهرندورف Ralf Dahe،endorf » في كتابه : « الطبقة والصراع الطبقي في مجتمع صناعي Class and Class Conflict in an industrial society » عن أوجه القوة والضعف في نظرية بارسونز ، ومناقشته لطبيعة السلطة والقوة في ضوء الكتابات الماركسية ومن زاوية دراسته لمواقف « ماكس فيبر Weber » . أما « جون ركس John Kex » في كتابه : المشكلات الرئيسية للنظرية السوسيولوجية (١) ، فقد وجه الكثير من الانتقادات والاعتراضات إزاء النظرية البارسونية ، وأشهرها أنها نظرية تصدق فقط على المجتمعات الصناعية دون غيرها من سائر المجتمعات والثقافات المتباينة (٢) .

فقد التفت « بارسونز » إلى دور « الصراع » داخل إطار المجتمع ، وخاصة الصراع الطبقي Class Conflict ولا يتحقق هذا النمط الاجتماعي إلا في المجتمعات الصناعية ، حيث توجد الطبقات الاجتماعية التي تجمع فيما بينها أهداف جمعية Collective goals ، تصدر عن مجموع المشاعر والآمال التي تعبر جميعها عن «ثقافة مشتركة Common Culture » ، بمعنى أن السمة الرئيسية للنسق الاجتماعي

---

(١) نشر جون ركس كتابه هذا تحت عنوان : Key Problems of Sociological Theory ، ولقد نقله إلى اللغة العربية الدكتور محمد الجوهري وآخرون .

(2) Ibid : pp. 106—107.

فى المجتمعات الصناعية، هى وجود ظاهرة «الصراع البنائى Structured Conflict» أو «الصراع التنظيمى» ، فقد يكون النسق فى مسيس الحاجة إلى التغير فى سائر تركيباته وأجزائه ، وهنا يصبح «التغير تنظيمياً» يقوم بوظيفته الضرورية داخل إطار تنظيم النسق الإجتماعى فقد يكون «الصراع مرضياً ومعتلا» ، حين يعمل على انفكاك البناء ، وتحلل التنظيم ، وتخلخل النسق الإقتصادى . أما «الصراع التنظيمى» فهو «صراع حميد» أو رشيد ، يعمل على تفاعل التنظيم ، بتطوير مراكز التنظيم القديم وتغيير أدواره وعلاقاته . بمعنى أن الصراع يكون تنظيمياً من أجل «تنمية التنظيمات القديمة» وتطويرها بدخول الأشكال التنظيمية الجديدة .

ومن الناحية التنظيمية ، نجد أن إدارة التنظيم ، هى جهاز حيوى وضرورى ، حيث يساعد التنظيم الناجح على تطوير الإنتاج وسرعة التنمية ، كما أن تخلف التنظيم وإنغلاقه إنما يؤدى بالضرورة إلى تدهور وإنخفاض الانتاجية بضياع الطاقات (١) . ولذلك يجب أن نعمل على تحرير الطاقات وإنطلاق القوى من أجل دفع عجلة الانتاج . عن طريق حل التناقض بين متطلبات التنظيم ، وبين إمكانيات وطاقات الأفراد ، فهناك صراع أو تعارض بين «تنظيم حازم» يبغى التوصل إلى «غايات إنتاجية» أو يريد أن يحقق أو يعمق نوعاً من «الخدمات» ، وبين أهداف الأفراد ومكوناتهم وطاقاتهم الانتاجية . فهل يخدم التنظيم تلك الغاية الانتاجية المنشودة ؟ ، أم أننا نحاول أن نصمم تنظيما يحقق إحتياجات الأفراد ، بما يتناسب وقدراتهم ، حتى «ولو كانت هزيلة أو هشة» ، لعرقل الانتاج وتزعزعه من أســاسه . فى الواقع لا بد من التوفيق بين النقيضين ، ورفـــع

(١) دكتور على السلمى : الادارة المصرية ، رؤية جديدة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ : أنظر أسباب تخلف التنظيم الادارى السليم .

التعارض ، وحل الصراع ، بين أى « تنظيم إدارى » ومدى « كفاءة أفراده » وفاعليتهم .

ومن أجل هذه المشكلات الاقتصادية الخاصة بالتغير التكنولوجى ، بما يصيب التنظيمات الصناعية وما يطرأ عليها من صراعات قد تعرقل من الانتاج ؛ صدرت الحاجة إلى علم سوسيولوجى خاص « بالتنمية » ويقوم بحل مشكلاتها وبتقديم ما يمكن تقديمه من برامج واستراتيجيات ، لدفع عملية التطوير الاقتصادى ، وترشيد الانفاق وعلاج ما قد يطرأ من مشكلات لسد الفجوات الاجتماعية والثغرات الثقافية Cultural gaps .

كيف صدرت الحاجة إلى علم لتنمية المجتمع ؟

لقد وقعت الدول الصغيرة والمجتمعات الفقيرة ، فى حيرة ، حين حاولت فى همة وعزم تطوير أبنيتها الاقتصادية ، فظهرت الأزمات ، وتعقدت واستحكمت مع تقدم التكنولوجيا ، ووطأة التصنيع ، وظهور مشكلات الصناعة ، وما نجم عن كل ذلك من محن « خانقة » وضغوط « قابضة للنمو » ، بالاضافة إلى تلك الأزمات التى تمنع من إنطلاق الطاقات الذكائية . وقد يعوق « الفقر » وانتشار البطالة وقلة الموارد وضعف الدخول ، حين يحد كل ذلك من قدرات الانسان على التطور والنمو والفاعلية . ولكل هذه الأسباب الاقتصادية والسوسيولوجية والسيكولوجية ، ظهرت « الحاجة إلى علم لتنمية المجتمع » .

فلقد حدثت التغيرات الاجتماعية الهائلة ، التى كشفت عن تناقضات حادة وواضحة لكل ذى عينين ، والتى نجمت أصلا عن تلك النتائج التكنولوجية السريعة ، والتطورات الاقتصادية ذات القفزات الضخمة ، كنتيجة حتمية لذلك التحول الصناعى المذهل ، نظراً لذيوع حضارة التصنيع ، وانتشار الميكنة Automation وتقدم الآليات ، ونشأة المجتمعات المستحدثة التى أخذت بالتخطيط الصناعى ،

وصاحبتها فى نفس الوقت تغيرات جوهرية ، طرأت على مختلف الخدمات ، فى ميادين الصحة والتعليم والاسكان .

وكان لاقتحام « عناصر صناعيه حديثة تغزو ثقافات تقليدية » رد فعلهـا الايديولوجى الحاد ، كما كان لدخول ووطأة تكنولوجيا معقدة وأساليب تقنية لا ترحم ، فى أبنية إجتماعية بسيطة ، صداها فى خلخلة التنظيمات الصناعية والاقتصادية ، وفى تغيير أتجاهات الرأى بين الناس ، مع تحول أساليب الفكر ، وتبدل طرق الحياة . الأمر الذى معه تهتز أنساق الثقافة ، وتضطرب الجوانب السيكولوجيه ، وتتزعزع عادات فكرية ومعارف قديمة ، مما يؤدى فى النهاية إلى تغير شامل للمواقف الاجتماعية برمتها وما يدور فى مختلف مجالاتها من أنمـاط للسلوك ، كنتيجة مباشرة لما قد ينشأ ويظهر من المشكلات الجديدة التى قد تنجم عن إعادة التنظيم الاجتماعى والصناعى ، بشكل يتناسق ويتكامل مع « غزو العناصر التكنولوجية الجديدة » .

وبدخول التكنولوجيا والتوسع فى التصنيع ، تتغير مظاهر العادات والتقاليد مما يؤدى إلى تبدل وتحضر الانسان القروى والبدوى ويكون لذلك صداه فى حجم الأسرة ، وإرتفاع مستوى الثقافة ودرجة الفهم ، بفضـل التعليم ، وقلة الأفكار الغيبية ، وبازدياد الايمان بالعلم وإستخدام الأجهزة والآلات وظهور التنظيمات الجديدة التى تحدد المراكز والأدوار وتضع المهام والمسئوليات ، وتفرض السلطة وتقسم العمل على نحو رشيد متكامل ، حتى يتخلص المجتمع من هبوط مستوى الحياة ، حين يزداد الانتاج ، بالقضاء على التخلف الاقتصادى وإنهاء حالة التبعية الاقتصادية .

وفى ضوء هذه المقدمات كانت المجتمعات التقليدية فى مسيس الحاجة إلى «التنمية» development والدراسات التنموية . فمن « أجل إعادة بناء المجتمعات » ، ظهر

علم إجتماع التنمية ، حتى يتمكن علماء الاجتماع وخبراء النفوس من أن يدرسوا الآثار الجانبية للتصنيع ، وحتى يعملوا دوما على حل المشكلات الناجمة عن وطأة الصناعة ، ومحنة التصنيع ، عن طريق مشروعات وبرامج التنمية فى كل مجالات التكنولوجيا الحضرية والقروية، بالإضافات إلى الكفاية الانتاجية، وتشريعات العمل وإعـــداد « مراكز التدريب » لدراسة مختلف التخصصات فى كافة المهن والاعمال .

كل هذا من أجل مواجهة الزيادة السريعة فى النمو الصناعى والسكانى والاجتماعى إلى جانب تعقد مشكلات التنظيم فى البناءات الصناعية والاقتصادية القائمة فى المناطق الحضرية والقروية ، حيث يؤدى التطور الصناعى أو المشروع الاقتصادى إلى تغييرات مصاحبة داخل بناء القيم وإتجاهات الرأى العام ، فتتغير أنماط السلوك ويتبدل النظام العائلى ، وتتفكك العلاقات الاجتماعية . فنحن من أجل رفع مستوى المعيشة فى حاجة إلى « تنمية إقتصادية » ، وللحد من وطأة التكنولوجيا ، ومن أجل حل مشكلات التصنيع فى حاجة إلى « تنمية إجتماعية » .

بمعنى أن « التنمية » على العموم ، هى « برنامج عمل » من أجل التكافل الاجتماعى ، وهى «تخطيط منظم» لحماية المجتمع من اضطرابات التغير الاقتصادى ، ومشكلات التطور الاجتماعى .

وهنا يتحتم علينا أن نتساءل ، عن الفروق الجوهرية التى تميز التنمية الاقتصادية ، عن التنمية الاجتماعية ، وعن طبيعة العملية التنموية . . . ما هى ؟ وكيف تكون ؟ !

فى الرد على هذه المسائل نقول ، إنه نظراً لوجود مشكلات إقتصادية ، مثل عجز الانتاج الزراعى ، وهبوط مستوى الحياة ، وتناقص الدخول الفردية ، مع إزدياد التضخم السكانى الرهيب ، تضاعفت نسب الاستهلاك ومعدلاته على نحو

الانتاج واضطراب سرعاته . فماذا نعمل حين تتعدد الأفواه التى تطلب الطعام، بينما الأيدى عاجزة ولا تعمل ؟ ! وهذا هو السبب الحقيقى فى تخلف نمط الحضارة وتقهقره ، ومن هنا صدرت الحاجة إلى « عملية تنمية المجتمع » .

ومن أجل إشباع الحاجات الاقتصادية وتطوير الجهاز أو النسق الاقتصادى ، لتحقيق « عملية التنمية » ، اتجهت الأذهـــان نحو رفع مستوى المعيشة عن طريق الصناعة . إلا أن التصنيع محنة لها وطأتها التى معها تتخلخل الأنساق الاجتماعية ، فتتحول وتتبدل . ولهذه النتائج التغييرية ظهرت حاجة أخرى ماسة إلى عملية أخرى لاحقة ، لعملية التنمية السابقة ، « فالأولى تنمية إقتصادية » ، والثانية « تنمية إجتماعية » .

ولحل مشكلات التنمية بشقيها الاقتصادى والاجتماعى ، ظهرت الحاجة إلى علم لتنمية المجتمع ، يهتم بكل مشكلات التنمية على العموم . ويحـــاول أن يضع البرامج والمشروعات الاقتصادية والاجتماعية المخططة ، لاستثمار الموارد الطبيعية والبشرية من جهة ، ولتطوير حياة أفضل طبقاً لفلسفة إجتماعية هادفة ، ونظم تربوية مقصودة ، من جهة أخرى .

ولكن ... هل الصناعة هى غاية وهدف لكل تنمية ؟

فى الرد على هـذا التساؤل ، نستطيع أن نسوق مثالا واضحاً من دول العالم الثالث ، فبالنسبة إلى هذه الدول التى حصلت حديثـــاً على استقلالها السياسى ، أصبحت التنمية هى هدف مشترك بين سائر هذه الدول ، ولقد بقيت المجتمعات الزراعية البحته ، التى قدر لها أن تعتمد فقط على زراعة المحاصيل الأولية ، لكى تقوم بعدها بعملية تبادل تجارى ، بالحصول على سلع إستهلاكية أو حتى صناعية ، هى مجتمعات متخلفة ، وتحتل دائماً مركز التبعية الاقتصادية ، بالنسبة لغيرها من الدول الغنية والمنتجة .

ولقد كان « التصنيع » هو الحل النهائى والحاسم للمشكلة إلا أنه أصبح هدفا معوقا ، يتحقق على حساب القرى والمناطق الزراعية . مما أدى إلى إهمال واضح فى خطط التنمية الزراعية ، على الرغم من أن الصناعة التى تقوم على أنقاض الزراعة هى صناعة خاملة وفاشلة .

فقد يحتاج « بناء مصنع » وسط منطقة قروية متأخرة إلى الكثير من المشروعات الخاصة بالتنمية البيئة Ecodevelopment ، وإعداد هذه المنطقة القروية ، لكى تصبح مؤهله أو معدة ، لاستحداث التصنيع ، وتقبل أى تغيير إقتصادى ، أو تطوير إجتماعى لاحق [1] . ولا يمكن أن تنجح مشروعات الصناعة الناشئة فى منطقة من المناطق ، إلا بعد فترة طويلة من التنمية وتغيير الملامح الايكولوجية للبيئة ، وذلك لتطوير هذه المنطقة وإعدادها . وإلا فشلت هذه المشروعات الصناعية ، وظلت هذه المناطق متخلفة عن الركب ، وبقيت على فقرها لأنها بدأت بعملية فوق طاقتها . فلا بد من أن تسبق المشروعات الصناعية والاقتصادية برامج سابقة لتنمية المنطقة ، حتى تتحمل نتائج هذه المشروعات من مخاطر ونفقات لتمهيد الطرق ، وتيسير وسائل النقل ، وتسهيل المواصلات السلكية واللاسلكية من أجل « بناء كيان صناعى ناجح » .

وعلى الرغم من ذلك فلقد أثبتت التجارب والدراسات أنه بدون أساس

---

(١) هناك مسوح قبلية للتنمية Survey defore bevelopment ، هى ضرورية لاعداد المنطقة ، لمشروعات التنمية ، وهناك مسوح أخرى بعدية للتنمية ، ويقوم بها الباحث باستخدام عمليات الوصف والملاحظة وجمع المعلومات وتسجيلها . لمعرفة نوع ومقدار التطوير الاقتصادى ، ودراسة حجم التغير الذى طرأ على البناء الاجتماعى . بالاضافة إلى وجود مسوح دورية ، وتجرى على فترات معينة لمعرفة مدى تقدم أو تعثر المشروع وتقديم الحلول الدورية المقترحة للمشكلات التى قد تنشأ .

زراعى متين ، ان تتمكن الدول النامية من ضمان تغذية نفسها ... اد صناعاتها بالمواد الأولية . فلقد ثبت أن التنمية الصناعية الجزئية التى وقعت فى البرازيل ، كانت مصحوبة بإهمال الزراعة ، التى يعمل فيها ما يعادل ٧٠ ٪ من السكان لتغطية معظم إقتصادياتها (١) .

ولذلك تتم عملية التنمية على نحو وترتيب منظم ، وفقاً لبرامج معينة ، وخطوات خاصة . ولعل أكبر المشكلات التى تواجه كل الدول المتخلفة والتقليدية والنامية هى مشكلة التضخم السكانى ، الذى لايتوازن مع موارد الانتاج ومصادر الدخل القومى ، الأمر الذى يفرض على هذه الدول تنشيط المدخرات ، وتشجيع « بنك القرية » لإبتلاع مدخرات الريف وإدخال نظام التأمين على الحياة ، ورفع مستوى الكفاية بين موظفى البريد والبنوك ، وتشجيع الفلاح على ترشيد الانفاق ، وإقلاعه عن عاداته الاقتصادية السيئة فى إخفاء ثروته ، وأكتناز مدخراته (٢) . ثم تحويل هذه المدخرات إلى مشروعات للاستثمار والتصنيع ، فالإدخار هو أساس الاستثمار وهو أساس التنمية ، وتدبير رأس المال اللازم للتنمية الاقتصادية ، ولإيجاد عمل لكل من لا يعمل وتدريب الأيدى العاملة وغير المدربة ، ورفع الكفاية الانتاجية بالاهتمام بالعمالة الفنية المتخصصة .

وبهذه الطرق التنموية الضرورية يمكن خلق القدرة الذاتية وتطوير جوهرها

---

(١) هانسون ، أ هـ : المشروع العام والتنمية الاقتصادية ، ترجمة محمد أمين إبراهيم مراجعة الدكتور فؤاد هاشم عوض الدار المصرية للتأليف والترجمة ، يونيه ١٩٦٥ ص ٢٦ .

(٢) إن فكرة « بنوك القريه » التى إنتشرت فى جمهوريه مصر العربية . تحقق رواجاً إقتصادياً حين أفرج الفلاح عن مدخراته ، بتحويل رؤوس أموال الفلاحين إلى طاقه عاملة ومتحركه بدلا من سكونها وخمولها .

من أجل خلق موارد وقوى ومصادر للاستثمار والتنمية داخل المجتمع ، فمن طريق الاستخدام الرشيد لطرق الكفاية والتدريب والتعليم ، بقصد « تغيير جوانب تقليدية » ، وتطوير ما هو قائم ، باستغلال الامكانيات والطاقات ، وأستحداث القيم الجديدة ، وصدور الابعاد والانساق الاجتماعية ، لخلق المناخ الثقافى الذى يشجع على الجديد ويدعم التجديد ، بتنمية الشخصيات والكوادر ، والقدرات الابتكارية الخلاقة (١) . كل ذلك من أجل القضاء على أسباب التخلف الاقتصادى ، ولإزالة معوقات النمو الحضارى ، عن طريق سد « الفجوات الاجتماعية والثغرات الثقافية » ، مع خلق البرامج للمواجهة السليمة ، لما قد ينجم من مشكلات أو يظهر من معوقات جديدة . وعلى هذا الأساس ، صدرت برامج التخطيط من أجل إعادة بناء المجتمع وتجديده ، ومن أجل تقدم النسق التكنولوجى وتطوير أساليب الإنتاج ، مع توافر القدرة الذاتية على إكتساب الجديد ، والتكيف مع ما يواكب الانتاج ، مع ترشيد كل إنتاج ونفقة . فمن أجل حياة أفضل ، صدرت برامج التنمية فى المجتمعات المكتظة بفائض بشرى ضخم ، لامدادها بامكانيات إقتصادية لرفع المستوى المادى والاجتماعى والثقافى .

ولقد صدرت برامج التخطيط والتطوير والتوجيه والارشاد ، من أجل تحقيق التكامل ، وتخفيف حدة التصنيع وآثاره السيكولوجية والاجتماعية ، حيث يظهر التعارض واضحاً بين قيم ومعايير مجتمع تقليدى متخلف ، ومجتمع صناعى متقدم أو مستحدث فلا يحدث التوافق عن طريق الاحتكاك الثقافى Gultural Gontact وينشأ التفكك وعدم التكامل نتيجة لصراع القيم وتعارض أنماط السلوك ، وتباين أساليب التفكير . الأمر الذى تنهزم معه معايير قديمة ،

(١) د. نبيل السمالوطى . التنميه والتجديث الحضارى ، مطبعه الجبلاوى ١٩٧٥

لكى تظهر إلى الوجود الاجتماعى ما يمكن أن يتكيف معه من الجديد من القيم والمعايير (١).

ويؤدى التصنيع إلى زوال أو تحطيم أنساق تقليدية بأسرها ، حيث يبدأ الانحلال، ويتسلل التفكك فى مختلف «التنظيمات الاجتماعية «Social organization» كما يطرأ عدم التكامل فى سائر « البناءات Structures » (٢) .

مشكلات التنمية :

لا شك أن هناك الكثير من المشكلات التى نجمت عن تطوير مستويات الاقتصاد والتنمية والتكنولوجيا ، فصدرت الحاجة التى أدت إلى ضرورة قيام علم

---

(1) Schneider, Industrial Sociology, Mc Graw Hill New York, 1957.

(٢) هناك ارتباط وثيق بربط بين « البناءات structures » و « التنظيمات organizations » إلا أن البناءات تتميز بالنمطية والاستاتيكية . أما الثانية فقد يعتريها التغير ويدور فيها الصراع ، وقد يكون التغير من أجل التنظيم ولصالحه ، ومن ثم يصبح التغير تنظيميا . وقد يكون للصراع أهدافه التكاملية من أجل إعادة التوازن .

أما الفرق الحادم بين « البناء » و « التنظيم » فيتضح لنا حين يكون « البناء » هو مجموعة من العلاقات والمعايير المنظمة لسلوك الأشخاص ، كعلاقة الزوج بزوجته ، أو صلة الملك أو الحاكم برعاياه ، أو القاضى بالمتهم ، أما « التنظيم الاجتماعى » ، فهو ترتيب لمناشط الأشخاص وأدوارهم roles داخل التنظيم نفسه ، فداخل بناء المصنع هناك تنظيم organization للأدوار يقوم به المدير والمنفذ والملاحظ والعامل . وينقسم « الجيش » من حيث هو بناء « structure » إلى « فيالق » و « فرق » و « لواءات » و « كتائب » و « جماعات » . أما الجيش من حيث هو « تنظيم organization » فينقسم إلى عدد من الأدوار roles التى تقوم بها مختلف الرتب العسكرية ، مع ترتيب أوجه النشاط التى يقوم بها « قائد الجيش » و « العميد » و « المقدم » و « الرائد » وهى رتب مميزة لأدوار كافة الضباط والجنود ، ولأداء مناشط معينة سواء فى الحرب أو السلم .

لتنمية المجتمع ، نظراً لوجود الكثير من المعوقات التى إعتاقت عمليات التنمية الاقتصادية ، وما يتبعها من مشكلات ، أو ما قد يصاحبها أحياناً من تغيرات تحتاج إلى عمليات أخرى تتعلق بالتنمية الاجتماعية .

والأساس هو التنمية الاقتصادية وبرامجها السابقة ، ثم تتبعها تنمية إجتماعية ، وبرامج لاحقة ، نظراً للتغير الاجتماعى الناجم عن التطوير الاقتصادى ، حيث أن التغير الذى طرأ على المجتمع ، هو بالتبعية ثمرة لنمو إقتصادى ، ونتيجة حتمية لاستراتيجية خطة التنمية الاقتصادية .

وإذا كانت التنمية الاقتصادية ، تهدف أساساً إلى زيادة الانتاج ، بترشيد الانفاق ، ورفع معدلات الدخول الفردية ، وإستغلال فائض الاستثمار بأفضل الطرق الممكنة لزيادة الدخل القومى . فاننا نلاحظ أن التنميه الاجتماعية ، إنما تختلف تماماً ، لأنها نتيجة لاحقة لمقدمات سابقة ، ترتبط بالتقدم الاقتصادى من جهة ، وبزيادة الدخل القومى ، الذى يؤدى بالطبع إلى إرتفاع معدلات الدخول الفردية من جهة أخرى .

إلا أن العامل أو الفلاح سوف لا يستفيد كثيراً من تطبيق هـــذا النظام ، بالاقتصار على مجرد زيادة الدخل الفردى الخاص ، حيث ينبغى أن تعمل مختلف أجهزة الدولة ووسائل الاعلام على تطوير العامل والفلاح ، عن طريق التثقيف وزيادة الوعى ، حتى تترقى شخصيته ويتهذب سلوكه ، مما يسهل على الدولة توجيه الانتاج وترشيده إلى أفضل نفقة ممكنة ، وحتى يستطيع أن ينفق العامل أو الفلاح دخله الخاص عن طريق « أفضل إنفاق ممكن » .

ومن المشكلات الأساسية فى عمليات التنمية ، ردود الأفعال الاجتماعية الناجمة عن « التصنيع » ، وأضرار التكنولوجيا حيث يحدث الخلل وعدم التوازن فى محيط الأسرة ، ويتسلل التفكك فى العائلة ، كما يبدأ الانحلال فى التسرب إلى كافة

التنظيمات الاجتماعية . بالاضافة إلى الأغتراب alienation ، حيث تقتل الآلة « قدرات الانسان » وتدمر طاقاته الابداعية ، كما تؤدى نظم التصنيع والميكنة automation إلى تفضيل الأعمال الآلية ، مما يؤدى إلى القضاء على المهارات اليدوية ، وإنتشار البطالة ، وتلوث البيئة Pollution ، كالأنهار والبحار ، حين تتخلص التكنولوجيا من بقاياها ، فتفرز إفرازاتها وغازاتها كى تسمم الجو وتفسد الماء والهواء (١) .

الأمر الذى صدرت معه دراسات خاصة بتنمية البيئة Ecodevelopment من أجل حل مشكلات التكنولوجيا ، ووضع الخطط والبرامج ، من أجل التناسق والتكيف ، وإيجاد حالة صحية رشيدة من « التوافق بين الانسان والبيئة الصناعية » ، بازالة كل العناصر الناجمة عن التلوث ، فى التجمعات الحضرية والمناطق الصناعية .

ويجذب التصنيع أعداداً هائلة من عمال القرية ، عن طريق « حراك العمل Labour mobility » الذى يتمثل فى تلك الحركة المستمرة والهجرة الدائمة من مناطق الدفع القروى ، إلى مناطق الجذب الحضرى والصناعى . نظراً لارتفاع الأجور ، وتوافر الخدمات ، فيقوم هـــذا الحراك الدائم ، لضمان العمل وفقاً لاحتياجات الأفراد والمصانع . والسبب الجوهرى فى عمليات الدفع والجذب ، هو سبب إقتصادى ، يتبلور فى « إرتفاع الأجور وتوافر الخدمات » ، مما يؤدى إلى « الاندماج amalgamation » بين تجمعات ثقافية متمايزة . وقد تنجم عن ذلك ، عمليات إجتماعية مضادة كالصراع والتعارض وعدم التكيف ، وقد تصاحبها عملية أخرى ، تسمى فى علم الاجتماع الثقافى بالتهميش Margiualization

(١) د . اسماعيل صبرى عبد الله : نحو نظام إقتصادى عالمى جديد ، فى دراسة قضايا التنمية والتحرر الاقتصادى ، والعلاقات الدوليه . بيروت ١٩٧٧ .

الذى قد يطرأ على سائر البناءات التقليدية المستحدثة ، والذى يحدث عن طريق الاحتكاك الثقافى المستمر ، ولما ينجم عنه بالضرورة ، من ظهور « البناءات الهامشية Marginal structures » .

ومن هنا صدرت الحاجة الماسة إلى عمليات التنمية المستمرة من أجل التكيف وسرعة الإندماج ، وتطوير الفلاح ، وتنمية المجتمع الريفى ورفع مستواه ، ونظراً لتعدد مشروعات التنمية الصناعية فى جمهورية مصر العربية ، ظهرت الكثير من المناطق الهامشية ، التى تسمى بالحضريفية [1] Rurban ، تلك التى تنتشر على هامش المناطق القروية المتاخمة للقطاعات الصناعية ، كما هو الحال فى كفر الدوار ، والمحلة الكبرى .

ما هى أهم معوقات التنمية ؟

لقد كان « اميل دوركايم » يردد القول بأن علم الاجتماع لا يساوى أو يحتاج إلى ساعة واحدة من العناء ، إذا لم يساعد على حل المشكلات الاجتماعية . وفى كثير من المجتمعات هناك حاجة ملحة إلى « التنمية » لحل مشكلات اقتصادية واجتماعية . وذلك حين تتخلف تكنولوجيا الزراعة ، وتتلكأ نظم الإدارة ، بينما تتوكأ نظم التربية ، وتتعثر عملية التعليم ، ومع بدائية نمط الحياة وثباته ، يعم الكساد مما يمنع

---

(١) الحضريفى Rurban ، اصطلاح اصطنعته اصطناعا ، إذ لم أجد بين المصطلحات العربية ما يناسب أو يطابق الكلمة الانجليزية Rurban ، التى تعنى تلك المجتمعات التى تعيش على هامش القرى والحواضر . ولذلك أطلقت عليها اسم المجتمعات « الحضريفية » وإذا كانت الكلمة مشتقة أصلا فى اصطلاحها الانجليزى Rurban ، من عملية دمج كلمتى «urban» بمعنى حضرى وكلمة «Rural» بمعنى ريفى ، فعلى نفس هذا النحو ، اصطنعت « كلمة حضريفى » ككلمة مشتقة من عملية دمج كلمتى « حضر » و « ريف » .

أو يقلل من إنتاجية الصناعة . ومع تضخم التعداد البشرى ، يظهر الفقر ويطوى البؤس نفوس الأفراد ، وتنخفض الأجور ، وتنتشر البطالة ، بينما تقل الموارد وتهبط معدلات الدخول ، كل هذه مشكلات أساسية تواجه عملية التنمية .

ولاتقتصر مشكلات التنمية على الدول الصغرى والمجتمعات التقليدية والمتخلفة ، فهناك مشكلات للتنمية أيضا ، خاصة بالدول الغنية والكبرى . فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا نجد اختلافا واضحا فى معدلات التنمية ، تبعاً لاختلاف الولايات الأمريكية نفسها . طبقاً لطبيعة الموقع واقتصاديات البيئة ، ومن المعروف أن ولايات الجنوب ظلت متخلفة إقتصــاديا لفترة طويلة ، عن ولايات الشمال ، وبخاصة بعد أعوال الحرب الأهلية ، فاختلفت أوضــاع الجنوب وتخلفت عن اقتصاديات الشمال . إلى الدرجة التى أثبتت نتائج إختبارات « ألفا » التى أجراها الجيش الأمريكى ، كما سجلت الجداول الخاصة «بمذكرة يركس Yerke's Memoir» تفوق بعض فئات من زنوج ولايات الشمال ، على بعض فئات البيض من ولايات الجنوب (١) .

ولقد فسرت نتائج تفوق السـود الشماليين فى ولاية أوهايو وانديانا ، على البيض الجنوبيين فى ولايتى كنتوكى وميسيسبى ، بالرجوع إلى الفارق الكبير فى الأوضاع الاقتصادية ، ومستوى الأجور والمعيشة بين ولايات الشمال والجنوب .

ولقد أكدت الدراسات على وجود فوارق كبيرة فى التكلفة أو « النفقـة التعليمية » الخاصة بالطفل الواحد . بين مدارس السـود والبيض فى ولايات الجنوب . فهنـاك عوائق ثقافية فرضتها ولايات الجنوب كى تقف كعقبة كأداء فى

(١) لنتون ، رالف : الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧ ص ١٢٧ .

وجه الطفل الأسود . كما أن الطفل الأبيض الجنوبى أقل حظا فى النفقة التعليمية ، من الطفل الأبيض الشمالى . على الرغم من أن البيض الجنوبيين أكثر حظاً فى الرعاية من السود الجنوبيين .

ولقد قدر معدل أو متوسط النفقة التعليمية للطفل الأمريكى الواحد ، فى سائر الولايات المتحدة ، بنحو ٧٤ دولارا ، وذلك فى عام ٣٥ / ١٩٣٦ . وفى نفس السنة بلغ متوسط النفقة التعليمية ١١٥ دولارا للطفل الواحد فى ولايتى نيويورك وكاليفورنيا ، بينما بلغت أقل من ٣٠ دولارا فى ولايتى الباما واركنساس .

هذا بالنسبة للبيض ، أما بالنسبة للسود ، فبلغ متوسط النفقة التعليمية للطفل الأسود الجنوبى ١٧٫٠٤ دولار فى حين بلغت نفقة الطفل الأبيض التعليمية فى نفس الولايات الجنوبية ٤٩٫٣ دولارا . بينما قلت هذه النفقة إلى حد كبير فى ولايتى جورجيا ومسيسبى فبلغت ٩ دولارات فقط للطفل الأسود .

ومن هذا المثال البسيط ، يتضح لنا الفروق الهائلة بين مستوى ولايات الشمال والجنوب اقتصاديا ، بالإضافة إلى وجود تمييزات عنصرية . وفروق فى النفقة التعليمية بين البيض والسود فى كل مدارس الأطفال ، كما أثبتت نتائج الدراسات أن تمايز الطبقة ، و « حاجز اللون Cofuor Bar » ، وقيمة الدخل الاقتصادى ، كل هذا كان له رد فعله فى تحديد حاصل ذكاء الطفل . بمعنى أن الوضع الاقتصادى المتخلف قد يساعد إلى حد ما إلى انخفاض فى القدرات الذكائية . وفى تقرير عن فتاة زنجية تقدمت لإختبار ستانفورد - بينيه ، وهى فى سن ٩ سنوات وأربعة شهور ، فأحرزت تفوقا خارقاً فى درجة الذكاء التى بلغت مداها فى القمة . وفسرت أسباب هذه النتائج بوجود مستوى « طبقى وثقافى مرتفع » تعيشه الفتاة الزنجية ، فهى إبنة لأب أستاذ جامعى ولأم مدرسة فى إحدى المدن الكبرى . وهذه الحالة المتفوقة ذكائياً ، تؤكد لنا إلى أى حد تؤثر الطبقة الاقتصادية ، والرعاية الاجتماعية حين

تتداخل كل منها وتتضافر كعوامل مساعدة فى رفع مستوى التحصيل الدراسى ، وزيادة القدرات الذكائية ، ونمو السمات الفكرية الأمر الذى أدى إلى ضرورة حل المشكلات الاقتصادية فى ولايات الجنوب ، مع محاولة إنعاش وتنمية هذه الولايات اقتصاديا ، برفع معدلات الأجور ، وبزيادة النفقة التعليمية فى سائر مدارس ولايات الجنوب.

وهذا مثال بسيط ، من أمثلة المشكلات الاقتصادية والتعليمية ، التى تواجهها الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، حين تقوم بعمليات التنمية الضرورية فى مجالات تربوية ، حيث يحدث التوازن الاقتصادى وعدالة التوزيع ، فى اقتصاديات التنمية والتربية ، بين سائر الولايات الأمريكية . هذا فيما يتعلق بمشكلات التنمية فى دولة غنية وكبرى ، ويمكن إبراز أهم ما يواجه المجتمعات التقليدية المتخلفة ، والدول النامية الصغرى ، حين نتساءل عن أسباب بطء التنمية ، وما هى أهم مشكلات الدول النامية ؟ وكيف تعجل بالتنمية ، بتقديم الحلول والمقترحات المخططة ؟ ! وفيما يتعلق بأسباب بطء التنمية ، يمكن تحديد مشكلات الدول النامية فى النقاط الثلاث الآتية :

١ - بطء التغير :

من الظواهر المألوفة فى كل عملية تغيرية لتطوير نمط إقتصادى متبع ، ظهور أو انبثاق قوى أيديولوجية مضادة ، لتعويق التغير ، ووقف التطور . والأمثلة على ذلك كثيرة من المجتمعات النامية والمتخلفة ، وحتى فى الدول المتقدمة نفسها . ففى الاتحاد السوفيتى مثلا ، قاومت نظم الملكية الخاصة ، وحوافز incentives الإنتاج ، ونظام التوريث ، وكل ما يسود البناءات الأسرية والعائلية من قيم وتصورات وأنماط ، قاومت كل هذه الأوضاع القديمة

وتمردت ، ووقفت عقبة كأداء فى وجه « قوى التغيير الثورى » لكى تحاول تعويق عمليات التطوير الفورى ، تلك التى صدرت عن قيادات ديكتاتورية ، وسلطات مستقبدة ، فرضتها الدولة الشيوعية الناشئة ، (١) حين تطلعت روسيا نحو فرض القوة ، بطريقة اتسمت بالصرامة والقسوة ، كما واشتهرت باستخدام أساليب عنيفة عرفت بالشدة والتعسف ، عن طريق فرض الضغط والقهر لدفع عمليات التنمية الاقتصادية بفضل تحريك قوى هائله وطاقات جبارة . وبالرغم من وجود هذه القوى الدكتاتورية الضاغطة والمحركة ، كان التغير الاجتماعى والاقتصادى بطيئاً منذ البدايات الأولى ، لوجود مثل هذه « القوى المضادة للتغيير » ، ولتكوين « عناصر المقاومة » التى تتمسك بأيديولوجيات التركيب الطبقى والطائفى والوطنى التى تثير النعرات والعصبيات ، والتى تخلق فى نفس الوقت حساسيات طائفية ووطنية وطبقية كامنة فى سيكولوجيات الوعى ، بين سائر الطبقات والطوائف الوطنية ، بالالتفات الكامل نحو ما يسود فى المجتمع من قيم وأتجاهات ، قد تقف كعقبة تقليدية فى طريق التنمية الاقتصادية .

أ - فالعامل الأيديولوجى عامل أساسى من عوامل بطء التنمية ، وهناك عوامل أخرى تؤدى إلى الابطاء فى سرعة التطوير الاقتصادى ، أو إلى الركود أو السكون وسيادة عدم الرواج الاقتصادى ، مما يؤدى إلى تقهقر فى حركة النسق الاقتصادى وتدهور فى درجة النمو ، وأنخفاض فى سرعة التنمية ، وبطء معدلات التطوير فى سائر المجتمعات المتخلفة Underbevelopment . ومن هذه العوامل التى ساعدت أيضاً ، على بطء التغيير الاجتماعى والتطوير الاقتصادى ، شعوراً وإحساس المجتمعات المختلفة ، بأنها مجتمعات مستغلة إقتصاديا من دول صناعية متقدمة ،

(1) InKeles, Alex., Social Change in Soviet Russia, New York. 1964.

مما يؤدى بالطبع إلى وجود وظهور « العناصر الوطنية » التى تطالب بالتحرر والاستقلال . فتعمل الرأسمالية العالمية على تأخر وتخلف مثل هذه المجتمعات الثائرة ، وهو ما يسمى فى إقتصـــاديات التنمية ، بتنمية التخلف development of Underdeveloqment [1] .

فالصراعات والحروب الوطنية والأهلية ، والثورات والايديولوجيات المضادة ، كلها عوامل مساعدة للابطاء فى عمليات التنمية . بالاضافة إلى أثر ونتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية ، إلا أن كثيراً من الدول الكبرى مثل اليابان وألمانيا وحتى إيطاليا نفسها ، قد ضربت جميعها أمثلة عالية ومضنية ، فقد عانت هذه الدول وبذلت الكثير من الجهود من أجل تنمية تكنولوجية هائلة ومتقدمة ، كما أنهـــا سريعة وعميقة ومستمرضة . إلى الدرجة التى ترتفع معها قيمة « الين الياباني والمارك الألماني » بصورة ملفته وواضحة فى أسواق المال والتجارة . كما وتنافس فى نفس الوقت الاقتصاديات اليابانية والمنتجات الألمانية ، أكبر معاقل التكنولوجيا المتقدمة التى تعرضها الأسواق الاقتصادية الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية بما تنتجه مصانعها ومؤسساتها الضخمة فى كافة ميادين الانتاج الصناعى والزراعى بكل أشكاله كالانتاج الثقيل والخفيف والمتوسط بالاضافة إلى تراكم السلع فى المجال الاستهلاكى ، مع التقدم الهائل والتطور المستمر فى مجال الخدمات .

ب ـ ومن عوامل بطء التنمية فى المجتمعات المتخلفة ، إنتشار الأمية والجهالة وتخلف نظام الزراعة ، وضعف وسائل النقل ، ووعورة الطرق ، وإنخفاض مستوى الخدمات فى ميادين الصحة والتعليم ، وفى مرافق الاضاءة والمياه والكبارى والتليفونات وكافة وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية .

---

(١) د . اسماعيل صبرى عبد الله ، نحو نظام إقتصادى عالمى جديد ، دراسه فى قضايا التنمية والتحرر الاقتصادى والعلاقات الدولية . الهيئة المصرية العامة ص ١٨٦

وكثيراً ما لا تتلاءم التكنولوجيا المستوردة ، مع طبيعة الدول النامية وظروفها فتقف الأيديولوجيا كعقبة إزاء « تكنولوجيا مضادة » لواقع المجتمع المتخلف ، فليس كل ما هو متقدم فنياً وتكنولوجيا ، يمكن إستيراده ، بل يجب ترشيد عملية الاستيراد ، عن طريق إنتقاء أفضل تكنولوجيا ممكنة ، تتناسب مع ظروف المجتمع وتتكيف مع ما يصلح له باختيار الأفضل ، طبقاً لظروف البيئة ومقومات الثقافة فمن الأخطاء الشائعة فى « إستيراتيجية التنمية » عدم إستيراد الأفضل للمجتمع ، حين تتطلع دول العالم الثالث ، وتندفع نحو تكنولوجيات معينة ومتقدمة ، دون نظر إلى ظروف وإمكانيات « البناء الاجتماعى » أو فهم القيم والمقومات الاجتماعية الوطنية .

ح ـ ونظراً لوجود كل هذه المعوقات والمشكلات ، التى تؤدى إلى بطء التغير فى نسق الاقتصاد ، وقصور سياسة التنمية والانتاج والتطوير ، بدأت « الخبرات الفنية الوطنية » فى الهجرة ، وهى ظاهرة عامة وواضحة فى سائر الدول النامية ، حيث نجد عاملا جديداً يساعد أيضاً على بطء التنمية ، ويتمثل هذا العامل الجديد فى هجرة الخبراء والفنيين ، من العلماء والأطباء ، كما ويتأثر البنـــاء الاقتصادى بالضرورة ، ويضعف مستوى الاداء والخدمـــات ، بهجرة الفنيين وأصحاب الحرف من الصناع والعمـــال المهرة . فلقد عمل « السلطان سليم » ، حين حاول تخريب الاقتصاد المصرى ، على نقل مهرة أصحاب الحرف والمهن اليدوية من الصناع والفنيين المصريين إلى القسطنطينية . ونحن فى مصر وفى كل الدول النامية ينبغى أن نضع حداً لهذا « النزيف الاقتصادى » ، بالتخفيف من هجرة العقول والخـــبرة والايدى الفنية ، تلك التى تسمى فى الدراسات التنموية ، بهجرة التكنولوجيا اللينة Soft technology . فينبغى أن نوقف هذا النوع من الهجرة باستغلال كل الطاقات الوطنية والخبرات المحلية ، بدلا من بذل الجهود والأموال

المضاعفة ، لإستيراد مثل هذه الطاقات والخبرات . فالتكنولوجيا اللينة أو الناعمة لها ضرورتها وخطورتها فى عملية التنمية ، وتقوم بوظائفها ، تمـــاما كما تعمل وتتوظف التكنولوجيا الصلبة Hard-Technology ، فى الاسراع بعملية التطوير والتنمية .

ومن المشكلات الهامة التى يعالجها « خـــبراء النفوس » فى ميادين الصناعة والتكنولوجيا ، مشكلة الثغرة الثقافية cultural gap حيث يحاول علماء الاجتماع الصناعى والثقافى سد هذه الفجوة أو الثغرة وملأها ، حتى لا يشعر الانسان بالاغتراب alienation وعلاج ما ينجم عن وطأة التصنيع ومحنة التكنولوجيا ، بإقامة « قنطرة ثقافية » تربط بين الانسان ونفسه ، فى عالم سريع التغير .

٢ - الطعام لكل فم :

لما كانت مشكلة « الحصول على الطعام لكل فم » مشكلة جوهرية ، تعانى منها مجتمعات متخلفة وتقليدية ونامية ، فقد أصبحت عملية « التنمية فى ذاتها » عملية إقتصادية أصلا تستهدف تطوير « التقليدى » و « المتخلف » فى دنيـــا الثقافات والمجتمعات ، وتغيير طرق الانتـــاج ووسائل المعيشة عن طريق « التصنيع والتكنولوجيا » . حيث تكمن المشكلة الحقيقية فى تنظيم العلاقة التبادلية المتناقضة بين كشافة بشرية متزايدة تتميز بهما سائر المجتمعات التقليدية والمتخلفة ، وبين ضمان وصول الطعام لكل فم ، بإشباع حاجات الانسان الضرورية ، وبإعلان الحرب ضد الجوع وبالكشف عن جيوب الفقر ، وإزالة « عيوب المجتمع » الكامنة فى نفوس الناس . ولا يتحقق كل ذلك إلا بتجديد أنماط السلوك ، وتغيير القيم والاتجاهات الشائعة ، حتى تتعدل النظرة إلى الحياة ، ويتبدل مستوى الطموح level of aspiration .

وهذه هى المكاسب السيكولوجية للتنمية بشقيها الاقتصادى والاجتماعى ،

بالتخطيط المنظم والموجه لكل ماهو مدروس ، حتى لاتعالج مشاكلنا الاقتصادية بطرق ارتجالية ، أو نتركها سدى ، دون دراسة الظروف الطبيعية ، فنهملها بحجة أن « التغيير سيحدث طبقاً لقانون التطور الطبيعى » . وهذا منطق يزيد مشكلة الحصول على الطعام تعقيداً . ولذلك تواجه هذه المشكلة فـــلاسفة التخطيط الاقتصادى ، لتقديم الحلول العلمية والفورية ، لذلك التعارض القـائم بين زيادة الانتاج ، حين تتفوق عليها معدلات الاستهلاك ، الأمر الذى يتطلب حل هذه « المعادلة الصعبة » .

أ ـ فن أسباب « الفقر » و « والجوع » و « التخلف الاقتصادى » حدوث نمو غير متوازن فى الاستهلاك على حساب الانتاج . حين يشبع « الانسان الاقتصادى » رغباته وحاجاته فى نهم ، ومازال « الانسان العربى » يقوم باستهلاك المستورد من السلع كالتبغ والعطور ، والمنتجات البسيطة كأدوات المطبخ والابر والمسامير ، دون أن يبذل جهداً ، أو أن يقابل كل ذلك الاستهلاك بعمليات إنتاجية ، بالرغم من وفرة الأموال النـاجمة عن البترول المستخرج ممـا يعوق تطوير التنمية ويعطل التعجيل بها ، فيصاب البنـاء الاقتصادى بالخلل .

ومن هنا المثال السابق ليس الانتاج الفعلى التصنيع ، بأسرع فى مداه وقوته من إستهلاكنا كما أن عائد الكفاية العملى لحركة النمو الاقتصادى ، لا يتوافق أصلا مع « حالة النهم فى إشباع الحاجات » دون تعفف أو تقشف ، حين يتابع الانسان الاقتصادى تفضيلاته ويحقق رغباته الاقتصادية ولا غرابة فى أن تقوم « تنمية غير متوازنة » فى المجتمعات المتخلفة ، نظراً لشدة الطلب والاستهلاك رغم قلة المعروض .

وتدخل « دالة التفضيل » كى تحدد لنا نمط الانفاق والاستهلاك ، حين يؤدى التفضيل الاجتماعى إلى الزيادة فى الطلب على سلع بعينهـا ، والجماعات فى سائر

الثقافات والطبقات ، مطالبها الاقتصادية وتفضيلاتها الخاصة ، وليست التفضيلات الجمعية هي مجموع التفضيلات الخاصة بالأفراد . بل يتأثر التفضيل الشخصي أو الفردى إلى حد بعيد ، بتفضيل آخر « اجتماعى » أو « طبقى » ، ويتسائل لسق التفضيل بين « الضرورى » و « الكمالى » طبقا لنوع الثقافة ، وتدرج الطبقات . ولسوف يصاب البناء الاقتصادى بالخلل ، إذا ما اقتصرنا على تفضيلاتنا وإشباع رغباتنا ، باستهلاك المستورد والاستمتاع بالسلع الحديثة . حيث أن الناتج من التنظيمات الصناعية ، وما ينجم من المشروعات الاقتصادية ، بالإضافة إلى عائد رؤوس الأموال والكفاية الفنية والعملية ، كل هذا لا يمكن تقديره بدرجة أكبر أو أسرع أو أقوى من تحقيق رغباتنا ومطالبنا وتفضيلاتنا ،

ب ـ ويقول الاقتصاديون إن هناك علاقة توازن صارمة بين اقتصاديات الانتاج والاستهلاك ، نظرا للتضخم المستمر فى تعداد السكان . وثبات رؤوس الأموال ، الأمر الذى يؤدى إلى ضعف أوهبوط معدلات الإنتاج . وتتجلى مهمة الفكر الاقتصادى ، فى تنظيم العلاقة وإيجاد التوازن بين كفتى الاقتصاد الإنتاجى ، والاقتصاد الاستهلاكى .

فالكثافة البشرية العالية التى تتميز بها المجتمعات المتخلفة والنامية ، تحتاج بالضرورة إلى زيادة التركيز على الخدمات ، فى مختلف ميادين الصحة والتعليم والإسكان ، بالإضافة إلى خلق فرص العمل ، وإتاحة المشروعات ، لضمان الحصول على الطعام ، وضرورة وصوله إلى كل الأفواه ، حيث يبتلع الانفجار السكانى كل زيادة إنتاجية ، فتضيع الجهود سدى .

ويضبط التخطيط المنظم معدلات الانتاج والاستهلاك ويوحد بين الجهود المشتركة ، حتى لا تضيع ثمرات التنمية دون جدوى . فالزيادة البشرية وقلة رؤوس الأموال وهبوط الانتاج ، كل هذه مؤشرات تؤكد ضرورة الحاجة إلى القيام

بعمليات التنمية ، والتعجيل بالتطوير الإقتصادى ، حتى تحل مشكلات البطالة والكساد وهبوط الأجور ، فيتحقق بالرواج الإقتصادى الرخاء ، ويضمن الإنسان حياة كريمة فى ظل الرفاهية .

حـ ـ ولا شك أن حل هذه المعادلة الصعبة التى تنظم العلاقة بين « الإنتاج والإستهلاك » ، هو علاج لمشكلة عويصة ، من أهم مشكلات التنمية ، فى سائر المجتمعات والدول النامية التى تعمل على دفع عجلة التطوير الإقتصادى لحل مشكلة الجوع ، فكيف يمكن التوفيق بين أيدى خاملة عاطلة ، ولا تعمل ، وأفواه جائعة تطلب الطعام ؟ ! .

فما فائدة أن ينتج الإنسان الإقتصادى كل ما يستهلكه ، أو يلتهم ويستهلك كل إنتاجه ؟ ! هذه مشكلة تؤدى إلى العجز والبطالة ، وعدم تناسب الأجور مع الأسعار ، ثم أن قلة المعروض من الموارد الإستهلاكية ، يفرض بالضرورة ، إستيراد السلع لمواجهة الضرورات الملحه . مما يحتم علينا ، تغيير سياسة الإستهلاك بضبط النفس بالتقشف والتعفف ، والإدخار بأشكاله ، والإستثمار بطرقة المباشرة وغير المباشرة ، بالإضافة إلى زيادة الشعور بالتضامن والتماسك والإنتماء .

د ـ ومن أجل التعجيل بالتنمية الإقتصادية ، ينبغى الإسراع بتنقية المناخ فى أسواق التجارة ، حتى تتخلص من إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، فتكشف عن « المشروع » و « غير المشروع » من الكسب والدخل الإقتصادى ، بالقضاء على « الدخول الطفيلية » و « الكسب الحرام » فى أقوات الشعب ، عن طريق الاستفادة غير المشروعة من المخزون السلعى ، من أجل الإستغلال والاحتكار ، أو التضارب والتلاعب من أجل زيادة الأسعار ، ثم الانتفاع برفع قيمة السلع المخزونة ،

ويمكن إنعاش الركود الإقتصادى ، بالتنمية والتصنيع وترشيد إستخدام التكنولوجيا وإستيرادها ، من أجل دفع عجلة التطوير ، بقصد التوصل إلى أكبر

معدلات ممكنة للانتاج الصناعي والزراعي، وبقدر يفوق بكثير، بل ويتجاوز إلى أكبر حد ممكن، حين يزيد الانتاج على معدلات الإستهلاك ـ حيث يجب أن تتوافق إقتصاديات الإنتاج مع إقتصاديات الإستهلاك ، وذلك هو أقل تقدير في التصور والتوازن الإقتصادي، حين تتساند في معية Togetherness متوازنة . إذ أن زيادة الدخل القومي، وإرتفاع مستوى الدخول ، بالإضافة إلى الرواج والإنعاش كل ذلك يضمن حياة كريمة للمجتمع بطبقاته وأفراده ، مع ضرورة الإلتفات إلى ترشيد النفقة الفردية ، حتى تتكامل عمليات التنمية إقتصادياً وإجتماعياً في وقت واحد .

تنمية دول العالم الثالث :

من اليسير علينا أن نشبه مختلف دول العالم ، سواء في غناها الفاحش ، أو في فقرها المدقع ، بأنها تماماً كالأفراد ، فهناك دولة « غنية » ومتخمة (١) أو متقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتي ، بينما تعيش دول أخرى « متعددة » و « نامية » ، وتكافح جميعها من أجل الحياة (٢) .

أ ـ وهناك علاقات تنظمها قواعد وقوانين دولية ، ويفرضها نظام إقتصادي

---

(١) إن مـــا يميز الدول المتقدمة إقتصادياً developed countries هو الزيادة المستمرة في دخول الأفراد ، كنتيجة حتمية لنمو الأنتاج القومي أو للنمو المطرد في المدخرات بحيث يصبح معدل الاضافة في الدخل القومي per capita income ، وهو معدل يفوق النمو اليسيري التدريجي .

(٢) تعاني الدول المتخلفة إقتصاديا من فائض بشري هائل ، مع قلة الموارد وهبوط الانتاج ، وعدم توافر رأس المال ، ومن أجل تنمية هذه الدول إقتصاديا وإجتماعياً ، يجب أن تقدم إليهـــا المعونات الإستهلاكية والفنية والتكنولوجية من الدول الغنية بفـــائض إنتاجها . .

دولي بين « دول منتجة » و « دول نامية » ، حيث تقوم بالضرورة علاقات إقتصادية بين دول متقدمة advanced صناعياً وحضارياً ، وأخرى كادحة لم تستكمل بعد نموها الإقتصادى والإجتماعى . ولكل من هذين النمطين المتمايزين آماله ومشكلاته ، ولقد صدر « علم أجتماع التنمية » من أجل حل المشكلات ، ومن أجل تحقيق الآمال .

فالغنى المتخم يزداد غناه ، ويتراكم كسبه ويفيض إنتاجه ، ويتزايد عائد رؤوس أمواله ، وقد يواجه المشكلات العويصة التى تتصل بتحديد قيمة الأجور وتثبيت الأسعار ، وتفشى البطالة وإنتشار الكساد وتضارب البورصات . بينما يعانى الكادح المكافح كثيراً حين يتطلع نحو حياة أفضل ، ونحو عمل دائب ومستمر من أجل التنمية بنوعيها الاقتصادى والاجتماعى .

ومن أجل حل المشكلات الناجمة عن الفقر المدقع والغنى الفاحش ، تحاول الدول المتقدمة الكبرى أن تقوم بمساعدة الدول المتخلفة ، عن طريق « برامج » أو « خدمات » أو « مساعدات » فنية أو تكنولوجية تتم فى شكل « معونات التنمية » وهى معونات إقتصادية وخبرات فنيه ، تقدمها الدول الكبرى إلى دول ومجتمعات العالم الثالث (١) .

---

(١) يضم العالم الثالث نحو ٧٠ ٪ من تعداد سكان الارض ، ولايتعدى إجمالى دخله عن ٣٠ ٪ من الدخل العالمى . ويعانى نصف سكان العالم الثالث من إنتشار الجهالة والأمية ، ولايجد ثلثى أطفاله مكاناً فى المدارس . ويموت عشرات الألوف كل عام جوعاً فى سائر بلدان العالم الثالث ، كما تحصل الدول النامية رغم كل ذلك على ما قيمته ٤ ٪ من قروض البنك الدولى ولم يبلغ معدل إنتاج العالم الثالث سوى ٧ ٪ من الانتاج العالمى .

أنظر فى هذا الصدد :

د . إسماعيل صبرى عبدالله ، نحو نظام إقتصادى عالمى جديد دراسة فى قضايا التنمية =

ب - وتعمل معظم دول العالم الثالث جاهدة، لكي تحقق لنفسها تنمية إقتصادية فتضع البرامج والمشروعات ، وتحاول إستخدام التكنولوجيا المتطورة ، لتعديل وأنماط الحياة ، وتبديل مستوى الطموح Level of aspiration ، وتجديد أساليب الرعاية الإجتماعية ، وتطوير التربية الأساسية بتغيير الأساليب القديمة ، وإستخدام وسائل الإيضاح السمعية والبصرية ، وتعليم الكبار ، ومحو الأمية . بالإضافة إلى بذل الجهود نحو تجديد الأنماط الثقافية ، وتغيير معايير السلوك ، بتبديل القيم أو تعديلها ، وإزالة ما أخنى عليه الدهر ، من نماذج سلوكية جامدة وتصورات وأفكار عتيقة وبالية ، تعمل جميعها على إعاقة عمليات التربية والتنمية ، وخطط التطوير الاقتصادى والاجتماعى .

ولقد أشرنا إلى أن الكثافة السكانية العالية ، إنما تشكل عاملا خطيراً فى إعاقة التنمية ، حيث يواجه المجتمع مشكلات الخدمة الطبية ، والنفقة التعليمية وتطوير المرافق وتحسين مستوى الخدمات ، مما يتطلب الامكانيات التكنولوجية الضخمة ، والجهود البشرية المكثفة ، وذلك لتحديث أو حتى ترشيد التنمية ، من أجل تطوير إقتصادى سريع ومستعرض (١) .

وينبغى فى كل عملية من عمليات التطوير فى التنمية الصناعية ، أن يتحول الانتاج الاستهلاكى ، فيقترب شيئاً فشيئاً إلى إنتاج ما يسمى بالتكنولوجيا الصلبة Hard Technology ، كالمعدات والآليات الجاهزة ، والصناعات الثقيلة وشبه الثقيلة ، بالاضافة إلى محاولة بذل الجهود المشتركة نحو تصنيع هذه التكنولوجيا

= والتحرر الاقتصادى والعلاقات الدولية – الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ صفحات ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

(١) دكتور نبيل السمالوطى التنمية ، والتحديث الحضارى ، مطبعة الجبلاوى ١٩٧٥ .

الجديدة ، وإدخال التحسينات عليها ، ثم نقوم بتصديرها إلى العالم الخارجى بعد استكفاء الحاجة ، بتحقق أغراض الأسواق المحلية .

تصنيع الدول النامية وتحديث الثقافة :

من المشروعات الصناعية والبرامج الاقتصادية التى إشتهرت بها الدول النامية ، صناعة الأدوية والأسمدة ، ومواد البناء ، الأمر الذى يؤدى بالقطع إلى إمتصاص الأعداد الكبرى من الأيدى العاملة ، وارتفاع الأجور ، حيث أكدت نتائج الدراسات التنموية ، وأثبتت أن إنخفاض معدلات الادخار ، قد نتج عن هبوط مستوى الأجور ، وضعف أو قلة الدخول الفردية .

أ - ولا شك أن لكل دولة نامية ، طريقتها الخاصة بالتنمية الصناعية ، طبقاً لظروفها البيئية وسياستها الاقتصادية التى تنظمها ، طبقاً لما تواجهه من مشكلات تحتاج إلى حلول سريعة وناجحه ، عن طريق عمليات التنمية ، والتطوير فى سائر ميادين الانتاج والخدمات .

ب - ولا يؤدى التصنيع فى المجتمعات التقليدية والنامية إلى نفس النتائج ، حيث لا ينجم عن التصنيع تغييرات بنائية متشابهة ، إذ أن المجتمعات لا تتطور صناعياً على نحو متجانس . فتختلف طبيعة النتائج الثقافية والتغيرات الاقتصادية التى تطرأ على بنية مجتمع صناعى ، إذا ما قارناها بنتائج تغير مماثل يطرأ على بنية مجتمع آخر . حيث يتوقف كل « تغير إجتماعى » فى ميادين التكنولوجيا والاقتصاد والصناعة ، على عوامل بنائية وظروف بيئية وإيكولوجية خاصة بالمجتمع موضوع الدراسة ، حين نحاول أن نلقى ضوءاً على تاريخه وتراثه ، وتتفهم قيمه ونظمه وماضيه ، بالاضافة إلى تحليل وتقييم القواعد المحلية ، والمعايير الوطنية ، والكشف عن موارد المجتمع الاقتصادية لتحديد نوع التربة ومعرفة الثروة الطبيعية ،

واستخراج المعادن والمواد الخام من المناجم وبما فى جوف الأرض من طبقات جيولوجية .

وتتمثل المشكلة الحقيقية والكبرى فى كل الدول النامية والمتخلفة ، فى وجود فائض بشرى هائل ، تعانى منه ، نظراً لقلة الموارد وندرة رؤوس الأموال ، والمشروعات الصناعية ، الأمر الذى يؤدى إلى هبوط أو إنخفاض فى معدلات الدخول الفردية ، أو أنها مجتمعات تستهلك الكثير ، بينما تنتج القليل .

وإذا كانت هذه المشكلات ، هى أهم نقاط الضعف التى تعانى منها عمليات التنمية الصناعية والاقتصادية فى دول العالم الثالث ، فان هناك مشكلات أخرى معاكسة تواجهها الدول الغنية الكبرى ، بالرغم من تخمتها وغناها الفاحش .

ومن أهم المشكلات الكبرى التى تواجه الدول المتقدمة والغنية بالموارد ، مشكلات تتعلق بالانتاج وكثافته ، حيث تتنافس الدول الصناعية الكبرى فيما بينها تنافساً رهيباً يسبق الزمن . وهنا نستطيع أن نتساءل : وعلام تتنافس هذه الدول ، فى إنتاج السلع الاقتصادية (١) ؟! .

حـ - إن تراكم هذه السلع وتحسين إنتاجها ، فى سوق المنافسة الاقتصادية ، سوف يخلق مشكلات عالمية صعبة ، حين يختل الميزان التجارى الدولى ، كما وقد يساعد هذا الانتاج الصناعى الهائل على إيجـــاد تكتلات بشعة وغير مشروعة ، فيظهر الجروح فى المدن الصناعية الكبرى ، وتنتشر جرائم العنف والجنوح والتفشى المادية ، ويظهر الالحاد والجماعات المتطرفة ، حيث تخف درجة الضبط ، وتضعف هيبة القانون ، وتقل قداسة الدين فيظهر الشذوذ أو الانحراف الناجم عن التمرد وجنون العزلة ، حين تتدهور القيم الروحية والمثاليات الجماعيه ، بإنفصام عرى

---

(١) هانسون ، أ . هـ : المشروع العـام والتنمية الاقتصادية ، ترجمة الدكتور محمد أمين إبراهيم ، مراجعة الدكتور فؤاد هاشم عوض ، الدار المصرية ، يونية ١٩٦٥ .

التنظيمات القديمة ، وتقهقر الانماط التقليدية ، مع شيوع الامراض الاقتصادية المعروفة ، كالتضخم والقروض ، وصراع النقابات ، والاضرابات ، بالاضافة إلى زوال القيم الاصيلة ، وإحلال القيم الغريبة والدخيلة ، نظراً لذيوع مرض التقليد الثقافى وشيوع البدع والنزعات الفردية ، وإنهيار أو تصدع الاتجاهات الجمعية ، التى تؤكد التضامن وتدعم التماسك والتكامل ، وهذه هى أهم عيوب المجتمع الرأسمالى الصناعى ، بعلله وأمراضه . وكان الحل الوحيد لكل هذه المشكلات التى تعانى منها هذه الدول الغنية الكبرى هو أن تتجه بإنتاجها المكثف نحو وأسواق الدول النامية ، والمجتمعات المتخلفة ، من أجل تنميتها وتطويرها إقتصادياً وإجتماعياً ، نظراً لكثرة ما فيها من العلل والامراض ، وما ينتشر أو يسود من العيوب الاجتماعية .

فاتجهت الدول الكبرى ، بما تعانيه من مشكلات غناها المتخم ، نحو دراسة الصعوبات الناجمة عن الجوع والفقر من جهة ، حتى تحاول تلك الدول الكبرى ، من جهة أخرى ، التخلص من فائض إنتاجها ، حين تتقدم بمعونات إقتصادية وفنية لتنمية الدول التقليدية والنامية . وليس الدافع هنا ، دافعا إنسانياً بحتاً ، من أجل المساعدة والتنمية بتقديم المعونات الاقتصادية ، وإنما هو ، دافع إقتصادى ، بحت ، دفع مثل هذه الدول الغنية الكبرى إلى أن تحل مشكلاتها الانتاجية الخاصة ، بالتخلص من الفائض الاقتصادى كبرامج التنمية ، ومشروعات صناعية ومعونات إقتصادية ، تقدم ككل أو بالتدريج إلى دول العالم الثالث .

د ـ وإزاء مشكلة الزيادة الرهيبة فى إنتاج السلع ، والتنافس القائم فى أسواق التجارة العالمية ، تسعى الدول الكبرى بفائض إنتاجها نحو الدول الفقيرة والنامية حتى لا تحدث الهزات الاقتصادية العنيفة التى تؤثر على إنخفاض الاسعار العالمية ، بالاضافة ، إلى زيادة عرض العمال ، والبطالة بأشكالها الظاهرة والمقنعة ،

وانخفاض الاجور ، وأنتشار الخمود والكساد ، نظراً لانعدام الحركة ، مع ثبات وتوافر الركود أو السكون الاقتصادى ، إلا أنه من أجل الحركة وإحلال الرواج الاقتصادى ، ومن أجل حل هذه المشكلات العويصة وطبقاً لصرامة قانون العرض والطلب ، وصوناً للسعر العالمى للسلع المنتجة ، تحاول الدول الكبرى أن تقدم فائض إنتاجها ، فى شكل معونات إقتصادية ، كما حدث بالنسبة « لمشروع مارشال الامريكى » بعد الحرب العالمية الثانية ، لتنمية المشروعات الاقتصادية لدول غرب أوربا ، بل ولانعاش أوربا بأسرها .

وكانت أسواق الدول النامية والمجتمعات التقليدية التى تحتاج إلى تطوير وتنمية نظراً لبساطتها وبدائيتهـــا ، هى محط أنظار الدول الغنية الكبرى ، وذلك بحجة تطوير مشروعاتها الاقتصادية ، بتقديم « معونات » كانت فى الاصل مشكلة إنتاجية أدت إلى « فائض » فأتجه هذا الفائض الذى يهدد فى وجوده وكثافته الدول الغنية ، نحو تنمية الدول الفقيرة ، حيث أن الفقر والجوع والفاقة إنما هى ظواهر إقتصادية مفزعة ، تهدد رخاء العالم .

وقد تشترط الدول الكبرى من أجل الموافقة على تقديم هذه المعونات ، بعض « الشروط السياسية » التى تمليها على الدول الفقيرة والنامية . وقد ترفض هذه الدول النامية رغم فقرها قبول هذه المعونات الاقتصادية المشروطة سياسياً . إلا أن أنتشار مبادىء الحرية وذيوع الافكار الليبرالية ، قد غيرت جميعها تلك النظرة الاستعمارية لهذه الدول التى نظروا إليها على أنها بدائية أو « متخلفة Underdeveloped فأطلقوا عليها إسماً آخر هو « الدول النامية developing countries » .

ولقد أكد ميثاق الامم المتحدة ، على ضرورة حل المشكلات الاقتصادية والانسانية فى الدول النامية وقد تتعاون الدول الصغرى ، وتعمل على تبادل المعونات فيما بينها ، وتخلق الاسواق المشتركة ، وتعمل على تمويل برامج التنمية بجهودها الذاتية ، أو بالاعتماد الكلى أو الجزئى على الدول الكبرى .

الباب الثانى

كيف ندرس الثقافة ؟

* تمهيـــد
* موقف كارل مانهايم
* صور من الفكر الثقافى
* الثقافة المقارنة
* مناهج البحث فى علم الاجتماع الثقافى

تمهيـــد

قد تتعدد المعـانى فى فهمنا لمضمون كلمة « ثقافة » ، نظراً لتعدد المداخل ، وتعقد المسالك ، إستناداً إلى الوحدة الكلية أو الجشطالتية للثقافة ، من حيث هى « بناء » يسيطر على ميكانيزم حركة الأنساق الداخلة فيه ، إستناداً إلى مبدأ التساند والتعاضد القائم فى الصورة الكلية أو الصيغة الجشطالتية الثقافية .

ولقد حار فى فهم « الثقافة » العلماء ، فأختلف حولهـــا القوم ، واشتدت المناقشات الحامية ، بين مواقف كل من « الفيلسوف » ، و « المؤرخ » ، وعالم البيولوجيا ، من زاوية الموقف الحقيقى لفهم كل منهم لطبيعه الثقافـة . وهناك زوايا أخرى للثقافة ، يتعرف عليها البـاحث الأنثروبولوجى من خلال دراسته المتعمقة للغات الحامية ، ومدى صلة اللغة بالجنس Race ، بالكشف عن الروابط التاريخية التى تربط بين الثقافه وأجناس البشر .

موقف كارل مانهايم :

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن « الثقافة » قد أصبحت من المصطلحات الفنية المعقدة فى معناها السوسيولوجى والأنثروبولوجى ولقد ذهب « كارل مانهايم Karl Mannheim » ، إلى أن دراسة الموضوعات الثقافيـة (1) ، مثل موضوعات الفن والأدب والفلسفة ، إنما يتعذر معها تطبيق مناهج العلوم ، بمعنى أننا لا يمكن أن نتفهم حقيقة الظاهرات الثقافية إلا بتفسير معنـاها ، حيث أنها لا يمكن أن « تشاهد » أو أن يقام عليها « منهج » من مناهج الملاحظة والاستقراء كما هو الحال فى دراسة الظاهرات العينية المشخصة التى يعالجها العلم الفيزيقى .

(1) Mannheim. Karl.. Essays on Sociology of knowledge. Routledge and Kegan Paul, London. 1952. PP. 11-12.

ولذلك حاول مانهايم تطبيق « الاتجاه الوظيفي » في دراسة الظاهرات الثقافية والتاريخية ، وتفسيرها بالنظر إلى السياق التاريخي والزمني ، وتحليلها تحليلا بنائيا وهذا هو مجهود الفكر الذي يبذله نحو « القبض » على معنى تلك الموضوعات الثقافية بقصد فهمها وتفسيرها . ولقد قصد مانهايم بمنهج التفسير التاريخي بما يشير إليه الإصطلاح الألماني Weltanschauung[1] الذي يعني «الإدراك الكوني العالمي» الشامل ، وما يتعلق به من من معان تتضمن ذلك «الروح التفسيري» الذي يستند إلى تلك « النظرة الكلية » والفهم الشامل لبنية الأحداث ومغزى الوقائع التاريخية .

بمعنى أن هذا التصور الكلي المطلق أو أن هذا الـ Weltanschauung هو الذي يميز روح العصر ، ويجب البحث عنه في كل عصر من العصور ، إذا أردنا أن نتعرف على أنماط التفكير السائدة به . وليس الـ Weltanschauung نتاجا للفكر النظري أو الفلسفي ، وإنما يكون الحال على العكس من ذلك ، حيث أن «الفلسفة» والاتجاهات العقلية تعتبر عند مانهايم من مظاهر « روح العصر » تصدر عنها ومن ثم فهي « ليست خالقة لروح العصر » .

ولذلك كان العلم التاريخي ضروريا في تحليل الظاهرات الحضارية ، وتفسير أنماط الفكر والثقافة ، في ضوء ذلك « المظهر الكلي » أو « الروح العام » ، ومن ثم فان دراسة الـ Weltanschauung هي دراسة ديناميكية لأنها تتضمن تحليلا تاريخيا لتطور معايير الفكر ، ولما يطرأ على روح العصور التاريخية من تغييرات .

---

(1) Ibid . pp. 13-14.
(2) Ibid . P. 38.

ويبدو من تلك النزعة التاريخية التى يمثلها مانهايم أصدق تمثيل ، أنه يؤمن بالحقيقة التاريخية وحدها (١) لان التاريخ يقدم المادة الخام التى يستند إليها الفكر ولان الحقيقة إنما تتجسد فى واقع التاريخ ، وتتحقق فى عملية التطور الاجتماعى والتاريخى للمعرفة .

مناهج الفكر عند مانهايم :

وعلى غرار أوجست كونت ، يميز كارل مانهيم بين ثلاث مستويات لتطور المعرفة وتغير الفكر ، حيث أن هناك أتجاهات معينة على هديها يسير العقل (٢) وبفضلها يتجه الفكر . وتتصل هذه الاتجاهات عند مانهايم ، بمراحل فكرية ، أولها مرحلة أو منهج « المحاولة والخطأ » أو الاكتشاف بطريق المصادفة chance discovery ، ثم يتجه الفكر نحو الاختراع Invention وأخيراً يصل العقل إلى مرحلة « التخطيط planning » .

ومعنى ذلك أن كارل مانهايم ، كغيره من فلاسفة التاريخ ، يضع إتجاها عاما يسير فيه الفكر ، ويحاول أن يفسر لنا كيف تخلق « الحاجات الانسانية » نوعا من التفكير ، وكيف يرتبط الفكر فى جذوره الاولية بحاجات الانسان الفيزيقية فان من يتتبع الفكر فى سيره التاريخى النظرى ، المستند إلى ضرورات الفكر الاجتماعى ، وأن من يشاهد الاشكال الاولى للمعرفة . فلسوف يجد إنها قد صدرت عن طبيعة العلاقة بين البيئة الفيزيقية وبين الانسان القديم بأنماط فكره البدائى .

ولقد تمخضت عن تلك العلاقة التى ربطت الانسان بالبيئة ، وانبثق عن ذلك الاحتكاك الانسانى والفكر البدائى ، فى ذلك المحيط البيئى الصارم ، أن ظهرت أولى

---

(1) Ibid . P. 15

(2) Mannheim, Karl., Man & Society In Age of Reconstrnc. tion Kegan Paul. London. 1942, P. 163.

مناهج الفكر الإنسانى الساذج ، إلا وهى صدور « مناهج المحاولة والخطـــأ » أو « الاكتشاف عن طريق المصادفة » .

إذ أن التكيف الانسانى والاحتـكاك المستمر بالبيئة الطبيعية ، يولدان نوعا من السلوك أو موقفا بدائيـا « يقفه الانسان حيـال قسوة البيئة ، ويستند موقف الانسان وسلوكه إلى ما تفرضه العادة وإلى ما يضعه التقليد ، وتخضع كل من العادة والتقاليـد إلى منهج الاكتشاف عن طريق المصادفة ، أو يسميه مانهايم بمـا يشير إليه الاصطلاح الألمانى Finden (١) .

فى تلك المرحلة التى تتميز بالكفاح من أجل الحياة ، والصراع المباشر بالبيئة وبالاحتكاك المستمر بالطبيعة ، يكتشف الانسان أنمـاطـاً من السلوك ، ويستلهم عدداً من ردود الأفعال المختلفة التى يتسلح بهـا ، لمقاومة الطبيعة فى عالم مرير من الكفاح والصراع ، كما يكتسب الانسان فى الوقت ذاته بعضاً من الإمكانيات التى تمكنه من مواجهة المواقف الجديدة ، والتى تساعده على « التكيف الناجح » إزاء بيئة قاسية .

واقد قصد مانهايم بذلك المثال الذى التفت إليه ، ليعبر به عن نوع الحيـاة الاجتماعية الأولى ، التى صدرت معها « أشكال الفكر البدائيـة » و « صور المعرفة الأوليه » إنما قصد بذلك تلك المرحلة التى تتعلق بالصيد وتتميز بجمع الطعام والتى تستند إلى نوع من التنظيم الاقتصـادى والاجـتماعى ، وترتكز إلى أسلوب بدائى من أساليب الحياة ، تصاحبه أولى مناهج الفكر التى امتازت بالمحاولة والخطأ .

وبعد إنتهاء مرحلة « الاكتشاف عن طريق المصادفة » صدرت المرحلة الثانية من مراحل التطور التاريخى والتغير الفكرى فى أساليب المعرفة الانسانية ، حيث حدث تطور هائل فى البناء الاجتماعي ، وطرأ على المجتمع تغير جذرى فى نظمه

(1) Ibid : P. 151

وأنساقه . فصاحب ذلك التطور التاريخي والتغير الاجتماعي تقدم واضح في مناهج الفكر وفي طرق المعرفة . فقد حدث هذا التغير وظهر هذا التقدم ، حين استخدم الانسان مختلف الادوات والنظم التي بفضلها يستطيع أن يحقق بها أهدافاً جمعية ، ومن هنا صدرت تلك المرحلة التغيرية الرئيسية ، التي أسماها مانهايم « مرحلة الاختراع Erfiden »(١) .

وفي تلك المرحلة الثانية ، يتجه الفكر الانساني نحو تكوين الأهداف المحددة ، ومن ثم يفكر الانسان أثناء تقدمه وتطوره ، في كيفية توزيع مناشطه الفكرية ، لتحقيق تلك الأهداف ، وهو في ذلك لا يفكر في موضوعات البيئة المباشرة ، بل يفكر في أشياء لا تقع تحت بصره أو سمعه ، أي أنه بدأ يفكر « فيما وراء الموضوعات » و « فيما وراء البيئة » .

ولقد نتج عن تلك المرحلة الهامة من مراحل الفكر في رأى مانهايم ، ذلك التطور التكنولوجي الهائل ، ونجم عن الاختراع ذلك التقدم الآلي ، من أبسط الاشكال التكنولوجية ، وأكثر الادوات بدائية ، إلى التي هي أكثرها تعقيداً وأشدها تركيباً ، فتطور مثلا استخدام « الحيوان » و « المحراث » ، إلى استخدام « البخار » و « الكهرباء » ؛ وما يتصل بها من أختراعات ومنافع تحقق أهدافاً رئيسية في حياة الانسان والجماعة .

التخطيط ومنهج التفكير المخطط :

ويرى كارل مانهايم ـ أن « الشدة » و « التوتر » اللذين ينجمان من « مرحلة الاختراع » وما يصاحبها من قوى متعارضة ، إنما تفرض علينا وعلى فكرنا ، أن نمر بمرحلة ثالثة ، تلك التي يسميها مانهايم « مرحلة التخطيط Planen »(٢)

---

(1) Ibid. P. 151.
(2) Ibid. p. 152.

أو مرحلة التفكير المخطط Planned Thinking » .

وتتجلى مظاهر تلك المرحلة حين يتقدم الانسان « ويتخطى الفكر الإنسانى مرحلة الاختراع ، ويتعداها نحو مرحلة التخطيط Planeh . حيث يتقدم المجتمع حين يتخلى عن تلك التنظيمات العشوائية » التى كان الفكر الانسانى يستعين بها فى مراحله البدائية الأولية .

وفى مرحلة التخطيط — تظهر إلى الوجود الاجتماعى أنماط جديدة من المعرفة ، حيث تتعدد أبعاد الفكر ببلوغه درجة عالية من التطور ، وحيث تتداخل ميادين الفكر ، فى عالم الاقتصاد والسياسة ، حين تتعقد أنساق البناء الاجتماعى « وحين يتحول المجتمع من « بناء استاتيكى بدائى » إلى بنـــاء « ديناميكى متغير متعدد الأبعاد » (١) .

وأصبحت عملية التخطيط عند مانهايم ومن نحا نحوه من سائر التاريخيين — عملية ضرورية « لتنظيم التغير الاجتماعى » على اعتبار أن التغير هو الحقيقة الأولى فى الوجود ، وأن التطور هو لب الحياة وجوهرها . . .

واستناداً إلى ذلك الفهم — فان التغير الاجتماعى والثقافى والاقتصادى يجعل من التخطيط أمراً « ضرورياً » لا مفر منه ، لمواجهة تلك التغيرات الهائلة التى تصيب الأسس الجوهرية ، فى البناءات والأنساق الاجتماعية ، والتى تلحق بالجوانب الرئيسية فى سائر المجتمعات المعاصرة .

ويعتقد أصحاب التخطيط — كما يقول مانهايم : إن مهمتهم الرئيسية تقوم على تحطيم العادات الفكرية القديمة ، والكشف عن الوسائل الجديدة التى تؤدى إلى فهم هذا العالم المتغير » (٢) .

---

(1) Ibid : P. 153
(2) Ibid : P. 33

ويتضح لنا من هذا القول - كيف حولت النزعة المانهايمية إهتماماتها فأتجهت نحو «الفكر السياسي» وأشادت بدوره الخطير، إلى الدرجة التي أصبح فيها هذا اللون من الفكر السياسي مصدراً هاما من مصادر المعرفة . حيث يربط الفكر السياسي بين «النظرية» و«التطبيق» (١) ، لأنه ينبثق من واقع «التجربة السوسيوتاريخية» ، كما يتصل بالمصالح الجمعية من جهة، ويتجه نحو العمل والانتاج من جهة أخرى . ولذلك اختلفت وجهات النظر السياسية ، وتباينت أشكالها أحيانا من اتجاهات «بيروقراطية» و«ليبرالية» ، أو نزعات «اشتراكية» و«ديمقراطية» في أغلب الأحيان .

ولعلها نجمت جميعها عن طبيعة «التجربة السياسية» وصدرت عن المواقف والأوضاع الإجتماعية السائدة إذ أن الفكر السياسي إنما يرتبط بجذوره في بنية الواقع .

ومن ثم تصدر الفلسفة السياسية ، عن تجربة المجتمع وعن سياق التاريخ ، فللافكار السياسية جذورها البعيدة الكامنة في «روح العصر» و«نسيج التاريخ» و«تربة الفكر الاجتماعي» ، على أعتبار أن المجتمع والتاريخ ، هما المهبط الوحيد لكل «فكرة» أو «إتجاه» أو «مذهب» من مذاهب فلسفة السياسة .

ولعل مانهايم - في تأكيده على الفكر السياسي ، ودوره في التخطيط والتغيير والمعرفة ، إنما ينجم عن إيمانه بالنزعة التاريخية وبالإتجاهات العلمية في علم الاجتماع ، وذلك بتحويلها إلى أداة قوية في أيدي السياسيين وأصحاب التخطيط .

---

(1) Mannheim Karl, Ideology And Utopia, Kegan Paul London 1940. p. 165..

وفى ضوء إستعراضنا لمساهمات مانهايم فى علم الاجتماع الثقافى نجد أن اتجاهاته السياسية والتاريخية ، قد تأثرت إلى حد بعيد بالنزعات الهيجيلية والماركسية والتاريخية (١) ، مما كان لها أكبر الأثر فى تشكيل الفكر المانهايمى وتكوين إتجاهاته النظرية ، استناداً إلى « نسبية الفكر » و « المواقف التاريخية » ، والأخذ بالنزعات « البنائية » والوظيفية فى التفسير التاريخى والتحليل الاجتماعى .

---

(1) Aron, Raymond, La Sociologie Allemande Contempo, raine; Felix Alcan. Paris. 1935 pp. 82-83.

الفصل الثالث

الثقافة وعلوم الإنسان

* ميدان الأنثروبولوجيا وماضى البحث فيه
* بين الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا
* علم آثار ما قبل التاريخ
* الأثنولوجيا
* الأثنولوجيا والأثنوجرافيا
* الأنثروبولوجيا التطورية والثقافة



تمهيد :

حين تندمج دراسة الثقافة مع الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، فإنما تندمج مع فرع جديد من أهم وأحدث الدراسات الإنسانية التي إنشغل بها العلماء في فرنسا وإنجلترا وأمريكا حيث تضافرت الجهود العلمية للكشف عن خصائص ، الإنسان الإجتماعي ، . واتجهت الأذهان نحو فروع علم الإنسان ، التي يضطلع كل منها بدراسة جانب وحيد من جوانب الإنسان ، هـــذا الكائن العظيم ، الذي حارت بصدده الأذهان .

ويعتبر رادكليف براون Radcliffe-Brown على حد تعبير مايرفورتس Mayer Fortes وهو من أساطين الأنثروبولوجيا الإجتماعية المعاصرين فيقول : إن رادكليف براون هو ، أبو الأنثروبولوجيا الحديثة Father of Modern Social Anthropology [1] .

ولقد كان رادكليف براون هو أول من ألقى الضوء على المفهومات والمصطلحات الأنثروبولوجية العلمية الدقيقة ، ففصل فصـــلا تاما بين ما يسمى بالأثنولوجيا Ethnology [2] والأنثروبولوجيا الإجتماعية Social Anthropology وقارن بينهما نظرياً وتطبيقياً ، وحدد لكل منها منهجاً وموضوعاً ، واشر هذه الدراسات المنهجية المشهورة في مجلة South African Journal of Science وبخاصة عدد أكتوبر ١٩٢٣ .

---

(1) Fortes, M., Social Structure, Studies presented to Radcliffe-Brown, Preface by Fortes. Oxford 1944.

(١) الاثنولوجيا هي الدراسة التي تنصب على التحليل التاريخي لانتشار الثقـافة diffusion of Culture وذلك بقصد إعـــادة التركيب التاريخي historical Reconstruction بتشييد أو بناء ماضي الثقافة .

ويستخدم علماء الأنثروبولوجيا الأمريكان ، إصطلاح الإثنولوجيا ، كمرادف لما يسمى بين علماء الأنثروبولوجيا فى بريطانيا بالأنثروبولوجيا الإجتماعية إلا أن معظم علماء الانثروبولوجيا المعاصرين ، وعلى رأسهم رادكليف براون ، ورالف بدنجتون Ralph Piddington يذهبون إلى ضرورة أو وجوب إستخدام الإصطلاح البريطانى ، لأنه أكثر دقة وموضوعية من الإصطلاح الأمريكى ، بمعنى أننا ينبغى إستخدام « الأنثروبولوجيا الإجتماعية » بدلا من إستعمال إصطلاح الإثنولوجيا » (١) .

ولقد إعتمدت الدراسات الأنثروبولوجية طوال تاريخها على دراسة الملاحظات والمشاهدات ، حيث تنقسم هذه المشاهدات تاريخياً إلى نوعين : ويتصل النوع الأول بتلك الملاحظات العابرة التى جمعها الرحالة والمبشرين القدامى . وغالباً ماكان هؤلاء الرحالة الأوائل من غير المدربين أو المؤهلين ميدانياً ، حيث كانوا يجمعون المشاهدات بطريقة عشوائية دون منهج محدد أو « فرض سابق » .

أما النوع الثانى من الملاحظة فيتصل بتلك المشاهدات العلمية التى يجمعها علماء متخصصون كعلماء الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، وكثيراً ما تدرب هؤلاء العلماء تدريبا عاليا فى هذا الميدان التجريبى بإستخدام مناهج الدراسة الحقلية .

ولقد بدأت مناهج الدراسة الأنثروبولوجية العلمية المتخصصة منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حين ظهرت أولا طائفة من علماء الأنثروبولوجيا القدامى الذين شايعوا التيار التطورى عند « تشارلس داروين Darwin » ، ولقد إنشغل الأنثروبولوجيون الأوائل بدراسة « أصل الثقافة »

(1) Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthropology, Vol: L, Oliver and Boyd Edinburgh, Third Edition, 1960.

و «أصل اللغة» و «أصل الدين» ، أى أنهم إنشغلوا فقط بمسألة الأصول origins ، وحاولوا أن يقيموا دراسة تركيبية لتاريخ الثقافة وأصول النظم الإجتماعية .

ثم ظهرت طائفة جديدة من العلماء المتخصصين فى ميدان الدراسات الحقلية ، وبخاصة فى الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية . ومن هنا إتصل البحث الأنثروبولوجى بالعلم والتجربة . وإتسم بدرجة عالية من الدقة والتجريد ، وإندمجت وتطورت جوانب ذلك العلم الحقلى ، فظهرت الكتابات الأنثروبولوجية الإجتماعية الحديثة Modern Social Anthropology عند «رادكليف براون Radcliffe — Brown» ، و «إيفانز بريتشارد Evans - Pritchard» ، و «رايموند فيرث Raymond Firth» و «ماير فورتس Fortes» (١) .

ولقد حددت هذه الطائفة الجديدة من العلماء المعاصرين مجال الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، بتوجيه الأذهان نحو معالجة الأنساق والنظم الإجتماعية ، ودراسة كل ما يتصل بمحتويات أو شكل «البناء الاجتماعى Social Structure» .

الأمر الذى يفرض على علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرين ، دراسة كل مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، منذ عصور ما قبل التاريخ . فندرس التنظيم الاجتماعى للأسرة ، وظواهر الدين والسحر ونماذج الحياة الاقتصادية البدائية ، بالاضافة إلى الانشغال بأنساق القيم والمعتقدات ، وكل ما يتصل بعناصر «الضبط الاجتماعى» ، من قواعد وعرف وتقاليد تحدد لنا طبيعة القانون البدائى Primitive Law» .

وختاما ، فإن دراسة «الانسان الاجتماعى» هى دراسة زاخرة بجهود علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وفى كل المجالات وسائر الميادين ، بقصد تحليل المجتمعات

(1) Radcliffe-Brown, A R: Structure and Function in Primitive Society., Cohen and West, London, 1956.

والحضارات التى يزخر بها الجنس البشرى ، حيث نشهد فى مجتمع الانسان « نسقا ثقافيا وبشريا فذاً » ، يجمع الكثير من أشكال البشر والعديد من « الوان الثقافة » ، حيث تندرج هذه الاشكال البشرية ، وتتوحد هذه الثقافات الانسانية ، كى تتحقق برمتها فى وحدة تؤلف بين ماتنافر منها وتباعد ، تلك هى « وحدة الجنس البشرى » التى تتبعثر كى تنتشر فى الارض زمراً .

ميدان الانثروبولوجيا وماضى البحث فيه :

لا شك أننا فى حاجة إلى أن نعرف شيئا عن مفهوم « الانثروبولوجيا » ماهى ؟! وكيف صدرت الكلمة ؟! وإلى أى حد تطورت الكتابات الانثروبولوجية فى ضوء ماضيها وأصولها التاريخية ؟! .

لقد صدرت كلمة « الانثروبولوجيا Anthropology » عن أصلين يونانيين والاصل الاول « أنثروبوس Anthropos » ومعناه « الانسان » ، أما الاصل الثانى ، « لوغوس Logos » فهو يعنى « العقل » أو العلم أو « الكلمة » كما يسميها المتفلسفة الاسلاميون .

ومن ثم صدرت كلمة « الانثروبولوجيا » كى تعنى « علم الانسان » وهناك تعريفات متعددة للأنثروبولوجيا تختلف باختلاف الكتاب والعلماء ، فقد يطلق على الانثروبولوجيا بأنها « علم الانسان من حيث هو كائن فيزيقى واجتماعى » ، أو بأنها . علم الانسان فى أفعاله وسلوكه ، وقد يطلق عليها بعض الاسماء التى تضفى عليها بعض المفهومات الحضارية والثقافية ، كأن نعرفها بأنها «علم الجماعات البشرية فى إنتاجها » أو « علم الحضارات والمجتمعات البشرية » .

واستناداً إلى هذه التعريفات والمفهومات المتباينة ، يستعمل اسم الانثروبولوجيا للدلالة على مجموعة من العلوم المتخصصة فى دراسة الانسان . ولذلك تهدف الانثروبولوجيا إلى دراسة الانسان إما « ككائن فيزيقى حالى » ، وإما « ككائن

حفرى منقرض » . ومن هنا تستعين الانثروبولوجيا بعلوم التشريح المقارن Comparative Anatomy و «البيولوجيا الانسانية Human Biology» وبعلم «آثار ما قبل التاريخ Prehistoric Archaeology» .

إلا أن الانثروبولوجيا ، من ناحية أخرى ، لا تدرس فحسب الانسان ككائن « وحيد » أو « منعزل » وإنما تدرسه أيضا ككائن « إجتماعى » يحيا فى « مجتمع » ويعيش فى « ثقافة » وينتشر فى الارض « زمراً » . ومن هنا صدرت عن الانثروبولوجيا بعض الفروع والعلوم المتخصصه مثل « الانثروبولوجيا الاجتماعية » و « والانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology» لدراسة الانسان ككائن حضارى يعيش فى ثقافة .

ولقد كثرت المصطلحات الانثروبولوجية ، وتفشت الاخطاء اللغوية والميثودولوجية فى إستخدامها ، وخاصة فى الكتابات الانثروبولوجية القديمة ، فلقد إستخدم العلماء القدامى كلمة « الانثروبولوجيا » كما لو كانت ترادف « الاثنولوجيا Ethnology » ، ويمكن القول بأن الانثروبولوجيا الاجتماعية ، قد نشأت حقيقة فى أحضان الدراسات الاثنولوجية والكتابات الأثنوجرافية ، فدخلت بذلك كل تلك الدراسات والمحاولات فى صلب دراسة الانثروبولوجيا العامة General anthropology .

بين الانثروبولوجيا والاثنولوجيا :

لا شك أننا إذا ما تناولنا علم الانثروبولوجيا الاجتماعية بالدراسة المتأنية الدقيقة ، لوجدنا أنه علم حديث نسبيا أستخدم منذ نصف قرن أو يزيد ، كى يتميز تماما عن المفهوم القديم للأثنولوجيا Ethnology ، وكان السير جيمس

فريزر Sir James Frazer هو أول من إستخدم هـذا الاصطلاح الجديد ، (١) وبخاصة فى محاضرته المشهورة التى ألقـــاها فى جامعة ليفربول Liverpool فى ١٤ مايو عام ١٩٠٨ تحت عنوان « مجال الأنثروبولوجيا الإجتماعية The Scope of Social Anthropology » .

وفى هذه المحاضرة ، حدد جيمس فريزر ، دراسة الأنثروبولوجيا الإجتماعية بأنهـا محاولة علمية للكشف عمـا يسميه بالقوانين العامة General Laws التى تحكم الظاهرات ، وتفسر ماضى مجتمعات الإنسان حتى نتمكن بفضلها أن نتنبأ بمستقبل البشرية ، إستناداً إلى تلك القوانين السوسيولوجية العامة التى تنظم تاريخ الإنسان حيث أن الطبيعة البشرية إنما تتسم بأنها واحدة بعينها فى كل زمان ومكان .

والأنثروبولوجيا الإجتماعية ، هى فى ذاتها دراسة من نوع خاص لأنها دراسة قوامها التجربة والفرض ، تجربة حقلية تستند إلى فروض نظرية موجهـة ، وتقوم على المشاهدة العلمية المنظمة ، ومن ثم كانت الدراسة الحقلية Field-Work هى تلك المحاولة السوسيولوجية لتطبيق المنهج الإستقرائى Inductive Method المرتبط أصلا بصلب مناهج العلوم الطبيعية ، على دراسة المجتمع البشرى للكشف على طبيعتة ونظمه وتطوره (٢) .

ولقد انشغل الإنثروبولوجيون الأوائل ، بمسألة الأصول Origins ، فثارت المناقشات النظرية ، والتأملات الظنية حول أصل الظواهر الاجتماعية . فالتفت القدماء إلى « أصل التوتمية » و « نشأة الدين » وأصل « الزواج الخـــارجى أو الاكسوجامى Exogamy » .

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Method on Social Anthropology-Chicago. 1958. P. 33.

(2) Ibid., P. 96.

ولكن الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية المعاصرة ، إنما تستخدم مختلف المناهج القائمة على التجربة والتي تخضع للمشاهدة العينية المباشرة ، فتدرس النظم والانساق الاجتماعية أستناداً إلى مناهج الملاحظة والتحليل والمقارنة وفي هذا الصدد يعرف د. البروفسور رادكليف براون Radcliffe - Brown مجال دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، في تعريف جامع مانع ، بقوله :

« يمكننا أن نعرف الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بأنها دراسة طبيعة »
« المجتمع الانساني دراسة منهجية منظمه ، تعتمد على مقارنة الأشكال »
« المختلفة للمجتمعات الانسانية ، بالتركيز على الأشكال الأولية »
« للمجتمع ، البدائي » (١)

ولكننا بإزاء هذا النص ، ينبغي أن نكون على حذر من الانزلاق والوقوع في بعض الأخطاء التي شاعت حول مفهوم كلمة « البدائي » فالمجتمع البدائي ليس بدائيا بالمعنى التاريخي للكلمة . حيث أن النظم البدائية لا تمثل المراحل الأولية للنظم الانسانية فلا ينبغي إطلاقا أن نقارن الانسان البدائي الحالي بذلك الانسان الحفرى الذى عاش وانقرض منذ فجر التاريخ ، حيث أن البدائي لا يماثل تلك الكائنات الانسانية التي تخطت الحالة الحيوانية الصرفة . ولعل هذا الفهم الخاطىء قد صدر أصلا عن تلك المذاهب الداروينية والتيارات التطورية التي التحمت بالدراسات الأنثروبولوجية ، التي استخدمت المناهج التطورية القديمة ، التي كانت تقارن بين الثقافة البدائية السائدة في المجتمعات الافريقية والأسترالية ، وبين الثقافة أو الحضارة الحديثة السائدة في مجتمعات أوربا وأمريكا .

ومن هنا كان علماء الأنثروبولوجيا التطورية القديمة ، يقارنون بين نوع

---

(1) Ibid, P. 133.

الثقافة أو العقلية البدائية وبين نوع الثقافة الأوربية ، فنظروا إلى الثقافة البدائية على أنها « أشكال أثرية » لثقافة الانسان الحفرى . ودرسوا المجتمعات البدائية على أنها « متاحف » تكشف عن كائنات حفرية حية . وهذه نظرة خاطئة حيث أن الانسان البدائي إنما هو إنسان بدائي نسبيا ، كما أن أقل حالات البدائية وأكثرها بساطة في عصرنا الحالي ، إنما تعد مرتبة عالية من التطور والتقدم ، إذا ماقورنت بحالة الانسان الحفرى القديم . كما يوجد لبعض المجتمعات البدائية الحالية تاريخها الطويل وثقافاتها المعقدة تلك التي تمتد إلى آلاف السنين ، وبذلك أكدت الأدلة التي تؤيد فكرة أن الاجناس البدائية والحالية ، إنما بلغت ما بلغته في ثقافتها وأسلوب حياتها بعد تطور بطيء شاق استمر طويلا . فالحالة البدائية ليست بالحالة الاثرية القديمة ، ولكنها حالة بدائية نسبياً إذا قورنت بحالة الانسان في المجتمع الحديث (١) .

وجملة القول . . . لقد صدرت العلوم الانثروبولوجية ، إجتماعية كانت أم فيزيقية أم ثقافية ، لدراسة الانسان ككائن إجتماعي أو حضاري ، فتدرس هذه العلوم الانثروبولوجية بكافة مجالاتها وميادينها الخاصة ، أشكال الثقافة وأبنية المجتمعات بالتركيز على دراسة أشكال المجتمعات الاولية ومعالجة ما يسمى بأنماط الثقافة البدائية Patterns of Primitive Culture (٢) .

ومن خلال هذا الاطار الكبير الذى يشتمل على مجتمعات بني الانسان ، نجد عدداً من المجتمعات الصغيرة والمحدودة نسبياً ، والمتأخرة إقتصادياً ، يسميها الانثروبولوجيون الاجتماعيون بالمجتمعات البدائية Primitive Societies .

---

(1) Ibid., P. 134.

(2) P dlington., Ralph., An Introduction to Social Anthropology, Vol : I Oliver and Boyd, Edinburgh. Third Edition: 1960.

ولعل دراسة هذه المجتمعات البدائية ، هي الموضوع الرئيسي (١) الذي يضطلع بدراسته علم الأنثروبولوجيا الإجتماعية الذى هو الدراسة السوسيولوجية للأشكال البدائية ، كما أنه أيضاً المجال الحيوى لسائر العلوم الأنثروبولوجية برمتها . حيث تدرس مختلف فروع الأنثروبولوجيا العامة General Anthropology ، كيفية تكيف الإنسان البدائى بمختلف البيئات الفيزيقية ، الجغرافية ، والإجتماعية والثقافية .

ونستطيع أن نحدد مختلف فروع العلوم الأنثروبولوجية ، التى تدرس الإنسان وبخاصة بالتركيز على الإنسان البدائى بالذات . حيث تنقسم العلوم الأنثروبولوجية عند « رالف بدنجتون Ralph Piddington » إلى قسمين رئيسيين : (٢) ويتعلق القسم الأول بالأنثروبولوجيا الفيزيقية Physical Anthropology . تلك التى تدرس السمات الفيزيقية للإنسان ، أى أنها دراسة الإنسان من حيث هو كائن فيزيقى طبيعى ، فتدرس الإنسان العضوى فى نشأته الأولى وفى تطوره عن الرئيسيات Primates ، حتى أكتسب الصفات والخصائص الانسانية ، فى صورة الإنسان العاقل Homo Sapiens ولذلك تعالج الأنثروبولوجيا الفيزيقية مثلا حجم الجمجمة Skull ، وارتفاع القامة ، ولون البشرة ونوع نسيج الشعر وشكل الأنف ولون العين .

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R, Method in Social Anthropology, P, 134.

(2) Piddington, Ralph. An Introduction to Social Anthropology, Vol. I, Oliver and Boyd, Edinburgh, Third Edition, 1960, P. 2.

كما تتصل الأنثروبولوجيا الفيزيقية بدراسة التغيرات العنصرية وخصائص الأجناس Races ، وانتقال « السمات الفيزيقية Physjcal Traits » ، وتتبع المورثات الإنسانية .

ثم إن الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم التشريح Anatomy ، وبعلم الأنثروبومترى Anthropometry ، وهو فرع جوهرى من فروع الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، يدرس القياس التشريحى لجسم الإنسان . ويعالج الدراسة الكمية quantitative لمختلف الملامح والسمات الفيزيقية للانسان الحالى أو الإنسان المنقرض . كما تدرس الأنثروبولوجيا الفيزيقية إلى جانب كل ذلك ، تطور الإنسان منذ مراحله وأشكاله الأولية التى كانت تربطه بعالم القردة العليا anthropoids .

ويتعلق القسم الثانى من العلوم الأنثروبولوجية ، بما يسمى بالأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology وهو ذلك الفرع الرئيسى من الأنثروبولوجيا الذى يضطلع بدراسة مختلف ثقافات الإنسان البدائى Cultures of Primitive Man فالإنسان على مايقول « مالينوفسكى Malinowski » فى مقاله المشهور الذى كتبه فى دائرة المعارف الاجتماعية عن « الثقافة Culture » هو كائن له شكله الفيزيقى وتراثه الإجتماعى وسماته الثقافية . وإذا كانت الأنثروبولوجيا الثقافية ، تدرس الإنسان كما يعيش فى ثقافة ، « إذ أن الطفل حين يولد وهو زنجى الأصل ، وثم ينقل إلى فرنسا ، فلسوف يشب هناك بطريقة تتمايز تماماً عما قد يكون عليه ، إذا كان نفس هذا الطفل قد نشأ فى الغابة موطن ثقافته الأصلية (١) » .

---

(1) Malinowski, B., «Culture», in Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. IV, 1936.

وفى هذا المعنى أيضاً يقول « الفيلسوف الفرنسى ديكارت Descartes » فى مقاله عن المنهج :

« ولما تأملت فى أن الرجل نفسه ، بنفس عقله ، إذا نشأ منذ طفولته بين « فرنسيين أو ألمان ، فانه يصبح مختلفا عما كان يكون ، لو أنه عاش دائماً بين « صينيين أو كانيباليين (أكلة لحوم البشر) » .

« كما أن الأزياء التى أعجبتنا منذ عشر سنين ، والتى قد تعجبنا أيضا قبل أن « تمضى عشر سنين ، تبدو لنا الآن شاذة ومضحكة : بحيث تكون العادة « والتقليد هما اللذان يؤثران فى آرائنا أكثر من أى علم يقينى (١) » .

ومعنى ذلك أن الانسان فى كل زمان ومكان ، وله ثقافته وتراثه الاجتماعى ، وهذا التراث هو المجال الرئيسى فى الأنثروبولوجيا الثقافية . حيث يتألف هذا التراث الثقافى على ما يذكر « تايلور Tylor » من ذلك الكل المركب من المعرفة والمعتقدات والفن واللغة والعادات والتقاليد التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى مجتمع (٢) .

ويذهب مالينوفسكى إلى أنه رغم أن الثقافة قد تولدت أصلا عن إشباع الحاجات البيولوجية ، فان من طبيعة هذه الثقافة ، أن تجعل الانسان يختلف تماماً عن كونه كائنا عضويا أو حيوانيا . حيث أن الانسان لا يشبع حاجاته بطريقة لا تميزه عن الحيوان . وإنما تجد للإنسان رغباته ككائن رئيسى ، بل إنه أرقى

(1) Descartes, Renè, Discours de la Méthode, Hachette, Paris 1937, p. 33,

(2) Evans-Pritchard, E.E., Social Anthropology Cohen, London, 1951.

الرئيسيات ، وهو الحيوان الصانع للآلات ، وهو العضو الاجتماعى الذى يشارك فى جماعته ويحاول الابقاء على سمات ثقافته وأستمرار تقاليده . فالانسان حيوان له ثقافته ، حيث أنه يتميز بتاريخ وحضارة وتراث متراكم ، أما الحيوان فلا ثقافة له .

وتتفرع الأنثروبولوجيا الثقافية إلى فرعين : هما « علم آثار ما قبل التاريخ Prehistoric archaeology » ، و « الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social anthropology » .

علم آثار ما قبل التاريخ :

ولعل علم آثار ما قبل التاريخ هو علم حديث نسبيا يدرس مجتمعات وثقافات ما قبل التاريخ Prehistoric human cultures ، ويتناول أقدم المجتمعات الانسانية منذ ظهور الانسان العاقل Homo-Sapiens ، كما يدرس علم آثار ما قبل التاريخ مختلف المراحل التطورية لثقافة الانسان ، حيث يحدد عالم آثار ما قبل التاريخ ، معالم تفكير الانسان الأول ويدرس مخلفاته ، ويتتبع هذه المخلفات والبقايا ويدرس تطوراتهما من حالاتها البدائية الاولى إلى حالتها الراقية فى بداية العصر التاريخى ، حيث أكتشف الانسان الكتابة ، وتوصل إلى حضارة اللغة ، حيث عبر الانسان عن حضارته وثقافته تعبيراً لغويا باستخدام الكتابة .

وقد يستعين عالم آثار ما قبل التاريخ بعلوم أخرى ، لدراسة البقايا المادية الهياكل والعظام ، عن طريق الاستعانه بعلوم التشريح المقارن والبيولوجيا الانسانية ، أما دراسة الخصائص الجنسية والمعالم الثقافية للشعوب الماضية ، فان عالم آثار ما قبل التاريخ ، يستخدم علم الانثروبولوجيا الثقافية . وعن طريق الاستعانة بالجيولوجيا Geology يستطيع العالم الأثرى أن يحدد العصر الجيولوجى لآثاره وحفرياته . ولذلك يذهب رادكليف براون إلى أنه من الأفضل ألا ينفصل

علم الاركيولوجيا أو آثار ما قبل التاريخ ، عن علم الاثنولوجيا ، إذ أنه دراسة إثنولوجية لشعوب ما قبل التاريخ . ولقد كان أمراً طبيعيا كما يذهب رادكليف براون ، أن تدخل هذه الدراسات المتعددة فى صلب الانثروبولوجيا العامة ، وألا ينفصل علم آثار ما قبل التاريخ عن علم الاثنولوجيا ، حيث أنهما ليسا إلا فرعين من دراسة واحدة .

ولقد أصبحت دراسة آثار ما قبل التاريخ ، دراسة متخصصة إستحقت إستقلالها عن سائر الدراسات الانثروبولوجية ، فلم تصبح أحد أشكال الاثنولوجيا التى تدرس ما يسمى بالباليوإثنولوجى Paleoethnology تلك الدراسة التى تتعلق بشعوب ما قبل التاريخ ، ودراسة البقايا التى تخلفت عن ماضى تلك الشعوب .

إلا أن علم آثار ما قبل التاريخ رغم أستقلاله ، فينبغى أن يكون عالم الآثار على دراية بعلم الحفريات الانسانية ، والجيولوجيا والاثنولوجيا والتاريخ . حين يدرس سائر الاجناس واللغات والثقافات الانسانية متتبعاً للمنهج التاريخى Historical Method ومحققا أهدافه (1) .

وإذا كان علم آثار ما قبل التاريخ ، يدرس ثقافات إنسان ما قبل التاريخ ، فان علم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وهو الفرع الثانى من فروع الانثروبولوجيا الثقافية ، إنما يدرس مختلف « الثقافات البدائية المعاصرة Contemporary Primitive Cultures أى أن علم آثار ما قبل التاريخ ، وهو الفرع الاول ، إنما يدرس الثقافات التى مضت وانقضت ، أما علم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، إنما يدرس الثقافات الحالية أو المجتمعات البدائية الراهنة ، والقائمة « هنا والآن » على

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology, Chicago, 1958. p. 88.

حل تعبير الفلاسفة . على اعتبار أن عالم الانثروبولوجيا الاجتماعيه هو « مؤرخ حاضر » إذا صح هذا التعبير . . .

ولقد تردد أسم « الانثروبولوجيا الاجتماعية » فى ميدان علم الاجتماع فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وبخاصة بين أساتذة الجامعات البريطانية ، وكان « السير جيمس فريزر Sir James Frazer » (١) كما قلنا أول من أستخدم هذا الاصطلاح الجديد ، باعتباره أول من حاز أستاذية كرسى الانثروبولوجيا الاجتماعية عام ١٩٠٨ . ولقد اعتبر « فريزر » دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية كدراسة سوسيولوجية للأشكال البدائية فى المجتمعات ، أما « مالينوفسكى » فقد إعتبرها ودرسها كفرع من السوسيولوجيا كما يطبق على القبائل البدائية (٢) .

وإذا كان « رالف بدنجتون Ralph piddington يقسم العلوم الانثروبولوجية على النحو السالف ، وهو تقسيمها إلى فرعين هما :

(أ) الانثروبولوجيا الفيزيقية .

(ب) الانثروبولوجيا الثقافية . ثم تنقسم الانثروبولوجيا الثقافية عنده هى الاخرى إلى فرعين هما :

(أ) علم آثار ما قبل التاريخ .

(ب) الانثروبولوجيا الاجتماعية .

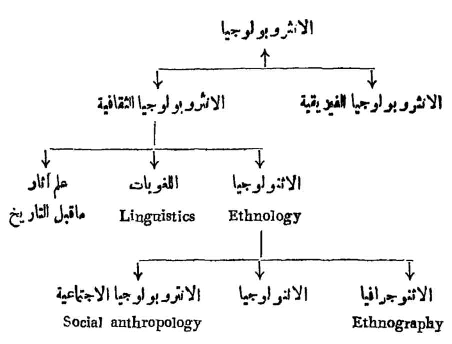
إلا أننا نجد احد علماء الانثروبولوجيا الامريكان ، وأعنى به « فلكس كيسنج Felix Keesing » ، يقسم هو الآخر مختلف العلوم الانثروبولوجية على النحو الآتى : (٣) .

---

(1) Ibid , p. 134.

(2) Ibid., P. 135.

(3) Keesing, Felix, Cultural Anhropology, New York, Fourth printing, 1960, P. 4.



وهنا نجد فى هذا التقسيم ، تمايزاً أو اختلافاً واضحاً ، عن تقسيم « بدنجتون » فلقد قسم « كيسنج » الانثروبولوجيا الثقافية إلى ثلاثة علوم ، هى بالترتيب علم الاثنولوجيا وعلم آثار ما قبل التاريخ ، وعلم اللغويات Linguistics .

وهى دراسة خاصة باللهجات والمفردات واللغات البدائية ، مع عقد شتى المقارنات بين لغات البدائيين وتصوراتهم ، وبين لغات الانسان المتحضر وتصوراته . بمعنى أن « الانثروبولوجيا اللغوية Linguistic anthropology إنما تدرس البناءات والأنساق اللغوية السائدة فى المجتمع . فلقد كانت دراسة اللغات غير الأوروبية ، التى قام بها علماء الإثنوجرافيا ، كانت هذه الدراسة الهامة فى اللغويات ، هى الطريق الموصل من فقه اللغة المقارن Comparative philology إلى الدراسة الحديثة لعلم اللغويات المعاصر . ويدرس هذا العلم فى بعض الجامعات على أنه فرع من الانثروبولوجيا ، يتعلق بما يسمى بالانثروبولوجيا اللغوية . يختص بدراسة لغات وثقافات الشعوب غير الأوربية . وبخاصة تلك الشعوب التى ليس لها تاريخ مكتوب .

وتستخدم « الكلمة » فى الأنثروبولوجيا اللغوية ، بالنظر إليها على أنها « كائن اجتماعى حى » ، كى يعنى مجموعة من الارتباطات الاجتماعية التى تؤلف بين الكلمة والأشياء التى تحيط بالإنسان بدائيا كان أم متحضراً ، حيث أن الكلمة كما يستخدمها الإنسان ، إنما تتكون من مجموعة من المعانى ، وتتألف من طائفة من الارتباطات التى تجمعت حولها .

وغالباً ما يجمع واضع المعاجم والقواميس الكثير من الأمثلة المختلفة عن استخدام الكلمة ، ويحاول أن يصنفها ، وأن يحدد استعمالاتها المتعددة وهى استعمالات اجتماعية وثقافية ، لا شك فى هذا ، حيث أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، كما أنها عنصر جوهرى من عناصر الثقافة .

ويذهب مالينوفسكى ، إلى أن الصلة التى تربط بين الفكر البدائى ولغته إنما تتيح لنا دراسة مشكلات منطقية وسيكولوجية . حيث أن التجريد اللغوى والوسائل العقلية ، هى مسائل ذات أهمية كبرى . كما أن دراسة كيفية عمل الفكر عن طريق استخدام اللغة فى أى ثقافة ، مازال من المجالات البكر فى اللغويات الثقافية . وقد تدرس الأنثروبولوجيا اللغوية ، والأنثروبولوجيا الوظيفية ، مسائل جوهرية ، مثل دراسة كيفية عمل اللغة البدائية ومكان تجسدها ، وكيفية اتصال اللغة بالتنظيم الاجتماعى ، وارتباطها بظواهر الدين والسحر فى المجتمعات البدائية (١) .

وهناك أيضا صلة هامة بين الأنثروبولوجيا اللغوية والإثنولوجيا ، حيث أن المشكلة الإثنولوجية للشعب الآرى Aryan ، إنما هى مشكلة لغوية وثقافية ، كما أنها أيضاً مسألة سلالية واركيولوجية (٢) .

---

(1) Malinowski, B., Culture, Enc. of S. S., Vol. IV, 1936.

(2) Radcliffe—Brown, A. R., Method in S. Anth., p. 99.

الاثنولوجيا :

هذا عن الأنثروبولوجيا اللغوية ، التى تمثل الفرع الثانى من الأنثروبولوجيا الثقافية ، والفرع الثالث من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية عند « كيسنج » هو دراسة الإثنولوجيا Ethnology ، التى هى علم دراسة الشعوب . وتنقسم الدراسة الإثنولوجية إلى ثلاثة علوم أو أقسام ، تترتب على هذا النحو : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ثم الإثنولوجيا ثم الإثنوجرافيا Ethnography (1) ، وهى الدراسة الوصفية المقارنة لمجتمعات وثقافات الانسان ، مثل مقارنة صناعات وأدوات مجتمع معين ، ببقية المجتمعات الأخرى ، والقائمة الآن بالفعل . وتلك هى المقارنة الأفقية ، أى أن الدراسة الإثنوجرافية هى دراسة وصفية مقارنة فى المكان وعلى نحو أفقى ، كما تقوم الدراسة ، الأثنوجرافية بتصنيف الشعوب ، وعقد المقارنات بين أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها . حيث تتشابه الجماعات العنصرية بصفات جنسية ، كما أنها أيضا تتميز باختلاف اللغة ووسائل المعيشة ، وطرائق التفكير وأنماط السلوك .

وإذا كانت الأثنوجرافيا تتميز بأنها دراسة أفقية لظاهرة من الظاهرات فى سائر أنحاء المجتمعات . فإن الاثنولوجيا هى الدراسة الرأسية لمظاهر الثقافة بشقيها المادى واللامادى مع محاولة التعرف على ماضى تلك السمات ، والظاهرات الثقافية . أى أن انتباه الباحث الأثنولوجى إنما ينصب على دراسة تاريخ الظاهرات الانسانية ، أى أن اتجاه الباحث هنا يكون اتجاها تاريخياً بحتاً ، بمعنى أن الدراسة الأثنوجرافية ، إذا ما كانت دراسة مقارنة فى المكان Space ، فإن الدراسة الأثنولوجية إنما هى دراسة مقارنة فى الزمان Time ، وبخاصة الزمان الماضى

(1) Ibid., p. 136.

المنقضى ، وبذلك تكون الدراسة الاثنولوجية هى تلك الدراسة المقارنة الرأسية للظواهر والشعوب ، أى أنها مقارنة زمانية لماضى الظاهرات والثقافات ، وهى مقارنة تاريخية تستند إلى دراسة تطور الظاهرات عبر التاريخ والأجيال الماضية .

ومن ثم فإن الاثنولوجيا هى علم دراسة الشعوب ، وهـذا ما يعنيه الأصل اليونانى « إثنوس Ethnos » ، وهو الأصل الذى عنه صدرت كلمة إثنولوجيا ، وتعنى كلمة « إثنوس » اليونانية ، دراسة الشعوب .

ولذلك تدرس الاثنولوجيا خصائص الشعوب اللغوية والثقافية والسلالية ولعل كلمة « إثنولوجيا » يشوبها الكثير من الغموض والاضطـــراب ، نظراً لاستخدامها بشتى المعانى ، عند مختلف علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. كما خلط علماء الأنثروبولوجيا فى الدراسات القديمة بين مفهوم الأثنولوجيا ، ومفهوم الانثروبولوجيا الاجتماعية، على الرغم من وجود الفروق الميثودولوجية التى تميز بينهما .

فالدراسة الأنثروبولوجية الاجتماعية، إنما تستند أصلا إلى التجربة التى تتحقق فى الدراسة الحقلية Field - Wrok . ولكن الاثنولوجيا إنما تهدف أولا وقبل كل شىء إلى دراسة الصفات والخصائص المميزة لأجناس الانسان، من حيث الملامح الفيزيقية والخلقية السائدة بين بنى البشر .

كما تبحث الإثنولوجيا تلك العلاقة القائمة، التى تربط بين الأجناس والشعوب. وعلى ذلك يمكننا أن نحدد بعض المسائل التى تخوضها الإثنولوجيا وعلى سبيل المثال لا الحصر ، وينبغى أن نؤكد أولا وقبل كل شىء أن المسائل الاثنولوجية ، إنما تتعلق جميعها بالتصنيفات العنصرية والثقافية . كما تتعلق الاثنولوجيا أيضاً بأحداث ما قبل التاريخ .

ومن أمثلة المسائل التى تدخل فى صلب دراسة الإثنولوجيا ، مسألة المصادر التاريخية للشعوب البولينيزية Polynesian Peoples . . . من أين أتت ؟ ! وأى طريق سلكت ؟ ! وكيف ومتى احتلت هذه الشعوب الأجــــزاء والمناطق التى تحتلها الآن ؟ !

ومن أى جهة دخل أجداد الهنود الحمر الحاليين وتسللوا إلى أمريكا ؟ ! . . . . وكيف ومتى ظهرت الأجنــاس الهندية الحمراء ؟ ! . . . وكيف انتشرت هذه الأجناس فوق القارة الأمريكية ؟ ! . . . وما هى المميــزات اللغوية والملامح الثقافية التى نشرتها الثقافة الهندية ، قبل احتكاكها بالثقافة الأوربية ، وقبل أتصال الهنود بالأوربيين لأول مرة ؟ ! (١) .

ونحن إذا ما درسنا شعوب العالم الحــالية ، والشعوب التى مضت وانقضت بانقراضها ، فلسوف يكون لدينا القدرة على دراسة التشابه والاختلاف فى الملامح البشرية من حيث اللغة والثقافة . وربما يحدد عالم الإثنولوجيا مجـال دراسته فى إطار أوجه التشابه والإختلاف بكل دقة ممكنة ، ثم يصنف بعد ذلك الشعوب على أساس الجنس واللغة والثقافة . وإذا ما أراد عالم الإثنولوجيا أن يذهب فى دراسته إلى ما هو أبعد من ذلك ، فانه يتعين عليه أن يستخدم المناهج الاستقرائية التاريخية حيث أن الإثنولوجيا هى علم تاريخى ، يفترض عند إعادة التركيبات التاريخية بعض التعميمات على أساس دراسة إستقرائية واسعة .

بين الاثنولوجيا والاثنوجرافيا :

وإذا ما نحن قارنا بين مناهج الاثنولوجيا و « الاثنوجرافيا » فينبغى الإشارة ، إلى ما يسمى فى علم الأجتماع ، بالدراسة المتزامنة Synchronic ، ونقارنها بتلك الدراسة التى تقع عبر التاريخ diachronic .

(1) Ibid., PP. 137—138.

فالدراسة المتزامنة ، هي تلك الدراسة التي تتعلق بالأحداث والوقائع التي تحدث في عدد من المجتمعات في وقت معين بالذات . وهي دراسة إثنوجرافية وصفية . أما الدراسة الثانية ، فهي دراسة إثنولوجية لأنها تعالج الظاهرة في ضوء ماضيها ، وتدرس الوقائع كما تحدث وتقع عبر الزمن .

وفي الدراسات المتزامنة إنما يكون إهتمامنا بالظاهرة كما هي ، ويمكن أن يكون هدف الدراسة المتزامنة هو تعريف الحالات التي يجب أن تطابق أي ثقافة إذا ما وجدت الآن ، ونحاول دراستها بأقصى دقة ممكنة . حيث أننا نهتم في الدراسة المتزامنة بطبيعة الثقافة وبالحياة الاجتماعية ، وباكتشاف كل ما هو عام ، عن طريق استخلاص أوجه التشابه والاختلافات الكثيرة التي تمثلها نتائج الدراسات المتزامنة . ولا شك أنه في ضوء هذه الدراسات المتزامنة ، نجد أننا في مسيس الحاجة إلى مقارنة أنواع متعددة من الثقافات .

أما النوع الثاني من الدراسة ، فيختص بمعالجة ظاهرة معينة بالذات عبر الزمن حيث ندرس مختلف الطرق التي تتغير بها الثقافة الواحدة ، ونحاول كشف القوانين العامة لعمليات التغير الثقافي Cultural change ، مما يلقي ضوءا في دراسة ماهية الثقافة ، وتحديد طبيعتها ، وكيفية عملها ؟ ومن الطبيعي أن تسبق الدراسة المتزامنة المقارنة ، كل دراسة تاريخية تغيرية . حيث أن التغيرات التي تحدث في القوانين العامة لعمليات التغير الثقافي ، لا يمكن أن تفهم فهما كاملا حتى نعرف الوظائف أو الأدوار التي تقوم بها هذه القوانين .

وإذا ما استطعنا أن ندرس تلك التغيرات التي تطرأ على سمات الثقافة ، فإن ذلك سوف يساعدنا في الدراسة الوظيفية المقارنة حيث يمكننا أن نقارن بين سائر الثقافات المتزامنة ، دون أن نشير إلى تلك التغيرات التي تطرأ على الثقافة نفسها .

حيث يقتضي المنهج المقارن في الدراسات الانثروبولوجية الحديثة الإهتمام

بتلك الانماط الثقافية المتشابهة فى العادات والتقاليد . الامر الذى يوضح كيف يدرس علم الاجتماع المقارن ، أو الانثروبولوجيا الاجتماعية ، الثقافة كنسق أو وحدة متكاملة ، يؤدى كل عنصر فيها وظيفة محددة بالذات .

ولذلك يهدف علم الاجتماع المقارن Comparative sociology الذى يرادف عند راد كليف براون ، دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية ، يهدف هذا العلم الاجتماعى المقارن إلى مقارنة أنساق ثقافية متشابهة ، وداخلة فى دائرة ثقافية Cultural circle معينة بالذات . حيث أن علماء الانثروبولوجيا الإجتماعية القدامى قد وقعوا فى الكثير من الاخطاء المنهجية الشائعة ، وهى محاولة مقارنة عناصر معزولة من مجتمعات متمايزة . إنما ينبغى أن يكون إجراء وعقد المقارنات مشابها لما يجريه عالم المورفولوجيا المقارنة ، فينبغى أن يدرس عالم الإجتماع المقارن ، بنفس الطريقة التى يتبعها عالم التشريح المقارن Comparative anatomy أو عالم الفسيولوجيا حين يقارن بين بناءات عضوية متشابهة لانواع محددة من الحيوان . فيقارن بين الاشكال والرتب داخل الانواع ، كما يقارن بين الانواع داخل إطار الاجناس ويميز بين العائلات الداخلة فى الأنواع والاجناس . . . وكذلك الحال فيما ينبغى أن تكون عليه المقارنة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية .

هذا عن مناهج الدراسة المقارنة فى الإثنولوجيا والإثنوجرافيا ، كما وترتبط بمناهج الإثنولوجيا ، بعض الدراسات والعلوم الإنثروبولوجية ، مثل الانثروبولوجيا التاريخية Historical anthropology ، والانثروبولوجيا التطورية Evolutionary anthropology ، والانثروبولوجيا النشوئية Genetic anthropology وتعالج الانثروبولوجيا التاريخية ماضى الظاهرات والمجتمعات الإنسانية إستناداً إلى المصادر التاريخية الوثيقة والحقائق اليقينية المؤكدة ، حيث تكشف الدراسة الانثروبولوجية التاريخية ، عن تلك العلاقات

القائمة بين الظواهر والأحداث . فالتاريخ لا يعمم ، ولا يستطيع أن يفعل ذلك شرعاً . ولكن التاريخ يوضح لنا أنه فى لحظة ما ، تقع حادثة معينة يترتب عليها شىء معين ، وهذا يشبه ما يسمى بالسبب فى العلم الطبيعى ، وهو عبارة عن حادثة تقع أو ربما تقع دائماً وباستمرار ، ويكون لها دائماً نفس الأثر .

ولذلك نجد أن التفسير التاريخى إنما يرتبط دائماً بالتفصيلات الجزئية ، أو ما يسمى بإيضاح علاقة زمنية بين حادثتين معينتين .

كما تتناسب قيمة التفسير التاريخى ، تناسباً مباشراً مع مقدار المعرفة المفصلة للوقائع والأحداث . وربما يقال إن عالم الانثروبولوجيا التاريخية ، إنما يشرح أوجه الشبه والاختلافات الموجودة بين الشعوب عن طريق الاستقراء التاريخى . وذلك بقصد إعادة بناء التاريخ بالقاء ما يطلق ضوءاً « أوفى وأدق » على ماضى المجتمعات فى تاريخ الثقافات .

الانثروبولوجيا التطورية والثقافة :

أما الأنثروبولوجيا التطورية فتهتم بدراسة « مسألة الأصول origins » متأثرة فى ذلك بالاتجاهات الداروينية ، ومن ثم تدرس الانثروبولوجيا التطورية «أصل الدين» و «أصل اللغة» ، و «أصل القانون» أى أنها تعالج مشكلة الأصول الأولى التى عنها صدرت النظم الثقافية والإجتماعية . أما الانثروبولوجيا التتبعية ، فتحاول أن تتبع نشأة الظواهر الإجتماعية ، وتغيرها من حالات بدائية ساذجة أو بسيطة ، إلى حالات معقدة أكثر تركيباً . أى أن الانثروبولوجيا النشوئية إنما هى دراسة تتبعية لظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، أو محاولة التعرف على سمة معينة من السمات الجزئية لثقافة من الثقافات وذلك بدراسة ماضيها الذى يلقى عليها ضوءاً فى فهمها .

بعض أشكال من الدراسات الانثروبولوجية :

وهناك بعض العلوم الانثروبولوجية المتصلة بدراسة ما يسمى عند علماء الانثروبولوجيا الإجتماعية ، بالبناء الإجتماعى Social structure . حيث تدور حول دراسة البناءات والانساق الاجتماعية بعض الدراسات والعلوم المتخصصة ، مثل الانثروبولوجيا البنائية Structural anthropology و الانثروبولوجيا التحليلية Analytical anthropology و الانثروبولوجيا الوظيفية Functional ، وتتعلق الانثروبولوجيا البنائية بدراسة الانساق والنظم فى تساندها وتفاعلها فى كل متكامل منتظم . فلقد كان الاتجاه العام فى الدراسات الانثروبولوجية القديمة يتجه نحو الدراسة الوصفية الخالصة ، دون أن يلتفت علماء الانثروبولوجيا الاوائل إلى ذلك التفاعل والتكامل الذين تتميز بها النظم والانساق الإجتماعية . ولقد أتجهت الدراسات الحقلية الراهنة نحو النظر إلى العلاقات والنظم والانساق كشبكة بنائية متصلة الاجزاء .

أما الانثروبولوجيا التحليلية Analytical anthropology ، فهى دراسة الباحث الانثروبولوجى حين يرتفع عن مستوى المشاهدات العيلية ، ويسمو فكره عن الملابسات الحسية للوقائع المباشرة . ومن هنا تبدأ الدراسة الانثروبولوجية التحليلية حين تتحرر من دائرة المحسوسات الجزئية ، وترتفع إلى مستوى المجردات حيث ينظر العالم الانثروبولوجى التحليلى ، وبدرجة عالية من درجات التجريد ، إلى وقائعه بعد أن ينتزعها من ملابساتها الحسية ويحررها من تجسداتها المادية .

أما الانثرلوبولوجيا الوظيفية Functional anthropology ، فتهتم بتلك الادوار التى تقوم بين مختلف النظم والانساق فى علاقاتها بالبناء الإجتماعى الكلى وذلك للتعرف على مدى التشابك القائم بين النظم والانساق التى تعمل على تماسك

البناء الاجتماعى واستمرار وحدته وكيانه ، فالأنثروبولوجيا الوظيفية ، إنما تهتم أولا وقبل وقبل كل شىء بدارسة وظيفة النظم والعادات ومظاهر الثقافة المادية ، كالأدوات والآلات والتكنولوجيا ، والظواهر اللامادية الثقافة ، كالفلسفة والفن والدين والأيديولوجيا .

بمعنى أن الأنثروبولوجيا الوظيفية ، على ما يذهب مالينوفسكى Malinowski إنما تدعى أن العمليـــة الثقافية Cultural process ، إنما يخضع لقوانين سوسيولوجية ، وتوجد هذه القوانين أو تكمن فى وظيفة هذه العناصر ، وتلك هى السمات الحقيقية للثقافة .

حيث أن الدراسة الذرية أو للمنهج الذرى Atomic method الذى يختص بدراسة العناصر الفردية أو السمات الجزئية للثقافة، إنما تدرس هذه العناصر الفردية كعناصر وسمات منفصلة أو منعزلة عن سياقها العام ، فلا تربط هـذه الأجزاء والعناصر الثقافية وظيفيـاً بسـائر السمات والعنـاصر الأخرى السـائدة فى البناء الثقافى (١) .

ولاشك أن هذا « المنهج الذرى » لدراسة الثقافة أو المجتمع ، هو منهج عقيم ، نظراً لإغفاله عن تصور الثقافة كحقيقة كلية تتألف من مجموعة من العلاقات المتساندة بين سمات الثقافة الواحدة ، فتتجلى الحقيقة الكلية للثقافة كنسق متوازن من الأنماط والمركبات الثقافية التى تتوظف فى كل متناسق معقد .

ويعطينا « مالينوفسكى » مثالا طيبـاً فى الأنثروبولوجيـا الوظيفية ، والأنثروبولوجيا الثقافية على السواء . فيذهب إلى أن « عصا الحفر » مثلا إنما هى أداة تستخدم فى ثقافة بدائية ، ولذلك تعتبر هذه العصا ظاهرة ثقافية ، كما أنها

(1) Malinowski. B , (Cultuer) in Ecnyclopaedia Social fo Sciences.

أيضا سمة أو عنصر ثقافى له وظيفته فى البناء الثقافى كله . وهى عصا صغيرة بسيطة الصنع لها دورها فى عملية الحفر بحثاً عن الجذور . كما تستخدم هذه العصا لسد حاجة اقتصادية ، ومن ثم كانت عنصراً اقتصادياً له وظيفته فى تلك الثقافة البدائية ، حيث تتميز عصا الحفر مثلا عن « عصا السير » أو « عصا التجديف » أو « عصا الحركى » وكلها عناصر ثقافية تقوم بوظائفها فى ثقافات متمايزة .

ومعنى ذلك ـ أن الأنثروبولوجيا الوظيفية الحديثة ، إنما تنظر إلى أى ثقافة حالية كوحدة متكاملة الأجزاء والعناصر ، بحيث يكون لكل عنصر منها وظيفته أو دوره الذى يتصل بالكل الثقافى برمته . وقد يحدث الاضطراب أو عدم التكامل فى بناء الثقافة ، إذا ما اصطدمت أو تلاحمت بثقافة أخرى دخيلة (١) .

وكثيراً ماينجم عن هذا « الاحتكاك الثقافى Cultural contact » أن تنتشر بعض السمات والعناصر الجزئية من الثقافة الدخيلة إلى الثقافة الأصيلة ، فتتفاعل هذه العناصر الثقافية الجديدة ثم تحدث عملية التحضير Acculturation ، وهى عملية التفاعل الثقافى ، حيث تحدد الثقافة موقفها كنسق متكامل ، يقبل أو يرفض العناصر الجديدة ، كما قد تعدل أو تشكل العناصر الثقافية الدخيلة كى توضع فى عناصر ثقافية تلائم النسق القديم للثقافة الأصيلة . هذه الجوانب تتصل إلى حد بعيد ببعض مسائل الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural anthropology .

ولقد صدرت أخيراً عن الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة ، بعض العلوم المتخصصة ، كالأنثروبولوجيا التطبيقية applieb anthropology ، والأنثروبولوجيا

---

(1) Radcliffe-Brown A R. The present Positton of Anthropologic al Studies, in Method in Social Anthropology. Chioago. 1958. pp. 72-73.

الصناعية industrial anthropology » و « والأنثروبولوجيا السيكولوجية Psychological anthropology » .

أما الأنثروبولوجيا التطبيقية ، فعلم حديث لا يزيد عمره عن أربعين عاماً أو أقل . ولقد تطورت الدراسات الأنثروبولوجية التطبيقية فى مجتمعات جنـــوب إفريقيا واستراليا ، نظراً لارتباطها واتصالها بحل المشكلات الإدارية الخاصة بالمستعمرات .

ولقد ثبت علم الأنثروبولوجيا التطبيقية أقدامه منذ سنوات قليلة ، بالرغم من معارضة بعض الأنثروبولوجيين على مايذكر رادكليف براون . فلقد ظهرت كفاءة هذا العلم التطبيقى الوليد ، بظهور دراسة مشهورة ، أشرف عليها فى جامعة هارفارد البروفسور « إلتون مايو Elton Mayo » (١) ، وتتعلق هذه الدراسة بميدان « الأنثروبولوجيا الصناعية Industrial anthropology » ، حيث درست بعض المشكلات التى تتعلق بالإنتاج وقياس مدى كفاءة المصانع . ولقد قامت أخيراً دراسة أنثروبولوجية ، تتناول تحليل البناء الاجتماعى لمحلات « سلفردج » وهى أكبر المحلات التجارية فى لندن (٢) .

ولعلنا نستطيع الآن أن نؤكد تطور الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية فبعد أن كانت قاصرة على دراسة المجتمعات المتخلفة والثقافات البدائية ، اضطلعت الأنثروبولوجيا الصناعية أخـــيراً بدراسة الأنساق الصناعية ولمعالجة مشكلات الانتاج فى المصانع ، على اعتبار أن المصنع إنما يؤلف فى ذاته نسقاً ضيقاً أو

---

(2) Radcliffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology, Chicago, 1958. p. 105.

(٢) الدكتور احمد أبو زيد — الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع — مجلة كلية الآداب بالاسكندرية — ١٩٥٦ .

بناءاً محدوداً مغلقاً يمكننا أن نقوم إزاءه ببعض الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية التي تكشف عن طبيعة النظم الصناعية والعلاقات الانسانية Human relations السائدة في أبنية المصانع والمؤسسات . الأمر الذي يؤدي إلى بنا إلى حل المشكلات السيكولوجية والانتاجية ، وهي من اهم مشكلات عصرنا الراهن .

الأنثروبولوجيا السيكولوجية :

وهناك صلة وثيقة تربط الانثروبولوجيا الاجتماعية بعلم النفس ، فصدرت بذلك بعض الدراسات المتعلقة بعلم النفس الاجتماعي Social psychology ، والانثروبولوجيا السيكولوجية Psychological anthropology ، تلك التي تدرس المظاهر السلوكية العامة لبني البشر حين يعيشون في « مصنع » أو في «طبقة» أو « جماعة » ، حيث أن هناك نظرة قديمة يقول بها الفلاسفة حين قالوا بمبدأ الوحدة النفسية للجنس البشري « Paychic unity of Mankind » ، بمعنى أن الإنسان ذو عقل واحد ، ونفس واحدة . ولكن لقد تحطم مبدأ الوحدة النفسية للجنس البشري ، حين تمايز الأنســـاق السيكولوجية الثقافية ، فتدرس الانثروبولوجيا السيكولوجية ، الخصائص العقلية والسلوكيـة السائدة في مختلف الأنماط الثقافية ، وفي هذا الصدد يقول رادكليف براون :

« عنـدما تدرس سيكولوجية الفرنسيين أو الالمان أو الامريكان » فإننا نعني بهذه الدراسة أن نعالج الخصائص العقلية والملامح السلوكية الناجمة عن شروط الحياة في نسق اجتماعي معين بالذات » (1) .

ويتضح من هـذا النص ، أن الانثروبولوجيا السيكولوجية ، إنما تضطلع بدراسة الاحوال السيكولوجية للجماعات ، وبثقافات الشعوب ، ومدى تأثير

(1) Radclifffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology. pp 103-104.

الأحوال البيئية العامة فى السلوك ، كما تدرس أيضـــا تقاليد الشعوب وعاداتها customs ومثلها Ideals ، نظراً لانعكاس كل ذلك على أنماط الفعل الاجتماعى Social action ، وأشكال السلوك ومظاهر الحياة العقلية والفكرية برمتها .

ومعنى ذلك أن الانثروبولوجيا السيكولوجية ، إنما تضطلع بدراسة تلك الاختلافات السيكولوجية المتصلة بالأجناس البشرية والجوانب العنصرية ، حيث أن الاختلافات العنصرية إنما تؤدى بالضرورة إلى اختلافات سيكولوجية .

وبذلك تعالج الانثروبولوجيا السيكولوجية الجوانب العامة لسيكولوجيا الثقافات والمجتمعات ، بحثاً عن روح الجماعات ونفسية الشعوب . بالإلتفات إلى الصفات العقلية والسلوكية لأعضاء « جماعة » أو « طبقة » أو حتى « ثقافة » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حينما يدرس عالم الانثروبولوجيا السيكولوجية مجموع الخصائص العامة لسيكولوجيا الفرنسيين أو الالمان ، إنما يعالج تلك الصفات الخاصة بالعقل الفرنسى ، أو «الروح الالمانى» كما يتجلى فى سلوكه وأنماط أفعاله . وكلها خصائص جوهرية تنجم بالضرورة عن ظواهر التكيف الثقافى والاجتماعى داخل إطار أنساق اجتماعية معينة بالذات .

أى أن الدراسة الانثروبولوجية السيكولوجية ، إنما هى دراسة تكشف عن فحوى الجماعات وروحها وضمـــيرها ، وذلك بدراسة الخصائص العقلية mental chracteristics والأنماط السلوكية التى تتسم بها سائر الشعوب والثقافات الانسانية .

ولذلك ذهب رادكليف براون ، إلى أن الأنثروبولوجيا السيكولوجية إنما هى « علم نفس خاص Special Psychology » يعالج سيكولوجيات ثقافية محددة بالذات (١) . فإذا ماكان علم النفس العام ، إنما يدرس «الخصائص السيكولوجية»

(1) Ibid, p. 103.

للطبيعة الانسانية فى عمومها . فإن علم النفس الخاص إنما يدرس « سيكولوجيات خاصة Special psychologies » بمجتمعات وشعوب معينة ، ولذلك يعالج علم النفس الخاص تلك المظاهر السلوكية والعقلية ، التى تنجم عن مختلف أنماط الثقافة السائدة فى مجتمعات بنى البشر .

وجملة القول — هذه جولة بين ألوان من العلوم ، وأشكال من الدراسات صدرت جميعها وتفرعت عن « علم الانثروبولوجيا » التى هى علم الانسان » . واضطلع كل منها بدراسة جانب وحيد من جوانب الانسان، هذا الكائن العضوى العظيم ، الذى حارت فى فهمه أذهان العلماء ، وصدرت من أجله سائر العلوم السوسيولوجية والدراسات الانثروبولوجية على السواء .

الفصل الرابع

صور من الاتجاه الثقافي

* الحتمية البيئية
* الإنسان والأرض
* ماذا يدرس علم الإيكولوجيا ؟
* الايكولوجيا الثقافية والتنظيم الاجتماعي
* لوسيان فيفر Lucien Febvre
* فيدال دي لابلاش Vidal de la Blache

الحتمية البيئية Environmentalism :

لعل من أشهر وأقدم مدارس علم الاجتماع الثقافى إلى جانب المدرسة الوضعية ظهور « مدرسة الحتم البيئى environmental determinism » وكان على رأسها « راتزال Ratzel » و « فيدال دى لا بلاش Vidal de la Blache » و « جين برون Jean Brunhes » وغيرهم من أتباع تلك النظرية التى تؤكد فقط على عامل الأرض والبيئة وضغط الشروط الطبيعية الجغرافية فى تشكيل حياة الإنسان وثقافته .

وبالإضافة إلى ذلك إجتاحت علم الإجتماع منذ صدوره مجموعة من التيارات تعددت معها إتجاهات الفكر الإجتماعى ، حين سيطر الاتجاه البيولوجى عند سبنسر Spencer وغيره من سائر التطوريين ، كما سيطر أيضاً التيار السيكولوجى فى تفسير ظواهر الثقافة والمجتمع والتاريخ ، ومن هنا إختلطت دراسات علم النفس باتجاهات علم الإجتماع . فالشخصية مثلا تعبر فى الواقع عن علاقة ثابتة بين منبهات ومثيرات من جهة ، وكما تعبر عن إستجابات أو ردود أفعال من جهة أخرى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، قامت دراسات معاصرة تتابع التيار السوسيوثقافى Socio-Cultural ، حين أهتم « روبرت ميرتون Robert Merton » بإستجابات الأفراد ومواقفهم وسمات شخصياتهم . كما أهتم أيضاً من تابع هذا التيار الجديد من تلامذة « ميرتون » من أمثال « ألفن جولدنر Alvin Gouldner » حين درس وظائف الضبط فى إحداث التوازن equilibrium بين سائر أجزاء النسق أو البناء الإجتماعى ، ولا يرجع ذلك التوازن إلا لتحقيق التكامل بين « ميكانيزمات الضبط » القائمة فى النسق الإجتماعى ، الأمر الذى معه يؤدى النسق

وظائفه بطريقة ديناميكية فعالة (١) .

ومن خلال دراستنا لتلك التيارات السوسيولوجية والثقافية ، وجدنا عدداً من مدارس علم الاجتماع ، مثل « المدرسة الانثروبولوجية الحقلية » ومدارس « الإيكولوجيا » و « المورفولوجيا » والديموجرافيا والانثولوجيا ، تعبر كل منها عن وجهة نظر بعينها ، الأمر الذى معه تعارضت اتجاهات علماء الاجتماع ، وتنوعت مواقفهم وتعددت نزعاتهم ، حتى صار « الفكر الإجتماعى » فى النهاية ، شكلا فريداً ومتنوع الألوان فى حديقة الفكر البشرى .

ولا شك أن الحياة فى ذاتها ، لا يمكن أن توجد « فى فراغ in Vacuo » وإنما تدب الحياة بأقدامها على الأرض ، أو فوق جبل ، كما قد توجد الحياة فى جوف كهف أو أعماق بحر أو باطن صحراء . بمعنى أن هناك بعض القوى الخارجية والتأثيرات والعوامل التى تصدر عن العامل الفيزيقى ، ليكون لها صداها وترد فعلها فى عملية الحياة .

فالكائنات الحية ، هى فى مسيس الحاجة إلى « مكان Space » تمارس فيه « منشاطها الضرورية necessary activities » للقيام بعملياتها الحيوية . وتلك شروط ضرورية وحيوية نجدها متضمنة أصلا فى العالم الخارجى ، وقائمة فى فى البيئة الفيزيقية .

فالحياة بهذا المعنى هى « تركيب Synthesis » أو تأليف بين « الكائن العضوى Organism » و « البيئة Environment » وهذه هى القضية المنطقية الجوهرية التى بمقتضاها قامت « النظرية الايكولوجية » .

---

(1) Gouldner, Alvin-, Modern Sociology, An Introduction to the Study of human Interaction, U.S.A. 1963 PP. 107-122.

الانسان والأرض :

يتضح لنا من ذلك أن النظرية الإيكولوجية ، إنما تستند بالضرورة إلى محورين أساسيين ، هما « الأرض » من ناحية ، بالاضافة إلى بعض العناصر من ناحية أخرى ، وهى ما يتفاعل مع هذه الأرض بما « يغطيها » من سائر الغطاءات النباتية والحيوانية والبشرية بمعنى أن الايكولوجيا الانسانية كعلم وضعى ، إنما يرتكز إلى قطبى « الانسان » و « المكان » أو « البيئة » .

و « البيئة Environment » هى إصطلاح إيكولوجى علمى ، يطلق على كل العوامل أو « القوى الخارجية external Forces » التى يكون لها صداها ورد فعلها فى تكوين وتنظيم حيـاة الكائن العضوى .

وتشتمل « البيئة » على كل ما تحتويه من مادة ضرورية للحياة ، وما يحيط بها من عوامـل وشروط تسهل أو تعقد من سبل المعيشة ، وكلها شروط جغرافية وظروف جيولوجية أو عوامل بيولوجية . وما أعنيه ببساطة ، هو أن « القوى الايكولوجية الخارجية » ، وهى قوى تتعلق بالجو أو المناخ ، أو عوامـل تتصل بالأرض وطبقاتها ، أو ظروف الوراثة بما تكمن فيها من سائر القوى الحيوية التى تتحكم فيها قوانين البيولوجيا نباتية كانت أو حيوانية .

وما يعنينا من كل ذلك هو التأكد من أن هذه « القوى الايكولوجية الخارجية » إنما تفرض على الكائن العضوى أن يتكيف معها ، تحقيقاً لبقائه وتأكيداً لمبدأ الصراع من أجل الوجود » .

ولهذا السبب ، تتصل دراسة الايكولوجيا بعلوم البيولوجيا والمورفولوجيا Morphology والاقتصاد كما ترتبط بعلوم الجغرافيا البشرية ، والديموجرافيا demography ، الأمر الذى يجعلها فى نهاية المطاف مرتبطة بالضرورة بعجلة علم الاجتماع .

ماذا يدرس علم الايكولوجيا ؟ .

حين تعالج الإيكولوجيا مسألة السكان ومناشطهم على سطح الأرض ، فيدرس الإيكولوجى بيئة الكائن الانسانى ويقوم بمسوح طبيعية وثقافية لتلك البيئة ، ثم يربط أخيراً بين مختلف المناطق والبقاع الطبيعية natural area من جهة ، ومن الدوائر والمناطق الثقافية Cultural area ، من جهة أخرى (١) .

ولقد إهتم بمسألة الربط بين الدوائر الطبيعية والثقافية ، مختلف علماء الاجتماع الحضارى ، من أمثال جيدس Geddes » و « برانفور Branford » ، ولو بلاى Leplay » و « جيدنجز Ciddings » كما درس « كروبر Kroeber » فى هذا الصدد تلك الصلة الوثيقة التى تربط بين المناطق الطبيعية والمناطق الثقافية ، وبخاصة بين القبائل الأصلية فى شمال أمريكا ، ثم قسم « كروبر » هذه المناطق الطبيعية إلى ست مناطق ثقافية كبرى .

ولا مشاحة فى أن علاقة الانسان ومناشطه وخضوعه للظروف أو الشروط الفيزيقية التى تتصل بالأرض والبيئة الطبيعية ، إنما تجعلنا نقترب إلى حد بعيد من حقل الدراسات الجغرافية ، وما يتصل بها من علوم الجيومورفولوجيا Geo morphology والديموجرافيا والجغرافيا البشرية Human geography . ولكن الجغرافيا البشرية إنما تتمايز تماماً عن الايكولوجيا الانسانية ، حيث تؤكد الجغرافيا البشرية فقط على تأثير البيئة الفيزيقية على الانسان ، على مايذكر أصحاب مدرسة الحتم البيئى environmental determinism وعلى رأسهم « راتزل Ratzel » و « فيدال دى لابلاش Paul Vidal de La Blache » و « جين برون Jean Brunhes » ، وغيرهم من أتباع تلك النظرية التى تؤكد على أثر العوامل

(1) Hawley. H., Amos., Human Ecology., A Theory of Community Structure, Ronald, New-York 1950 p, 70.

الجغرافية فى السلوك الانسانى « إلى الدرجة التى يذهب معها « باروس Barrows »
إلى أن الجغرافيا هى علم الايكولوجيا الانسانية Human ecology ، حيث تدرس
الجغرافيا البشرية مختلف الجماعات الانسانية كجزء من الغطاء الطبيعى تماما كما ينظر
إلى الغلاف الهوائى أو الغطاء النباتى أو الحيوانى ، فالغلاف البشرى هو جزء متمم
متمم ومتكامل مع سائر الأغلفة والغطاءات الكونية والعضوية .

ولهذا السبب يصف الجغرافيون ذلك النمط المتغير Tes chauging pattern
الذى يتعلق بدرجة كثافة الكتلة البشرية وتوزيع السكان Population diatri-
bution ، ويفسر كل ذلك فى ضوء العوامل الجغرافية Geographical factors
ولكن الانسان ليس مجرد « غطاء طبيعى » يغلف سطح الأرض ، حيث نجد
للانسان ردود أفعاله إزاء الطبيعة، فهو ليس جامداً يقف سلبياً كتمثال حيال البيئة،
وإنما نجده يخرق الجبال ويبنى السدود ويزيل الغابات ويعبد الطرق ويزرع
الصحراء . وتلك هى جهود الانسان التى تلخصها كلمة حضارة . فالإنسان هو
خالق حضارته وصانعها ، أما الحيوان فلا ثقافة له أو حضارة ، حيث يغير الإنسان
ما هو بيئى أو طبيعى كى يحيله إلى ما هو « ثقافى » . والثقافة أو الحضارة هى عملية
تعديل مستمر للموقف الطبيعى ، كما لا تصدر الثقافة إلا عن عملية تكيف إنسانى مع
البيئة الفيزيقية .

وبهذا المعنى تتمايز الجغرافيا البشرية عن الإيكولوجيا الانسانية ، حيث تتعامل
الجغرافيا مع الناس ومناشطهم activities وتوزيعهم على بقعة الأرض، فلا ينشغل
الجغرافى فى تلك العلاقات المتبادلة interelation تلك التى تنجم من تفاعل
الجماعات والنظم والظواهر والأنساق الاجتماعية . وتلك هى وظيفة الإيكولوجيا
الانسانية ، فلا ينشغل الإيكولوجى على العكس من الجغرافى ، إلا بالعلاقة المباشرة
بين الانسان الاجتماعى والبيئة الطبيعية ، ومدى تضامن الجهود الجمعية والعلاقات

الاجتماعية التى تساندها فى تعاضدها Interdependence وبخاصة فيما يتعلق بتحديد والأفعال وتنظيم ردود الأفعال التى تربط الجهود الجمعية بعملية التكيف مع البيئة الطبيعية .

وبينما يهتم الجغرافى بانتشار الانسان على سطح الأرض ، ينشغل الإيكولوجى بتحليل عمليات التكيف الاجتماعى بالبيئات الفيزيقية ، ودراسة أثر عمليات التكيف الجمعى فى تحديد شكل العلاقات الاجتماعية وصور التنظيم الاجتماعى Social organization . ومن ثم تضطلع الايكولوجيا الانسانية بمهمة سوسيولوجية ، وتعالج مسألة جوهرية فى علم الاجتماع وهى تلك المسألة الخاصة بتطور التنظيم الاجتماعى الذى يكون له صداه فى عمليات التغير المجتمعى .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن للايكولوجيا الانسانية دورها ومجالها ، كما تستند النظرية الايكولوجية إلى مجموعة من القضايا والفروض العامة ، تلك التى تستمد أصلا إلى علوم إيكولوجيا النبات والحيوان والانسان ، وبالتالى فإن المضامين المنطقية Logical implications المتعلقة بالنظرية الإيكولوجية العامة، إنما تنسجم وتتكامل مع دراسات متعددة ومستفيضة فى علوم التشريح والبيولوجيا والجيولوجيا ، وهى علوم متصلة بعالم الكائنات الحية، هذا العالم الهائل الذى يحوى بين طياته حقول النبات وبيئات الحيوان ومجتمعات بنى الانسان .

الايكولوجيا الثقافية والتنظيم الاجتماعى :

وليس من شك من أن هناك ما يؤكد تلك الرابطة الوثيقة التى تربط « الإيكولوجيا » من جهة و « التنظيم الاجتماعى Social organization » من جهة أخرى . فلا يمكن أن يصبح أى شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى فى فراغ ، حيث تتدخل القوى الايكولوجية إلى حد بعيد ، فى تحديد صور وأشكال التنظيمات الاجتماعية .

و « التنظيم الايكولوجى » Ecological organization ، بمعناه الوسيع ، هو شبكة العلاقات و « التفاعلات الوظيفية » Functional inter - Relationship التى بفضلها و بمقتضاها ينتظم الناس فى حياة جمعية(١) . و إستناداً إلى هذا المعنى - ينبغى على العالم الايكولوجى ، أن يركز الانتباه إلى دراسة تنظيم العلاقات الوظيفية « Organization of Functional relations » .

و لهذا السبب ، كان الزمان ، والمكان ، من المحاور الأساسية لكل دراسة إيكولوجية ، وكثيراً ما حدثنا علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، و بخاصة « إيفانز بريتشارد » Evans Pritchard ، « عن الزمان الايكولوجى » و « المكان الايكولوجى » واستند « إيفانز بريتشارد » إلى تلك الأبعاد الايكولوجية ، الزمانية والمكانية ، Ecological dimensions كمدخل رئيسى لدراسته المشهورة عن النوير « The Nuer » (٢) .

بمعنى أن « الزمان » و « المكان » هما من قبيل « الأبعاد » الرئيسية ، التى فى ضوئها نستطيع أن « نقيس » أو أن « نلاحظ » كل « تنظيم إيكولوجى » ولا يمكن أن يقاس أو يدرس أى شكل من أشكال التنظيمات الايكولوجية ، إلا من خلال إطارى « الزمان الاجتماعى » و « المكان الاجتماعى » (٣) .

و بجملة القول - فإن « الايكولوجيا الانسانية » إنما تدرس كل مظاهر التنظيم الايكولوجى ، فى ضوء دراسة السكان فى علاقتهم بالتنظيم الاقتصادى ومناشطهم فى الحياة الجمعية ، ، كما تظهر من سطح البيئة الفيزيقية أو « المكان الاجتماعى » بمعنى

(1) Ibid : p. 198.

(2) Evans — Pritchard, E., E. The Nuer, Clarendon Press, Oxford, 1950

(٣) أنظر كتابنا علم الاجتماع والفلسفة الجزء الثانى « نظرية المعرفة » طبعة بيروت ١٩٦٨

أن التنظيم الايكولوجى إنما يتصل بكل أشكال الأنشطة الجمعية ، وندراستها من زاوية الزمان والمكان ، أى أننا ببساطة ندرس « النشاط الجمعى » كما يظهر للعيان على سطح الارض .

المورفولوجيا الاجتماعية :

إذا كانت « الجغرافيا » هى العلم الذى يدرس « شكل الأرض » ، والذى يعالج مختلف الطبقات الجيولوجية ، ويدرس تلك الصور والظاهرات التضاريسية والإقليمية والمناخية لسائر الدول والمجتمعات ، وما يتفرع عنها من علوم جزئية تحت أسم « الجغرافيا السياسية » تارة أو « الجيومورفولوجيا Geomorphology تارة أخرى ، فتعالج الجغرافيا السياسية ، مختلف المشكلات الإقليمية والمحلية ، كما تعالج « الجيومورفولوجيا » وجه الأرض ومختلف عوامل التعرية وآثارها على الصخور البركانية والرسوبية ، وتدرس الجغرافيا الاجتماعية تطور الجماعات البشرية ، ونمو الظاهرات الحضرية ، مثل نشأة المدن Cities وكيفية ظهورها وتطورها عبر التاريخ . وإذا كان التاريخ ، هو العلم الذى يقتبع تطور الأحداث والوقائع الخاصة بتلك الأشكال الإقليمية ، سواء أكانت مجتمعات « ريفية » أو « حضرية » وإذا كانت « الديموجرافيا Demography » هى تلك الدراسة ، أو العلم الذى يضطلع بدراسة كل ما يتعلق بكيفية توزيع الفضاء الإنسانى أو أشكال الغطاء البشرى على الأرض .

حيث ينبغى أن نؤكد أهمية الدور الوظيفى للكتلة البشرية ، ومدى كثافتها وتركزها ، وكيفية توزيعها ، وطريقة تجمعها فى شكل مجتمعات بسيطة أو معقدة بدائية أم نامية ... قروية أم حضرية ... وهذا ما نقصده بالأشكال الفيزيقية Physical Forms لسائر الزمر والمجتمعات ، وما يتعلق بها جميعاً من تمايز واضح فى طبيعة الأساس المادى للمجتمعات .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، فان المورفولوجيا الإجتماعية ، ليست مجرد دراسة وصفية ، كما أنها ليست علماً سطحياً بسيطاً ، يقوم على منهج المشاهدة Observation حيث يصف المورفولوجي مختلف صور وأشكال المجتمعات ولكن المورفولوجيا الاجتماعية ، إلى جانب أخذها بمناهج الوصف الظاهري ، إلا أنها « علم تفسيري Explanatory Science » .

حيث ينبغي أن تفسر لنا الأبحاث المورفولوجية ، وأن تكشف لنا عن شروط الانتقال والتركيز البشري ، وطبيعة التوطن والتركز من خلال التوزيع السكاني، وكيفية ظهور المدن والجماعات الحضرية Urban Groups .حتى يمكننا في نهاية المطاف ، من أن نتوصل من المورفولوجيا كعلم تفسيري ، إلى تلك القوانين السوسيولوجية العامة ، التي تحكم سائر الظاهرات الايكولوجية والسكانية ، التي تكون هذه الوقائع المورفولوجية إحدى حالاتها الجزئية .

بين دوركايم وجورج زيمل :

لا شك أن كتابات دوركايم في المورفولوجيا الاجتماعية ، قد جاءت كرد فعل مباشر لقراءاته الجادة المخلصة لكتابات كل من «راتزل» و «جورج زيمل» ولقد رأينا - فيما أشرنا من قبل - كيف كانت للبحوث الجغرافية والبشرية عند « راتزل » أثرها الواضح في تشكيل فكرة دوركايم عن « الأساس المادي للمجتمع» وعن دراسة الأشكال الفيزيقية للبناءات الاجتماعية .

ويمكننا الآن ، أن نلتفت فوراً إلى ما جادت به مدرسة « علم الاجتماع الصوري » في ألمانيا ، وبخاصة فكرة الصور الاجتماعية Social Forms ، عند « جورج زيمل » .

ولكننا في هذا الصدد ، قبل أن نتطرق إلى معالجة مقولة « الصور الاجتماعية » ، يتعين علينا أن نميز بين فكرة « الصورة Form » كما يستخدمها « جورج زيمل » ،

وكيف تطورت هذه الفكرة عند « إميل دوركايم » كي تتناسب مع فرضيات ومصادر الأتجاه الدوركايمي في تحديد « صورة المجتمع Form of Society » طبقاً لمفهوم المورفولوجيا الاجتماعية ، وما يعلق بهذا المفهوم من معالجة ودراسة الأشكال المادية والمورفولوجية للمجتمع .

وهناك الكثير من أوجه الشبه التي تربط بين المنهج الصوري عند « جورج زيمل » من جهة ، وبين علم الاجتماع الدوركايمي ، من جهة أخرى . فلقد حاول كل من « زيمل » و « دوركايم » فصل أو عزل « المحتويات الثقافية Contents Cultural » والمضامين السيكولوجية ، حتى تتحقق «الصورة الاجتماعية Social Form » عارية عن مضمون واقعها ، مجردة عن محتوياتها الحسية ، منعزلة عن تجسداتها المادية ، ومن ثم تصبح الصورة الاجتماعية فارغة عن مضمونها الثقافي ومحتواها السيكولوجي . ومن هنا ، يمكننا في زعم « زيمل » و « دوركايم » دراسة الصور الاجتماعية ، باعتبارها إطارات فارغة جوفاء ، وعلى درجة عالية من التجريد .

وإرتكاناً إلى هذا المنهج الصوري في دراسة المجتمع والظواهر المجتمعية ، حاول « جورج زيمل » أن يميز بين « الصورة الاجتماعية » من جهة وبين تجسداتها الحسية والواقعية ، كما تتمثل في السياق المشخص للحياة الاجتماعية وكما تتحقق وتتجسد في الظاهرات الثقافية ، من جهة أخرى .

وفي ضوء هذا التمييز الذي وضعه « جورج زيمل » في دراسة الظواهر الاجتماعية ، نجد أن هذا بالضبط ما أعلنه « إميل دور كايم » حين شايع الاتجاه الألماني الصوري ، فيقدم لنا دور كايم تصنيفاً سوسيولوجيا حين اصطنع منهجين أساسيين من مناهج علم الاجتماع ، اصطنعها دور كايم كي يحدد لنا بعض السمات العامة في ميدان البحث السوسيولوجي ، فيكتشف مجالاً جديداً ، ويتطارق

إلى دراسة فرعين هامين من فروع علم الاجتماع ، إستناداً إلى منهج « الصورة » ومقولة « المحتوى » .

ولست مغالياً فى شيء ، إذا ماقلت إن « دوركايم » قد تأثر بوضوح بكتابات « جورج زيمل » فى هذا الصدد ولست مغالياً أيضاً فى شيء ، إذا ما ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن النظرية السوسيولوجية عند « جورج زيمل » ، قد كان لها صداها فى تشكيل علم الإجتماع الدوركايمى برمته ، إلى الدرجة التى معها تؤكد فى موضوعية تامة ، أن « دور كايم » لم يصدر فى كل كتاباته ودراساته إلا عن « الوضعية الفرنسية » التى أعلنها « كونت » فى دروسه ، وعن بقايا المسائل المتخلفة عن النزعة « الصورية » الألمانية التى أعلنها كل من كانط Kant وهيجل Hegel ، والتى ذاعت فى ميدان علم الاجتماع الألمانى عند « زيمل » و « فون فيز » و « فير كاندت » ، كما كان لها صداها أيضاً فى علم النفس الألمانى وبخاصة عند مدرسة الجشطلت Cestalt » . بمعنى أننا نستطيع أن نعلن بوضوح ، أن كتابات دور كايم فى علم الاجتماع ، إنما صدرت أصلا عن مخلفات « وضعية » و « صورية » و « جشطالتية » ، و ومن ثم كانت لدور كايم صولاته فى ميدان الفلسفة الوضعية ، وجولاته فى ميدان علم النفس ، كما تعمق وغاص فى مصادر النزعة الألمانية الصورية ومنابعها عند كانط وهيجل وزيمل .

وإستناداً إلى فكرة « الصورة » ومحتواها عند « جورج زيمل » ، يرى « إميل دور كايم » أن « البناءات الاجتماعية Social Structures » أو « الأشكال المادية للمجتمع Material forms of Society » إنمـــا تدخل فى صلب دراسة المورفولوجيا الإجتماعية ، بإعتبارها فرعاً رئيسيا من فروع علم الإجتماع .

كما يذهب دور كايم أيضا إلى أن « الظواهر الوظيفية Functional Phenomena » وما لها من آثار إجتماعية ، طبقا للأدوار والوظائف التى تؤديها

بمختلف الظاهرات والأنساق والنظم كما تتوظف فى البنـاءات الإجتماعية ، إنمـا تدخل هذه الوظائف والأدوار فيما يتعلق بالظاهرات الإجتماعية ، تدخل فى نطـاق ما يسميه دور كايم باسم « الفسيولوجيا الإجتماعية physiologie Sociales » .

وإذا كان « جوورج زيمل » قد إستخدم إصطلاح « الصور الاجتماعية » إستخداما مجازيا ، إلا أن « دور كايم » قد إستخدم هـذا الاصطلاح فى عبارة علمية وفى دقة بارعة ملحوظة ، حين عبر عنه فى معناه الاكاديمى ، ومغزاه الفلسفى فنجده يحدثنـا عن الصور الاجتماعية فى مبنـاها الاجتماعى البحت .

حيث أدخل دور كايم فى معالجته لهذه « الصور الاجتماعية » دراسة « الصور الخارجية External Form » التى تحدد الشكل الظاهرى الأساس المادى للمجتمع كما يتمثل فى تحديد حجم المجتمع وحدوده الجغرافية . كما يتضمن الاساس المادى الاجتماعى ، بالاضافة إلى ذلك ، دراسة السكان أو « الكتلة الاجتماعية Social Mass » كما تتوزع فى « تجمعات ثانوية Secondary Grouping » ذات حدود إقليمية وفيزيقية ، كما هو الحال فى القرى والمدن والاقاليم أو المقـاطعات (١) .

ويدخل فى نطاق تلك الدراسة أيضا ، كل ما يتعلق بمختلف المناشط الانسانية للغطاء البشرى ، وما يبذله الانسان فى البيئـة الفيزيقية من جهود ، تغير من مظاهر هـذه البيئة الفيزيقية مثل تعبيد الطرق ، وإقامة الاسواق وتخطيط الميادين ، حيث ترتبط كل هذه الجهود البشرية بحياة الكتلة الجمعية وبسيرها الحضارى على سطح الارض .

مزاعم النزعة الحتمية :

وإلى جانب تلك البدايات الاولية لافتتاح حقل الكتابات المورفولوجيـة ،

---

(1) Halbwachs, Maurice. Population and Society. Introducion to social Morphology, Free Press of Clencoe 1960 P. 12.

كانت الدراسات الكلاسيكية فى الجغرافية البشرية Human Geography التى صدرت بفضل جهود « بول فيدال دى لابلاش Paul Vidal de la Blache » و « فردريك راتزل Friedrich Ratzel » ، والتى كان لها صداها فى الدراسات المورفولوجية الاجتماعية ، والتى اتجهت كلها نحو تأكيد الأثر الحاسم للبيئة الفيزيقية، وأهمية الأشكال الجغرافية للمجتمعات ، على اعتبار أن الظواهر الجغرافية والطبيعية ، هى العامل الحاسم الجوهرى الذى بفضله نستطيع تفسير سائر الظاهرات الاجتماعية .

تلك هى المزاعم التى يؤكدها أصحاب تلك « النزعة » أو « الاتجاه » الذى يطلق عليه اسم « حتمية البيئة Environmentalism » ويتزعم هذا الإتجاه « فردريك راتزل » ، ويشايعه فى تلك النظرة التى تقول بالحتم البيئى، مختلف علماء الإحصاء والجغرافيا والديموجرافيا ، الأمر الذى جعل دور كايم ، ينظر إلى دراسة « الجغرافيا السياسية » على إعتبار أنها دراسة أساسية تعتبر فى ذاتها فرعا من المورفولوجيا الاجتماعية .

حيث أن « الجغرافيا السياسية » إنما تنشغل أصلا بحياة المجتمعات والأشكال السياسية فى مختلف السياسات والدول ، على ضوء علاقتها بالبيئة الفيزيقية وأساسها الأرضى أو الطبيعى . على إعتبار أن سائر « الدول » و « الأشكال السياسية » ما هى إلا أوطان واقعة فى المكان الفيزيقى .

ولاشك أن « البيئة » أو « الوطن » أو « المكان الفيزيقى » ، إنما تعتبر جميعها أساسا ثابتاً لآمال الشعوب وأمانيها وتصوراتها وأحلامها تلك التى تتحكم فى مصير « الدول » و « الأمم » تحكماً صارما أعمى ، على ما يقول « راتزل » فى الحولية السوسيولوجية Annales Sociologique

٥٥٠ أن الحتمية Determinism التى ينادى بها أصحاب المدرسة البيئية ، إنما

يستند إلى قضية جوهرية مؤداها أننا لن نستطيع دراسة الانسان دراسة علمية في إنفصاله عن بيئته التي يدب عليها ، وأرضه التي يفلحها ، تماما حين نستطيع أن ندرس « الدب القطبي » منعزلا عن بيئته القطبية ، أو « الصبار الصحراوي » بعيداً عن الصحراء وجدبها .

تلك هي الفرضية الظرفية التي انشغل بها أصحاب الحتم البيئي حين ينظرون إلى الانسان على « أنه نبات الأرض » ، أو نتاج البيئة ، فيتشكل وفقاً لظروفها ، فيواجه الانسان تحديها المستمر ، ويجابه مشكلاتها وصعابها ، وقد تهمس له البيئة الفيزيقية الصارمة بحلولها ، وتبوح له الطبيعة بسر من أسرارها . بمعنى أن « الأرض » عند أصحاب الحتمية الجغرافية » إنما تتخلل عظام الانسان وتتسرب إلى دمه ولحمه وتتسلل إلى روحه وعقله .

ولكن الأستاذ « لوسيان فيفر Lucien Fsbvre » في كتابه المشهور عن « الأرض والتطور البشري La terre et l'evolution humaine » إنما ينكر هذه النظرية المتطرفة للحتم البيئي ، ويرفض تلك الضرورات المتعسفة التي تفرضها ظروف البيئة ، فتذهب إلى أن الإنسان ليس عبدا خاضعا للطبيعة ، ولا يقف إزاءها موقفا سلبيا خاصا كما أن الحتم البيئي ليس بالقوانين الحديدية ، أو القواعد الصارمة التي لا ينفك عنها الكائن الانساني فلا يستطيع أن يتحرر منها .

ومن ثم فلا يحدثنا « لوسيان فيفر » عن ضرورات الحتم وإنما يتطرق إلى معالجة « إمكانيات Possibilities » لا حصر لها تقدمها البيئة . فالانسان ليس بالكائن السلبي ، وإنما هو قوة إيجابية فعالة إزاء قسوة البيئة وتحديها المستمر ، وبالتالي فإننا نجد أن المدرسة الإمكانية عند « فيفر » إنما تؤكد حرية الانسان . وهي حرية إختيار الانسان من إمكانيات تقدمها البيئة «فمن الممكن» أن يختار الانسان

منها ما يشاء . وهنا يتجلى لنا عنصر « استجابة » الانسان وفعاليته إزاء هـــذه الإمكانيات وموقفه الإيجابي بالنسبة لظروف البيئة .

ولا شك أن هـذه صراعات منهجية ، قامت بين مدارس جغرافية كمدرسة « الحتم » ومدرسة « الامكانيات » ، تماماً كتلك الصراعات الحامية الوطيس التي غالبا ماتنشأ بين مختلف المدارس السوسيولوجية على مسرح الفكر الاجتماعي ، فهناك على ســـبيل المثال لا الحصر الكثير من الخلافات المثودولوجية بين « الانثروبولوجيا الاجتماعية » من جهة ، وبين « الاثنولوجيا » من جهة أخرى .

وإذا كان الأمر قد اضطرب علينا بصدد تطور منـاهج البحث المورفولوجي بين مختلف الاتجاهات الجغرافية حتمية كانت أم إمكانيـة . وحيث تنتقل هنا وهناك بين سائر الدروب الديموجرافية والاحصائية، وحيث نشايع ونتابع صراعا بين العديد من المدارس والنظريات السوسيولوجية والجوانب الانثروبولوجية بصدد مواجهتنا لدراسة تطور المناهج في المورفولوجيا الاجتماعية .

تلك هي إشارة عجلى لموقف عالم الاجتماع في مختلف ميادين ومناهج بحثه . أما مهمة الدارس في سائر العلوم الجغرافية ، فتمايز كليـة ، فليست مهمة الباحث الجغرافي ، هي دراسة الانسان من حيث هو كذلك ، إنما ينشد الجغرافي وجها بعينه ، بالتفاته وانشغاله بدراسة « وجه الأرض » .

حيث أن الجغرافيا في اصطلاحها الأكاديمي، وفي أصلها واشتقاقها اللغوي ، هي دراسة « وصف الأرض » فكلمة « جيو Geo إنما تعني مايتصل بالأرض . أما كلمة « جراف Graph » فتعني « وصف » أو « رسم » أو « تخطيط » . وبالتالي تصبح الجغرافيا ، إستناداً إلى الأصول والمصادر اللغوية هي دراسة شكل الأرض أو وصفها .

وفي هذا الصدد يقول « فيدل دي لابلاش » في عبارة مشهورة : إن الجغرافيا

هي العلم بالأماكن Places لا الانسان Geography is the science of places, not of men ، بمعنى أن الجغرافيا هي علم بالمكان ، وليست علما بالإنسان ، ومن هنا ينبغي أن نميز بين مقولة «المكان» ومقولة «الانسان» وهنا يكمن الفصل الجوهري الأصيل الذي يضع خطا دقيقا بين مناهج الجغرافيا من جهة ومناهج علم الاجتماع من جهة أخرى .

خاتمة :

فإذا ما كانت الجغرافيا ، هي علمنا بالمكان ، إلا أن علم الاجتماع ينصب أساساً كي تهدف إلى دراسة الإنسان . حيث يوجه علم الاجتماع كل اهتماماته إلى الانسان باعتباره « كائنا اجتماعيا » أو على أنه إذا استخدمنا لغة أرسطو « هو « حيوان اجتماعي » » .

وإذا كان عالم الاجتماع إنما ينشغل بدراسة الانسان ككائن أو كحيوان اجتماعي ، إلا أن الانسان لا يحيا بلا مكان ، ولا يعيش هذا الكائن في فراغ ، وإنما يستوطن مكانا ، ويتنسم هواء ، ويدب على الأرض ، ومثله في ذلك مثل سائر الكائنات الحية . واستناداً إلى هذا الفهم ، فلم يستطع عالم الاجتماع ، أن يدرس هذا الكائن الاجتماعي في عزلته عن فلكه المكاني ، وفي استقلاله عن أرضه ، وفي انفصاله عما ينتمي إليه من أوطان ، وما ينخرط فيه من زمر أو جماعات .

الفصل الخامس

الثقافة المقارنة

* تمهيـــد
* إعادة بناء الثقافة
* القانون والمنهج المقارن
* المتماثلات والمتلازمات
* المنهج المقارن القديم
* المقارنة والتفسير
* مشكلات المناهج فى علم الاجتماع

تمهيد :

لقد أبرز رادكليف براون أهمية دور المنهج المقارن فى الثقافة، حيث أنه من الملامح الأساسية لقواعد المنهج العلمى عند رادكليف براون ولعه الشديد بالاهتمام بدراسة مناهج المقارنة ، وكيفية إبراز وتأكيد دور « المنهج المقارن Comparative method » فى الدراسة الأنثروبولوجية العلمية .

وهنا ينبغى أن نتساءل — ما المقصود بمناهج المقارنة ؟ وماذا يعنى العالم الأنثروبولوجى حين يحدثنا عن « المنهج المقـــارن » ؟ وماطبيعته ؟ ووظيفته فى الدراسات الحقلية — وكيف يكون ؟ !

فى الواقع قد يعنى المنهج المقارن ، للدارس العادى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، بأنه ذلك المنهج الذى اشتهر به « السير جيمس فريزر Sir James Frazer » (1) ، حين إستخدم الطريقة المقارنة فى معالجة الظواهر ، من إجتماعية وسحرية وطوطمية ودينية ، تلك التى جمعها فريزر فى كتابه الضخم , الغصن الذهبى The Golden Bough » ،

وهنا تقتضى منا الإشارة إلى إيضاح تلك التمييزات التى اشتهر بها علماء الاجتماع الإنجليز ، حين يقارنون بين مناهج الدراسة فى ميدان الإثنولوجيا من ناحية ، وبين ميدان الدراسة الحقلية فى الإنثروبولوجيا الاجتماعية من ناحية أخرى .

ففى الدراسة الإثنولوجية يتجه مختلف علماء الإثنولوجيا نحو دراسة بعض الحالات السوسيولوجية ، إستناداً إلى بحث عدد معين من النظم المتماثلة ، ودراسة

---

(1) Radlciffe-Brown. A. R.. Method in Social Anthropoiogy, Chicago 1958 p 108.

العادات والمعتقدات المتشابهة ، فى مجتمعين أو أكثر ولا شك أن هذه الدراسة لمختلف المشابهات والمماثلات بين العادات والتقاليد ، إنما تشير إلى وجود بعض الأشكال الثقافية التى حدث بينها الامتزاج التاريخى حيث اندمجت خلال التاريخ أنماط ثقافية متمايزة .

ولذلك يتمثل هدف علماء الإثنولوجيا ، فى تحقيق غاية أساسية ، وهى إعادة بناء تاريخ المجتمع ، أو تاريخ الحضـــارة ، مع تحديد معالم التركيب التاريخى والحضارى لثقافة أو دائرة ثقافية كاملة .

هذه هى غاية كل دراسة إثنولوجية . وذلك هو الغرض من الدراسة التاريخية، وعلى العكس من ذلك تماما، يتمثل الهدف من دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية، والتى هى فى نفس الوقت « علم الاجتماع المقارن » على اعتبار أن غاية الإثنولوجيا، إنما تتمايز إلى حد كبير عن غاية الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

إعادة بناء الثقافة :

وتهدف الأنثروبولوجيا الاجتماعية، إلى دراسة سمات الحياة الاجتماعية ومعرفة طبيعتها ومكوناتها ، على إعتبار أن سمات الحياة الاجتماعية، وإنما تصبح بالضرورة أساساً للدراسة النظرية للظواهر الاجتماعية الانسانية.

وفيما بين عامى ١٨٦٦، ١٨٨٨ إنشغل شيخ علماء الأنثروبولوجيا الامريكان، وأعنى به « فرانز بواس Franz Boas » فقد كتب بواس ، طوال تلك الفترة ، حين ركز الانتباه نحو اتجاه واحد ، بحثاً عن الأهداف البعيدة ، التى ترمى إليها الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

ومن ثم أكد لنا «بواس» القضية الأولى من قضايا الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وهى تلك القضية القائلة بأن مهمة الأنثروبولوجيا الأولى إنما تتمثل فى إعادة بناء

التاريخ Reconstruction of History » ، تاريخ المجتمعات ، بقصد إعادة التركيب التاريخي ، لسائر الأمم والثقافات .

تلك هي القضية الأولى التي تضطلع بدراستها الأنثروبولوجيا الاجتماعية عند « فرانز بواس » أما القضية الثانية فتتعلق بالمنهج المقارن . فإذا كانت القضية الأولى ، إنما تتابع منهج أصحاب الإتجاه الإثنولوجي التاريخي حيث تبحث كل نزعة من ملامح الماضي التاريخي لمختلف السمات الثقافية السائدة في بناء ثقافي معين بالذات .

ولكن القضية الثانية ، يهتم بها أصحاب مناهج المقارنة ، بقصد انتهاج طريقة محددة بفضلها يقارن العلماء بين مختلف أنماط الحيـــاة الاجتماعية . وفي ضوء مقارنة الحياة الاجتماعية بين مختلف الشعوب والثقافات ، يمكننا أن نتوصل فوراً إلى تأكيد نظرية « التغير الثقافي » ، استناداً إلى فكرة التطور ، حيث نشاهد أنماطاً ثقافية أكثر أو أقل تطوراً وتقدماً ، بمقارنتها بأنماط ثقافية أخرى . ومن ثم نستطيع أن نستخلص من تلك الدراسة المقارنة، أن هناك مايسمى «بالقانون». ذلك القانون الذي يحدد إتجـاه التطور في مسار أنماط الثقافة . بمعنى أن هـذا «القانون» الذي يصدر عن تطبيق المنهج المقارن . إنما يحدد لنا مثل هذا القانون كيف تخضع له عملية التطور الثقافي . وأن « التطور » ، في الثقافة ، إنما يخضع في حركته لقانون عام ، يصدق على كل الظاهرات الثقافية البسيطة منها والمعقدة.

القانون والمنهج المقارن :

ولا شك أن هـذا الاكتشاف المتضمن في تطبيق المنهج المقارن ، إنمـا يحقق بالضرورة أهداف القضية الثانية من قضايا الأنثروبولوجيا الاجتماعية على مايزعم « فرانز بواس » ، حيث يبحث عن « القوانين التي تحكم الحياة الاجتماعية » .

ولا شك أننا يمكننا أن نتوصل إلى القانون الذى يحكم الحياة الاجتماعية فى مسارها وحركتها ، وذلك عن طريق تتبع نفس العادات ، ونفس الأنماط الثقافية والسلوكية والفكرية ، التى تظهر فى بعض المجتمعات والشعوب ، إما عن طريق الأخذ بفكرة التطور ، وإما عن طريق القول بوجود « الأصل التاريخى » المشترك ، حين تصدر نفس هذه العادات والأنماط السلوكية المتشابهة ، عن منبع ثقافى واحد ، أو عن « أصل تاريخى مشترك » .

هذه هى بعض الفروض الأساسية التى تستند إليها مناهج البحث فى الدراسات المقارنة ، كما نجدها عند مختلف أصحاب مذاهب الفكر ، فى تاريخ النظرية الإثنولوجية . بمعنى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تلك التى تعادل ما نسميه بالاثنولوجيا ، على مايذهب « فرانز بواس » إنما تهدف إلى تحقيق المنهج المقارن، للتوصل إلى تلك القوانين التى تصدق على الظاهرات الاجتماعية ، والتى تحكم مظاهر الحياة الاجتماعية (١) .

وبالاضافة إلى هذه الفروض الإثنولوجية الأساسية ، هناك فرض جوهرى تستند إليه كل الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية ، إستناداً إلى فكرة « التواتر » أو تكرار حدوث الظاهرات الاجتماعية والثقافية المتشابهة . على اعتبار أن العلم الوضعى إنما يبحث أساساً فى كل مايتواتر أو « مايتكرر » من الظواهر الطبيعية . فلا يدرس العلم إلا ما « يتكرر » . حيث إن مهمة العلم الأساسية ، كما يقول « ماكس بلانك Max Blank » هى « القياس measurement » وذلك حين يجعل العلم كل ما لا يقاس ، قابلا لأن يقاس .

تلك هى الغاية الأساسية فى كل علم من العلوم الوضعية ، ولكى يحقق عالم

---

(1) Radcliffe-Brown, A. R, Method in Social Anthropology, chicago., 1958, pp: 108-109.

الاجتماع هذه الغاية الميثودولوجيه ، يحاول علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية في ميدان الدراسة الحقلية في « علم الاجتماع المقارن » ، أن يتوصلوا إلى إكتشاف القوانين وإستقراء التعميمات generalizations التي تحدد مسار الحياة الاجتماعية والتي تحكم مختلف الظاهرات والأحداث الجزئية بالرجوع إلى « قانون كلى » يفسر هذه الظاهرات والوقائع ، تلك التي تعتبر في ذاتها ، بعض « الحالات الجزئية » التي تخضع لتفسير قانون كلى .

وإستناداً إلى هذا الفهم ـ فإن مجرد تكرار حدوث الظواهر ، وتواتر ظهور الأحداث والوقائع المتشابهة ، في بعض المجتمعات والثقافات ، التي لم تخضع للاحتكاك التاريخي historical contact ، حيث أنها ظواهر تتشابه في دوائر أو مناطق ثقافية Cultural areas دون أن يسبقها احتكاك ثقافي ، أو إتصال تاريخي (١) ، الأمر الذي يفرض علينا القول بأن العقل الانساني ، إنما يتطور في كل مكان ، وفي كل زمان ، وفقاً لنفس القانون ، وطبقاً لقانون التطور نفسه ، الذي يصدق بعينه على سائر الثقافات والمجتمعات ، دون الرجوع إلى التفسير الاثنولوجي أو التاريخي .

ويبدو من هذا العرض السريع لوجهة النظر المنهجية التي أثارها « فرانز بواس » أنه حدد غايتين أساسيتين في كل دراسة أنثروبولوجية ، وهما « إعادة بناء تاريخ الظاهرات » من جهة ، و « مقارنة » هذه الظاهرات للتوصل إلى القانون ، من جهة أخرى. حيث إن التاريخ إنما يلقى ضوءاً أوفى ، حتى نتفهم طبيعة الظاهرات من خلال دراسة ماضيها ، مع إعادة تركيب هذه الظاهرات والسمات الجزئية في

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology, Chicago, 1958, P. 109.

بناء تاريخي متسق ، وفي إطار ثقافي متكامل . وتلك هي مهمة الدراسة الاثنولوجية بإستخدام المنهج التاريخي .

أما الغاية الأخرى ، فتتمثل في مقارنه هذه الظاهرات ، وبخاصة بحث مايتواتر من ظواهر تتشابه من حيث الزمان والمكان ، بقصد التوصل إلى قانون كلي يفسر ما تكرر من تلك الظاهرات الجزئية . ولذلك غالباً ما يطلق « فرانز بواس » على هذا النوع المحدد من الدراسة ، فيسميه بالأنثروبولوجيا تارة ، كما يسميه بالأثنولوجيا تارة أخرى . حيث تتصل دراسة الأثنولوجيا ، بمناهج التاريخ ، وبإعادة تركيب الماضي التاريخي للظاهرات الثقافية . أما الانثروبولوجيا الاجتماعية فتقتصر على دراسة وإكتشاف أنماط التواتر في تطور المجتمع الانساني ، بالرجوع إلى الدراسات الحقلية للمجتمعات البدائية .

وعلى هذا الاساس ، فإن المنهج المقارن في دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية إنما هو المنهج المستخدم عند علماء الانثروبولوجيا النظرية ، هؤلاء الذين يطلق رادكليف براون عليهم اسم Arm-chair anthropologists، حيث إن الدراسة المقارنة ، هي في جوهر أمرهـــا دراسة نظرية خالصة ، إذ يتمكن عالم الانثروبولوجيا النظرية ، من إستخدام المنهج المقارن ، وهو قابع في مكتبه ، إلى جانب نتائج الدراسات الحقلية .

التماثلات والتلازمات :

حيث يحاول عالم الأنثروبولوجيا النظرية ، في ضوء إستخدام المنهج المقارن أن يتتبع مختلف « المتماثلات » و « المتلازمات » التي تتطابق في سائر المجتمعات والثقافات ، حيث تقع نفس الملامح والظاهرات الاجتماعية وحيث تتشابه نفس الخصائص بين مختلف المجتمعات سواء من حيث الماضي والحاضر .

ولقد إستخدم « السير جيمس فريزر » المنهج المقارن في جامعة كمبردج

Camdridge » حيث شغل كرسى الأستاذية فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية ولكن « فريزر » كان نظرياً فى دراسته الأنثروبولوجية ، إذ إنه إنشغل فقط بمقارنة مختلف الظاهرات المتنوعة من مختلف المجتمعات والثقافات .

وإذا كان « فريزر » قد إلتفت إلى ميدان المقارنات النظرية البحتة ، فقد نبه « هادون Haddon » الأذهان نحو ضرورة الأنتباه إلى الدراسات المركزة intensive study . عن طريق البحث الميدانى المنظم ، والدراسة الحقلية ، إستناداً إلى المشاهدة العينية ، والملاحظة العلمية للمجتمعات الإنسانية (١) .

المنهج المقارن القديم :

« لقد كانت نقطة الضعف الشديدة التى يعانى منها « السير جيمس فريزر » ، هى أنه لم يأخذ بوجهة النظر التكاملية أو البنائية فى كل دراسة أنثروبولوجية ، حيث ينبغى النظر إلى مختلف الظاهرات الإجتماعية والسمات الثقافية ، بالرجوع إلى ما يفسرها فى البناءات الإجتماعية والثقافية . حيث إننا لا نستطيع أن نفهم طبيعة الظاهرة أو وظيفتها إلا بردها إلى البناء الاجتماعى ، وفهم هذه الظاهرة بعلاقتها مع غيرها من الظاهرات والنظم والأنساق السائدة فى البناء الإجتماعى .

ويذهب راد كليف براون ، إلى أن إستخدام مناهج الدراسة الحقلية المركزة ، قد أدى إلى حد ما إلى إهمال متابعة أنتهاج المنهج المقارن . إلا أنه يؤكد على الرغم من ذلك أنه بدون إستخدام المنهج المقارن ، ودون الإلتفات إلى الدراسات المقارنة العلمية المنظمة ، فلسوف تصبح الأنثروبولوجيا الاجتماعية مجرد « وصف تاريخى » أو من قبيل الدراسة الوصفية التاريخية historiography ، ومن ثم تدخل فى إطار دراسة « الإثنوجرافيا ethnography » ولذلك يعلن رادكليف

---

(1) Ibid,, PP. 109-110

يؤكد وجوب إستناد النظرية السوسيولوجية Sociological theory ، إلى شيء جوهري أساسي ، ذلك هو المقارنة العلمية المنظمة (١) . حيث إننا بفضل الطريقة المقارنة ، إنما ننتقل من الجزئي إلى الكلي ، ومن العام إلى الأعم ، ومن ثم نستطيع أن نتوصل في النهاية بفضل إستخدام المنهج المقارن ، إلى ما يسمى بالتعميمات أو العموميات universals ، التي هي بعض الأنماط التي تتمتع بدرجة عالية من العمومية والتي تصدق على أشكال مختلفة في سائر مجتمعات وثقافات بني البشر (٢) .

وجملة القول ـ فإن إستخدام المنهج التاريخي ، إنما يؤدي بنا بالضرورة إلى إلقاء الضوء على الظاهرات الإجتماعية ، وتفسير مختلف السمات السائدة في المجتمع ، وردها إلى مختلف الظاهرات الاجتماعية الأخرى . أما المنهج المقارن ، فمن طريقه يمكننا أن نتفهم طبيعة الظاهرات والسمات الثقافية حتى نتوصل إلى بعض التعميمات التي تحدد سير الظواهر في المجتمعات الإنسانية . وهذا مايسمى في الميثودولوجيا Methodology ، الذي هو علم المناهج ، بالقانون Law .

ويستخدم علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية كلا الطريقتين التاريخية والمقارنة حيث تتضمن الانثروبولوجيا كدراسة حقلية للمجتمع الإنساني هذين المنهجين . ومن الخطأ أن نقوم بتدريسهما في جامعاتنا دون تمييز .

إذ أن الطريقة التاريخية سوف توصلنا إلى بعض القضايا المخصوصة Singular Propositions ، بينما يؤدي بنا المنهج المقارن إلى إكتشاف بعض القضايا الكلية أو العامة . بمعنى أن تطبيق الطريقة التاريخية في الدراسة الحقلية للمجتمعات البدائية ، إنما تنهض بدراسة وتحليل « وجود سمة جزئية

---

(1) Radcliffe.-Brcwn. A. R., Method In Social Anthropology, Chi-Cago : 1958. P. 110.

(2) Ibid., P. 127.

the existence of a particular feature ، من تلك السمات السائدة فى مجتمع معين بالذات . بقصد « شرح To explain » هذه السمة الجزئية ، بردها إلى سياقها التاريخى ، وتفسيرها كحالة جزئية من سياق متتابع من الأحداث التى تتواتر بصفة دائمة خلال الزمن .

المقارنة والتفسير :

ولكننا بصدد تطبيق المنهج المقارن ـ إنما لا نحاول « الشرح » أو « التفسير » إنما نبغى « الفهم » بمعنى أن الطريقة التاريخية ، إنما تضفى تفسيراً ، وتلقى ضوءاً أوفى على الظاهرات والسمات الجزئية . أما إستخدام المنهج المقارن فإنما يهدف إلى أن « افهم To understand » وظيفة هذه السمة الجزئية ، بإعتبارها حالة جزئية من حالات قانون كلى يفسرها ، مع دراسة دورها ، بتحديد علاقتها بالكل التى هى جزء فيه ، وذلك بقصد التعرف على طبيعة هذه السمة الجزئية فى ضوء البناء الإجتماعى الكلى (١) .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أننا فى معظم الدراسات الحقلية والمجتمعات البدائية ، غالباً ما ينقصنا الدليل التاريخى ، إذ أنها مجتمعات « لا تاريخية » نظراً لعدم كفاية الأدلة التاريخية المكتوبة ـ فلا يوجد مثلا أية دلائل تاريخية على كيفية وجود أو ظهور تقسيمات القبائل الأسترالية الأصلية ، وتوصلها إلى نظمها الاجتماعية الحالية .

ولكننا بإستخدام المنهج المقارن ، نستطيع أن نتوصل إلى بعض النتائج العامة الثابتة عن أصل هذه النظم البدائية الأسترالية . ومعنى ذلك ، فان الانثروبولوجيا الإجتماعية كدراسة للمجتمعات البدائية ، إنما تتضمن نوعين من مناهج الدراسة الإثنولوجية والإثنوجرافية ، وهما من قبيل الدراسات التاريخية . كما تتضمن

1) Ibid., P. 127

أيضا إستخدام المنهج المقارن للتوصل إلى الكليات والعموميات ، وهذه دراسة تضطلع بها الأنثروبولوجيا الإجتماعية التى ترادف أصلا ما يسمى بعلم الإجتماع المقارن Comparative sociology حيث أن التاريخ هو مجموعة من الأحداث المتتابعة خلال نسيج الزمان ، فلا يمكن أن يوصلنا المنهج التاريخى إلى أية قضايا عامة أو كلية كما أن المنهج المقارن ، بإعتباره دراسة عامة للمجتمعات الإنسانية لا يمكن بالتالى أن يكشف لنا عن سياق تاريخى محدد بالذات (١) .

وعلى هذا الأساس يذهب راد كليف براون ، إلى وجوب التعاون بين المناهج الاثنولوجية والاثنوجرافية والدراسات المقارنة ، حتى يمكننا بفضل إستخدام هذه المناهج ، أن نحدد الشروط الضرورية لوجود الأنساق الاجتماعية وأن نقرر بطريقة علمية حالة النظم الإجتماعية كما هى قائمة وثابتة بالفعل ، وهو ما يسميه كونت « بقوانين الأستاتيكا الاجتماعية Laws of social statics » على ما أشرنا من قبل فى فصل سابق . كما يمكننا أيضاً بفضل هذه المناهج ، أن نتوصل إلى دراسة التغير الاجتماعى ، وهو ما يسمى أيضا بقوانين الديناميكا الاجتماعية Laws of social dynamics ، وبذلك يمكننا أن نعرف شيئاً عن حقيقة تطور المجتمع الإنسانى . وهذا ما يمكننا أن نفعله فى ضوء الاستخدام العلمى المنظم للمنهج المقارن . وبذلك تستند الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى إستخدام المناهج المقارنة لدراسة بعض الحالات الوجودية للنظم الاجتماعية بمعنى أن المنهج التكاملى فى كل دراسة أنثروبولوجية ، إنما يحتم علينا ضرورة تحالف مختلف المناهج الإثنولوجية والسوسيولوجية ، حتى يتحقق لنا فهم ودراسة سائر الثقافات المنتشرة فى المجتمع الإنسانى (٢) .

---

(1) Ibid, P. 128

(2) Ibid, PP. 128—129.

مناهج الاثنولوجيا والانثروبولوجيا :

بعد أن حدد لنا « راد كليف براون » ، المعالم الرئيسية لشرائط المنهج المقارن نحاول الآن أن نتابعه في كيفية تحديده لمناهج الإثنولوجيا ، ومقارنتها بمناهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

ولا مشاحة في أن راد كليف براون هو مؤسس قواعد المنهج العلمي للأنثروبولوجيا الاجتماعية بمعناها الحديث ، ولذلك كثيراً ما يقال عن راد كليف براون ، إنه : أبو الأنثروبولوجيا الإجتماعية الحديثة Tha Father of Modern Social Anthropology ، وذلك في حالة إذا ما نظـــرنا إلى « إدوارد بيرنت تايلور » على إنه « أبو الأنثروبولوجيا الاجتماعية القديمة » .

ولست أشك ، في أن كتابات راد كليف براون ، إنما تعتبر بمثابة المصدر الأساسي الذي عنه تصدر مختلف التعريفات التي تحدد مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومفهوماتها وحدودها ، وترسم لنا دراساته مختلف الملامح الجوهرية لمناهج الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية . فان من خبر الدراسة السوسيولوجية وعرك تفصيلاتها ومشكلاتها الجزئية ، وانطلق في جولاته حول أدق المسائل الأنثروبولوجية ، لوجد أن راد كليف براون ، هو الخبير العارف بدقائق الأمور فيما يتعلق بتفصيلات المناهج الانثروبولوجية والسوسيولوجية ، وأوجه الشبه والأختلاف بينها وبين مناهج التاريخ والاثنولوجيا والاثنوجرافيا ، حيث استطاع راد كليف براون ، أن يميز بوضوح بين مناهج الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا الإجتماعية . على الرغم من أن دراسة المناهج الخاصة بفلسفات العلوم ، إنما هي من أشق أنواع الدراسات ، كما أنها من أكثر أشكال الابحاث صعوبة وأشدها دقة .

حيث أن الباحث في « علم المناهج أو الميثودولوجيا Methodology » إذا

ما تعرض الكثير من صنوف الجهد وألوان المشقة ، فيما يتعلق بالدراسة الجادة لمناهج العلوم الرياضية والطبيعية . فان الموقف بصدد المنهجيات إنما يكتنفه الغموض ويزداد تعقيداً ، كما ويتطلب جهداً مضاعفا بالنسبة للباحث فى ميدان العلوم الاجتماعية والانسانية ، وبخاصة بصدد البحوث النظرية الجادة والمستفيضة الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية .

فليست هناك دراسة من الدراسات قد شغلت أذهان العلماء والباحثين فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ، مثل دراسة المناهج التى يمكن إتباعها فى الأبحاث الاثنولوجية والدراسات الحقلية والجهود الميدانية ، سواء بصدد المجتمعات المتقدمة أو الشعوب البدائية .

مشكلات المناهج فى علم الاجتماع :

ولعل دراسة المناهج ، هى ذات أهمية بالغة ، ذلك لان أى علم من العلوم ، لا يمكنه أن يصل إلى درجة العلم الوضعى ، أو أن يكون علماً معترفا به ، إلا إذا توافرت لديه بعض الاهداف العامة التى ينبغى أن يهدف إليها هذا العلم .

كما ينبغى فى الوقت ذاته ـ أن تتوافر مختلف الطرائق والمناهج التى ينبغى اتباعها ، حتى يمكننا أن نحقق تلك الاهداف البعيدة التى من أجلها صدر العلم وظهر .

ومن هنا ـ عنى « راد كليف براون » بدراسة المناهج السوسيولوجية والانثروبولوجية ، وحاول تتبع مراحل التطور التاريخى للانثروبولوجيا الاجتماعية منذ ميلادها ، وبدايتها الاولية ، حين كانت الدراسات الانثروبولوجية مجرد مجموعة من المشاهدات العابرة والملاحظات العشوائية لمختلف الثقافات والمجتمعات البدائية .

أما الآن ـ وقد بلغت الانثروبولوجيا درجة من الوضعية تؤهلها إلى تغيير مناهجها القديمة ، بالبحث عن مناهج علمية جديدة ، تهدف إلى الوصول إلى صياغة القوانين العامة للسلوك الانسانى ، والتى تخضع لها سائر المجتمعات البشرية .

وارتكازاً إلى هذا الفهم ، حاول رادكليف براون أن يضع لعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية بعض الأسس المنهجية المنظمة التى تعين الباحث الحقلى على البلوغ بدراساته وأبحاثه ، إلى الكشف عن الطبيعة الإنسانية ، فى ضوء الدراسة المركزة لمختلف الثقافات المنتشرة فى سائر أنحاء العالم الإنسانى .

ولاشك أن الاهتمام بدراسة الإنسان والمجتمع ، إنما هو إهتمام قديم قد بدأ بشكل واضح ، وشق طريقه العلمى ، بعد حركة الكشوف الجغرافية والفتوحات العسكرية ، والتوسع الحضارى والثقافى ، منذ أوائل القرن السادس عشر .

ولقد اهتمت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة والمعاصرة ، بدراسة ما يسمى « بالبناء الاجتماعى » ، وبمدى استمرار العلاقات الاجتماعية وثباتها داخل إطار سوسيولوجى محدد .

ولكن على الرغم من وفرة الكتابات العديدة ، وكثرة الدراسات الغزيرة التى صدرت فى « علم المناهج » . . . حيث أصدرت مختلف دور النشر فى أوربا منذ العشرينات ، أو على أكثر تقدير منذ ربع القرن المنصرم فقد أخرجت المطابع الأوربية كثيراً من الكتب والمقالات التى تدور كلها حول البحث فى ميدان علم المناهج ، وعلى الرغم من كل ذلك ، ينبغى أن نؤكد أن النتيجة للاسف الشديد لم تسفر عن شىء ، فلم يتوصل العلماء والباحثون بعد إلى إتفاق حول مفهوم المناهج والمصطلحات المستخدمة فى طرائق البحث فى العلوم الاجتماعية .

تعدد المناهج السوسيولوجية :

وهنا ينبغى أن نعلن دون ما خجل أو جدل، أن دراسة مناهج العلوم الاجتماعية

والأنثروبولوجيا ، ما زالت تتخبط خبط عشواء . فلكل عالم منهجة ، ولكل باحث مذهبه وطريقته فى البحث . فلا أتفاق بصدد المناهج ، وما زالت الرؤية غامضة وعسيرة ، وما زالت دراستنا فى المناهج ومسائلها قيد البحث والنظر . . . من أجل الوصول إلى الحقيقة ، حتى ينجلى الأمر ، وتتضح الرؤية .

فلقد أضطربت المسالك ، وما زال السبيل وعراً ، كى نتطرق إلى تحديد بعض المناهج الثابتة فى علم الاجتماع ، وما زال الطريق إلى الأخذ بمنهج وحيد صعباً وتكتنفه الصعوبات والعقبات من كل جانب .

حيث نجد الكثير من المشاق فيما يتعلق بتفسير واحد لمختلف « المصطلحات العلمية » فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية . حيث نجد أن تفسير هذه « المصطلحات » ، إنما يختلف باختلاف مدارس الباحثين والعلماء . نظراً لاختلاف مذاهبهم ومشاربهم . فقد انقسم علماء الاجتماع ، وشأنهم فى ذلك شأن الفلاسفة حيث اضطرعت مذاهب الفكر السوسيولوجى فى كل مسألة ، وذهبت فى تفسيرها مذاهب شتى ، فانقسم علماء الاجتماع على مسرح الفكر السوسيولوجى ، إلى العديد من « النحل » أو « الفرق » أو « المذاهب » .

فكثيراً ما اختلف علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ، حول فهمهم لطبيعة « الثقافة Culture » و « الوظيفة Function » و « البناء Structure » و « التنظيم organization » .

وكلها مقولات ينبغى الاتفاق بصددها ، حتى يمكننا أن نستخدم لغة العلم الدقيقة ، تلك اللغة الأكاديمية التى تتفق حولها آراء العلماء ، حتى نتمكن من التوصل الى تلك المكانة التى تشغلها « لغة العلم الرياضى » أو « لغة العلم الطبيعى أو الفيزيقى » ، تلك اللغة الموضوعية التى يتوق اليها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا .

ولما كان ذلك كذلك — فإن دراسة موضوعات المناهج ، وفهم مختلف أشكالها ومسائلها ، مازالت حتى الآن فى حاجة الى الكثير من الجهود العلمية الجادة ، حيث نجد الكثير من المشكلات الميثودولوجية مازالت مطروحة للمناقشة ، ومائلة قيد البحث إزاء الميان العلمى الموضوعى. فمازالت تلك المسائل قابلة لمواصلة الدراسه العميقة ، والمساهمة الوضعية ذات الفهم العلمى والفحص الدقيق المنظم .

وما علينا إلا أن نبدأ فوراً ، أو أن نسرع الخطى فى التفكير فى علم المناهج ، وأن نخوض هـذا الخضم الخصب من الموضوعات ، حتى نتقدم بدراسة المناهج خطوات ، وحتى تدفع بها إلى الأمام .

فلقد استخدمت الكثير من المصطلحات العملية فى العلوم الانثروبولوجية مثل استخدامنا لكلمة « الاثنولوجيا » ، أو استعمالنا لمفهـــوم « الانثروبولوجيا » ، كمقولة اجتماعية أو ثقافيـة . فإننا غالباً ما نستخـدم هذه المصطلحات العلمية ، والمفهومات السوسيولوجية استخداماً خاطئاً .

وكثيراً ما نعالج هذه المصطلحات معالجة تبعدها عن مفهوماتها الحقيقية . كما قد ننظر أحياناً دون تمييز وخاصة حين نصطدم بدراسة « الثقافة » أو « الحضارة Civlization » التى هى من المفهومات الأساسية فى علم الانثروبولوجيا الحضارية .

إلا أننا فى هذا الصدد نستطيع أن نشير إلى تعريف مشهور فى الانثروبولوجيا الثقافية ، وأعنى به تعريف إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnt Tylor ،(1) حين يعرف مفهوم الثقافة ، بقوله : إنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة ، والعقيدة ، والفن ، والأخلاق ، والقانون والتقاليد والقدرات الأخـــرى ، والعادات التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى المجتمع .

(1) Radclife-Browu, A.R., Method In Sociel Authropology, p. 3.

وهكذا يعرف تايلور مفهوم الثقافة ، ولكنه يشير فقط إلى موضوع الدراسة ، ويركز على مختلف « أشكال المادة » التي ينبغي أن تتسلط عليها أضواء البحث .

ولكننا لا نجد في هذا التعريف طرحاً منهجياً أو إتجاهاً ميثودولوجيا . . .
إذ أنه يكشف فقط عن « مادة البحث Subjeet matter » دون أن يحدد منهج دراسة هذه المادة .

وهنا قد تنشأ بعض المسائل الميثودولوجية ، وقد تثار بعض مشكلات المنهج ... إذ يمكننا أن نسأل « تايلور » ... بقولنا : إذا كانت هذه هي « ماهية الثقافة » ... فكيف السبيل إلى دراسة سمات هذه الثقافة ؟ ! .

وما هي مختلف أساليب التفسير التي يمكن أن نطبقها في دراسة الثقافة ؟ ! وما مناهج الدراسة التي ينبغي أن نتبعها بصدد التوصل الى مجموع الحقائق التي بفضلها نتطرق الى فهم مضمون الثقافة ، والى سبر غورها ، ودراسة مختلف السمات التي تكشف عن مبناها وفحواها ؟ ! .

نظرية تايلور في دراسة الثقافة :

وإذا كنا قد توصلنا إلى حقيقة مناهج الدراسة التي بفضلها نستطيع أن نتحقق من فحوى الثقافة ومعناها .. فإننا أيضاً نستطيع أن نتساءل .. ما هي تلك القيم النظرية التي قد نتوقعها من الدراسة ؟ ! وماهي النتائج العملية التي بمقتضاها نستطيع أن ننتفع أو نستفيد منها عملياً في حياتنا الاجتماعية ؟ !

في الرد على كل تلك المسائل .. فإننا قد نلجأ إلى تايلور Tylor ، حين يحدد لنا مفهوم الثقافة ، موضوعها ومناهجها . فلقد أعلن « تايلور » منهجين مختلفين من مناهج الدراسة لتفسير مضامين مقولة الثقافة ، ولتحليل مختلف الوقائع والظاهرات الثقافية .

ويذهب راد كليف براون ، إلى أن ذلك الخلط الواضح ، والالتباس الشديد كما يظهر ويتجلى فى مناهج البحث ، والذى يبدو فى مناهج الدراسة الانثروبولوجية الاجتماعية ، إنما ينشأ فى هـــذا الخلط ، ويرجع ذلك الالتباس إلى ذلك الفشل الذريع فى فهم هذين المنهجين كما أعلنها تايلور .

ويرجع هـذا الفشل ، وينشأ هـــذا الاضطراب المنهجى ، إلى أن علمـاء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وقد أخفقوا تماما فى التمييز بين هذين المنهجين تمييزاً جلياً وواضحاً . حيث اختلط عليهم الأمر ، فاستخدم علمـاء الانثروبولوجـيا هذين المنهجين المتمايزين استخداماً خاطئاً ، ونظر العلماء إلى هذين المنهجين المتمايزين على أنهما شىء واحد ، كما احتفظوا بهما دون فصل أو تمييز .

ولنحاول الآن أن نكشف عن طبيعة الخطأ ، وأن نشير إلى هذيـــن المنهجين الذين أعلنهما تايلور . . ما هما ؟ ! وإلام يهدف هذان المنهجان ؟ !

أما المنهج الأول . « فهو مايسمى « بالمنهج التاريخى Historical method » وهو ذلك المنهج الذى يتناول بالدراسة بعض الموضوعات الخاصة ، مثل دراسة « أصل النظم » أو معالجة الأسباب التاريخية لتعقد أو تشـابك النظم بعضها بعضاً عن طريق « الدراسة التتبعية Genetic study » وذلك للكشف عن أصول النظم وتفسير تتابعها عن طريق تتبع مراحل تطورها وإيجاد العلل والأسباب التى توضح لنا كيف يحدث التغير فى النظم Institutions ؟! ولماذا تم التطور فى سائر الأنساق والعلاقات الاجتماعية ؟ !

فلو أننا مثلا حاولنا أن ندرس تطور الحـكم النيابى فى انجلترا ، لأمكننا أن ندرس تاريخ النظم البرلمانية البريطانية ، وأن نلاحظ مختلف التغيرات التى حدثت وطرأت على هـذه النظم منذ العصور القديمة . ثم نحاول بعد ذلك أن نتبع هـذه التطورات والتغيرات منذ أقدم العصور حتى وقتنا الحاضر .

هذا بالنسبة لدراسة تاريخ البرلمان الإنجليزى ، وتتبع تطور الحكم النيابى فى انجلترا . أما بالنسبة للثقافة ودراسة السمات الثقافية ، فينبغى أيضا أن نتبع حقائق الثقافة عن طريق تطبيق المنهج التاريخى . حتى نتعرف على حقيقة الثقافة فى مضامينها ومحتوياتها وسماتها العامة . وذلك إذا ماتوافرت البيانات التاريخية الكافية لتحقيق الدراسة الموضوعية لمظاهر الثقافة .

ولكن هناك ملاحظة هامة ، ينبغى أن نؤكدها ، وهى تلك الملاحظة المنهجية التى أشار إليها «راد كليف براون» ، حيث أننا على مايذهب لانستطيع أن ندرس الثقافة دراسة تاريخية ، كما لا يمكننا أن نتوصل إلى تلك « التعميمات » أو إطلاق « القوانين العامة » ، كتلك القوانين الفيزيقية التى تحاول مختلف العلوم الاستقرائية Indnctive sciences ، اكتشافها والبحث عنها فى العالم الطبيعى (1) .

وذلك — حيث أن كل العناصر الجزئية للثقافة ، لايمكن تفسيرها عن طريق إطلاق القانون أو التعميم . ولكنها تفسر وتحلل فقط ، عن طريق محاولة الرجوع إلى أجزاء أو عناصر أخرى للثقافة ، أى أن كل عنصر ثقافى جزئى ، إنما يفسر عن طريق محاولة البحث عن أصوله الجذرية وتقييمها فى باطن البناء التاريخى لماضى الثقافة برمتها ، بمعنى أننا نبحث عن العناصر الثقافية « والسمات الجزئية داخل إطار ما مضى من « المركبات الثقافية » .

وهكذا يمكننا أن نتتبع مختلف العناصر الثقافية والسمات الجزئية لظواهر الثقافة بالرجوع إلى ماضيها ، وبالإشارة إلى تاريخها القديم ، وفى ضوء البناءات الثقافية الغابرة التى مضت وانقضت ولن تعود .

وبكلمات أكثر دقة — فإن المنهج التاريخى إنما يركز أساســـاً على إعادة بناء

---

(1) Radcliffie-Browu. A.R., Method in Social Anthropology, Chicago. 1958 p. 4.

الماضي ، وبالرجوع في التفسير والتحليل أو التعليل التاريخي إلى ماضي الثقافات ، بحثاً عن سمات الثقافة ، وسعياً وراء أجزائها ، بربطوا بعلاقات زمانية ، وربطت بالفعل بين بعض النظم المعينة بالذات . تلك التي اندمجت في الماضي بين بعض الدول والشعوب القديمة ، أو التي صدرت عن مجتمعات وانبثقت من مراكز حضارية عريقة . أي أننا نحاول في التعليل التاريخي ربط العلاقات الزمانية والثقافية ببعض الثقافات القديمة التي خلت وانقضت .

وفي ضوء هذا التعليل التاريخي ، وباستخدام المنهج التتبعي ، تتسلسل هذه العناصر والسمات الثقافية التي تتتابع وتنسال داخل إطار التاريخ ، حيث تتسلسل وتترابط الأحداث والوقائع الثقافية في نسيج الماضي والزمان التاريخي .

وجملة القول - فإن مضمون المنهج التاريخي ، إنما يتم ويتحقق عن طريق التعليل التاريخي والتفسير الزماني لمختلف أشكال الظاهرات والسمات الثقافية .

وإذا ماحاولنا الآن - على سبيل المثال لا الحصر - أن نتطلع إلى نظم وعادات الشعوب البدائية ، فلسوف نلحظ فوراً أننا لانجد بين أيدينا أية وثائق مكتوبة ، أو معلومات مدونة على الإطلاق ، إذ أنها شعوب أو « مجتمعات أمية » ، لاتعرف الكتابة أو القراءة ، واستناداً إلى تلك الأمية والجهالة ، فلسوف لا نجد أية معلومات تاريخية بالمرة .

فإذا ما كنا مثلا بصدد دراسة النظم والأنساق البدائية لقبائل وسط استراليا فلسوف يتضح لنا فوراً أننا لا نستطيع مطلقاً أن نحصل على أية معلومات مباشرة فيما يتعلق بتاريخ هذه النظم والأنساق الخاصة بالقبائل البدائية في استراليا الوسطى (١) .

وعلى هذا الأساس فإن «المنهج الممكن الوحيد The only possible method»

(1) Ibid., pp .4—5.

إنما يتمثل فى تطبيق المنهج التاريخى ، الذى هو عبارة عن « منهج تركيبى فرضى Hypothetical reconstruction » - يتناول إعادة تركيب الماضى التاريخى لهذه القبائل الاسترالية ، ووضع تاريخ هذه القبائل إستناداً إلى الأدلة والبيانات غير المباشرة ، تلك التى يمكن العثور عليها ومعرفتها تفصيليـــا أثناء قيامنا بالدراسة الحقلية .

المنهج التاريخى الظنى :

ولعل الجانب الأكبر من تلك الدراسـات التى تدخل فى نطـاق ما يسـمى بالانثرولوجيا إنما يشتمل فى معظم أو فى غالب الأحيان على ما يسميه « دوجالد ستيوارت Dugald Stewart » ، بالتاريخ الظنى Conjectural history » أو التاريخ النظرى Theoretical history » .

ويمكننا أن نسوق على ذلك مثالا - توضح به حقيقة هذا المنهج التاريخى وأن نكشف عن طبيعته ومضمونه حين نستعرض فحوى الطريقة الانثرولوجية بمثال من جزيرة « مدغشقر » . تلك الجزيرة النائية التى تقع بعيداً عند أطراف الساحل الشرقى من الشاطىء الجنوبى ، شرق القارة الإفريقية .

وتوضح لنا الدراسة الاستهلالية الأولى لأهالى هذه الجزيرة المنعزلة أن هناك - كما يتوقع كل باحث أنثروبولوجى حقلى - الكثير من السمات المتجانسة بين شعب مدغشقر وباقى الشعوب الإفريقية ، حيث أنه يوجد بالفعل وبخاصـــة على الجوانب الغربية للجزيرة النائية الكثيرة من الأهالى ذوى السحنة الإفريقية ، حيث يتسمون إلى حد بعيد بالكثير من الملامح والسمات الزنجية الواضحة .

ومعنى ذلك - أنه فى ضوء البحث الفيزيقى والعنصرى ، نلاحظ أن أهالى مدغشقر ، إنما يشبهون العنصر الإفريقى أو الجنس الزنجى من حيث صفاتهم

الطبيعية العامة . هذا من حيث الخصائص والسمات الفيزيقية Physical traits .
أما من حيث الثقافة Culture ، فنحن نلحظ أيضاً بوضوح ، أن هناك الكثير من أوجه الشبه بين عناصر الثقافة فى مدغشقر وبين تلك الانطباعات العامة التى تتسم بها ثقافات الشعوب النيلية فى إفريقيا .

تلك هى النظرة السطحية ، أو الدراسة الأولية لجزيرة مدغشقر ولكننا عند الفحص الدقيق ، وإذا ما قمنا بالدراسة الأنثروبولوجية العميقة لوجدنا أن هناك فى مدغشقر عناصر ثقافية ليست إفريقية ، ولوجدنا أيضاً أن سمات الجنس والملامح الفيزيقية لدى أهالى مدغشقر ليست إفريقية خالصة .

حيث أننا من دراســـة الثقافة الإفريقيـة فى مدغشقر ، وبدراسة الملامح الفيزيقية التى لا تمت فى كثير منها إلى العنصر الزنجى ، نجد من هذه الدراسة الثقافية وفى ضوء المباحث الأنثروبولوجية الطبيعية ، أن هناك الكثير من الملامح الفيزيقية والعناصر الثقافية التى هاجرت إلى إفريقيا وبخاصة من الجزء الجنوبى الشرقى من قارة آسيا .

الديناميكا الثقافية :

بمعنى أن هناك حالة من « الأندماج الثقافى Cultural amalgamation » فانتقلت الملامح الفيزيقية ، وهاجرت العناصر والسمات الثقافية ، عن طريق عملية « الاحتكاك الثقافى Gultural contact » فانتشرت بذلك الثقافة الآسيوية ، وانتقلت السمات الفيزيقيـة الافريقيـة حيث حدث ما يسمى عند علمـــاء الأنثروبولوجيا الثقافيه ، وبخاصة لدى العلماء المحدثين من الشبان ، باسم « الديناميكا الثقافية » أو « الحراك الثقافى » ، وهو موضوع جديد من موضوعات البحث فى ميدان الدراسات الأنثروبولوجية وهو ما يعرف أو يشتهر فى الأوساط الأكاديمية باسم « عملية التحضر » أو « التحضير » أو « إكتساب الثقافة acculturation » .

أى أن هناك فى جزيرة مدغشقر ، قام هذا الحراك أو الانتقال الثقافى ، فحدث هذا التشابه بين الأنماط الإفريقية والآسيوية ، وأصبحت مدغشقر كما يقال وكما أشتهر عنها دائما ، بأنها هى الجزيرة الإفريقية الآسيوية (١) .

ونحن إذا ما إستخدمنا المنهج التاريخى ، أو المنهج الاثنولوجى الثقافى وجدنا أن الملامح العنصرية Racial Traits ، والسمات السلالية والظواهر الثقافية ، فى جزيرة مدغشقر ، كما هى قائمة الآن بالفعل ، إنما تعود بكل تأكيد إلى فترة قريبة ولم يمض عليها وقت طويل ، حيث قامت هجرة من القارة الآسيوية إلى جزيرة مدغشقر .

ولسوف تتأكد لنا حقيقة هذه الهجرة إذا ما قمنا الآن بدراسة أنثروبولوجية ثقافية لسكان جزر الملايو الحاليين ، وبخاصة دراسة كل ما يتعلق باللغة ، وهجرة المركبات والصيغ اللغوية ، وانتقال الملامح الفيزيقية والخصائص العنصرية . بالاضافة إلى دراسة كل ما يتعلق بملامح الثقافة وإنتقال سماتها وعناصرها الجزئية من أرخبيل الملايو إلى جزيرة مدغشقر .

وهذه الهجرة تاريخية حقيقة دون شك ، ونحن نحاول أن نحدد تاريخ هذه الهجرة . . . متى حدثت ؟ ! نظراً لأهميتها فى ميدان الدراسات الاثنولوجية والكتابات الأنثروبولوجية الثقافية .

وإستناداً إلى الدراسة العلمية ، لا يمكننا أو نحدد بطريقة يقينية قاطعة متى حدثت هذه الهجرة ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه الهجرة قد حدثت دون شك بعد أو وصلت ثقافه جزر الملايو ، إلى مرحلة « صناعة الحديد » تلك التى تخلفت عنها فى ذلك الوقت ، ولم تصل إليها ثقافة مدغشقر .

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology, Chicago, 1958, P. 5.

ولعل الدراسة المنهجية المفصلة لمختلف السمات الثقافية والملامح العنصرية لسكان جزيرة مدغشقر ، تمكننا حقيقة من أن نضع تاريخاً أوفى وأدق لهذه الجزيرة النائية ، حيث نتوصل بفضل تلك الدراسة المنهجية المنظمة ، وبالاستناد إلى إستخدام المنهج التاريخى ، أن نتوصل إلى إعادة بناء الجانب الأكبر من تركيب ماضى وتاريخ هذه الجزيرة الافريقية الآسيوية .

حيث إننا نلحظ بوضوح بفضل الدراسة الانثروبولوجية ، أن هناك على الأقل فى تلك الجزيرة ، نشاهد عنصرين ثقافيين ، قد أمتزجا وأندمجا فى ثقافة مدغشقر ، أو بمعنى أننا قد نشهد فى ثقافة الجزيرة « نمطين » متمايزين من أنماط الثقافة ، وبحيث نلحظ ، « غشاءين » مختلفين فى نسيج ثقافة تلك الجزيرة النائية ، وتلك « الانماط » أو « الاغشية الثقافية » هى ما يسمى فى الاصطلاح العلمى فى ميدان الانثروبولوجيا الثقافية ، باسم Gulture—strata (1) .

ومن خلال الدراسة المنهجية ، وفى ضوء المحاولة العلمية الجادة بإستخدام المنهج المقارن ، يمكننا أن نضع ثقافة جزيرة مدغشقر ، موضع الفحص الدقيق ، عن طريق مقارنة الاجزاء الجنوبية من شرق آسيا وإفريقيا ، وبخاصة من زاوية المقارنة المفصلة لمختلف ظواهر أنماط الثقافة فى تلك المناطق الجنوبية الشرقية من سواحل آسيا وإفريقيا . ومن هنا نستطيع أن نتبين ضرورة تطبيق المنهج المقارن ووظيفته ، فى ضوء تلك المقارنات المنظمة لمختلف السمات الثقافية فى ثقافة جنوب شرقى آسيا ، ومقارنتها بأنماط الثقافة الافريقية ولسوف تسمح لنا هذه الدراسة المنهجية المقارنة أن نقوم بمحاولة التحليل الانثروبولوجى العلمى ، لسائر سمات ومركبات الثقافة السائدة فى جزيرة مدغشقر ، وبالتالى يمكننا تفسير هذا الشكل

---

(1) Ibid, pp. 5-6

الثقافى المعقد الذى ينجلى فى ذلك « التأليف الكلى الفريد » الذى تتميز به ثقافة الجزيرة .

كما أننا نحاول أيضاً بفضل الدراسة البنائية والتحليلية لمختلف السمات الثقافية أن نتعرف على ما إذا كانت هذه الخصائص الفيزيقية والثقافية العامة قد إنتقلت وهاجرت مع هؤلاء الذين هاجروا من جنوب شرقى آسيا ؟ ! . . . أم أن هذه الخصائص الفيزيقية ، والسمات الثقافية ، إنما هى ثابتة لم تنتقل وراثياً ولم تكتسب ثقافياً ؟ ! . . . أى أننا نريد أن نعرف ما هى العناصر « الدخيلة » التى انتقلت وهاجرت ؟ ! ... وماهى العناصر التقليدية «الأصيلة» التى كانت تنتمى إلى السكان الأوائل للجزيرة ؟ ! .

ولست أشك فى أننا بإتباع المنهج التاريخى التحليلى ، علينا أن نعيد بناء بعض السمات والمركبات الثقافية ، وأن نضع مختلف سمات وملامح الثقافة التى كانت سائدة قبل الغزو . وبهذه الطريقة نجد أننا إنما نحاول أن نفسر وأن نعلل مراحل تكوين فى الثقافة جزيرة مدغشقر عن طريق إتباع الطريقة التاريخية والمنهج الاثنولوجى التحليلى كل ذلك بالرجوع إلى إبراز وتأكيد « العملية التاريخية Historical Process » تلك العملية التى بفضلها تحت الثقافة الجديدة وصدرت عن طريقها مختلف السمات الحالية ، والأنماط الثقافية الراهنة (1) .

---

(1) Ibid ; p. 6.

الفصل السادس

مناهج البحث فى علم الاجتماع الثقافى

* تمهيد
* المنهج التحليلى
* ولكن من أين يبدأ عالم الثقافة؟
* المنهج المقارن
* المنهج التاريخى
* قواعد المنهج العلمى فى دارسة الثقافة

تمهيد :

يضطلع أصحاب الإتجاه الثقافى بدراسة الثقافة إستناداً إلى فكرتى « البناء » و « الوظيفة » ، مع تطبيق المنهج التكاملى فى تفسير سائر الظاهرات الاجتماعية وتحليل الوقائع والسمات الثقافية .

وتستند النظرية الوظيفية فى دراسة الثقافة البدائية إلى بعض المبادىء الضرورية التى فى ضوئها نستطيع القيام بالتفسير العلمى لسائر الثقافات البدائية . حيث أن سمات الثقافة أياً كانت بدائية أم حضرية . ليست مجموعة من الأجزاء المبعثرة ، وإنما تقوم مكونات الثقافة باستنادها إلى وحدة من العناصر الثقافية المتكاملة، التى تتجمع فى « كل متكامل » لاتناثر فى عناصره، أو تباعد فى سماته بالنظر الثقافة « كوحدة عضوية Organic Unit » يرتبط كل عنصر فيها بسائر العناصر إلى والأجزاء الأخرى .

وفيما يتعلق بأنساق الثقافة ومكوناتها نجد أن البناء الثقافى إنما يتكون من مجموعة من الأنساق والنظم التى ترتبط بمختلف مناشط الإنسان وجهوده ، كالنظم الإيكولوجية والإقتصادية، والتنظيم الاجتماعى والسياسى ، كما ترتبط أنساق الثقافة بطقوس الدين وعمليات السحر وتجاربه .

بمعنى أننا ندرس هذه الأنساق والنظم فى علاقتها بعضها بعضاً فى وحدة كلية متكاملة، حيث تسعفنا تلك الوحدة العضوية للثقافة بقضاء وإشباع الحاجات الملحة التى يرغب الانسان فى الحصول عليها . لأنها بوساطة تشبع الحاجات والشروط الضرورية لحياة الكائن الإنسانى ، كالحاجات البيولوجية Biological ، والحاجات السيكولوجية ، بالإضافة إلى تحقيق الحاجات الاجتماعية .

ولم يلتفت علماء الانثروبولوجيا الثقافية القدامى إلى تلك الوحدة التكاملية التى تمتاز بها أجزاء الثقافة، ولم ينشغلوا بدراسة العوامل الدينامية dynamic factors

التى تقوم بدورها داخل إطار الأنســاق والنظم الإجتماعية ، ودراسة العلاقات القائمة بين تلك الانساق والنظم ذات السمات البنائية المركبة .

أما علماء الانثروبولوجيا المحدثين ، فقد التفتوا إلى دراسة ما يسمى « بالبناء الاجتماعى» إستناداً إلى الطريقة التحليلية ، فقامت الدراسات الحقلية ، التى تعتبر الوسيلة الوحيدة لتحقيق المنهج الوظيفى Functional_Method .

فقد استند المنهج القديم فى ميـدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، إلى الدراسـة الجزئية لماضى النظم الاجتماعية، وإتباع للمنهج التاريخى الظنى Conjectural History أو منهج التاريخ التخمينى ، الذى يتناول أو يتتبع النظم الاجتماعية بقصد التوصل إلى أصولها الأولية »

كما تقوم مناهج القدماء على دراسة تلك الاختلافات القائمة بين سائر المجتمعات البشرية والثقافات القديمة والحالية ، دون الالتفات إلى ما بينهـا من مماثلات أو مشابهات . أى أن قدامى الأنثروبولوجيين قد إنشغـلوا فقط بدراسـة أوجه الاختلاف بين المجتمعات ، دون الرجوع إلى أوجه الشبه القائمة بينها .

أما المنهج الانثروبولوجى الحديث ، فيهدف إلى التوصل إلى تحديد الحاجات الرئيسيـة لبنى البشر « تلك الحاجات الضرورية التى قامت بفضـلها مختلف ألوان الثقافات البدائيـة ، كما يتناول المنهج الحديث فى الأنثروبولوجيا الاجتماعيـة ، دراسة مختلف الطرق الاجتماعية المتبعة فى إشباع هــذه الحاجات الملحة فى سائر المجتمعات البدائية .

ويمكن تقسيم حاجات الانسان الرئيسية إلى فئات ثلاث ، « أولها : الحاجات الأولية Primary Needs وهى الحاجات البيولوجية ، بإعتبارها حاجات أو شروط ضرورية فى تكوين البناء العضوى للكائن البشرى .

ومثالنا على تلك الضرورات البيولوجية الملحة إنما يتضح ويتأكد فى كل ما يتعلق بحاجات الكائن العضوى كالجوع Hunger ويعبر عن الحاجة إلى الطعام. ويمثل الجنس Sex وما يرتبط به من ضرورات، وكلها حاجات فسيولوجية بحته لها ردود أفعالها فى السلوك الاجتماعى وهى حوافز أساسية لها أثرها الثقافى والحضارى، بإعتبارها عوامل جوهرية لتقدم أو تطور الجنس البشرى.

ففيما يتعلق بالجنس مثلا، لاتقف الحاجة إلى الشريك الجنسى عند مجرد إشباع الحاجة البيولوجية، فهذه عملية مؤقتة من الناحية الفسيولوجية، ولكنها رغم ذلك تستمر بالضرورة فى مراحل الحمل والانجاب ولقد أكدت «مارجريت ميد Margaret Mead» أن الفروق المزاجية بين الرجل والمرأة تحددها أنماط الثقافة فالعملية الجنسية وما يستتبعها من نتائج بيولوجية تحاط جميعها بسياج من سمات الثقافة، هذا ما تؤكده «ميد» فى كتابها «الجنس والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائيـــة» Sex and temperament in three Primitive Societies.

ومن هنا يبدأ الغطاء الثقافى كى يقوم بوظائف ضرورية فى عملية تربية الطفل، بالنظر إليه كمخلوق عاجز ضعيف، ينبغى رعايته وحمايته وإطعامه حتى يتمكن من مواجهة الحياة.

وتتطلب كل تلك العمليات والوظائف التى تنجم عن إشباع الحاجات البيولوجية، والتى تبدأ عند الانتهاء من العمليات الفسيولوجيه، إلى إتباع بعض الطرق والمظاهر الثقافية، وذلك أثناء عملية «رعاية الطفل» وطريقة تربيته وتثقيفه وأسلوب الاسرة فى سد حاجاته إلى الطعام والشراب واللعب وإشباع حاجته إلى الامن.

فالحاجة هى الدافع الأول الذى يثير «التوتر» وطريقة الإستجابة أو الإشباع هى طريقة مستمده بالضرورة من نمط أو غطاء «الثقافة» فقد تدعو الحاجة إلى

الدفء إلى ارتداء الفراء أو الحياة فى سراديب، كما هو الحال فى مجتمعات الاسكيمو وثقافاته البدائية ، على العكس من ذلك نجد أن البدائى فى الغابات الحارة يقطن « الكوخ » ويغطى القليل من أجزاء جسمه للتكيف مع مناخ من نوع خاص .

ومما تقدم يتبين لنا أن « الثقافة » هى وسيلة وقائية ، أوهى «غطاء» متوارث يتقى به الانسان غوائل البيئة ، وقسوة الظروف ، ولذلك قيل إن الانسان مثل الحيوانات « اللافقارية » الصدفية أو القشرية ، يعتمد فى بقائه على «هيكل خارجى» أو « غلاف ثقافى » ، يتألف مما يصنعه الانسان ويقوم به من جهود وأعمال ، وما يتركه من مخلفات ، كالكهوف والأكواخ والسراديب والمنازل والقرى والمدن التاريخية ، وسائر أشكال الثقافة المادية ، حيث يدرس « المؤرخ الثقافى » أو «الأثرى» ماضى الانسان فى ضوء تراثه ومخلفاته ، فنجد فى عالم الآثار أن «الأحجار تتكلم » ، فيستخرج الباحث من دراسته للتراث الثقافى بعض المعانى الجديدة التى تعيد من تركيب الماضى فى صور وأشكال جديدة . ومن هنا تصبح الثقافة على العموم هى استجابة لحاجات بيولوجية صرفة ، حيث يكون لكل حاجة أولية Primary Need واستجابة ثقافية Cultural Response (1) .

طرق البحث فى أنساق الثقافة :

يمكننا أن نتبع مختلف الطرق أو المناهج المستخدمة فى دراسة « علم الثقافة » فى ضوء فهم مختلف الأنماط والسمات السائدة فى سائر الثقافات والحضارات . وإذا ما تساءلنا عن « مضمون الثقافة » كيف يكون ؟ لوجدنا أن هناك مجموعة من الجوانب الرئيسية تقوم بصفة جوهرية فى كل « بناء ثقافى » ، وسنشير إلى أهم هذه الجوانب فيما يلى :

---

(1) iddington. Ralph., An Introduction to Social Anthropology, 60. p. 212.

١ - أنساق السياسة والقانون والاقتصاد .

٢ - مجموع الظواهر الفيزيقية والايكولوجية والديموجرافية ،

٣ - نسق المعتقدات والمعايير واللغة والتنظيم الاجتماعى ، مع دراسة دورة الحياة اليومية .

٤ - نظام التربية Education ويتمثل فى :

(ا) التكنولوجيا والمعرفة (ب) تقييم المشاعر الروحية .

٥ - الدين والسحر . ٦ - الفن والخلق والابتكار .

هذه هى بعض النقاط فى الجوانب العامة والخاصة ، لدراسة مختلف مضامين ومحتويات الثقافات والحضارات . وتتميز الجوانب العامة للثقافة بأنها « جوانب عينية مشخصة Concrete » يمكننا فى ضوئها تطبيق المنهج الانثروبولوجى العلمى المستخدم فى سائر الدراسات الميدانية والحقلية .

أما « الجوانب الخاصة » ، فتمتاز « بالتجريد Abstraction » الأمر الذى يفرض علينا تطبيق مناهج التحليل والمقارنة . بالإضافة إلى استخدام المنهج الوظيفى فى دراسة سائر الأنساق والأنماط الثقافية .

وعلى العموم ينبغى ألا يفوتنا التأكيد على وجود ثلاثة مناهج أساسية لدراسة البناء الثقافى للمجتمع موضوع الدراسة ، وتتمثل هذه المناهج الثلاثة فيما يلى :

١) المنهج التحليلى Analytical Method .

٢) المنهج المقارن Comparative Method .

٣) المنهج التاريخى Historical Method .

المنهج التحليلى :

إن الدراسة التحليلية هى بالضرورية دراسة مونوجرافية متكاملة النظم والوظائف الاجتماعية، ويفرض علينا المنهج التحليلى إتباع الطريقة الأنثروبولوجية

فى البحث الميدانى والحقلى ، فى ضوء الدراسة الحقلية نستطيع القيام بتحليل الثقافة فى المجتمعات البدائية .

وهنا نتساءل : ماذا يفعل العالم الأنثروبولوجى قبل وأثناء قيامه بتحليل الثقافة ؟ ومن أين يبدأ ؟ وكيف ينتهى ؟

نقول فى الرد على هذه المسائل تبدأ الدراسة التحليلية لثقافة البدائية ، بتكوين فكرة واضحة عن واقع المجتمع موضوع الدراسة . كما يفترض الباحث السوسيولوجى الحقلى بعض « الفروض الموجهة hypothéses directrices » تلك التى تحدد ما يهدف إليه الباحث أثناء دراسته ، حيث أن هذه الفروض من شأنها أن توجه البحث أو الدراسة الحقلية منذ البداية .

وهنا يستطيع الباحث السوسيولوجى الحقلى أن يتساءل : ما المطلوب من إجراء بحثه هذا ؟ وما هى المسائل موضوع البحث ؟ أو ماذا يريد الباحث الكشف عنه حين يبحث ؟ وما هى شتى أنساق التصنيف System of classification التى سوف تساعده فى تنسيق مشاهداته وتسجيل ملاحظاته عن الثقافة موضوع الدراسة ؟

وفى ضوء هذه المسائل يستطيع أن يضع الباحث الأنثروبولوجى الحقلى إطاراً لدراسته الحقلية ، وهنا أيضاً نستطيع أن نميز بين تلك المناهج العلمية المنظمة المستخدمة فى الأنثروبولوجيا الثقافية المعاصرة ، وبين تلك المناهج الظنية العشوائية القديمة ، التى أستندت عند الأنثروبولوجيين الأوائل إلى تلك المشاهدات الفجة والملاحظات غير العلمية .

فقد كان أصحاب الإتجاه الثقافى القدامى . لا يهدفون إلى شىء سوى جمع المشاهدات الجزئية وتكديس الظاهرات المنعزلة . وهذا منهج عقيم لا ينتج ،

وطريقة تتنافى مع متطلبات التفكير العلمى الدقيق والصارم (١) إذ أن جمع المشاهدات وتكديس الظاهرات لا يفيد شيئاً على ما يؤكد أوجست كونت Comte . وهذه هى نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها مناهج القدماء من أصحاب الإتجاه الانثروبولوجى القديم من أمثال « السير جيمس فريزر Frazer » و « إدوارد بيرنت تايلور Tylor ».

ولكن من أين يبدأ عالم الثقافة ؟

مما سبق عرفنا ماذا وكيف يدرس الباحث الحقلى ظواهره ؟ وهذه مسألة كنا قد أثرناها منذ قليل ، والمسألة الثانية تتعلق بعلم الثقافة . . . من أين يبدأ ؟ وإلى أين ينتهى ؟ أى أننا بصدد الدراسة التحليلية ، نسأل عن مجال دراسة عالم الانثروبولوجيا الثقافية .

وفى الرد على هذه المسألة الأخيرة . . . نقول إن الدراسة التحليلية للثقافة تبدأ أول ما تبدأ بتحليل دقيق لمعالم البيئة الجغرافية Geographical environment وذلك عن طريق معرفة ظروف الجو والمناخ والالمام بأحوال الطقس ، ودراسة ألوان الطعام وصنوف الغذاء والشراب ، وأنواع المادة الخام التى يمكن الحصول عليها ، وتقبع دورة الفصول الأربعة ، واختلاف مناشط الأفراد باختلاف الشتاء والصيف ، سواء أكان ذلك فى مجتمعات رعوية Pastoral ، أو فى ثقافات الصيد والقنص ، حيث يعيش الصيادون والقناصة ، فى المناطق البدائية ، أو حتى فى مجتمعات الصحراء ، حيث الثقافة البدوية nomadic أو فى مجتمعات القرية ، حيث يسود النمط الريفى أو القروى Rural فى البناء الاجتماعى الزراعى .

---

(١) أنظر مقدمه الدكتور أحمد أبو زيد للجزء الأول من كتاب «الغصن الذهبى» الهيئة المصرية العامه ١٩٧١ ص ٣١ ، حيث تجد فى هذه المقدمة تحليلا وافياً لمناهج القدامى من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وفى ضوء تحليلاتنا التفصيلية لمعالم البيئة الفيزيقية بمناخها وفصولها ، يمكننا أن نتوصل فوراً إلى طبيعة « النسق الاقتصادى economic system ، وكيف يشبع حاجات الأفراد المادية material needs ، وإلى أى حد ينظم الانتاج Production ، وتضبط التوزيع السكانى ، وتحدد حقوق الملكية ، وواجبات الملاك فى المجتمع موضوع الدراسة (١) .

ويمكننا أيضاً بفضل تلك الدراسة التحليلية ، لكل التفصيلات الجزئية الخاصة بمضامين النسق الاقتصادى ومحتوياته ، أن نتوصل إلى فهم أوفى وأدق لنسق آخر يتصل بالنسق الاقتصادى أوثق إتصال ، وأعنى به النسق السياسى Political system -- حين تكشف الدراسة التحليلية عن ظواهر السلطة Authority ونظم الحكم ، وشكل التنظيم السياسى فى سائر المجتمعات المتقدمة والثقافات البدائية .

ولا شك أن الأنثروبولوجيا السياسية ، إنما تهتم بأشكال ونظم الحكم ، سواء تركزت السلطة فى يد «رئيس» أو «زعيم» أو تحت إشراف مجلس كبار السن ، أو هيئة شيوخ القبيلة . ويلعب النسق السياسى دوراً واضحاً له رد فعله فى سائر الانساق الاجتماعية الاخرى ، وقد يقوم النسق السياسى بدور رئيسى يغير من صميم الحياة الاقتصادية .

فن الوظائف الجوهرية التى يقوم بها رئيس أو زعيم القبيلة ، أن يقوم بتوجيه النشاط الاقتصادى ، وتوزيع الثروة بين سائر أفراد القبيلة ، وغالباً ما يكون شيخ القبيلة هو المالك الشرعى للارض وخيراتها . ومن هنا نسلك طريقاً يوصلنا فوراً إلى جوهر القانون البدائى Primitive law ، حين نكشف عن صور الجزاءات الاجتماعية social sanctions ونسق القـــواعد التقليدية traditional Rules

(1) Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthropology, vol : 1., Oliver and Boyd, Edinburgh, 1960 PP. 17 - 18.

وهى تلك القواعد المتعلقة بالضبط الاجتماعى Social control ، كالعرف والدين وقواعد الأخلاق، ومختلف العادات والتقاليد التى تسيطر وتضبط السلوك الاجتماعى. وكلها أمور جوهرية منها ما هو « قانونى » ومنها ما هو « إجتماعى » ، وتتصل كلها بصميم الحياة الاقتصادية والحياة السياسية، حيث يرتبط نسق القانون والعرف بمظاهر السلطة ونظم الحكم.

ولعل من أخص خصائص المجتمع هو دوام التغير والتجدد فى تيار الحياة الثقافية والبشرية ، فالمجتمع يتجـــدد أبداً ، ويتغير دوماً ، وخاصة فيما يتعلق بالنواحى الحيوية ، إستناداً إلى معدلات المواليد والوفيات . فكلما نقص عدد أفراد المجتمع بالموت ، يزداد هذا العدد بزيادة المواليد .

وإزاء هـذه التغيرات الحيوية ، نجـد أن المجتمع فى مسيس الحاجة إلى نظـام محدد بالذات من نظم التربية . ويفضل هذا النظام التربوى الذى تختلف بإختلاف المجتمعات والثقافات، تنتقل مظاهر الثقافة بعاداتها وتقاليدها من جيل إلى جيل .. . وتلك هى الوظيفة الاجتماعية للتربية كنظام رئيسى من نظم المجتمع .

فن المعلوم لدينا أنه عن طريق التربية كوظيفة اجتماعية تنتقل التقاليد الثقافية ، بكل مظاهر اللغة والدين والسحر ، وأنماط السلوك الخلقى ، وظواهر الفكر العليا بتصوراته ومقولاته . كما تنتقل أيضا ظواهر الثقافة المادية كالتكنولوجيا والمعارف العملية والمهارات اليدوية ، وهـذه هى العناصر الثقافية الرئيسية التى تقوم التربية كنظام اجتماعى ، بنقلها خلال سياق التاريخ ،

وجملة القول ... إن الدراسة التحليلية لأية ثقافة من الثقافات إنمـا تفرض على الباحث الحقلى ، الإلمام بالأسـاس المادى للمجتمع Material Substratum of Society بدراسة مظاهر البيئة الفيزيقية وحدودها ، وأوجه النشاط فيها ،

بالإضافة إلى معرفة مختلف الأدوات التكنولوجية البسيطة والأجهزة الالكترونية المعقـــدة .

كما يتعين على الباحث الأنثروبولوجى الحقلى دراسة اللغة ولهجاتها ، بالإضافة إلى أجروميتها ليتشرب معناها ومبناها وليتعرف على فحواها ان مغزاها ، لأن اللغة هى وسيلة الاتصال بالأهالى ، وهى الطريقة العلمية والعملية التى يستخدمها عالم الثقافه حين يتفهم مختلف أشكال النظم وأنماط الفكر والعمل فى سائر الثقافات والمجتمعات .

ولقد كتب ج. ر. فيرث J. R. Firth يقول إن مالينوفسكى قد أولى الدراسات اللغوية عنايته ، وربط بين اللغويات والدراسات الحقلية ربطا واضحاً على اعتبار أن اللغة هى مفتاح المجتمع ومدخل الثقافة . واللغة عند مالينوفسكى كما يصفها فى وظيفتها البدائية ، هى أسلوب من أساليب الفعل ، وليست مجرد دليل على وجود الفكر أو علامة لإثبات وتأكيد العقل (١) .

ونظراً لأهمية كتابات مالينوفسكى ونظريته عن اللغة ، فلقد انشغل بها سائر الأدباء والفلاسفة كما إهتم بها المناطقة فى دوائرفينا العلمية Vienna Circle ، حين رددوا دعاواهم فى الوضعية المنطقية، وعلى سبيل المثال لا الحصر أعلن فتجنشتين Wittgenstein « إن معانى الكلمات تستند إلى كيفية استخدامها » .

ومعنى ذلك كما يقول فتجنشتين أيضاً « إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك كيف تتوظف الكلمة » وأن يتفهم مضمون اللفظة ، دون أن يدرك أولا الطريقة التى يمكنه بفضلها أن يستعمل هذه الكلمات وأن يعرف مواضع استعمال الألفاظ فيتعلم اللغة ويدرس الكلمات بفضل معرفته لكيفية استخدامها. فاللغة على حد تعبيرهم

(1) Firth Raymond.. Man & Culture., Routledge & Kegan Paul, London. 1957. pp. 93-94.

هى سلسلة من العبارات والألفاظ والكلمات ، التى يمكننا أن نعبث بكلماتها ، إلا على أساس أنها « لعبة » لها قواعدها ونظمها التى ينبغى أن تراعى بدقة . فالعبث بالكلمات يحتاج إلى مهارة ، واللهو بالألفاظ والتعابير إمكانية لاتتحقق إلا بالبلاغة والبيان والبديع وهى علوم لغوية تحتاج إلى فقه اللغة وقواعدها بالإضافة إلى ضمان توافر ثروة لغوية هائلة .

فاللغة كما يؤكد مالينوفسكى ، هى أهم ظواهر الثقافة باعتبارها خاصية إنسانية ، تنجم عن ظواهر الفكر وتصوراته . واللغة هى كائن حى ، يعيش وينمو وينتقل ويهاجر عن طريق الاحتكاك الثقافى Cultural Contact الحادث بين سائر اللغات واللهجات ، فكانت مدخلا لدراسات « سلجمان Seligman » فى دراسة الثقافات الحامية ، والنيلية Nilo Hamites » وبخاصة عند « الماساى Massai » و « النالدى Nandi » و « التركانا Turkana » ، بالإضافة إلى « الكبسيجيس Kipisigis » و « النوير » و « الشيلوك » و « الدنكا » [1] .

ومن الخطأ البالغ أن يعتمد عالم الثقافة على المترجمين والشراح ، لأن الكلمة ليست مجرد مجموعة من الحروف الجامدة ، والأصوات والجوفاء ، وإنما هى كائن حى محمل بالكثير من المعانى . ولا يؤدى الاعتماد على الترجمة الحرفية إلى التوصل إلى مضامين الكلمات وفحوى اللهجات الوطنيـــة . الأمر الذى معه لا يستطيع الباحث الحقلى الإتصال بالأهالى لعدم إتصاله باللغة ذاتها ، فكيف يطالب بعد ذلك أن يقدم لنا صورة كاملة وحية عن النظم السائدة فى البناء الثقافى ؟ !

لاشك أن هذا أمر عسير ، إذ أن اللغة هى مفتاح الثقافة ، فمن طريق معرفة المعانى التى تحملها لغة الأهالى ، يستطيع الباحث الحقلى أن يتعرف على مختلف

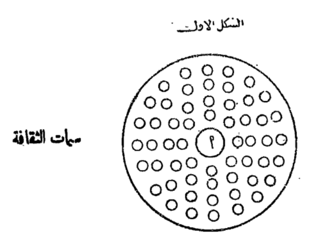
(1) Seligman, GG.: Races of Africa, London, Oxford 1959. p. 154.

الأساطير والقصص المنقولة عن القدماء، وبالتالى يتوصل الباحث الحقلى فوراً إلى باطن ميثولوجيا الفكر البدائى ، حيث يكشف عن التراث العقلى القديم ، حيث تمتلىء معتقدات البدائى بالكثير من ألوان السحر والخرافة الناجمة عن منطق العقل الغيبى Mystique ، ولغته المشحونة بالطلاسم والأسرار .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، ينبغى على الباحث الحقلى ، فى كل دراسة تحليلية لأية ثقافة من الثقافات ، الإلمام بمختلف أشكال التنظيم الاجتماعى ، وذلك بالتركيز على دراسة الأسرة باعتبارها الوحــــدة الجوهرية والرئيسية فى التنظيم الاجتماعى ، وفى ضوء الدراسة المورفولوجية لشكل الأسرة وتنظيمها ، يتوصل الباحث إلى معرفة أشـكال التنظيمات السائدة فى سـائر الزمر والجماعات الاخرى كالعشيرة Clan والبدنة Lineage والقبيلة Tribe .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن المنهج التحليلى، هو المنهج الرئيسى وهو المقدمة الضرورية لكل دراسة أنثروبولوجية أو للمجتمع موضوع الدراسة ، حين يتجه اهتمام الباحث كلية إلى دراسـة سمات الثقافة وتحليل عناصرها ، دون نظر إلى أية ثقافات أخرى ، كما يتضح فى الشكل التالى :

الشكل الاول



المنهج التحليلى
ويهتم بتحليل سمات ثقافة محدده بالذات

المنهج المقارن :

لا ينبغى أن يتوقف عالم الثقافة عند حدود المنهج التحليلى ، بل عليه أن يتعدى الدراسة التحليلية للأنماط الثقافية ، باستخـــدام المنهج المقارن ، ومحاولة ربط التحليل الثقافى بعقد المقارنات العلمية بين شتى أشكال التكيف الإنسانى التى تشاهدها فى مختلف الثقافات والحضارات ، حيث يلقى المنهج المقارن على الظاهرة موضوع الدراسة ضوءاً أوفى وأدق .

ولكى يحقق الباحث أهدافه العلميـة بتطبيق المنهج المقارن ، عليه أن يقوم بتصنيف دقيق لسائر الثقافات الإنسانية ، الأمر الذى يساعد الباحث الانثروبولوجى حين يتبـع طريقة محددة بالذات من طرق التصنيف ، بمقتضاها يستطيـع تنظيم مشـاهداته وتنسيق ظواهر الثقافة ، وتصنيف المادة التى كان قد انتهى من جمعها فى مرحلة التسجيل والتحليل .

ونظراً لدقة وعمق الدراسات المقارنة ، فإن مناهج التصنيف والترتيب ، إنما يصعب إمكان تطبيقها بنفس السـهولة التى يطبق بها المنهج التحليلى فى ميدان الانثروبولوجيا الثقافيـة . حيث تنصب الدراسة التحليلية على التركيز على ثقافة واحدة معينة بالذات ، أما مناهج المقارنة والتصنيف ، فالامر فيها يختلف ، حيث لا ترتكز على دراسة ثقافة واحدة ، وإنما تستند المقارنة إلى دراسة مختلف أوجه الشبه والاختلاف بين ثقافتين أو أكثر (١) .

ولذلك ازدادت فى ميدان الانثروبولوجيا الثقافيـة ، وتعددت الدراسات التحليلية ، بينما تظل الدراسات المقارنة أقل عدداً ، إذ أن الصعوبات التى تواجه

---

(1) Piddington Ralph., An Introduction to Social Anthropology Vol : I, Oliver Boyd, 1960. p. 22

للمنهج التحليلي هي أقل بكثير من تلك التي تواجهها مناهج المقارنة ، نظراً لما تكتنفها من مشكلات أكثر تعقيداً وأشد تشابكا وتركيباً .

وعلى هذا الاساس ، فإن تطبيق المنهج المقارن ، يقتضي منا تجنب المقارنات السطحية ، والتعرض لجوانب أكثر عمقاً لفحص وكشف طبيعة الواقع الثقافي ، من خلال عقد المقارنات الجادة والعميقة بين شتى الثقافات . وكثيراً مايستخدم أصحاب الاتجاه الثقافي مختلف المصطلحات الفنية ، « مثل السمات الثقافية » و «المركبات الثقافية» و «الدائرة الثقافية» أو مايسمى أحيانا Culture circle . وذلك للتوصل إلى تحقيق دراسة أرقى وأدق في ميدان المقارنة والتصنيف .

ومن ناحية أخرى ، إتفق علماء الانثروبولوجيا الثقافية على إعتبار صفة « الديمومة duration » والاستمرار في الوجود هي الخاصية الاساسية التي تميز ثقافة بالذات عن غيرها من سائر الثقافات . ولذلك يفتش عالم الثقافة عن هذه الخصائص الدائمة في تركيب السمات والظواهر في دائرة ثقافية محددة بالذات ، كما يبحث أصحاب المنهج المقارن عن بعض العناصر الثقافية التي تتميز بالديمومة وبالكلية في ثقافة معينة ، ومقارنتها بسيادة سمات ثقافية أخرى في نفس البناء أو المنطقة أو الدائرة الثقافية الممتدة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد في الثقافات النيلية الحامية الممتدة في منطقة شرق ووسط إفريقيا ، حيث تسود مجموعة من السمات والعناصر الثقافية مثل ما يسميه « ملفيل هرسكوفتز Melville J. Herskovits » بمركب الماشية Cattle Complex ، حيث نجد أن الماشية في نظر هذه الشعوب هي أكثر من كونها مجرد ثروة إقتصادية . فهي محور إهتمام الأهالي وميلهم إلى الربط بين الماشية وبين المظاهر المختلفة لحياتهم اليومية . حيث تعتبر البقرة عنصراً حيوياً في حياتهم

السياسية وعلاقاتهم الاقتصادية (١) . كما نلحظ أن تبادل الابقار ، هو عنصر إجتماعى ضرورى يساعد على توثيق العلاقات .

ويفرض نظام التبادل إيداع الابقار عند الاصدقاء والجيران ، وهذه هى عادة الكيبسيجيس والناندى ، حين يوزع أصحاب الماشية جزءاً من مواشيهم فى أماكن متباعدة لضمان قلة الخسارة فى الثروة الحيوانية ، إذا تعرضت منطقة للأمراض أو الصراعات التى كثيراً ماتنشب بين مختلف العشائر ، وبذلك يبعدون شبح العوز والفاقة .

وقد أدخلت على هذا النظام التبادلى الكثير من التعديلات وبخاصة بين قبائل الباكوت . وبناء على هذا التعديل يجب على الشخص الذى يتسلم بقرة أن يعطى لصاحبها عجلا أو كمية من الحبوب أو عدداً من الاغنام . ويسمح لراعى البقرة الجديدة أن يحتفظ بها طوال الحياة ، غير أنه يتعين عليه أن يقدم لمالكها القديم هدايا صغيرة ، وأن يتخلى له عن أحد عجولها بصفة دورية ومنتظمة . ويتحرر المالك الجديد من الدين إذا ماتت البقرة ، فلا يلتزم بشىء للمالك القديم . ولذلك وكثيراً مايدعى المالك الجديد موت البقرة ، فتدور المنازعات وترفع القضايا التى تنظر فيها المحاكم المحلية .

ومن هذا المثال يتضح لنا أن « مركب الماشية » هو بؤرة الحياة الثقافية بين الشعوب النيلية ، ولهذه العقدة قيمتها وردود أفعالها فى سائر النظم الاخرى ، الأمر الذى يجعل منها محوراً ترتكز إليه كل جوانب الثقافة السائدة فى منطقة شرق ووسط إفريقيا . حيث أن الماشية ثروة إقتصادية يسهل نقلها من مكان إلى آخر ، على حين يتعذر ذلك بالنسبة للأرض الزراعية ، مما يعطى للماشية قيمة « النقود » .

(١) الدكتور أحمد أبو زيد « البناء الاجتماعى » مدخل لدراسة المجتمع ـ الجزء الاول ـ الدار القومية ٦٥ ص ١٩٨ .

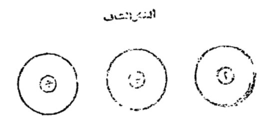
فى سيولتها وسهولة نقلها فى المجتمعات المعقدة ، كما أن الماشية كثروة مادية ، لا تتوقف عند حد ، وإنما تنمو وتتكاثر تلقائياً ، ولا تحتاج إلى عناية كبيرة كما هو الحال فى الزراعة ، والنيليون يمجدون الحرب والصراع ، لأنها وسيلة تعوضهم ما يخسرونه من الماشية حين يتفشى المرض ، كما أن الحرب تثير حماسة شباب «البانتو» و «الباكوت» ، وتفسح لهم مجالا لإحراز الشهرة وزيادة الثروة (٢) .

وفى ثقافات الهنود الحمر فى أمريكا ، تشيع بعض الدوائر الثقافية المميزة ، منها ما يعتمد على تربية الخيول ، ومنها ما يغرم بصيد الـ Bison ، وهو حيوان برى أمريكى يشبه الثور ، كما نجد أيضاً بين تلك الثقافات الهندية الحمراء بعض القبائل التى تعتمد فى حياتها الاقتصادية على زراعة الأرز البرى فلك الذى تدور حوله الكثير من الطقوس والشعائر التى تتصل بمحصول الأرز وطريقة زراعته ومواعيد حصاده .

ونستخلص من كل ذلك أن الدراسة المقارنة إنما تستند أصلا إلى تصنيف الثقافات إلى مجموعة من الدوائر الثقافية . كما أن المنهج المقارن ، إنما يعتمد أولا وقبل كل شىء على تصنيف السمات والعناصر الثقافية . كما يستند المنهج المقارن أيضاً إلى تنسيق ومقارنة هذه السمات والعناصر بغيرها ، ومن نفس الدائرة الثقافية . إذ أن علماء الانثروبولوجيا الثقافية القدامى قد انزلقوا إلى الوقوع فى الأخطاء المنهجية فى دراسة النظم وغرائب العادات ، عن طريق مقارنة هذه النظم الغريبة بنظم أخرى منتزعة من ثقافات لا ترتبط بها بأى صلة تاريخية أو جغرافية . وبذلك لم يطبق المنهج المقارن فى الدراسات القديمة على نحو علمى منظم ، إلا أن الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة ، تأخذ بمقارنة

(1) Melville, J. Horskovits., Cultural Anthropology, Alfred A Knopf, New York, 1964.

سمات وعناصر ثقافية ، تقع أو تنحصر فى دائرة أو قطاع تسوده السمات والعناصر المتشابهة كما هو واضح فى الشكل الآتى :



وبهتم بتحليل ثقافتين أو أكثر فى دائرة ثقافية
واحده

فاللغة مثلا تعتبر عنصراً أو سمة ثقافية ، يستطيع العالم الانثروبولوجى بصددها أن يدرس مختلف اللغات واللهجات السائدة ، وأن يعقد المقارنات بينها ، وأن يربط فى نفس الوقت بين حدود اللغة وحدود الثقافة أو القبيلة موضوع الدراسة .

وقد تعتبر اللغة من عوامل التصنيف Classification ، حين ينظر إليها الأنثروبولوجى اللغوى على أنها عامل مساعد من عوامل الكشف عن الإحتكاك الثقافى Cultural Contact ، كما تكشف المقارنة اللغوية عن حدود الثقافة ، من أين تبدأ وكيف تنتهى ؟ .

إلا أن الحدود اللغوية رغم ذلك ، كثيراً ما لا تتفق مع الحدود السياسية والثقافية للمجتمعات . نظراً لوجود ما يسمى بالإنتشار الثقافى diffusion of Culture ، ومن شأن هذا الانتشار الثقافى أن يؤدى إلى التشابه بين العناصر الثقافية فى مناطق متباعدة وثقافات متفرقة .

ويؤلف العنصر أو السمة الثقافية جزءاً بسيطاً من الثقافة المادية أو «اللامادية» التى هى «الثقافة الإجتماعية» . فحين نشاهد مثلا فى ثقافة ما من الثقافات نمطاً سلوكياً

معيناً بالذات ، نستطيع فوراً أن نعتبر هذا النمط السلوكي جزءاً أساسياً من الثقافة موضوع الدراسة . ومن هنا تصبح أنماط السلوك هي عناصر جوهرية وسمات أساسية من سمات الثقافة التي يدرسها الباحث الأنثروبولوجي الحقلي .

وقد تتحقق سمات الثقافة في كيفية الحصول على الطعام أو جمعه ، وطريقة توزيعه أو تخزينه ، وقد يتمثل السلوك الثقافي في إستخدام نوع معين من أنواع الحراب لصيد الأسماك ، أو الزواج من طائفة معينة من الأقارب . وكل هذه أنماط مختلفة من السلوك ، التي يمكن النظر إليها على أنها سمات أو عناصر جوهرية من سمات المجتمع محل الدراسة .

وغالباً ما تتوزع سمات الثقافة توزيعاً جغرافياً ، فتمتد هذه السمات وتنتشر عناصر الثقافة إلى ما وراء حدود القبائل والمجتمعات موضوع الدراسة ، وحين تنتشر سمات الثقافة وتمتد العناصر الثقافية كي تلتحم مع سمات وعناصر أخرى فيما وراء الحدود ، فانها تؤلف ما نسميه « بالمركب الثقافي Culture Complex » ذلك المركب الذي يتكون من التحام بعض سمات الثقافة بعناصر أخرى عن طريق الاحتكاك الثقافي ، وما يسمى « بالتحضير Acculturation » .

فالمركب الثقافي هو مجموعة متلاحمة من السمات الثقافية التي تتوظف وتتماسك كما تتصف بالديمومة والثبات . ويضرب لنا « كلارك وزلر Clarke Wissler » مثالا في هذا الصدد عن مجموعة من قبائل الهنود الحمر ، تعيش على زراعة الأرز البري ، بالقرب من بحيرة Superior Lake ، ولما كانوا من الأمريكيين الأصليين فقد سموا بالامرنديين Amerindian .

وتقطن هذه القبائل منطقة البحيرات الكبرى ، ونلاحظ فيها شيوع بعض السمات الثقافية المشتركة تلك التي ، تتصل جميعها بمركب الارز ، مثل طريقة جمع الارز وتخزينه ، وحفظه من إغارة الطيور عليه . كما يرتبط هذا المركب ببعض

السمات الدينية كالشعائر والطقوس التى تدور حول زراعة الارز البرى ، كما يلتزم الاهالى ببعض المبادىء الإقتصادية التى تنظم طريقة إنتاج الارز وتوزيعه ، وفقا لمجموعة من الانماط التى تتم حسب قواعد مدروسة وطبقا لقوالب سلوكية متوارثة .

وتدخل كل هذه السمات الثقافية الاساسية فى صاب « مركب الارز » كمجموعة من العمليات الثقافية المتفاعلة ، إلى الدرجة التى معها نستطيع القول إن المركب الثقافى يتضمن الكثير من الظواهر المتشابكة ، والنظم التى تتساند فيما بينها تساندا وظيفيا داخل إطار البناء الثقافى برمته (١) .

وإستنادا إلى هذا الفهم ، يستشهد « وزلر Wissler » بالتوتمية Totemism والزواج الخارجى exogamy كأمثلة حية للمركبات الثقافية . فالتوتمية مثلا ، ليست حقيقة ثقافية فردة Single Cultural Reality ، وإنما تنتشر الاشكال والصور التوتمية ، وما يرتبط بها من مختلف المعتقدات والنظم كى تمتد فى نماذج متغايرة فى سائر المجتمعات والثقافات .

وهناك مقولات تصنيفية أخرى تخضع للبحث المنهجى فى ميدان الدراسات المقارنة . حيث يستخدم علماء الانثروبولوجيا الثقافية مايسمى « بالدائرة الثقافية » بإعتبارها منطقة تسود فيها سلسلة من السمات الثقافية المتقاربة ، ومجموعة من المركبات الثقافية المتجاورة ، والسائدة بين مجموعة عددة من القبائل البدائية ولذلك فقد ينتقل المركب الثقافى ، بهجرة بعض السمات أو العناصر الثقافية من قبيلة إلى أخرى ، كما هو الحال فى إنتقال مركب الماشية ، بين سائر قبائل شرق ووسط

(1) Piddington, Ralph., Social Anthropology., Vol. 1 Oliver and Boyd, Third Edition, 1960. PP. 22- 23.

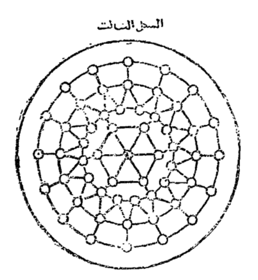
إفريقيا ، وخاصة بين قبائل الباكوت ومثل إنتقال «مركب الارز البرى» بين سائر قبائل سهول أمريكا حيث تنتشر قبائل الهنود الحمر .

وقد يطلق علماء الثقافة بصدد إستخدامهم للمنهج المقارن ما يسمونه « بأنماط الثقافة Patterns of culture » بقصد تصنيف سائر أشكال أو صور الثقافات السائدة فى المجتمع البشرى ، ولكن يبدو أن تصنيف هذه الثقافات إلى « أنماط » لم يستند إلى الدراسة الموضوعية لمختلف السمات والعناصر الثقافية ، بقدر ما استند هذا التصنيف إلى الكثير من الدراسات السيكولوجية التى تعتمد على نظريات فرويد Freud ويونج Jung وعلى ما جادت به قرائح علماء النفس الالمانى بصدد نظرية الجشطلت Gestalt .

بمعنى أن دراسة « أنماط الثقافة » قد استندت أصلا إلى « فروض وتقديرات ذاتية subjective assessments » على حد تعبير « رالف بدنجتون Ralph Piddington » حيث قام علماء الثقافة من أمثال « روث بندكت Ruth Benedict بتحديد «صيغ ثقافية عامة » تستند إلى دراسة مايسود فى الثقافة من قيم وإتجاهات سيكولوجية عامة ، ومقارنتها بما يسود فى ثقافات أخرى .

« والصيغة الثقافية » عند اتباع الاتجاه السيكولوجى فى دراسة الثقافة ، هى « نمط Pattern » يتميز بالعموم ، أو « صورة Form » تتضمن فى ذاتها مجموع السمات الثقافية الثابتة ، كما تمتاز « الصيغة الثقافية » بالتكامل ، حين تنتظم عناصرها وتتوظف وتتفاعل فى إطار كلى متساند الاجزاء . حيث أن الثقافة تتحقق فى وحدة ، وتتجسم فى كل مترابط يطلق عليه اسم Configuration ، بالنظر إلى الثقافة كصيغة كلية . إذ أنها ليست مجموعة عزلة من السمات ، أو كل مبعثر العناصر والأجزاء كما يتضح فى الشكل التالى :

الشكل الثالث



الصيغة الثقافية
ترمز الدوائر السوداء إلى مركز أو بؤرة الصيغة الثقافية
بمعنى أن الصيغة الأساسية هي النمط السائد في
الثقافة برمتها

وتدرس «روث بندكت» أنمــــاط الثقافة من زاوية القيم والمثل واتجاهات السلوك ، باتبــاع المنهج السيكولوجي ، وفي ضوء ما تسميه بمبدأ «النسبيه الثقافية Principle of cultural relativity» .

حـ — المنهج التاريخي :

أشرنا فيما سبق إلى مناهج التحليل والمقــارنة ، ثم عرجنا إلى مدرسة «الصيغ الثقافية» ، ولكننا إذا ما تطرقنا إلى التاريخ وأصحاب الإتجـــــاه التاريخي ، في في دراسة أنماط الثقافة وسماتها وهجرتها ، وانتشارها فيرى فيلــكس كيسنج Felix Keesing» أن الدراسة المعاصرة للثقافة ، إنما ترتكز إلى محورين رئيسيين المحور الوظيفي Functional من جهة ، والجانب التاريخي Historical من جهة أخرى ، بالإضافة إلى النظرة الكلية للثقافة كصيغة عامة (1) وهذا ما توضحه الأشكال الآتية :

---

(1) Keesing, Felix., Cultural Anthropology. New York, 1960 P. 158,

الشكل الرابع

المنهج التاريخي

ويستند الى مجموعة من السمات التاريخية المنفصلة
ويعلق أهمية كبرى على التجمع التاريخي ودراسة
ماضي السمات الثقافية وكيفية تراكمها على مر التاريخ

الشكل الخامس

المنهج الوظيفي

ويقوم المنهج الوظيفي على دراسة العلاقات الوظيفية والعلمية بين سائر السمات الثقافية ، ويمكننا بصدد المنهج التاريخي أن نتساءل : لماذا أغفلت الأنثروبولوجيا الإجتماعية الإلتفات إلى تاريخ الثقافات البدائية وتتبع ماضيها البعيد؟ على الرغم من أن التاريخ إنما يلقي على الحاضر ضوءاً أوفى ، ويتيح لنا فهماً أكثر دقة ووضوحاً للحاضر الثقافي الراهن .

في الواقع لقد أغفل علماء الانثروبولوجيا الإجتماعية دراسة تاريخ المجتمعات البدائية ، لسبب بسيط جداً وهو أنها مجتمعات معزولة بلا تاريخ مكتوب ، ولعدم توافر الوثائق اليقينية المؤكدة على ما يذكر « راد كليف براون » [1] .

ولقد بدأ « المنهج التاريخي » تطوريا ، حين التفت أصحاب الاتجاه التاريخي القديم ، إلى تلك الاختلافات القائمة بين سائر الثقافات ، فعقدوا بينها المقارنات على أساس فكرة « التقدم Progress » عند « كوندورسيه Condorcet » و « تورجو Turgot » و « كونت Comte » فحاولوا دراسة ومقارنة ما حققه ذلك التقدم خلال عملية التطور الثقافي ، على إعتبار أن المجتمع الأوربي هو أعلى صور التقدم والتطور .

وعلى هذا الأساس ، أخذ أصحاب الاتجاه التطوري . يتتبعون تلك المراحل التي مرت بها الثقافة ، وما طرأ على سماتها من تغير وتعقيد ، على إعتبار أن التقدم هو القانون العام الذي يحدد مسار الحضارة ويضبط إتجاه الثقافة [2] . ولذلك انشغل أصحاب الاتجاه التاريخي القديم بفكرة التطور أو التقدم ، فانزلقوا إلى مسألة الأصول origins ، حين حاولوا البحث عن أصل النظم الاجتماعية .

ومن هنا ظهرت نقاط الضعف الشديدة ، حيث أن المنهج التاريخي التطوري لا يتيح الفرصة العلمية الجادة لدراسة ماضي الثقافة وتطور النظم الاجتماعية ، بمعنى أن الاتجاه التطوري هو إتجاه « لا علمي » كما أنه أيضاً وفي نفس الوقت إتجـــاه « فرضي » يتابع مناهج الظن والتخمين ، ويأخذ بمنهج التاريخ النظري أو الفرضي

---

(1) Radcliffe Brown A.R., Method in Social Anthropology, Chicago. 1958.

(٢) أنظر « تراث الإنسانية » المجلد التاسع العدد الأول ، حيث تجد تحليلا صافياً لكتاب « المجتمع القديم » لمورجان ، وبقلم الدكتور أحمد أبو زيد ، ٣٥ — ٣٩ .

hypothetical history ، حين يفترض « أصلا تاريخياً » لسمة ثقافية دون سند من علم ، وبلا وثائق يقينية مؤكدة .

ونقطة الضعف الثانيه التى يعانى منها المنهج التاريخى التطورى ، هو أن أصحاب هذا المنهج من أمثال « مورجان Mogran » و « فريزر Frazer » و « هنرى مين » ، قد حاولوا تأصيل النظم ، دون الرجوع إلى علاقة هذه النظم بالبناء الإجتماعى الكلى ، وإكتفوا بانتزاعها من السياق الثقافى الذى يعطيها معناها ومغزاها ، وحالوا تفسير النظم لتأييد فرض من الفروض النظرية .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن علماء المنهج التاريخى التطورى قد أخذوا بالإتجاه النشوئى genetic بحثا عن أصول النظم وماضى الثقافات ، بقصد إعادة تركيب الماضى التاريخى للنظام أو الثقافة موضوع الدراسة . ولذلك أتجه التطوريين إلى دراسة تاريخ أو ماضى « صور الثقافة Forms of Culture » ، فى محاولة منهم لتركيب الماضى التاريخى لتلك الصور .

ومن أجل عملية إعادة تركيب التاريخ Reconstruction of history صدرت بعض النظريات ، مثل النظرية التطورية ونظرية انتشار الثقافة . وقلنا إن المدرسة التطورية تحـــاول أن تبحث عن البدايات الأولية لصور الثقافة ، بقصد إعادة تركيب هذه البدايات التاريخية ، إستناداً إلى بعض التخمينات ، والافتراضات الظنية .

ومن هنا ثارت المناقشات الحاميه حول الوحدة الرئيسية للتنظيم الاجتماعى ، هل هى الأسرة ؟ أم العشيرة Clan ؟ وهل كانت السلطة أبوية Patriarchal أم أموية Matriarchal ؟ وعبادة الأسلاف Worship of ancestors هل هى أسبق من عبادة الطبيعة ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟

هذه فروض دار حولها البحث فى الأنثروبولوجيا التطورية ، ولذلك حاول التطوريون أن يتابعوا نتائج علم آثار ماقبل التاريخ، بحثا عما يؤيد هذه الفروض وسعياً وراء الشواهد الامبيريقية التى تؤكد صحة الفرض .

هذا عن المدرسة التطورية فى تاريخ الثقافة ، أما عن مدرسة الانتشار الثقافى ، فتهدف إلى تتبع هجرة السمات والعناصر الثقافية لاعادة تركيب ماضيها التاريخى فلو نظرنا مثلا إلى تلك الأنماط والسمات الثقافية السائدة فى تلك الجزر المتناثرة التى تتوسط المحيط الهـــادى ، فسوف نجد عدداً من المشابهات الثقافية Cultural similarities ، كما تتجلى فى سائر النظم الدينية والاقتصادية .

ففيما يتعلق مثلا ، بالنسق الدينى ، نجد نوعا من التشابه فى أسماء الآلهة ، مثل « تانجالوا Tangaloa » و « Tane » و « Mani » ، بالاضافة إلى تشابه أنواع التحريمات المتصلة بما تعنيه فى لغاتهم كلمة « tàbu » أو « tàpu » .

حيث إشتق العلماء من تلك اللغات ذلك الأصطلاح الانثروبولوجى المشهور الذى أطلقه دور كايم ومدرسته ، وأعنى به كلمة « taboo » (1) .

هذا فيما يتعلق بالنسق الدينى ، أما عن النسق الاقتصادى ، فنى هذه الجزر هناك الكثير من أوجه الشبه فى تقسيم العمل ، كما توجد المشابهات فى التكنولوجيا مثل طريقة صنع الآلات ، ونماذج وأدوات صيدالأسماك والحيوان ، كالحراب والسهام والقوارب الخفيفة . ومن أهم علماء الانتشار فى أمريكا « فرانز بواس Boas » وتلاميذه من أمثال « كروبر Kroeber » و « جولدن فيزر Goldenweiser » و « لوى Lowie » و « سابير Sapir » ، ويأخـــذ جميعهم بمبدأ إعادة بناء

---

(1) Piddington, Ralph, An Introductioa fo Social Anthropology, Vol : 1, Oliver and Boyd. 1960, P. 28.

التاريخ أو الماضى Reconstruction of history (1) .

وأستناداً إلى تلك المشابهات الثقافية فى ظواهر الدين والاقتصاد ، وفى مختلف المعتقدات والعادات الإجتماعية ، فلا يمكن أن نتصور أن هذه الانماط أو السمات الثقافية قد نشأت « نشأة مستقلة » فى سائر تلك الجزر . فلم تتولد هذه السمات الثقافية بطريقة « تلقائية » أو عشوائية ، حيث تضعف هذه الفكرة الخاصة بتلقائية الثقافة ، أو وحدة الاختراع والابتكار ، إذ لا يمكن أن تتمتع بنفس القدرات الذكائية ، أو بوحدة الفكر الذى يخلق التشابه فى السمات الثقافية .

بمعنى أن التشابه الثقافى حين يفسر « بالنشأة المستقلة » أو وحدة الفكر والذكاء بالإضافة إلى تشابه الظروف الفيزيقية والاجتماعية ، هو تفسير قاصر ومقصر لا يستطيع الوقوف أمام النقد والتجريح وإنمـــا يفسر هذا التشابه الثقافى ، بهجرة السمات الثقافية وإنتقالها من جزيرة إلى أخرى ، فتشيع وتسود تلك العناصر الثقافية المهاجرة بين سائر الجزر .

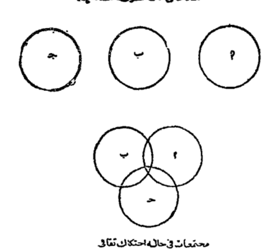
وربما أنتشرت هذه السمات أو العناصر الثقافية من مراكز معينة إلى دوائر ثقافية أخرى عن طريق الإحتكاك الثقافى أو ما يسمى بالتحضير الذى يعبر عن عملية أكتساب الثقافة ، بعد أستعارة العناصر الثقافية من مجتمعات أو ثقافات أخرى كانت فى حالة عزلة ثقافية ، كما يوضح لنا الشكل التالى .

ومن هذين الشكلين الآتيين ، نستطيع أن نميز بين حالة العزلة الثقافية ، وحالة « الإكتساب ، أو التحضير » ، الذى يتم نتيجة لانتشار السمات الثقافية ، عن طريق الاحتكاك Contact ، الذى يتم تحت وطأة التصنيع أو الغزو والحرب والاستعمار ، وقد يحدث عن طريق الانتقال والترحال سعياً وراء الرزق ، بالهجرة أو التجارة .

(1) Herskovits, Melville, Cultural Anthropology, New York, 1964. P. 465.

الشكل السادس

مجتمعات في حالة عزلة ثقافية



مجتمعات في حالة احتكاك ثقافي

عملية التحضير أو التمثيل الثقافي
acculturation

وجملة القول — حين نلحظ وجود ظاهرة مشتركة أو سمة ثقافية متشابهة في مجتمعين متباعدين ، فهناك ثلاثة فروض تفسر هذا الاشتراك أو ذلك التشابه . والفرض الأول ، هو وجود الظاهرات والعناصر الثقافية ، بطريقة تلقائية دون أي إتصال أو إحتكاك سابق . وهذا هو الفرض الذي تقوم عليه مدرسة النشأة المستقلة ، حيث أن السبب في تشابه الظواهر وتجانس عناصر الثقافة ، هو في زعم هذه المدرسة ، تشابه في الفكر وتجانس في العقل .

والفرض الثاني ، هو وجود هجرة لهذه السمات أو العناصر الثقافية من مراكزها الأصلية وإنتقالها إلى مجتمعات أو ثقافات أخرى . وهذا هو الفرض الذي تؤكده مدرسة الانتشار الثقافي . حيث يذهب الانتشاريون إلى أن سمات الثقافة إنما تنتقل وتهاجر ، بإنتشارها من مراكزها الأصلية ، كي تكون كمراكز للإشعاع حين تشع وتشيع في دوائر وبيئات ثقافية أخرى .

والفرض الثالث ، هو وجود صلة غير مباشرة بين المجتمعين ، بمعنى أن هذه

المدرسة الثالثة تفترض ، أن السمات والعناصر الثقافية قد لا تنشأ تلقائياً وفى عزلة ، فتصدر صدوراً مستقلا ، ولا تنتقل هذه السمات أو تهاجر من مراكزها وتتصل إتصالا مباشراً بمجتمعات أخرى . فليس التشابه الثقافى دليلا يقينياً مؤكداً على وجود « حراك ثقافى » أو « إحتكاك مباشر بين المجتمعات ، وإنما قد تكون هجرة السمات واستعاراتها قد نتجت وظهرت بطريق غير مباشر ، وذلك بإتصال المجتمعين بمجتمع ثالث ، وهذا الفرض الثالث يضعه أصحاب نظرية التقارب أو « الميل الثقافى Convergence of Culture » .

ويذهب أتباع مدرسة « الميل الثقافى » إلى أن المجتمع حين يستعير أى عنصر من عناصر الثقافة ، فان هذه الإستعارة لا تعنى أبداً ضرورة إقتباس العنصر على حالته الأصلية ، وإنما قد يغير المجتمع المستعير فى العنصر الثقافى المستعار ، لكى يتلاءم مع بقية العناصر السائدة فى بنية المجتمع المستعير .

فلو فرضنا مثلا وجود تشابه بين سمات وعناصر ثقافية مشتركة فى المجتمعين ا ، ب على الرغم من عدم وجود أى إتصال تاريخى أو مباشر بينهما ، فيمكن أن تكون هذه السمات المشتركة والعناصر المتشابهة قد صدرت عن مجتمع ثالث هو (ج)، يكون هو بنفسه وسيلة الاتصال وهجرة السمات الثقافية إلى كل من المجتمعين ا ، ب على الرغم من عدم ضرورة إستعارة السمات الثقافية بنفس الحالة الأصلية، وإنما يستعير كل من ا ، ب سمة ثقافية من المجتمع ج ، بحيث يقوم بتغيير السمة تغييراً شكلياً ، بحيث تميل السمات الثقافية وتتقارب ، كى تنسجم مع بقية عناصر وسمات ثقافة المجتمع المستعير . ومن هنا جاءت ضرورة إكمال المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة وإعادة تركيب ماضيها ، بتطبيق المنهج الوظيفى Functional Method لدراسة « العلاقات العلية Causal Relations » بين سائر السمات الثقافية وكيفية تراكمها ، بالرجوع إلى الفروض المنهجية للنزعة الوظيفية . حتى يمكن تفسير

هذه السمات المستعارة والتى تلاءمت مع سمات الثقافة ، بإعتبارها أجزاء متكاملة وليست منعزلة أو منتزعة من سياقها الثقافى .

ولقد تأكد علماء الثقافة من تحليل عملية الانتشار وبتطبيق المنهج الاستقرائى ، أن هناك تفاعل وتساند بين سائر عناصر الثقافة الواحدة ، كما إكتشفوا أيضاً أنه من الممكن أن يلعب العنصر الثقافى الواحد ، دوراً معيناً فى مجتمع ما ، ويؤدى أيضاً نفس العنصر الثقافى وظيفة مختلفة كل الاختلاف فى ثقافة أخرى .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن المنهج التـــاريخى فى دراسة الثقافة ، ليس منهجاً واحداً بعينه ، وإنما ينقسم إلى ثلاثة إتجاهات أو مواقف ، ويأخذ الموقف الأول بمبدأ التشابه العقلى وفكرة النشأة المستقلة للثقافة ، أما الموقف الثانى فيتابع مبدأ الانتشار والاحتكاك الثقافى ، فى حين يأخذ الموقف الثالث ، بفكرة « الميل » أو التقارب الثقافى . ومن أكبر ممثلى مدرسة النشأة المستقلة العالم الألمـانى « باستيان Bastian » أما المدرسة الانتشارية فأتباعها كثيرون فى ألمـانيا وإنجلترا ، فلقد نشرت المدرسة الألمانيا التاريخية مكتشفاتها العلمية فى مجلة « الإنسان Anthropos ومن أشهر علماء هذه المدرسة « جروبنر Graebner » وأشتهر فيها أيضاً الأب « شميت W. Pater Schmidt » ومساعدى الأب شميت وعلى رأسهم « W. Koppers » و « Gusinde » .

هذه هى المدرسة التاريخية فى ألمـانيا ، أما عن المدرسة البريطانية ، فإشتهر فيها عالم التشريح البريطانى « السير جرافتون اليوت سميث Sir Grafton Elliot Smith حيث إهتم بثقـــافات مصر القديمة « وتشريح المخ الفرعونى » ، فى ضوء دراسة جماجم الموميات المصرية . . . ومن علماء المدرسة الإنجليزية الإنتشارية « و . ج . برى W. J. Perry » حيث نشر أهم كتبه « أبنـــاء الشمس The Children of the Sun » الذى يؤكد فيه إنتشار الثقافة الإنسانية من مراكزها

الأصلية فى مصر الفرعونية ، فالمصريين هم أبنـــاء الشمس ، التى سطعت وإنتشر ضياؤها على العالم القديم ، إذ أن مصر هى مركز الاشعاع الثقافى على العالم كله ، وهى شمس المعرفة (١) .

الصعوبات التى تعترض المنهج التاريخى :

وإذا ما صادفتنا الصعوبات الميثودلوجية أثناء إستخدامنا الطريقة التطبيقية فى إتباع المنهج التاريخى ، حيث توجد الكثير من العقبات التى تعترض سبيل المنهج الإثنولوجى ، حين لا تتوافر لدينا البيانات والسجلات اليقينية والوقائع التاريخية أو حين توجد بعض الأخطاء الجسيمة أو المعلومات القاصرة . وكثيراً ما نجد - فى تطبيق المنهج التاريخى - بعض الصعوبات حيث لا تتوافر لدينا الأدوات والأجهزة العلمية ، الأمر الذى يؤدى بنا إلى الخطأ ، وإلى عدم التوصل إلى الحقائق اليقينية المؤكدة .

وهنا - وفى هذه الحالة فقط - يمكننا أن نلجأ إلى منهج آخر من مناهج البحث التاريخى ، وهو ذلك المنهج الذى أطلقنا عليه أسم « المنهج التاريخى الظنى » أو « المنهج التاريخى الفرضى hypothetical history » ، حيث أننا بفضل إستخدام هذا المنهج الأخير ، إنما نفترض إحتمال وجود بعض المراحل التاريخية ، بقصد إعادة تركيب التاريخ ، حيث يتألف لدينا فى النهاية بناء تاريخى مفترض ، إستناداً إلى إعادة تركيب ماضى الثقافة .

ولا شك أننا نستطيع أن نعيد تركيب الماضى التاريخى للثقافة ، بفضل الإستعانة ببعض المناهج الإثنولوجية واللغوية ، عن طريق الدراسة الشاملة للجوانب الرئيسية للثقافة ، وأعنى بها :

---

(1) Herskovits, Melville., Cultural Anthropology., New York 1964. pp. 461-463.

(١) دراسة الخصائص الفيزيقية والعنصرية الحالية والغابرة ، مثل دراسة الإنسان القديم ومخلفاته وعظامه وبقاياه ومساكنه وآثاره .

(٢) الإستعانة بعلم آثار ما قبل التاريخ Prehistoric archaeology حتى يمكننا أن نستند إلى بعض المعلومات والحقائق اليقينية المؤكدة .

(٣) دراسة الصيغ واللهجات والمركبات اللغوية ، ومقارنتها بدراسة كل المظاهر الأساسية العامة للثقافات الحالية والمجتمعات الراهنة .

وإرتكازاً إلى هذا الفهم - نجد أننا فى بعض الأحوال ، يمكننا أن نتوصل إلى بعض الحقائق اليقينية المؤكدة ، كما نتوصل فى أحوال أخرى ، إلى بعض الحقائق المحتملة فقط ، تلك الحقائق التى تستند إلى درجة عالية أو منخفضة من الإحتمال Probability .

ومهما قلت أو زادت درجة الإحتمال الكثيرة أو القليلة ، إلا أننا نجد - من وجهة النظر الميثودلوجية - أن الإحتمال - فى ذاته - لا يتضمن يقيناً . كما أننا فى أغلب الأحوال ، لا تصادفنا الحقائق المؤكدة أو حتى المحتملة ، وإنما نتوصل فقط إلى مجرد الحقائق الظنيه أو المفترضة ، تلك الحقائق التى تستند أصلا إلى الظن والتخمين والتى تبتعد بنا تماماً عن اليقين ، أو حتى الاحتمال المؤكد . وهنا ، لا نتجاوز ، فى هذه الحالة - حدود الفرض أو التخمين . . . وهذا هو منهج الظن . . .

ومن هذا المثال البسيط - تتضح لنا مختلف أشكال المنهج التاريخى وصوره ، حيث إننا يمكن أن نطبق مناهج البحث التاريخى ، على الرغم من عدم توافر السجلات اليقينية المؤكدة . أى أننا يمكننا أن نتوصل إلى نوع من التفسير التاريخى على الرغم من عدم توافر السجلات التاريخية الحقة .

بمعنى أننا يمكننا أن نطبق هـــذا المنهج التاريخى الظنى ، وبخاصة فيما يتعلق بالحقب السحيقة من حضارات الإنسان الأول، حيث لا توجد السجلات المكتوبة

ولكننا بصدد دراسة حضارة الإنسان فى حياته الحالية ، فإننا لا نطبق بصددها مناهج التفسير الظنى ، حيث توجد لدينا الوثائق الواضحة والسجلات المؤكدة .

المنهج التاريخى وعلم آثار ما قبل التاريخ :

ومن خلال دراستنا للوثائق المكتوبة والسجلات المدونة ، يمكننا أن نكتشف حضارة من الحضارات المطمورة ، على الرغم من أنها قد تكون حضارة متقدمة ، بل وفى أرقى مراحلها وأعلى مستوياتها . بمعنى أننا يمكننا بفضل دراسة اللغويات والكتابة ، أن نكتشف بعض الحضارات الغابرة ، التى قامت منذ قرون قليلة ثم دالت دولتها .

وقد نتوصل بفضل إستخدام المنهج التاريخى ، إلى معرفة الكثير عن حيـــاة الجنس البشرى mankind ، منذ صدرت طلائع الإنسان الحفرى وبدأت جحافل الإنسان الأول تدب على ظهر الأرض .

وإستناداً إلى هذا المنهج التاريخى ، حاول علماء آثار ما قبل التاريخ البحث عن مخلفات الإنسان ، حيث ترك آثاره ، وخلف لنا بقاياه . فمن دراستنا مثلا ، لقطعة من العظام نستطيع أن نتعرف على ما ضيها وتاريخها ، ومعرفة ما إذا كانت هذه العظام لإنسان أم لحيوان ، لأنثى أم لذكر ، كما يمكننا أيضاً بدراسة عظام الفخذ أن نتوصل إلى معرفة طول القامة ، وعمر الإنسان ، كل هذا من دراسة تشريحية مقارنة لقطعة من عظام نخرة .

ولقد بدأ علماء آثار ما قبل التاريخ ، ينقبون فوق سطح الأرض بحثاً عن حضارة مندثرة ، أو عن بقايا وآثار إنسان قديم . كما أن علماء الآثار قد قلبوا الأرض بحثاً وتنقيباً ، سعياً وراء قطعة من العظام ، أو جرياً وراء حفرية من الحفريات فى طبقة من طبقات الأرض . فأنكبوا على دراسة الحفريات فى جبال الجليد ، وفى مرتفعات المناطق الحـــارة ، وإنطلقوا بين الوديان والهضاب ،

يجوبون الصحارى والغابات بحثاً عن ماضى الإنسان الأول من خلال أدواته وآلاته ، وبذلوا الجهود المضنية سعياً وراء الشعوب والأجناس والسلالات التى عاشت طوال عصور الزمان وحقبه الماضية .

تلك هى دراسات الأثريين والمؤرخين ، حيث يهدف المؤرخ إلى إكتشاف الأشكال المتعددة للزمن The shape of time . ونعنى بأشكال الزمن ، زمان التاريخ وزمان الحضارات . حيث يصور المؤرخ الزمن ويصفه لنا ، بل ويحاول أن ينقل لنا صورة صادقة عن الوضع التاريخى ، فنراه ينشىء و يكيف ويبنى ، ويلون الصورة التى يرغب فى تقديمها .

وفى هذا الصدد ـ يقول « جورج كيلر George Kupler » فى كتابه الممتع « نشأة الفنون الإنسانية » ، حيث يشير إلى موقف الإنسان من التاريخ ومن الحضارة . . . فنجده يقول : إن الإنسان كالحيوان القشرى اللافقارى يعتمد فى بقائه على هيكل خارجى ، أو بالأحرى على غلاف ظاهرى ، ويتمثل هذا الغطاء الخارجى فى « كهوف » أو « أكواخ » أو « خيام » حيث ينتشر الإنسان فى القرى والمنازل والمدن التاريخية ، التى تضم أشياء تعود إلى أزمان ماضية يمكن تحديدها . حيث يعالجها علم آثار ما قبل التاريخ ، ويدرسها علم الأجناس البشرية . ويبحث هذان العلمان فى الثقافة المادية ، على إعتبار أن الأدوات الحجرية هى أقدم ما بقى من الأشياء التى صنعها الإنسان .

وفى ضوء دراسة مخلفات الانسان وبقاياه ، نستطيع أن نتوصل إلى إكتشاف بعض الحقائق اليقينية المؤكدة ، وذلك لمعرفة تلك الحقبة الهائلة ، التى هى دراسة تاريخ ما قبل التاريخ ، أو الكشف عن ماضى « ما قبل الانسان » .

حيث يتطرق علماء الجيولوجيا وآثار ما قبل التاريخ ، إلى الانطلاق إلى

ميدان فسيح للزمان التــــاريخى ، الذى أنغلق دهوراً طويلة دون أن ندرى عنه شيئاً . وبفضل هذا التنقيب الاثرى الدائم ، سوف نتمكن دون شك من الالمام بكل تفصيلات زمان ما قبل التاريخ ، أو زمان ما قبل الانسان ، حتى نصل إلى حضارة وزمان الانسان الأول . . . منذ انطلقت يد الانسان وقواه ، تسعى وتبنى ، وتعمر ، فى هذا الزمان السحيق . . . حين طلع علينا فجر الحضارة الانسانيـة .

وفى الواقع - إن التحليل الاثنولوجى للثقافة ، الذى أوضحناه وبيناه بصدد مثالنا السابق عن جزيرة مدغشقر ، إنما يستند هذا التحليل الاثنولوجى الثقافى ، ويعتمد أساسـاً على تلك الدراسات المستمدة من أبحاث علوم ومناهج التاريخ . كما تستند أيضا فى نفس الوقت ، إلى دراسات علم آثار ما قبل التـاريخ .

وتهدف مناهج الاثنولوجيا أساسا ، إلى تبيان كيفية الالمام بالدراسة التاريخية للثقافة ، تلك الدراسة العلمية المنظمة التى بفضلها نتوصل إلى الحقائق التاريخية ، التى تتعلق بجميع المعلومات والمعارف الخاصة بالأحداث وتتابعها فى السياق التاريخى كل ذلك بالاشارة إلى دراسة السمات الثقافية وتفسيرها فى ضوء الماضى التاريخى للثقافة برمتها .

المنهج الاستقرائى والقانون السوسيولوجى :

وإلى جانب هذه المناهج الاثنولوجية والتاريخية ، هناك منهج آخر من مناهج الدراسة ، ذلك هو « المنهج الاستقرائى Inductive method » وهو يشبه إلى حد بعيد فى أهدافه وطرائقه تلك المناهج والطرائق المتبعة فى ميدان العلوم الطبيعية التى هى أيضا علوم إستقرائية ، إذ أنها تعتمد أصلا على إستقراء الملاحظات العامية والمشاهدات المنهجية المنظمة ، من أجل التوصل إلى عدد من التعميمات ، حيث أن

جوهر الاستقراء ، هو التعميم Generalization . ولذلك كانت التعميمات إستقرائية الجوهر والمضمون .

والمسلمة الأساسية التي يرتكز عليها المنهج الاستقرائي ، إنما ترتد إلى المسلمة القائلة - بأن « كل الظواهر الطبيعية ، إنما تخضع للقانون الطبيعي » . وإستناداً إلى هذه المسلمة الوضعية ، يمكننا إذن بفضل تطبيق طرائق المنطق ، وبالاستعانة بمختلف مناهج البحث ، تلك الطرائق والمناهج التي تعيننا على إكتشاف هذه القوانين الطبيعية ، كما نتوصل بفضلها إلى بعض « القضايا العامة General propositions أو صياغة تلك « القاعدة Formulae » التي بمقتضاها تنتظم الأحداث والوقائع وفقاً لها (١) .

ونحن لا نحاول فقط ، بصدد دراسة المناهج ، أن نتوصل إلى تلك القوانين العامة أو أن نصوغ القواعد والقضايا العامة فحسب . وإنما نحاول في نفس الوقت ، أن نقيم الأسس الميثودولوجية والمنطقية التي على أساسها نستطيع ان نبرهن وأن نتأكد يقينا بمدى صحة تلك القوانين والصيغ والقضايا العامة .

على إعتبار أن المنهج الحق في ميدان الدراسات الميثودلوجية ، ليس هو مجرد « الاكتشاف » على ما يقول « ديكارت Descartes » و « بيكون Bacon » . ولكن مهمتنا في دراسة المناهج ، إنما ترتبط أصلا بتطبيق « منهج البرهان » وذلك بإستخدام أساليب وطرائق البرهنة على صحة القوانين والقضايا والفروض أي أن المنهج القويم في مناهج البحث ، ليس مجرد إكتشاف القانون كما أنه ليس وسيلة العقل الوصول إلى الحقيقة ، على ما يزعم ديكارت فلو كان الأمر كذلك ، وبهذه السهولة واليسر ، لأمكننا بإتباع هذا المنهج أن نكتشف عدداً لا ينتهي من الحقائق

---

(1) Radcliffe-Brown. A.R. Method in Social Anthropology, Chicago, 1958, p, 7

والقوانين بطريقة آلية ميكانيكية ... ولكن مناهج البحث ، هي تلك المناهج التي توصلنا إلى كيفية التأكد من صحة القضايا ، والتوصل إلى القضايا المبرهنة proved propositions ، والكشف عن الصادق منها وتثبيته ، ودحض الكاذب ورفضه عن طريق الحذف .

حيث أن المنهج العلمي القويم - إنما لا يقوم في الحقيقة - على إثبات أو تأييد الفروض ، وإنما يقوم أصلا على منهج انتخاب الحقائق ، عن طريق حذف الفروض الباطلة ، على ما يذكر « كارل بوبر Karl Popper » في كتابه الرائع « عقم المذهب التاريخي Poverty of historicism » ، حيث يقول في فقرة هامة من فقرات هذا الكتاب :

« إننا إذا لم نتخذ إزاء النظريات موقفاً نقدياً ، فلسوف نعثر دائماً على ما نريد » أي أننا سنبحث عما يؤيدها وسنجده ، « وسنصرف النظر عن كل ما يمكن أن يهدد النظريات التي نفضلها فلا تقع عليها أبصارنا » .

ويتضح من هذا النص ، أن منهج الاختبار إنما يفضى إلى إنتخاب الفروض التي صمدت لعمليتي الاختبار والتحقيق ، كما يؤدى في نفس الوقت إلى حذف الفروض التي لا تصمد أمام محك الاختبار بمعنى أن مناهج البحث اليقينية المؤكدة وطرائق التفسير العلمي ، إنما هي محاولات ترمى أصلا إلى استئصال النظريات الكاذبة — أو اكتشاف مواضع الضعف في النظريات حتى ننبذها حين تخضع لمناهج الاختبار القاسية . فمن السهل الحصول على ما يؤيد النظرية ، ومن الصعب اكتشاف ما يكذبها ، فنحذف الفروض الباطلة . ولذلك يؤكد « بوبر » أننا إذا ما أردنا بمنهج الانتخاب عن طريق الحذف أن يقوم بعمله ، وإذا أردنا أن نضمن البقاء للنظريات الصالحة وحدها ، فعلينا أن نجعل كفاحها من أجل الحياة عسيراً .

ولما كان ذلك كذلك ـ فإن المنهج العلمي الإستقرائي إنما لا يقوم في الحقيقة ، على إثبات أو تأييد الفروض ، وإنما يقوم أصلا إستناداً إلى « مناهج البرهان » تلك التي ترجع إلى منهج انتخاب الحقـــائق ، في ضوء منهج الإنتقاد والمناقشة وبالرجوع إلى منهج الحذف ، حذف الفروض والنظريات الباطلة في حالة ما إذا لم تثبت صحة القوانين ، وإذا ما لم تؤيد صيغ القواعد ، وتتأكد صحة القضايا

وهناك فروق منهجية ، بين « القانون الطبيعي » ، وبين ما نسميه « بالقاعدة » وما نسميه « بالقضية العامة » . وتستند هذه الفروق المنهجية إلى مدى الاختـلاف القائم بينها فيما يتعلق بدرجة التعميم .

حيث أن القانون ، أو القاعدة ، أو القضية العامة ، إنما تمثل جميعها أحكاما منطقية . وتصدق تلك الأحكام على عدد من الظاهرات والأحداث ، كما أن حقيقة هذه الأحكام المنطقية ، إنما هي أقوال تنطبق على أحوال جزئية أو كلية، بحيث تصدق هذه الأحكام والأقوال على عدد من الظـــاهرات والوقائع الجزئية قد تزيد في حالة منها وقد تنقص في حالة أخرى ، بمعنى أن درجة التعميم ، قد تضيق وقد تتسع . قد تضيق لتشمل عدداً قليلا من الحالات الجزئية ، وقد تتسع درجة التعميم ، لتشمل أكبر عدد من الحالات .

ففي حالة « إطلاق القانون الطبيعي » ، إنما تتسع درجة التعميم إلى حد كبير ، بحيث تشمل كل الظاهرات الفيزيقية التي تكون كل ظاهرة منها هي إحدى الحالات الجزئية التي يصدق عليها هذا القانون الطبيعي .

وهذه هي درجة « التعميم الإستقرائي Inductive generalization » وتتسم بسمة الكلية ، وذلك فيما يتعلق بإطلاق القانون الطبيعي . أما في حالة إصدار « قضية عامة » فنشاهد أن درجة التميم قد ضاقت إلى حد معين ، بحيث تصدق تلك القضية العامة على عدد محدود من الظاهرات الجزئية .

وقد تضيق درجة التعميم إلى حد بعيد، فى حالة صياغة « القاعدة » تلك التى تصدق على عدد قليل من الظاهرات والأحــداث التى تقع فى نسق من الأنساق الطبيعية أو الإجتماعية المحدودة .

ونستخلص من كل ذلك أن جوهر الاستقراء، هو التعميم . فإن الحـــالة الجزئية الفريدة قد تصبح مثالا بارعا دقيقاً لإصدار قاعدة أو إطلاق قانون .

ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، مختلف الأحداث الجزئية والتى تعتبر أمثلة مختلفة لحالات فردية ، تحدث طبقــاً لقانون واحد . فإن سقوط تفاحة نيوتن من الشجرة ، وحركة الأجرام والأفلاك حول الشمس ، انما تظهر جميعها على أنها أمثلة مختلفة لقانــون واحد . . . هو قانون الجاذبية Law of gravitation .

ولا شك أن العلم الطبيعى الاستقرائى ، قد قام بأكبر عملية غزو لذلك العالم الذى يحيط من حولنا ، فهناك مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ، على نحو ما يذكــر « جيمس كونانت Gonant » ، وكانت هذه المواقف الحاسمة بمثابة عمليات الغزو المستمرة ، التى قام بهـــا العلم طوال تاريخه ، حيث كانت له صولاته وجولاته فى مختلف ميادين الطبيعة ، فاقتحم معاقلها ، وانطلق من ميدان تلو الآخر ، حيث أنتشر العلم فى مختلف البقاع والأنحاء والميادين .

فلقد حلق العلم فى السماوات ، بحثاً عن النجوم والأجرام فى عالم الفضاء وسعياً وراء حركة الأفلاك ومدار السيارات ، فى ذلك الكون اللانهائى العظيم . ولم يكتف العلم بالتحليق فى السماوات ، ولـكنه هبط من عالم الأفـلاك والسيارات الى عالم الاشياء والجمــادات . حيث درس العلم الطبيعى ظواهر أخرى لا يدرسها علم الفلك .

فاذا كان عالم الفلك ، يدرس عالم الأقمار والمدارات الفضائية الهائلة ، ويقيس

تلك الحركة الإستاتيكية الموقوفة . وهى تلك الحركة الثـــابتة لمختلف الأفلاك والاجرام . فان العالم الفيزيقى ، إنما يدرس ميداناً يتمايز تماما عن ميدان الأقمار والفضاء والجاذبية . حيث يعالج عالم الطبيعة ظواهر الصوت والضوء ، والخواص الفيزيقية للغازات والحراريات ، كما يقيس درجة الضغط وتخلخل الهواء ، وكلها مظاهر فيزيقية ، ترتبط أصلا بظواهر عالمنا الفيزيقى .

ولم يقنع العلم الاستقرائى Inductive science ، بدراسة الأجسام وعالم المادة والجمادات ، وسائر الظاهرات الفيزيقية الكونية . وإنما وجدناه يغزو عالم المادة العضوية وغير العضوية ، فيدرس خواص المركبات والعناصر وهنا يتغلغل علم الكيمياء فى صلب المادة ، فيدرس مختلف التفاعلات الكيميائية التى تطرأ على تلك المادة والعناصر التى يتألف منها عالمنا .

ثم صدرت البيولوجيا ، تلك الدراسة التشريحية العلمية ، التى تهدف إلى إكتشاف وبرهنة مختلف القوانين العامة التى تصدق على مختلف ردود الأفعال التى تصدر « عن المادة الحية Iiving-matter » [1] .

وعلى هذا الأساس ـ إنشغلت مختلف العلوم والدراسات البيولوجية بالإلتفات إلى تلك المظاهر التشريحية والفسيولوجية للكائنات الحية ، ومن هنا صدرت علوم « التشريح » ، و « الفسيولوجيا » ، لدراسة بناء « الكائن العضوى » .

حيث يدرس علم التشريح ، ذلك الكائن العضوى فى حالته الإستاتيكية الثابتة كأن يدرس مختلف الأجهزة والأعضاء والأنسجة التى يتألف منها الكائن العضوى . ففى علم التشريح مثـــلا نقول : « تتكون الحنجرة من حبلين صوتيين وثلاثة

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology., Chicago: 1958, p 7.

فضاريف » . أو أن « العين » ، إنما تتألف من قرنية cornea وقزحية Jris وعدسة lens ، وشبكية retena ، وعصب بصرى optic nerve .

هذا عن علم التشريح ، أو دراسة الحالة الاستاتيكية للكائن العضوى أما عن الفسيولوجيا ، فهى العلم الذى يدرس وظائف الأعضاء ، أى أنها العلم الذى يدرس الكائن العضوى فى حالته الديناميكية حين تتوظف أعضاؤه حيث نقول مثلا : « إن وظيفة الحنجرة هى الكلام ، وإن وظيفة الحبلين الصوتيين هى إحداث الصوت . وليست هناك أية صلة بين وظيفة اللسان ، وعملية الكلام أو إحداث الصوت . ومن القضايا الوظيفية فى ديناميكية وظائف الأعضاء أن نؤكد مثلا : بأن وظيفة « النخاع الشوكى Spinal cord » ، انما تتمثل فى تنظيم « الأفعال الانعكاسية Reactions » .

ولم يقتحم العلم الاستقرائى عالم الكائنات العضوية فحسب ، وانما وجدناه فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن العشرين ، يقوم بمختلف الغزوات التى تتجه نحو تطبيق المناهج والطرق الاستقرائية فى دراسة « عقل الإنسان » ، و « سبر غور نفسه » و « قياس ذكائه » ، واستقراء « ذاكرته » وتحليل واكتناه « تصوراته » .

وتلك هى ميادين علم النفس . . . ذلك العلم ، الذى انتهج الى حد ما مناهج العلوم الاستقرائية . حيث صادف علم النفس توفيقاً منذ « فونت » ، وجهوده المشهورة فى ميدان علم النفس التجريبى experimntal psychology .

ولكن علم الاجتماع ، لم يصحبه التوفيق فى محـــاولاته الوضعية والإمبيريقية ، بل ان مختلف المحاولات التجريبية والاستقرائية التى قامت فى ميدان العلوم الاجتماعية ما خلا علوم الاحصاء statistics والاقتصاد Economics ، قد أصابها جميعاً الكثير من الإخفاق ، فباءت بالفشل من وجهة النظر الميثودولوجية .

وذلك إذا ما قيست المحاولات السوسيولوجية بتلك المحاولات التجريبية في ميدان علم النفس التجريبي ، تلك التي أصابها شيء من التوفيق ، رغم ما أصابها من الإخفاق أحياناً ، بل وفي كثير من الأحيان . فلم يطلق علم النفس الفلسفة طلاقاً نهائيا ، وإنما نجده كثيراً ما يعود إلى أمه الفلسفة ، حين تخيب آماله في تطبيق مناهج البحث الإمبيريقية على مختلف الظاهرات السيكولوجية والعقلية .

ولقد حان الوقت ، لإحداث الثورة الدافعة لتطوير وتغيير مناهج علم الاجتماع ، الأخذ بها نحو الدراسات التطبيقية والتجريبية ولم يبق أمامنا الآن سوى محاولة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية ، في دراسة ظواهر الثقافة أو معالم الحضارة . بأن يلتفت العلماء إلى ضرورة تغير طرائق العلم الاستقرائي بما يتفق وروح الدراسات السوسيولوجية ، فندرس الحقل الاجتماعي بما فيه من ظواهر « الاقتصاد » و « اللغة » ، و « القانون » ، « والفن » ، « الدين » و « الأخلاق » ، دراسة منهجية ، بطريقة أكثر تنوعا وخصوبة « باستخدام مناهج سوسيولوجية أكثر ثراء ، من تلك المناهج الكلاسيكية العقيمة .

وجملة القول — إذ ما عدنا إلى الحديث الأصلي الذي يدور حول مناهج دراسة ظواهر الثقافة والمجتمع ، يمكننا أن نؤكد أنه لدراسة الثقافة ، يستخدم العلماء منهجين من مناهج البحث ، وأعني بها « المنهج التاريخي » من جهة ، و « المنهج الاستقرائي » ، من جهة أخرى .

ولقد وجدنا ، كيف يختلف هذان المنهجان تماما ، حين نحاول تطبيقهما في حقل الثقافة ، وفي ميدان الظواهر الثقافية . ولعل الاختلاف في هذين المنهجين الإثنولوجي والاستقرائي ، إنما يتمثل في كيفية معالجة حقائق الثقافة وظواهرها ، كما يرجع هذا الاختلاف إلى ذلك التمايز القائم بين الطرائق والمناهج المنطقية ، التي

تستخدم فى كل من الاتجاهين الإثنولوجى والاستقرائى، وذلك التوصل إلى عدد مع النتائج الإثنولوجية أو القضايا الاستقرائية العامة .

بمعنى أن مختلف النتائج والقضايا العامة، التى نتوصل إليها بصدد دراسة ظاهرة الثقافة ، إنما تتمايز تماما ، وتختلف كلية عن تلك النتائج والقضايا التى يحاول أن يتوصل إليها كل باحث أو دارس ، يطبق المناهج الإثنولوجية أو الطريقة الاستقرائية (١)

ولعلنا ينبغى أن نفصل مبدأ التمييز والفصل بين تلك المناهج والدراسات بحيث لانخلط بين هذه المناهج خلطاً الى الدرجة التى معها لانستطيع التمييز بين مناهج الإثنولوجيا والاستقراء باعتبارها مناهج مستقلة عن بعضها البعض كما ينبغى أن تدرس فى جامعاتنا على أنها مناهج متمايزة .

إلا أن هذه المناهج الإثنولوجية والاستقرائية ، وإن كانت مترابطة حيث أنها تهدف يقينا ودون شك ، الى الكشف عن ماضى الثقافة، والتوصل الى القوانين التى تحكم الظواهر الثقافية والاجتماعية ، ومع ذلك حاولنا ، أن نميز بين كل من هذه المناهج ، بأن نحدد لكل منها ميدانه ومجاله ومصطلحاته ، بحيث نستطيع أن نميز كل منها عن غيره ، فلا نخلط بينها أشد الخلط .

وخلاصة القول ـ فإن مناهج الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية هى مناهج التاريخ والاستقراء . وهى مناهج مستقلة ومنفصلة من وجهة النظر الميثودولوجية ، نظراً لاختلاف الطرائق و المناهج المنطقية المستخدمة فى كل منها، إلا أنها مناهج مترابطة ، حيث تهدف كلها نحو الغاية النهائية ، تلك التى تتمثل فى تفسير الثقافة . والكشف عن مكنونها وسبر غورها ، ومعالجة طبيعة الظواهر وحقيقة الوقائع السائدة فى دنيا الثقافات والمجتمعات .

---

(1) Ibid., pp. 7—8.

ويبدو لنا الآن ، أن مسألة التمييز بين مناهج الإثنولوجيا والانثروبولوجيا الاجتماعية ، قد اتضحت ، وأصبحت قريبة الى أفهامنا ، بعد أن أكدنا ضرورة التمييز بينها ، حتى لا نخلط فيما بين تلك المناهج المتداخلة ، على ما فعل علمـــاء الانثروبولوجيا الأمريكان ، من أمثال العالم الأنثروبولوجي اللغوى « سابير » Sapir ، حيث نجده لا يمـــيز فى كتاباته بين « الاثنولوجيا » من جهة ، و « الأنثروبولوجيا » من جهة أخرى . فلقد استخدمها « سابير » كمعنيين مترادفين ، أى أنه لا يقيم بينهما أية فروق منهجية ، أو تمييزات ميثودولوجية ، ولذلك وقع « سابير » فى هذا الخطأ ، حين يذهب الى أن الانثروبولوجيا ، على حد قوله ، هى العلم الذى يحقق ذاته كعلم تاريخى أو إثنولوجى (١).

ولـكننا ينبغى ألا نقع فى مثل تلك الأخطاء الميثودولوجية ، وينبغى أن نميز بين مختلف المناهج فى ضوء تلك التمييزات التى وضعناها بصدد الإشارة الى المنهج التاريخى ومناهج الاستقراء . ولذلك يمكننا أن نطلق اصطلاح « الاثنولوجيا » كى ينطبق على ذلك المنهج التاريخى الاثنولوجى ، الذى يضطلع بدراسة ظاهرة الثقافة بسماتها ومركباتها ، عن طريق إعادة البناء الثقـــافى ، وتكوين التركيب التاريخى الماضى تلك الظاهرات والسمات الثقافيـــة ، على نحو ما لاحظناه ، وما أوضحناه من قبل فيما يتعلق بتحديد معالم المنهج الاثنولوجى التاريخى (١) .

ويمكننا أيضاً أن نطلق اصطلاح « الأنثروبولوجيا الاجتماعية » ، كما ينطبق على ذلك المنهج الاستقرائى الذى يضطلع بدراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية منظمة ، بقصد التوصل الى إطلاق تلك القوانين السوسيولوجية العامة ، وصياغة مختلف المسلمات والقواعد التى تتحكم فى مسار ظواهر الثقافة والمجتمع .

(1) Ibid., p. 14.

على اعتبار أن الظواهر الاجتماعية ، إنما يمكننا أن ندرسها ، وأن نتحكم فيها ، كما ندرس ونتحكم تماماً فى الظاهرات الفيزيقية ، حيث تؤلف الظاهرات الاجتماعية عالما خاصا ، يمكن اكتشاف قوانينه ، ومن ثم يمكننا أن نبحث عما يحكم دنيا الظواهر . تلك الأرض المجهولة . التى نريد اختراقها وكشف مكنونها وسبر غوارها ، وما يكتنفها من أسرار .

وبكلمات أكثر دقة ، يمكننا أن نشرح هذه القضية ، حين نعتبر مثلا أن الأرض وما عليها من غلاف هوائى ، وغطاء نباتى ، ومسطحات مائية ، كما يغلف الأرض ايضا غلاف بشرى من نوع خاص ، بمعنى أن هناك الملايين من بنى الانسان تؤلف غطاءاً يغطى سطح الأرض . حيث ينتشر الانسان وتدب أقدامه فى مختلف بقاع المعمورة .

ويرى علماء الأنثروبوجيا الاجتماعية ، أن هذا الغلاف البشرى ، فى هجراته وتنقلاته ، وفى حركته وسكونه ، إنما تحكمه قوانين سوسيولوجية ، تماما كتلك القوانين التى تصدق على الظاهرات المائية والهوائية ، ويرى علماء الانثروبولوجيا أيضا ، أن هذا الغلاف البشرى ، إنما يتمخض عن ظواهر ، وتلك الظواهر ، هى ظواهر من نوع خاص Sui-Generis . . . تلك هى الظواهر البشرية الجمعية ، أو الظواهر الاجتماعية .

بمعنى أن الظواهر الاجتماعية ، إنما تمثل ما يشبه بالغلاف الخارجى ، أو ذلك الغطاء الفيزيقى ، الذى يشبه تماما ، ذلك الغلاف الهوائى ، أو الغطاء النباتى . ومن ثم يمكننا أن نطلق بصدد هذا الغلاف البشرى الجمعى ، عدداً من القوانين والقضايا السوسيولوجية العامة .

على اعتبار أن الظواهر الاجتماعية ، كالظواهر الفيزيقية ، إنما تغلف العالم البشرى ، وتحيط به من كل جانب . وعلى العالم الأنثروبولوجى الاجتماعى ، أن يستخدم مناهجه وأدواته ، للتوصل إلى ذلك القانون السوسيولوجى الذى يصدق على عدد محدد من الظاهرات الاجتماعية ...

ولعل عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، يستطيع أن يتوصل إلى مثل هذا القانون السوسيولوجى ، إذا ما حاول أن يستند إلى مناهج المشاهدة observation و « الإختبار Testing » ، و « التحقيق Verification » ، تماما كما هو الحال فى ميدان العلوم الطبيعية والبيولوجية . حين يستخدم عالم الطبيعة مختلف مناهجه وأدواته ، للتوصل الى القانون الفيزيقى العلمى الذى هو فى ذاته تعميم استقرائى يصدق على عدد محدد بالذات من الظاهرات الطبيعية .

وما يعنينا من كل ذلك هو أن مناهج البحث الأثنولوجية ، والأنثروبولوجية إنما تضطلع جميعاً بدراسة باطن الثقافات فى ضوء ما ضيها ، ومعالجة وتفسير ظواهر المجتمع والثقافة ، فى ضوء قانون كلى ، أو قضية عامة .

وما يهمنا من كل ذلك أيضاً . . . هو أن نشير إلى أهمية دراسة هذه المناهج النظرية والحقلية ، رغم ما بينها من خلافات منهجية ، إلا أنها جميعاً تخدم الحقيقة السوسيولوجية .

قواعد المنهج العلمى فى دراسة الثقافة :

إذا كان « هنرى بوانكارية H. Poincaré » قد حدثنا عن « الفرض والعلم والتعميمات الاستقرائية Inductive generalization » فان راد كليف براون قد حدثنا كثيراً عن الفرض والمجتمع . أى عن قيمة الفرض فى البحوث الأنثروبولوجية والسوسيولوجية على إعتبار أنها من البحوث العلمية التى تستند إلى فرض الفروض التى توجه الوصف

والمقارنة منذ البداية ، وهى الطريقه التى يسميها « K. Hull » بالمنهج الفرضى الاستنباطى Hypothetico deductive method ويستند هذا المنهج الى البدء ببعض الفروض العلمية، على أنها قضايا أولية مستنبطة على أساس منطقى أو نظرى أو على أساس المشاهدات التى يقوم بها الباحث فى الحقل الاجتماعى .

ولقد إشتغل راد كليف براون الى حد بعيد بالعناية بالفروض النظرية ، التى ينبغى أن تسبق الدراسة الاثنوجرافية الوصفية ، كما أن الدراسات المقارنة هى الأخرى ، يجب أن تكون مسبوقة بفرض نظرى منذ البداية . ويمكننا أن نشير الى بعض الفروض التى استخدمها راد كليف براون فى الميدان الحقلى وخاصة فيما يتعلق بالفروض الطوطمية والقرابية . ولقد أكد راد كليف براون أهمية هذه الفروض فى علم الاجتماع المقارن (١) Comparative sociology وفيما يتعلق بنظريته فى القرابة Kinship ، انما يقوم بتحديد الفرض الذى أفترضه ، ومايتضمنه من أفكارمترابطة ترابطاً استنباطيا منهجيا، حددهافى نقاط سبع كسلسلة متماسكةالحلقات ، ويتلخص هذا الفرض فى الآتى :

١ ـ يقوم السلوك على أساس درجة القرابة ، وهذه خاصية أولية للمجتمعات البدائية .

٢ ـ وتقوم القرابةاعتماداًعلى التنظيم الانقسامى Segmentary Organization فى المجتمع بإنقسام المجتمع البدائى الى عدد من العشائر والبدنات Lineages .

٣ ـ ويرتكز التنظيم الانقسامى بدوره على الأخذ إما بالنظم الأبوية Patriarchal أو الأموية Matriarchal .

٤ ـ تحدد النظم الأبوية أنمــاط السلوك الذى يتخذها الطفل ازاء أبيه أو

(1) Radcliffe-Brown. A.R, Structure and Function in Primitive Society, London 1956.

عشيرته . كما يرتبط سلوك ابن الأخت بالخال طبقاً لنوع النمط السلوكى الذى يسلكه الطفل نحو أمه وعشيرتها .

• ـ تمتد الأنماط السلوكية من نطاق الأسرة المحدود ، حتى تشمل الجماعة التى ينتسب اليها الطفل ككل ـ ويضرب راد كليفف براون فى هذا الصدد مثلا بتعلق بمجتمع Ba Thonga فأن كلمة « Malume » انما تطلق على « الخال » كما تطلق أيضا على « ابناء الخال » بعد وفاته ، فاذا ما مات كل الأخوال ، يقوم أبناء الخال بنفس الوظائف التى كان يقوم بها الخال والتى تتعلق بتقديم الاضاحى والقرابين .
كما نجد فى الجزء الجنوبى من قبيلة Ba Thonga حيث يطلق على كل من « الجد للأم The father of the mother » و « الخال » و « وأبناء الخال » كلمة واحدة وأعنى بها « Kokwana » (1) .

٦ ـ وفى المجتمعات التى تأخذ بمبدأ عبادة الأسلاف Ancestor worship من جهة الأب Parilineal وخاصة بين « Friendly Islanders » ، وعند Ba Thonga نجد أن نفس الانماط السلوكية تمتد الى عبادة أسلاف الأم .

٧ ـ تعبر وظيفة الشعائر والطقوس عن مختلف الانماط السلوكية التى تظهر فى المجتمع، على اعتبار أن النسق القرابى ماهو إلا شبكة العلاقات الاجتماعية التى تكون جزءاً هاما من الشبكة الكلية البناء الاجتماعى .

هذه هى خلاصة الفروض التى تتعلق بنظرية راد كليف براون فى القرابة والتى على هديها قام بدراساته الحقلية ، ولقد حاول راد كليف براون أن يضع فروضا من هذا القبيل ، لدراسة النظرية التوتمية Totemism فدرس المجتمعات والقبائل الاسترالية استناداً الى هذه الفروض ، على اعتبار أن تلك القبائل تمثل أبسط الأنواع المسرفة فى عقيدتها الطوطمية .

(1) Ibid , p. 29.

مناهج الفروض السوسيولوجية :

ولقد أنكر راد كليف براون بشدة كل الفروض الظنية التخمينية المتأثرة بالنزعات التطورية Evolutionary والتي قادت علماء الانثولوجيا القدامى الى الاغراق في البحث عن الأصول « Origins » . فلقد كثر عدد النظريات التي قيلت عن أصل العقيدة الطوطمية منذ النصف الأخير من القرن الماضي ، وأهم هذه النظريات تتمثل في نظرية (١) ، « السير جيمس فريزر » فهو يرى أن « البدائي » باعتباره جاهلا بالقوانين الفسيولوجية يعتقد أن المرأة تحمل الجنين في أحشائها تبعاً لنوع الطعام الذى تناولته ، وعلى أساس هذا الاعتقاد ، ظهرت العـــادات والالتزامات الطقوسية التي ينبغي على الفرد أن يلتزم بها تجاه نوع معين من أنواع النباتات أو الحيوانات — ومن هنا صدرت العقيدة الطوطمية كما يزعم جيمس فريزر .

ولقد إنتقد راد كليف براون هذا الاتجاه التخميني ، الذى يتزعمه « جيمس فريزر » فقال : إن « فريزر » لم يبين لنا إن كانت هذه العملية قد أحتلت أو ظهرت في مجتمع معين بالذات ، ثم أنتشرت تلك الفكرة الطوطمية من هذا المركز إلى سائر أنحاء العالم — أم أن تلك العملية نفسها قد ظهرت ونشأت نشأة مستقلة في مختلف أجزاء العالم الاجتماعي .

والاعتراض المنهجي أو الميثودولوجي Methodological كما زعم البروفسور راد كليف براون ، بصدد تلك النظرية بل وضد كل النظريات التي قيلت عن أصل العقيدة الطوطمية أنه ليس في الإمكان اطلاقا التحقق من تلك النظريات أو التثبت منها واختبارها أو تحقيقها علميا — لأنها نظريات لا تقوم على « فروض علمية »

---

(1) Radcliffe Brown. A.R. Method in sociat Anthropology, p. 21

ولم تسبقها دراسة مقارنة ، وإنما هي فروض وتفسيرات باطلة ، تقوم على حقائق غير يقينية أو غير مؤكدة ، فمن السهل علينا كما يقول راد كليف براون أن نفترض الفروض الجمة في تفسير العقيدة الطوطمية ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نحاول إثباتها وتحقيقها تحقيقاً علمياً .

وعلى هذا الأساس يؤكد راد كليف براون قيمة الفروض المفسرة والمحققة . ويضع لنا فروضاً تؤسس نظريته في العقيدة الطوطمية ، تلك التي تستند إلى قضايا رئيسية أربع ، وترتكز أساساً على القواعد الاستقرائية والمناهج العلمية المرتبطة بالأسس المنطقية وتتلخص هذه الفروض فيما يلي :

١ — أي شيء في المجتمع له تأثيره على الحياة الاجتماعية ، يكون بالضرورة موضوعا من الموضوعات ذات « القيمة » والمفعول في المجتمعات البدائية ، فتدور حوله إذن بعض الطقوس المرعية Ritual Observances تلك الطقوس والشعائر التي تعبر عن « قيمة هذا الشيء الاجتماعية » .

٢ — وبناء على ذلك — ففي المجتمعات التي تقوم على الجمع والالتقاط والتي تعتمد على الصيد والقنص لمختلف أنواع الحيوانات والنباتات ، ستصبح إذن لهذه الأشياء « قيمة اجتماعية » ، ومن ثم تكون هي نفسها الموضوعات التي تدور حولها معظم الشعائر والطقوس .

٣ — وفي المجتمعات التي تنقسم إلى عشائر وجماعات ، تميل هذه الجماعات إلى الأخذ بالطقوس والشعائر التي تتعلق بأحد الموضوعات أو الرموز التي تقدمها كل جماعة أو عشيرة .

أما في المجتمعات الخالية من العشائر كمجتمع الأندمان Andaman فإن الشعائر والطقوس التي تتعلق بمختلف الحيوان والنبات ، إنما هي ارتباطات وعلاقات

متشابهة تربط بين عالم المجتمع ككل من ناحية ، وبين عالم الطبيعة من ناحية أخرى (1) .

وعلى هذا الأساس ، يمكن اعتبار القضية الأولى والثانية من القوانين العامة ، التي إذا ما نوقشت ودرست يمكننا أن نتوصل إلى نظرية عامة في الطقوس ، كما يذهب راد كليف براون، استناداً الى الفروض العلمية الدقيقة والمناهج الموضوعية. وإذا ما عقدنا المقارنة بين تلك الفروض الظنية أو التطورية القديمة وبين هذه الفروض الدقيقة التي يقول بها راد كليف براون ، لوجدنا أن الفروض الأولى تنزع أصلا إلى بحث الأصول ، أما الفروض المنهجية التي يقول بها أصحاب المنهج الانثروبولوجي العلمي من أمثال رادكليف براون ، فإنما توصلنا الى القوانين العامة للحياة الانسانية ، أي أن الفروض الأولى ، إنما هي افتراضات غير يقينية وغير مؤكدة أما الثانية فتتعلق بتطبيق المناهج العلمية على الظاهرات والأحداث الاجتماعية . والفروض الأولى تحاول إعادة تركيب التاريخ ، أما الثانية فلا دخل لها بالماضي ، وإنما تدرس « الظاهرات المتزامنة Synchronic » .

الفرض والتجربة :

وبناء على كل ما تقدم ـ نقول إن من أهم قواعد المنهج الأنثروبولوجي العلمي عند راد كليف براون ، أن نلاحظ الوقائع ونشاهدها بناء على فرض نظري يفسرها . ويؤكد راد كليف براون ضرورة التمييز بين الملاحظة العلمية ، وبين الملاحظة العابرة ، فالملاحظة العلمية ملاحظة مقصودة محددة الهدف، وذلك كوسيلة لتحقيق الفرض الذي بدأ به الباحث الحقلي دراسته على أن يقوم بتدوين الملاحظات أثناء قيامه بالدراسة والوصف حتى لا يهمل أو ينسى بعض ما لا يتفق ووجهة نظره ، ولذلك يجب أن تكون الملاحظات دقيقة مفصلة كتلك الملاحظات التي

(1) Ibid : p. 20.

يسجلها العلماء فى دراساتهم العملية ، ولعلنا نتذكر فى هذا الصدد منهج الملاحظة عند كل من « داروين » و « لويس باستير » .

وما يدفعنا إلى الملاحظات والمشاهدات فى الميدان الحقلى إلا إضفاء روح البحث العلمى على الدراسة، على ألا يهمل الباحث الحقلى بطرق شعورية أو لاشعورية ما لايؤيد فرضه مدفوعا بما يسميه علماء النفس بالتفكير المحبب Wishful Thinking لأن ذلك يختلف تماما مع الأسس الموضوعية للدراسة العلمية ، كما يتعارض مع روح البحث العلمى النزيه .

ومعنى ذلك يمكننا اعتبار الملاحظة والفرض خطوتين أو قاعدتين أساسيتين من قواعد الاستقراء ، أما الخطوة الثالثة فهى تتعلق بالاختبار أى اختبار « الفرض » و « تحقيقه » فقد نعدل فروضنا إذا ظهر ما يخالفها . وقد نلغيها تماما إذا ظهر ما يناقضها .

ولقد حدثنا رادكليف براون فى معرض حديثه عن المنهج التجريبى ، عن أهمية استشارة الظواهر التى تختبر ، فالفعل اللاتينى « Experiri » يعنى (1) « to put to the test » فيجب أن نؤكد إذن علاقة هذه الاختبارات بالمنهج المقارن ، على اعتبار أنه الركيزة الأساسية التى تعتمد عليها أسس المنهج الأنثروبولوجى العلمى عند رادكليف براون ويؤكد على ذلك بقوله :

« يتخذ المنهج المقارن فى علم طبيعة المجتمع ، مكانة المنهج » .
« التجريبى فى سائر العلوم الأخرى » (2) .

---

(1) Method in Social Anthropology, Selected Essays by Radcliffe — Brown. p. 138.

(2) Fortes. Meyer and Evans-Pritchard. African Political Systems. Oxford 1949. p. XIII.

فبدون المنهج المقارن ، وبدون الدراسات المنهجية المقارنة المنظمة ستصبح الانثروبولوجيا بجرد دراسة وصفية تاريخية (١) ، أو مجرد دراسة «اثنوجرافية» وذلك لأن « النظرية السوسيولوجية » يجب أن تقوم على الاختبار ، بناء على الدراسة المنهجية .

ويحدد الاستاذ رادكليف براون المهمة الكبرى التى يضطلع بها علم الاجتماع المقارن فى هذا النص (٢) :

« إن مهمة علم الاجتماع المقارن ، كأى علم تجريبى آخر ، هى ابتكار
« وخلق . التحليلات المناسبة للتصورات التى عن طريقها نقيم التعميمات
« حين تختبر هذه التصورات اختبارا كافيا، استنادا الى المشاهدات المنظمة
« الظواهر . ولعل مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية يتحدد فى الدراسة
« التجريبية للمجتمعات البدائية » .

وفى هذا النص يتحدد الفيصـــل الأساسى بين المقارنة بمعناها القديم الذى وجدناه عند فريزر وتايلور وعند العلماء التطوريين ، الذين كانوا يقارنون مقارنة عشوائية ، تلك التى تختلف عن المقارنة بمعناها العلمى عند راد كليف براون . حيث أن المنهج الانثروبولوجى عنده لا يدرس الظاهرات الجزئية بانتزاعها عن سياقها العام ، بل يدرس الصور المختلفة للنظم والظاهرات الاجتماعية فى علاقتها ووظائفها فى الأبنية الاجتماعية المختلفة، للتوصل الى التعميمات واكتشاف القوانين. ومعنى ذلك أن المنهج المقارن ما هو إلا أداة للاستدلال الاستقرائى ، يقودنا لإكتشاف الخصائص الكلية للمجتمعات الانسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها(٣).

---

(1) Redcliffe-Brown, op. cit., p. 110.

(2) Ibid : p. 142.

(3) Fortes, M. and Evans-Pritchard, African Political System Preface by Radcliffe-Brown, A.R.

وعلى هذا الأساس يفصل المنهج المقارن بمعناه الحديث عند راد كليف براون بين المناهج الأثنولوجية التاريخية، وبين المناهج الأنثروبولوجية الإجتماعية، وينبغى فى هذا الصدد أن نحدد معنى الانثروبولوجيا الإجتماعية عند راد كليف براون، كى نميزه من معنى الدراسة الاثنولوجية الثقافية.

يقول الأستاذ راد كليف براون فى تعريفه للانثروبولوجيا الإجتماعية، كى يميز مفهومها ويحدده، بالنسبة لمفهوم الاثنولوجيا، ولذلك يقول (١).

« يمكننا أن نعرف الانثروبولوجيا الإجتماعية على أنها دراسة طبيعة « المجتمع الإنسانى عن طريق المقارنة المنهجية بين سائر المجتمعات على « اختلاف أشكالها، مع الإهتمام بوجه خاص بالأشكال البسيطة « للمجتمعات البدائية ».

ولقد تردد اسم « الانثروبولوجيا الاجتماعية » فى ميدان علم الاجتماع، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بين أساتذة الجامعات البريطانية، وكان « السير جيمس فريزر (٢) » أول من استخدم هذا الإصطلاح الجديد باعتباره أول من حاز كرسى أستاذية الانثروبولوجيا سنة ١٩٠٨. ولقد اعتبر « فريزر » دراسة الانثروبولوجيا الإجتماعية، كدراسة سوسيولوجيه للأشكال البدائية فى المجتمعات أما « مالينوفسكى » فلقد اعتبرها فرعا من السوسيولوجيا — كما يطبق على القبائل البدائية (٣)، أما عن مفهوم كلمة « انثولوجيا » فيقول رادكليف براون :

« إنها علم دراسة الشعوب ويعرفها قاموس أكسفورد بأنها ذلك العلم الذى »

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Method in social Anthropology, P. 133.

(2) Ibid. p. 134.

(3) Ibid p. 135.

« يعالج الشعوب ويدرس الاجناس فى علاقاتها وسماتها وخصائصها المميزة » .

وتتصل مسألة التعميمات ومشكلة اللغة والمصطلحات فى الانثروبولوجيا الاجتماعية بمسألة منهجية أساسية كثيراً ما دارت حولها المناقشات ، وهى المسألة التى تتعلق « بالقوانين السوسيولوجية الاجتماعية العامة General sociological laws » ، وهل يمكننا التوصل إليها فى ميدان الانثروبولوجيا الإجتماعية ؟ وهل يمكن أعتبـــار القانون الاجتماعى كالقانون الطبيعى سواء بسواء ؟ وما هى تلك الأسس التى ينبنى عليها « التفسير » فى مناهج العلوم الطبيعية ؟ !

يحدد « السير آرثر ادنجتون Sir Arthur Eddington » منهج الدراسة العلمية بقوله :

« إن الدراسة العلمية للوقائع والمشاهدات ، إنما توصلنا إلى عدد من التعميمات تلك التى نسميها بقوانين الطبيعة » (1) .

ومعنى ذلك أن الطريقة العلمية على ما يقول أستاذنا الجليل « الدكتور محمد ثابت الفندى » ، إنما تبدأ بالمشاهدة ، والإلتفات إلتفاتا تلقائياً إلى ظاهرة من الظواهر ، ثم تعزز تلك اللفتة بالمشاهدات الإيجابية الدقيقة المتنوعة التى تجمع بعناية وأناة لكى تصنف تصنيفاً موضوعياً على أساس ما تشترك أو تفترق فيه من خصائص ، ولا يستوى هذا إلا لذى عقلية خبرت بالممارسة كيف تشاهد الوقائع والأحداث ، وكيف تنصت إليها فى أصغاء تام لا تختلط بما تشاهده . فاذا إستوى هذا أندس العقل بعد ذلك فى الأشياء ، بأن يفرض فرضا مؤقتا يفسر ناحيـة الاشتراك والارتباط ، فتنصت حينئذ الوقائع بدورها إلى ما يقوله الإنسان فى شأنها وما يفسره بها . وما علمنا فى الحق إلا ذلك القول ، لا العلم المطلق ، غير أن

---

(1) Eddington, Sir Arthur., The Philosophy of Physical Science. p. 13

هذا القول لا يندمج فى صلب العلم الإنسانى إلا إذا «اختبر» فى مرحلة أخيرة، على ضوء مشاهدات أخرى منتقاه وتجارب فاصلة تؤيد الفرض المفسر أو تدحضه. فإن كان التأييد، أصبح الفرض يقينا والقول «قانونا» خليقا بأن يشق طريقه إلى جمهورية الحقائق العلمية تلك الحقائق التى تسمح للانسان بأن يتنبأ عن يقين بالمستقبل وأن يصدر فى أعماله عن هذا التنبؤ. إذ أن فائدة العلم وغايته البعيدة هما أن يتنبأ الإنسان فيعمل بما يتنبأ به كما يقول كلود برنار»[1].

وعلى هذا الأساس، يتبين لنا كيف نصل إلى «القانون» إستناداً إلى الفروض والاختبارات ـ وهذا ما يهدف إليه علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فى الوصول إلى القوانين الاجتماعية كى يؤكدوا الجوانب العملية فى علم الاجتماع التطبيقى applied sociology.

ويتبين لنا بدراستنا لمضمون هذا القول، إمكان إستخدام القانون[2] السوسيولوجى تماما كما نستخدم القوانين الطبيعية فى حياتنا العملية، وهذا بالضبط ما يؤكده أصحاب المنهج العلمى ومنهم الأستاذ راد كليف براون، فى إمكان التوصل إلى القانون السوسيولوجى وإستخدامه بتطبيق المنهج العلمى فى الانثروبولوجيا الاجتماعية، على اعتبار أنها «علم طبيعى natural science». ولكننا نجد الاعتراضات العديدة التى يوجهها Robert Lowie فى كتابه «تاريخ النظرية الاثنولوجية The history of ethnological theory»، حيث ينكر «لوى» فى هذا الكتاب بشدة فكرة القوانين الاجتماعية ويعلن بطلانها وسخافتها.

---

(١) من مقدمة كتاب الطبقات الاجتماعية — للاستاذ الدكتور محمد ثابت الفندى.

(2) Issa. Aly A., «Applied Sociology», Bulletin of the Faculty of Arts Alexandria University, Dec. 1954

إنما يقول راد كليف براون أن القوانين الاجتماعية التي يصل إليها الانثروبولوجي الاجتماعي «هي قوانين من نوع خاص» ، وليس من الضروري أن تشبه قوانين «نيوتن» في الطبيعة كما يقول «روبرت لوي» حين يسخر منها . بل يريد راد كليف براون أن يؤكد علمية الانثروبولوجيا الاجتماعية من زاوية خاصة ، على اعتبار أنه يميز بين نوعين من العلوم ، وقد أثار هـــذا التمييز في محاضرة ألقاها في جامعة شيكاغو سنة ١٩٣٦ حيث ميز بين العلوم التصنيفية Taxonomic وبين العلوم التفسيرية Explanatory وهو يقصد بالعلوم التصنيفية ، علوم الحيوان والنبات والفلك ، تلك التي تختص بدراســـة «نسق عيني مشخص» إستناداً إلى الملاحظة المباشرة .

أما العلوم التفسيرية ، فيقصد بها علوم «الذرة» والالكترونات ، والبروتونات تلك التي تتعلق بدراسة الانساق ، التي لا يمكن رؤيتها مباشرة ، فعالم الذرة لم ير الالكترونات ، وإنما يدرك خصائصها لا عن طريق الملاحظة المباشرة وإنما عن طريق قوانين الرياضة البحتة والفكر المجرد .

وعلى هذا الاساس يعتبر رادكليف براون ـ أن علم الانثروبولوجيا الاجتماعية الذي يتعلق بدراسة البناء الاجتماعي العيني المشخص Concrete إنما يدخل تحت قسم العـــلوم التصنيفية ، لان النسق الاجتماعي ، يشبه الانساق التي نجدها في عالم الحيوان والنبات والفلك . أي أن النسق الاجتماعي بالمعنى الذي يقول به راد كليف براون إنما هو « نسق تصنيفي » ، وعلى هذا الاساس فان المناهج المتبعة في دراسة عـــلوم الحيوان والنبات والفلك إنما تصدق أيضا على دراسة المنهج الانثروبولوجي . كما أن القوانين والتعميمات والتنبؤات التي يمكن للباحث الانثروبولوجي أن يصل إليها تكون أقرب في طبيعتها إلى القوانين والتعميمات في العلوم التصنيفية ويمكن اعتبـار خطوات البحث المنهجية في الانثروبولوجيا

الاجتماعية ، إنما تستمد أصلا من خطوات البحث فى العلوم التصنيفية ، تلك التى تبدأ بالوصف العلمى الدقيق الموجه منذ البداية بفرض معين من الفروض النظرية، ثم تأتى الخطوة التى تتعلق بالمقارنة بعد عملية الوصف واستقراء الظاهرات ، فيقارن الباحث بين مختلف الظاهرات حتى يحدد مجالها ، فيصل بذلك إلى القانون الذى تكون فيه هذه الظاهرة حالة من حالاته الجزئية .

ويعترض إيفانز بريتشارد على هذا الاتجاه الذى يقول به راد كليف براون بقوله : «أعتقد أن من حقنا مطالبة الذين يقررون أن غاية الأنثروبولوجيا الاجتماعية هى الوصول إلى قوانين اجتماعية تشبه القوانين التى يصوغها العلماء الطبيعيون ، أن يقدموا لنا مثل هذه الصيغ التى تسمى « قوانين » فى تلك العلوم [1] .

وبصدد هـــذه المسألة التى تتعلق بإمكان أو عدم إمكان التوصل إلى قوانين اجتماعية ، ثارت المناقشـات على صفحات مجلة مان Man ، [2] ، حيث عارض « أندرجسكى Andrezjewski » هذا الاتجاه الذى يتجه إليه إيفانز بريتشارد ، من إنكار قدرة الأنثروبولوجيا الاجتماعية على صياغة التعميمات ، وذهب « اندرجسكى » إلى أن هناك قوانين اجتماعية بالفعل ، ورغم أنها قليلة ، إلا أن ذلك لا يرجع إلى عجز الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن اصدارها بل يرجع إلى أن الأنثروبولوجيا لا تزال حديثة نسبيا ، كما أن الدراسات الانثروبولوجية لا تزال قليلة نسبياً أيضاً ـ ومن الأمثلة التى ذكرها « اندرجسكى » للتدليل على وجود مثل هذه القوانين: أن هناك ارتباطا بين انتشار نظام تعدد الزوجات بالتفاوت الاقتصادى الشديد فى المجتمعات البدائية . والمثال الثانى من أمثلة القوانين التى يقول بها :

---

(١) إيفانز بريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ ترجمة الدكتور أحمد أبوزيد ص ٩١ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٢ .

وهو أن الحروب هى التى تؤدى الى ظهور الحكم الانفرادى أو الحكم الدكتاتورى» أما المثال الثالث فيقول « إن الزيادة الكبيرة فى السكان تؤدى إلى الحروب » .

ولقد رد «اللورد رجلان Lord Raglan» (١) باعتباره أحد الانثروبولوجيين البريطانيين الذين لايؤمنون بعلمية الانثروبولوجيا، وينكرون القوانين الاجتماعية. ويرى « رجلان » فى معرض رده على اندرجسكى أن القانون لا يمكن أن يعتبر قانوناً «إلا إذا صدق على جميع الحالات التى تتصل به» ، وإنه إذا كان ذلك هو الذى يصدق على القوانين فى ميدان الطبيعة والكيمياء نجده لايصدق بحال من الأحوال على ميدان العلوم الاجتماعية — إذ أن القوانين التى يقول بها « اندرجسكى » إنما تحمل فى الواقع عناصر هدمها ، ففيما يتعلق بالمثال أو القانون الأول — الذى يقول بأن ثمة ارتباطا بين انتشار نظام تعدد الزوجات من ناحية، والتفاوت الاقتصادى الشديد فى المجتمعات البدائية من ناحية أخرى، نجد أن « لورد رجلان » يفند ذلك عن طريق التشكيك فى أن هذا القانون ليس قانونا مطلقاً — إذ أن القبائل الاسترالية لا يوجد عندها تفاوت اقتصادى شديد ، وأن جميع العشائر الاسترالية تعيش فى نفس المستوى المنخفض ، ومع ذلك فهى مجتمعات أو عشائر تعددية ، يعتبر فيها عدد الزوجات وتعددها عند الرجل الواحد ، دليلا على علو منزلته الاجتماعية وليس على علو مكانته الاقتصادية ، وهذه حالة تبطل عمومية القانون الذى يقول به اندرجسكى .

أما فيما يتعلق بالقانون الثانى — وهو القائل « إن الحروب الكثيرة تؤدى إلى ظهور الحكم الانفرادى أو الديكتاتورى » ، فيرى « لورد رجلان » أن هناك كثيرا من الشعوب المحبة للحرب ، ومع ذلك ترفض هذه الشعوب الخضوع لرئيس واحد يمارس سلطانه المطلق ، فإن قبائل « الماساى » فى شرق إفريقيا من أشد الشعوب

(١) نفس المرجع ص ٦٢ .

حبا فى الحرب ، ومع ذلك فالحكم فيها ديموقراطى ، ولم يظهر فيها ديكتاتور واحد . وبذلك ينهدم المثال الثانى للقانون الذى يقول به « اندرجسكى » .

وأخيرا فيما يتعلق بالقانون الثالث . وهو القائل إن الزيادة الكبيرة فى السكان تؤدى الى الحروب ، يقول « رجلان » إن بلاد البنغال متخمة بالسكان ، ومع ذلك فإنهم من أشد الشعوب حبا فى السلام .

وينبغى أن نؤكد فى الرد على هؤلاء العلماء من أمثال « إيفانز بريتشارد » ، و « لورد رجلان » الذين ينكرون علمية الانثروبولوجيا الاجتماعية وتوصلها الى القوانين . أنهم قد أسرفوا الى حد الإملال فى الجدل والمساجلات النظرية فى هذه المسألة المنهجية ، وإننا يمكننا بذل الجهود لتأكيد معالجة المسائل الاجتماعية استنادا الى المناهج العلمية المنظمة ، ودراسة المجتمع بناء على أسس منهجية، تحدد طرق البحث فى الدراسات الحقلية التى تعمل على تطوير الدراسة الانثروبولوجية العلمية ، استنادا الى الملاحظة المباشرة ، واستقراء الظاهرات ، ثم فرض الفروض واختبارها . ولقد طبق الأستاذ رادكليف براون هذا المنهج الانثروبولوجى العلمى فى دراساته الشهيرة فى الانثروبولوجيا الحقلية والوظيفية وبخاصة فى الجزر الاندمانية ، ارتكازا الى بعض الفروض النظرية التى وجهت دراسته الحقلية منذ البداية ، وهكذا نرى منهج دراسة رادكليف براون للثقافة الاندمانية ، وكيف طبق منهجه العلمى فى « ثقافة الاندمان » .

وبالرغم من كل تلك الدراسات العلمية والمتعمقة فى حقل التجارب التى تحتاج الى ضرورة تطبيق قواعد المنهج العلمى فى كل دراسة .

وبالإضافة الى كل ذلك . فقد يستعين البحث الميدانى ، حين يستخدم الباحث نفسه فى دراسته التجريبية بالإستعانة بمناهج الإحصاء ، وجمع وتسجيل البيانات .

وتختلف تلك المناهج من حيث اتساعها ومداها ، كما تتمايز من حيث المصادر واستخدام أدوات الجمع والتسجيل(1) ولقد صنف «تشابن Chapin» تلك المناهج من حيث المدى والإتساع ، إلى مناهج العينات ، ومناهج الحصر والإحصاء .

أما من حيث المصادر ، تنقسم المناهج إلى مناهج دراسة المصادر التاريخية، مثل تسجيل الاعترافات ، والخطابات التاريخية والمذكرات الشخصية التي تسجل ملامح الحياة الخاصة . ومن المصادر التاريخية هناك الوثائق والسجلات ، والحفريات ، والبقايا ، والطبقات الجيولوجية .

وإلى جانب المصادر التاريخية ، هناك المصادر الحقلية ، ويمكن حصرها في المشاهدات المباشرة Direct Observatious ، تلك التي تسمى أيضاً بالملاحظة الحقلية Field Observation ، وهي تلك الملاحظة العلمية التي لا تتحقق إلا عن طريق الدراسة المباشرة لمجتمع معين بالذات في فترة محددة من تاريخه .

وهناك بعض الطرق المشهورة في اتباع منهج الملاحظة الحقلية، ومنها الطريقة المباشرة أو المنهج المباشر Direct Method ، وبواسطته يحاول الباحث الميداني ، أن يقوم بنفسه بعمليات الملاحظة وتسجيل المشاهدات ، ومنها أيضاً المنهج غير المباشر Indirect Method ، حيث يتلقى الباحث بياناته ومعلوماته عن الآخرين ، كالمرشدين أو المخبرين الاجتماعين أو المحللين الاجتماعيين أو الدارسين في الحقل الاجتماعي ، وبخاصة في دراسات المجتمعات البدائية ، وهم من يسمون أحيانا بالمتكلمين وبخاصة في المجتمعات الحضرية .

بمعنى أن الباحث حين يستخدم المنهج غير المباشر، إنما لايقوم بنفسه بعمليات الجمع والمشاهدة ، أو اجراء العمليات المبدئية في العمل الميداني ، حيث يعتمد

---

(1) Riley, Metilda White., Sociological Research, A Case Approach New York, 1963, pp. 112—114.

الباحث فى هـذه المرحلة على من يقـــوم بعمليات الجمع والتسجيل ، ومن يقوم بعمليات التحليل أو على من يقوم بعمليـات التسجيل والتحليل معـا فى أثناء الدراسة الحقلية .

وهناك شروط ينبغى أن تتوافر فى تطبيق المنهج المباشر ، منهـــا ضرورة احتكاك الباحث الميدانى بالمجتمع حقل الدراسة ، حيث يسجل ما عن له من ظواهر . فيقوم فى كل دراسة « حضرية Urban » أو « ريفية » أو « حضريفية Rurban » (١) ، بإحصاء عدد البيوت فى ضاحية أو ناحية معينة ، ويلاحظ حجم المنطقة ، ومدى استخدام المياه والكهرباء ، وتوافر المدارس أو المساجد والكنائس . ويسجل أوجه المناشط الاجتماعية ، وسمات السلوك التى تتسم بها حياة الناس ، وأن يحدد أيضاً جنسية الأفراد ، وأن يتبع « سماتهم العنصرية Racial Traits » ، ويقيس درجة الثقافة والتعليم ، بمدى اتصـــال الأفراد بالمكتبات والمدارس ، و يكشف عن إتجاهاتهم وأهدافهم ومثلهم العليا (٢) .

وهناك بعض المميزات التى تتميز بها الدراسة الميدانية ، كما يتضـــح فى النقاط الآتية :

١ ـ يسمح المنهج المباشر فى كل دراسة حقلية ، بتحقيق المشاهدة الموضوعية Objective Observation ، تلك التى يقوم بها الباحث الماهر المدقق الذى مارس والتحم عن قرب بميدان الدراسات الحقلية .

٢ ـ يكشف المنهج المباشر عن طبيعة مواقف الحياة Life-Situation التى

---

(١) سبق الاشارة إلى هذا فيما سبق .

(2) Lundberg, George., Social Research,, Second edition, Longmoans. 1947, R. 128.

تعبر وتكشف عن حقيقة الوضع الواقعى Real ، الأمر الذى يقتضماه يستطيع الباحث أن يتعرف على مظاهر وأنماط السلوك ، وأن يتفهم حقيقة المصطلحات اللغوية كما يتصورها الناس أنفسهم .. حيث أن الكلمة اللغوية ، هى كائن اجتماعى حى ، يولد ويحيا وينتقل أو يهاجر من مكان إلى آخر ، ومن ثم تحتاج دراسة اللغة إلى الالتحام المباشر والممارسة العملية ، حتى نتوصل إلى باطن الكلمات ، ونكشف عن مغزاها ومبناها .

الباب الثالث

قضايا علم الاجتماع الثقافي

* الثقافة والأجناس
* الإيكولوجيا والبناء الثقافي
* الأبعاد الثقافية في الفن والأدب
* الإنسان والفنان
* علم اجتماع الفن Sociologie de l'art

تمهيـــد

كثيراً ما يحدثنا علماء النفس والإجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ، عن مفهومات «السلوك» و «والثقافة» و «التكيف» و «الأنماط والنظم الإجتماعية» وكلها مفهومات سيكولوجية وسوسيولوجية ، ويظن الناس مع كثرة تداولهم واستخدامهم لها أنها سهلة يسيرة ، على الرغم من أنها تتضمن الكثير من المعانى المعقدة ، والتصورات العسيرة ، والمفهومات الصعبة . تلك حارت فى فهمها أذهان المتخصصين من علماء النفس والانثروبولوجيا والاجتماع .

الثقافة وعلم النفس :

والمراهقة adolescence مثلا من الظواهر التى يعالجها علماء النفس والبيولوجيا إلا أن الباحثة الأمريكية «روث بندكت Benedict» إنما تنظر إلى المراهقة على أنها ليست حالة بيولوجية ، أو مجموعة من التغيرات السيكولوجية والفسيولوجية ، وإنما تدرس كل هذه الملامح المتغيرة فى ضوء «الثقافة» وتحت وطأة الضغوط الإجتماعية ، فوجدت أن المراهقة تختلف بإختلاف المجتمعات حيث يقف منها المجتمع موقفاً خاصاً تحدده أنماط الثقافة السائدة فى هذا المجتمع .

ولما كانت المراهقة حالة «سيكوفيزيقية» أو نفسجسمية تتميز بالصراعات والقلق والضجر والتوتر والتمرد . فان عمليات «التكريس initiation» ، القائمة فى المجتمعات البدائية ، إنما تخفف من حدة التوتر النفسى . فحين يبلغ الفتى مرحلة النضج الجنسى Genitality ، وبخاصة تلك الفترة التى تسمى بفترة البلوغ Puberty ، تقام الحفلات والطقوس والشعائر التى يطلق عليها «أرنولد فان جنب Arnold Van Gennep» إسم «شعائر المرور Rites de Passage» ، وتتم على ثلاث مراحل ، الأولى وهى شعائر الانفصال حين يترك الفتى مجتمعه وبيئته القديمة ، ثم تقـــام الشعائر الهامشية ، نظراً لأن الفتى يعيش فى تلك الفترة على هامش الحياة الإجتماعية

ثم تقام أخيراً شعائر الدخول فى عالم الرجال ، فينتقل الفتى إلى درجة إجتماعية جديدة ، ويحتل مكانة أعلى ، ويقوم بوظائف محددة تتعلق بما يلتزمه من أنماط سلوك متغيرة وجديدة تتصل بتلك المكانة التى بلغها .

أنماط السلوك الثقافى :

ومعنى ذلك كما تقول « روث بندكت » أن نظرية الثقافة Cultural Theory قد أدخلت أبعاداً فى كل دراسة سيكلوجية أو سوسيولوجية ، كما كتبت « بندكت » عن هنود شمال غرب الولايات المتحدة ، وعن الأنماط الثقافية السائدة بينهم ، حيث يدور سلوك بعض هذه الجماعات حول « عقدة الكرامة أو الأهانة insult complex » فكل حادث يقع فى هذه الثقافة يفسر على أنه إهانة ، فموت الزوجة مثلا هو إهانة تلحق بالزوج ، ويرى « البولنيزيون Polenesians » أن لمس جسم « الزعيم » هو من المحرمات المطلقة . وإذا كانت المنافسة أمراً عادياً بل ومرغوباً فيه فى الولايات المتحدة ، إلا أننا نجدها فى مجتمع الزونى Zuni من الأمور غير المحمودة ، كما يتهم الشخص الطموح بالشعوذة . وبالإضافة إلى كل هذه الاهتمامات والجهود ، فلقد اشغلت « روث بندكت » أيضاً بموضوعات طبية وسيكولوجية عن طريق دراسة العمليات العقلية وأعراض الفصام والهستيريا وظواهر الاكتئاب والهوس ، من زاوية التأثير السوسيو ثقافى على الجوانب السيكولوجية والبيولوجية أو بمعنى أدق التفتت « بندكت » إلى دور الثقافة الذى تلعبه بصدد الظواهر النفسجسمية .

إلا أن علماء الثقافة على إختلاف مشاربهم ومدارسهم ، إنما يجمعون جميعاً على أن « الثقافة Culture » ظاهرة إنسانية تتعلق بالانسان وحده دون سائر الحيوان .

ويجمع علماء النفس والاجتماع ، على أن سلوك الانسان فى المجتمع هو بمثابة

نتاج لعمليات معقدة من التعلم ، فليس السلوك الانسانى آلياً جامداً كسلوك الحيوان حين ينجم أصلا من مجموع الغرائز والدوافع الفطرية (١) .

بين اللغة والتعلم والثقافة .

ومعنى ذلك أن « أنماط السلوك » هى بالضرورة وليدة عمليات متراكمة ، مما تفرضه « الثقافة » و « التربية » من ألوان التكيف والتعلم . فاللغة على سبيل المثال لا الحصر ، هى ظاهرة إجتماعية ، وهى فى نفس الوقت جزء جوهرى من أجزاء الثقافة ولذلك تشبه اللغة بالضرورة طبيعة الثقافة . وليس هناك مثال أصدق من اللغة يمكن أن نطبقه كى يحدد لنا طبيعة الثقافة ، وأن يحللها بطريقة علمية ، حيث تتوافر فى اللغة كل الخصائص الرئيسية التى تتميز بها الثقافة .

فلا يمكن أن توجد اللغة مثلا ، دون وجود المجتمع بصورة مسبقة . كما أن اللغة هى عبارة عن مجموعة من القوالب وأنماط السلوك السابقة على وجود الانسان الفرد ، وهذا هو حال الثقافة أيضاً . وليس هناك أى إنسان له لغته الخاصة به وحده ، لأن اللغة ظاهرة عامة وجمعية . بالاضافة إلى أن اللغة يرثها المجتمع لا الأفراد ، كما أنها ليست حقيقة بيولوجية ولا تورث فيزيقياً ، بل تنتقل كما تنتقل الملكية ، فهى وراثة إجتماعية Soc'al Heredity ، وليست وراثه بيوفيزيقية (٢) .

ونحن نجد فى المجتمع البشرى أنه لا تسوده ثقافة واحدة بعينها ، وإنما تنتشر فيه أنماط مختلفة من الثقافات ، وكذلك الحال بصدد اللغة ، فلا تتكلم البشرية لغة واحدة بعينها ، وإنما يختلف اللسان بإختلاف ثقافة الانسان ومجتمعه ، فتوجد

---

(1) Downs, James., Cultures in Crisis, Glencoe. 1971. p. 29.

(2) Alan, R. Beals, Culture in Process, Halt, Rinehart and Winston, U. S. A. 1967.

وتتعدد فى مجتمع البشر مختلف أنساق اللغة ولهجاتها ، طبقـــاً لاختلاف الوان الثقافات والمجتمعات .

هذه أوجه شبه أسوقها بين الثقافة واللغة ، أما الفارق بينهما فيكمن فى أننـــا لا نستطيع أن نحفر فى باطن الأرض بحثا عن ماضى اللغة ، كما نبحث عن الحفريات وبقايا العظام. ولذلك ليس لدينا سوى منهج التاريخ الظنى أو التخمينى لكى نعرف شيئا عن ماضى اللغة .

فمن العبث مثلا أن ندرس « لغة البوشمن » أملا فى العثور على شىء أكثر أصالة للكشف عن طبيعة « لغة الانسان المعاصر » من خلال تتبع ماضيها وتطورها .

حيث أن اللغات البدائية الحالية ، والتى يمكننا أن نعثر عليها وأن ندرسها الآن قد تكون معقدة فى تراكيبها ، بل وإنها فعلا فى ماضيها الطويل هى الأسبق زمانا ، ومن ثم فهى أكثر تعقيداً من اللغات الحديثة والمعاصرة . ولا شك أن الانسان الأول أو الحفرى ، كان يصدر قدراً كبيراً من الأصوات الممزوجة بالتعبيرات العاطفية على ما يفعل الشمبانزى ، ثم بدأ المحتوى الرمزى فى الزيادة من حيث الكم والكيف كلما إزدادت القدرات العقلية والذكائية ، مع الازدياد المستمر للقدرة على التجريد وإستخدام الرموز . ولذلك يمكننـا أن نقول دون حرج ، إن بداية اللغة ، إنما تعود إلى حد كبير عن بداية ثقافة الجنس البشرى وحضارته .

ولا شك أن اللغة هى « عدسة لامة » لكل مايدور فى محتوى الثقافة من عناصر أو سمات ، فمن خلال اللغة نستطيع أن نذهب إلى روح « العصر » وأن نكتشف أصول الثقافة ، وباطن الفكر ، وأن نتطلع إلى خبايا تصورات الشعراء بينما يحلقون فى عوالمهم بعيدا عن عالمنا ، بمعنى أن اللغة هى الخيط الذى يربطنا بمن

محلقون فى السموات ، فتكشف اللغة عن مدى الصدق والكذب فى النتاج الأدبى ، وتميط اللثام عن حقيقة الشعر والنثر ، بفض المكنون ، وسبر غور المجهول .

ومن خلال أنماط الثقافة وأنساق اللغة التى كرت على مر العصور ، عرفنا « هومير » و « فرجل » و « أرستوفان » وسنكا ، و « دانتى » كما عبرت لغتنا العربية أصدق تعبير ، عن « صلف المتنبى » و « اعتذار » النابغة « ومجون بشار » و « تشاؤم المعرى » و « تطير ابن الرومى » ، ولا شك أن الثقافة هى مهبط معايير « الفصاحة والبلاغة » .

فالقول البليغ له شروطه وعلاماته التى هى من وضع المجتمع ، فالحريرى فى مقاماته ووشى ألفاظه التى تتواتر فى شكل فنى رتيب فيه الكثير من الصنعه والكلفة، وإنما يختلف اختلافا جوهريا عن أسلوب الجاحظ مثلا ، او أبى حيان التوحيدى وكتاباته التى جنح فيها نحو التفلسف فجمع الكثير من المعانى والتصورات التى شغلته والشغل بها عصره ، فالألفاظ والكلمات والمعانى هى من خلق الواقع التاريخى التى صدرت فيه ، فعاشت ورسخت وقد يرفضها واقع تاريخى آخر فتذبل وتتهافت ، فلقد انتهى مثلا عصر « الوشى اللغوى » ودقة الصنعة أوالكلفة فى عرض الكلمات والمقامات الحريرية ، وبدأ الانسان يتطلع نحو الصدق والحق ، لأن ثقافتنا تعلى دائما من قيم « الصدق والحق والجمال » .

حيث يستطيع الأديب المعاصر أن يلتقط «موقفا» من «المواقف» أو «شريحة من شرائح » عالمنا الاجتماعى الحى ، فيسجل لنا فى أمانة كل مايدور من مواقف عصره حتى يتوصل إلى « نبض الحياة فيه » ويقبض على الحقيقة بشحمها ولحمها ، وإذا ما استخدمنا اصطلاح « صوسيوجية الأدب » لوجدنا أن الأدب بهذا المعنى الاجتماعى هو المعبر الحقيقى عن الوجود الاجتماعى بآماله وآلامه ، بواقعه وأحلامه .

فلقد سجل لنا « هوميروس » فى « الالياذة والأوديسة » الكثير من الأساطير والوقائع ، كما كتب عن المعارك والحروب ، فكانت أشعاره وثيقة من وثائق التاريخ . كما سجل لنا « دانتى » فى الهيانة ، وأبو علاء المعرى فى «رسالة الغفران» كل مادار بين فحول الشعراء والأدباء فى عصورهم ، فكانت هذه الروائع سجلا حافلا لثقافات العصور القديمة والوسطى، بمعنى أن الشعر ليس مجرد كلمات جمعت ورصدت فى فراغ ، وإنما هى مشاعر تجسدت فى كلمات ، وتصورات تحققت فى ألفاظ ، وأحداث ووقائع تغنى بها الشعراء ، فصار الدهر بها منشداً ، فالشعر « هو موسيقى النفس ولحن الزمن وقيثارة الوجود » .

ولا يمكن دراسة اللغة أو فهمها إلا عن طريق « التعلم » لأنها وسيلة التخاطب من أجل الاحتكاك والتعامل والتكيف مع الآخرين . واللغة هى نسق منظم من المعانى يندمج مع طريقة مرتبة من الأصوات . وكلما تغيرت نبرات الصوت ، تغيرت معانى الكلمات ومخارج الألفاظ .

ويمكن النظر إلى الأصوات ونبراتها ، والألفاظ ومعانيها ، بمثابة «رموز ثقافية » للتعبير عن مفهومات اجتماعية محددة بالذات . فالثقافة إذن ، هى نسق رتيب من الرموز Symboles التى تتناقلها أجيال الناس ، ويتبادلها البشر كوسيلة للاتصال والفهم والتعبير .

ونستطيع أن نعرف اللغة ، فنقول إنها فى بساطة عبارة عن مجموعة الألفاظ والكلمات والرموز والتجريدات ، التى تصدر عن حركات معقدة يقوم بها اللسان والفم والاسنان ، وهواء الرئة وحبال الحنجرة ، فتصدر الأصوات المنغومة ، والنغمات المسموعة التى تنتقل الى الآخرين فى أنماط صوتية رتيبة ومنظمة (١) .

---

(١) الدكتور حسن ظاظا ، اللسان والانسان ، مدخل إلى معرفة اللغة ١٩٧١ دار المعارف بمصر .

وإذا ما عقدنا المقارنات بين حنجرة الإنسان الحالى ، وحنجرة الرئيسيات لوجدنا أن الرئيسيات خرساء تنقصها الحبال الصوتية ، فتستخدم الغوريلا والشمبانزى أصواتهما فى الأدغال فى شكل صراخ أو همهمة .

ولقد تمكن الدكتور « كيث هايس Keith Hayes » أن يعلم القردة « فيكى » على نطق واستخدام بعض كلمات قليلة مثل « Cup » و « Mama » . وذلك من أجل معرفة أسباب عدم النطق بين الرئيسيات مع دراسة ميكانيزمات اللغة البشرية .

ولقد أثبتت نتائج الدراسات والتجارب وأكدت على أن النطق عند « فيكى » أى إخراج الأصوات المنغومة ، أو النغمة المنتظمة فى كلمة Cup ، إنما يكاد يكون مستحيلا ، حيث تحتاج الكلمة إلى مجهود عنيف ، كما تنطق الكلمة فى مشقه عسيرة وفى صوت محبوس مهموس . وليس للشمبانزى أى دافع فطرى لكى تزيد من حصيلتها اللغوية ، كما أنها لا تميل بطبعها إلى الكلام أو إلى اللغة ، ولذلك كان السبب المباشر فى أن الحيوان « لاثقافة له » إنما يكمن فى كون هذا الحيوان أخرس بلا لغة ، بمعنى أنه « بدون حبال صوتية » فلا يستطيع أن يتكلم كما نتكلم .

وقد تستطيع « الشمبانزى » عمل التجريدات ، على ما فعل « كوهلر » مع القرد « سلطان » ، حيث جاء بقفص ووضع إصبعاً من الموز فى سقفه ، وترك صندوقين داخل القفص ، فما كان من « سلطان » القرد الذكى إلا أن وضع صندوقا فوق الآخر وتوصل إلى إصبع الموز المعلق فى سقف القفص .

ومعنى ذلك أن « القرد سلطان » قد توصل إلى معرفة « العلاقات وأطراف العلاقات » وهذا هو تعريف الذكاء ، ومعنى ذلك أيضاً أن الإدراك الحسى والبصرى عند الشمبانزى إنما يدرك الموقف كله ، ومن هنا يستطيع الشمبانزى أن يجرد بشرط أن تتوفر بعض الشروط والقيود والضوابط التى تتحكم فى الموقف كله .

وإستناداً إلى المهارة والقدرة على التذكر واستخدام الإدراك البصرى ، يتعلم الشمبانزى ، ويستخدم التجريد المرتبط بأشياء حسية أو مشكلات عيانية مشخصة Concrete ، ولكن الشمبانزى لايستطيع أن يقوم بعملية «تفكير مجرد» على ما يفعل الانسان ، حيث يستطيع الإنسان أن يتحكم فى أفكاره ورموزه ، كما تتحقق فى ألفاظ وتتجسم فى كلمات .

وإذا ما عقدنا المقارنات بين مواقف كل من الانسان والقردة بصدد عمليات التفكير المجردة ، نستطيع أن نقول إن « أيدى القردة » كما أنها مهيأة إيكولوجيا[1] وفسيولوجيا للقبض على الأشياء ، فإن الإنسان مهيأ ثقافياً هو الآخر للقبض على الرموز واستخدامها ، تلك المهمة التى تعجز عنها الرئيسيات من عالم الحيوان ، والتى لا يتميز بها سوى بنى الانسان .

ويمكننا أن نعلم « الشمبانزى » كيف يجمع قشر الموز فى سلة ، إلا أنه كسول سريع الملل ولا يعمل بانتظام ، ولا يعرف الكلام ولا يعبر عما يريد ، إلا أننا إذا ما طلبنا منه شيئاً سرعان ما يستجيب لنا فى ذكاء ، ولقد قام بعض العلماء بتعليم اثنين من الشمبانزى كيفية انزال أصبع موز عن طريق جذب طرفى حبل يشد كل منهما طرفا ، وتكررت التجربة بنجاح ، ثم أختير شمبانزى واحد فقط منهما القيام وحده بالتجربة ، فوقف قلقا ، وازدادت حيرته ، فأطلق العلماء زميله الشمبانزى الثانى ، فقام الأول ببعض الحركات والأصوات الخاصة ، حتى شاركه زميله فى شد الحبل ونجحت التجربة .

---

(١) الإيكولوجيا ، هى ذلك العلم الذى يدرس الكائنات الحية فى علاقتها بالبيئة .
أنظــر :

Pater Farb., Ecology, Life Nature Library 1965.

وفى محاولة ثالثة أدخل العلماء على الشمبانزى الأول واحدا جديدا لم يدخل التجارب السابقة، ولايعرف المطلوب منه بالضبط، فأخذ الأول يطلق الأصوات ويأتى بالحركات العنيفة، حتى يوحى لزميله الشمبانزى الجديد بمايرغب فيه من شد الحبل وانزال الموز . الا أن محاولاته ذهبت سدى ، فحركاته هوجاء تخلو بالنسبة لزميله الجديد من أى معنى ، ولا توجد فى أصواته تلك الرمزية المجردة التى تمتاز بها اللغـــة .

ولقد أقام الدكتور « كيث هايس Keith Hayes » مجموعة من التجارب على القردة « فيكى » ، لقد تعودت أن تخرج معـــه للنزهة مع زوجته ، كما اعتادت « فيكى » أن ترى مع صاحبها الدكتور عدداً من « المناشف » فى كل مرة يخرج فيها للنزهة . واكتسبت القردة هذه العادة فى سرعة فائقة ، فكانت تسرع دائماً فى إحضار هذه « المناشف » وتعرضها على الدكتور وزوجته كلما شعرت برغبتها فى الخروج لكى تتنزه فى الخارج ثم أخفى الزوجان هـذه المناشف فى مكان بعيد ، فأخذت «فيكى» تبحث عنها حتى عثرت على مجموعة من المناديل المصنوعة من الورق فجاءت بها للتعبير عن رغبتها فى النزهة .

والحقيقة إن اللغة لا تعتمد على مجموع الأصوات والحركات والاشارات على ما يفعل الشمبانزى ، وإنما تعتمد على مجموعة من الرموز Symbols والمعانى المجردة ولقد عرف « هرسكوفتز Herskovitz » طبيعة « اللغة » بأنها « نسق من الرموز الصوتية التعسفية يمكن بهـا لأعضاء الزمرة الاجتماعية التعاون والتفاعل » ، فاللفظ يعتمد على التجريد والتعبير الرمزى ، والشمبانزى يفتقر إلى التجريد والرموز .

ولا شك أن مجتمعات القردة ، هى مجتمعات بلا ثقافة ، حيث أنها تسلك على نحو خاص سلوكا محددا وتتصرف بطريقة آلية ثابتة ، سواء أثناء تجوالها فى الغابة

أو فى طريقة أكلها أو نومها فوق الأشجار ، حيث تتخذ فى كل هذه الأحوال طريقة واحدة بعينها طوال حياتها .

أما الإنسان فيمتاز برصيد إضافى من السلوك المتكيف أو المتغير . حيث أن الإنسان هو الحيوان الذى يتكلم ويتعلم بفضل إتساع اللغة ، بمعنى أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى أخترع الثقافة ثم نقلها بعد أن خلقها وصقلها .

ويمكننا أن نقوم بتعليم الحيوانات القيام بعمليات خاصة ، لأن الحيوان يستطيع أن يتعلم ، إلا أن نقطة الضعف الشديدة فى عمليات التعلم عند الحيوان ، إنما تكمن فى الابطـــاء الشديد والتكاسل وعدم الاستجابة السريعة ، حيث تعتمد إستجابة الحيوان لأى مؤثر خارجى على الخبرة experience ، تلك التى تعتمد هى الأخرى على نوع آخر من أنـــواع التعلم يسمى « بالتعلم الشرطى » وهو تعلم مشروط بظروف تجريبية خاصة ، مثل « تجارب كلاب بافلوف » المشهورة التى كان يسيل لعابها كلما دق جرس العشاء .

ولكن الإنسان بفضل اللغة ، وإستنادا إلى الثروة اللفظية ، وبالرجوع إلى حضارة لغته وخصوبتها ، نجده أسرع من الحيوان إستجابة وفهمها وخبره وذكاء فهو الكائن الوحيد الذى يملك الرصيد الإضافى الذى ينظم أفعاله بفضل العائد الثقافى الضخم الذى يصدر عن المجتمع .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، تعبر « عصا الحفر » (١) عن مستوى الإقتصاد

---

(١) عصا الحفر . ليست مجرد عصا عادية ، وإنما هى عصا لها وظيفتها الاقتصادية ، بحثاً عن البذور وإقتلاع الجذور وجمع الخضروات البرية . وقد يستخدمها البدائى فى ضرب أطفاله، ولـكنه يدرك أن وظيفتها ليست الضرب وإنما هى الحفر. فتتمايز مثلا عن «عصاالهوكى» أو « البولو » أو « الجولف » أو حتى «العصا المارشـيالية العسكرية » . وليس المهم عند الإنسان العصا فى ذاتها بل المهم هو معناها ووظيفتها . ولذلك يمكننا أن ننظر إلى عصا =

البسيط ، وعن درجة ثقافة الانسان البدائى ، الذى ما زال يرتدى جلود الحيوان طلباً للدفء ، كما يستخدم الأدوات الساذجة كالحراب والسهام فى الصيد والقنص وتلك هى مظاهر الثقافة البدائية ، التى هى أيضا حقيقة الحياة الإقتصادية فى المجتمعات البسيطة . وبالإضافة إلى كل هذه المعانى قد تدخل طريقة تعيين الزعيم ، أو تقاليد الزواج ، أو حتى شعائر الدين فى تحديد نمط الثقافة موضوع الدراسة .

وقد إستخدم القردة العليا الأدوات والعصى ، وقد تتعاشر وتتزوج وتتكون منها الأسر والعائلات ، وقد تنظم حياتها وحركتها فتحدد القائد والزعيم ، وقد نشاهد فى عالم القردة نظاما مونوجامية وأخرى بوليجامية ، حين نجد أنواعا من القردة تتعدد فيها الزوجات ، وأنواعا أخرى تكتفى بزوجة واحدة مثل « الشققة Gibbons » .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن الثقافة إفراز إنسانى ، فقد نشاهد بعض القردة تحاول عن طريق التقليد أن تستخدم فى بهجة وسرور ، غرارة من « الخيش » كغطاء لها ، إلا أن القردة لا تستخدم « معنى هذه الأشياء » كأدوات أو رموز ، أما الانسان ككائن مثقف ، إنما يستخدمها كنسق من الأفكار System of ideas لأنه يعرف معناها ووظائفها ، كما يتفهم مبناها ومغزاها .

الثقافة والسلوك :

لا شك أن الثقافة سلوك إنسانى يتميز بالذكاء والتكيف مع المواقف الجديدة . ويقال إن المجتمعات البدائية ، تعيش على الطبيعة ، وتستمر فيها أبسط أشكال

= الحفر على أنها ظاهرة إقتصادية ، كما أنها فى نفس الوقت ظاهرة ثقافية ، لأنها عنصر ثقافى تتميز به الزمرة الاجتماعية كلها . وكذلك الحال بالنسبة لارتداء جلود الحيوان ، وبالنسبة لنظام الزواج ، وشكل الأسرة ، وطريقة تحديد الزعيم ، أو إختيار الرئيس .

السلوك البشرى ، إلا أنها لاتتم عن طريق ميكانيزمات بيولوجية فى مجتمع الحشرات كالنمل والنحل ، تتكرر كل سمات وأنماط السلوك بشكل غريزى فطرى . ولـكن الانسان يعدل بالطبع ويغير من سلوكه فلا يتجمد أو يتحجر فى قوالب بعينها . فالتكوين البيولوجى لا يحكم سلوك الانسان ، وإنما تحكمه أنماط الثقافة السائدة . ولقد أدى إتصال الانسان بغيره عن طريق اللغة والاحتكاك الثقافى إلى تراكم التراث الثقافى عن طريق الاستعارة ، فيستوعب الانسان ثقافته ثم يضيف إليها الجديد فيضمن لها البقاء والدوام والاستمرار .

بمعنى أن الثقافة مكتسبة وليست فطرية ، اكتسبها الانسان بالتعلم ، ولم تنتقل إليه بالوراثة عن طريق ميكانيزمات بيولوجية وإنما إنتقلت إليه عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية Socialization .

ولذلك كانت طفولة الانسان أطول بكثير من طفولة الثدييات mammals فهى طفولة قصيرة تعتمد على السلوك الفطرى الغريزى إستنادا إلى تركيب فسيولوجى خاص . حيث يكون « التعلم » فى عالم الحيوان على أساس التقليد والمحاكاة ومن ثم فلا تنتقل الخبرة بين سائر الحيوان عن طريق الاتصال اللغوى أو إستعمال الرموز .

والثقافة عملية جمعية ونتاج جهود إنسانية جماعية ، كما أنهـــا نتيجة الابتكار الاجتماعى والتراكم المستمر فى تلك التركة الهائلة التى تسمى بالتراث الانسانى أو الثقافى ، هذا الذى ينتقل عبر الأجيال خلال عمليتى التربية والتعلم .

التعلم فى عالم الحيوان :

هناك مميزات إجتماعية تتميز بها جماعات الحيوان وعائلات الرئيسيات فى عالم القردة العليا ، فالشمبانزى مثلا حيوان يتميز بالاستقلال والتحرر فى الحركة ، وهو دائم التجوال ، عاطفى حساس سريعة التأثر والتعلم والتقليد ، يتحكم فى ضبط

سلوكه واستجاباته وتفاعله مع الآخرين ، وليست بين الشمبانزى علاقات سيطرة كما هو الحال عند « الرباح » الذى اشتهر بأنه هو قرد حفرى من قردة العالم القديم وما زال يعيش حتى الآن ، ويمتاز بالقسوة وحب السيطرة .

وتعيش الجوريلا فى جماعات سريعة الحركة ، تميل إلى التعاون والحياة الهادئة كما تعانى من حالة من الكبت أو الاكتئاب ، بينما لا يعانى الشمبانزى من الكبت إطلاقا ، لأنها تستطيع بقدرة فائقة أن تعدل من سلوكها باستمرار بواسطة عملية تعلم حقيقية .

ولا شك أن درجة التعلم أو التكيف بين عائلات الرئيسيات ، هى أعلى بكثير منها فى مجتمعات الحشرات وأسراب الطير ، حيث لا توجد بين الطيور والحشرات أية عمليات للتعلم أو التكيف . ويرجع السبب فى ذلك : إمتياز الرئيسيات بسمو الرأس وعظم حجم المخ ، وارتفـــاع درجة الذكاء حين يستخدم هذا الذكاء فى مواقف التصرف الناجح .

والتعلم هو عملية نقل للخبرة والسلوك . والثقافة هى ببساطة كيف نسلك ؟ ، ولذلك تتكون الثقافة من كل المخترعات التى يلغها تقدم الإنسان فى رحلة العـــالم الصاعدة نحو اكتشاف الجديد .

وإذا ما قارنا بين حياة الإنسان فى « مجتمع » ومكانته أو موقفه فى « ثقـافة » لوجدنا أن الأولى من نتاج مجتمعات القردة العليا ، حيث يقترب الإنسان فيزيقياً واجتماعياً من سائر الرئيسيات . أما الثانية فتتعلق بحياتنا الثقافية Cultural life التى هى من مخلفات تطورية حضارية ، نجمت عن رحلة الإنسان أو صـــراعه خـلال ماضيه مع كفاحه الدائب ، وتراكم جهوده وأعماله فى تراث إنسانى خصب متجدد تلخصه كلمة الحضارة ، أو كما يقول « كروبر » و « كلوكهون » إن

الحضارة هى « ثقافة متقدمة an advanced culture » [١] .

والثقافة هى رصيد إضافى يضيفه الإنسان على الكون والطبيعة ، كما يضفيه فى نفس الوقت على « نفسه » وعلى « تكوينه » الحيوانى ، حين يعدل من سلوكه على نحو دائم ومستمر فى مواقفه وردود أفعاله إزاء بيئة طبيعية فرضت نفسها على وجوده .

ولا مشاحة فى أن « الثقافة » تورث ، إلا أنها « تورث بإنتقال الملكية » تماماً كما نرث عن آبائنا المقاطعات أو العقارات . ولكن الثقافة لا تورث على نحو بيولوجى بإنتقال « الجينات » . والخصائص البيولوجية كالذكاء ولون العين ومقطع الشعر . فكل ما يرثه الإنسان من الثقافة ، إنما ينتقل إليه دون مصادر عضوية أو أصول بيولوجية ، وإنما تتم عملية النقل الثقافى ، عن طريق التربية ، وتملك كل الأشياء التى لا تورث بيولوجياً . بمعنى أن عملية الثقافة على حد تعبير « آلان بيلز » هى عملية « وراثة إجتماعية Social heredity » تتم بإنتقال المعارف وطرق الفكر وأساليب العمل وتوارثها من جيل إلى جيل بالتعلم والتربية [٢] .

وتتمثل الثقافة فى مظاهرها العليا فى نتاج اللغة والآدب . والتذوق الفنى . والإنسان سجين ثقافته ، يكتسبها إكتساباً ، ولا يستطيع أن يتهرب منها ، ولما كان الإنسان يعيش تحت وطأة التعقيد الإجتماعى ، فلم يعد « حيواناً إجتماعياً » كما سماه « أرسطو » . وإنما نجده فى مسيس الحاجة إلى عملية تعلم ، وإلى عدد من عمليات التكيف . فالثقافة وثيقة الصلة بحياتنا ، تعلمنا كيف نأكل ؟ وماذا نأكل ؟

---

(1) Kroeber and Clyde Cluckhohn., Culture. New York. 1952. p. 19.

(2) Beals R. Alan., Culture in Process, Halt. Rinehart and Winston, US.A. 1967.

كما تعلمنا ماذا نلبس ؟ وكيف نواجه برد الشتاء القارس وحر الصيف اللافح ؟ ! ، بمعنى أن الثقافة كما قلنا هى سلوك إنسانى يتميز بالتجربة والذكاء والتكيف .

الانثروبولوجيا والاثنولوجيا وعلم النفس :

لقد ثارت الخلافات المنهجية حول موقف الانثروبولوجيا والاثنولوجيا من جهة ، وموقف الإثنولوجيا من علم النفس أو « السيكولوجيا Psychology » من جهة ، أخرى . وبصدد « عقدة الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا Anthropology ethnology Complex » ، ذهب « كروبر Kroeber » و « سابير Sapir » إلى ضرورة بذل الجهود والمحاولات من أجل إكتشاف القوانين السوسيولوجية العامة « General Sociological laws » التى تحكم وتضبط ظواهر الثقافة . بمعنى أنهما يصران على دراسة الثقافة من وجهة النظر الاستقرائية ، فيكون موقف « عالم الثقافة » تماما كموقف عالم الطبيعة بالنسبة لدراسة الظاهرات الفيزيقية والكونية .

إلا أننا ينبغى أن نؤكد أن نقطة الضعف الشديدة التى يعانى منها موقف « كروبر » و « سابير » هى أنهما حاولا منهجياً دراسة الثقافية بطريقة إستقرائية ولكن من زاوية علم النفس Psychology أى أنهم نظروا إلى « عـــالم الثقافة » نظرتهم إلى « علم النفس » وعالجوا الثقافة على أنها سيكولوجيا ، لأنها فى زعمهم عبارة عن مجموعة من أنماط السلوك السائدة .

ولكننا نرفض هذا التفسير السيكولوجى فى دراسة أنماط الثقافة ، حيث أن كل المداخل مستقلة وقائمة بذاتها ، فتستقل الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، عن علم النفس ، بنفس القدر الذى يستقل فيه علم النفس عن علم الفسيولوجيا ، ومثلما يستقل أيضاً علم الكيمياء عن علم الطبيعة .

وفى هـــذا المعنى أصر « إميل دور كايم » ومدرسة النشرة السنوية L'année Socologique منذ عام ١٨٩٥ على استقلال علم الاجتماع عن علوم

النفس والبيولوجيا . ولقد أوضح رادكليف براون وهو بريطانى الجنسية ومن اتباع المدرسة الفرنسية تلك الفروق الميثودولوجية بين الانثروبولوجيا الاجتماعية من جهة ، وبين علم النفس من جهة أخرى .

فلنفرض أن رجلا قد ارتكب جريمة قتل ، ثم قبض عليه البوليس ، واقتيد إلى محكمة الجنايات ، وقدم أمام القاضى والمحلفين ، ثم صدر الحكم بإعدامه ، وسيق إلى المقصلة لقطع رأســه ، أو إلى المشنقة كى يلف الجلاد حول عنق القاتل حبلا فيموت شنقاً .

هذه مواقف متعددة ، صدرت فيها أشكال مختلفة من أنماط السلوك التى تتعلق بالجانى ورجل البوليس والمحكمة والقاضى والجلاد ، ومن الممكن دراسة سلوك ومواقف هؤلاء الأفراد أو الأشخاص من زاوية الشعور والأحاسيس وأنماط الفكر والعمل . ولا شك أن مثل هذه الدراسة السلوكيه والشعورية ، إنما تتعلق بالضرورة بميدان علم النفس ، على اعتبار أنها أمور خاصة بالمجال السيكولوجى .

ولكننا نجد أنه إلى جانب المجال السيكولوجى يوجد المجال الثقافى الذى يتعلق بأشكال السلوك التى تتلون بلون الثقافة . على اعتبار أن الأفراد لا يسلكون سلوكا ذاتياً فردياً ، وإنما يسلكون وفقاً لقوالب ثقافية مسبقة ، وهنا يتأثر ســلوك الإنسان الفرد بالبناء الثقافى .

ويحدد البناء الثقافى بالضرورة « أدوار » الأشخاص فى المواقف ، ونحن إذا ما أردنا دراسة المواقف ككل ، بالنظر إليها كخطوات قامت بها الدولة عن طريق ممثليها كرد فعل جماعى من ناحية المجتمع الذى يستنكر قتل الانسان لأخيه الانسان ، إذا ما درسنا هذه المواقف من الناحية الجمعية ، فإنما ندرس مجالا كلياً ، ونعالج الموقف برمته ، لا من زاوية علم النفس ، وإنما من زاوية علم الثقافة .

حيث أن جريمة القتل إنما لا تقع على الإنسان الفرد ، وإنما تقع على المجتمع برمته ، إذ أنها إعتداء على النظام فى المجتمع ، ولذلك يفرض المجتمع على الجانى مختلف الجزاءات الاجتماعية ، وهى جزاءات صارمة ورادعة ، حيث أن كل المجتمعات والثقافات مهما بلغت درجة بدائيتها أو تحضرها إنما تحرم «قتل النفس» تلك التى حرم الله قتلها إلا بالحق .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن علم النفس إنما يستقل فى مجاله ووظائفه ومناهجه عن علم الثقافة ، فيدرس الأول سلوك الانسان الفرد وظواهره الذاتية من ذكاء وإنفعال وقدرات أو مهارات ، أما علم الثقافة فلا يهتم بالأفراد كأفراد وإنما يهتم بهم كحاملى ثقافة ، وكأشخاص فى مواقف كلية ، بكل ما تتضمنه هذه المواقف من «عمليات تكيف Processes of adjustment » وردود الأفعال الجمعية Collective reactions ، وكلها موضوعات ومسائل تعتبر من صميم ميدان ومجال علم الثقافة .

بمعنى أن علم النفس إنما يعالج مجالا فردياً بحتاً ، فيدرس سلوك الانسان الفرد ومظاهر فكره وجهوده وعلاقته من حيث هو فرد بزميله أوأفراد أسرته ، ولكن علم الثقافة لا يهتم بالموقف الفردى ، وإنما يهتم بالموقف برمته أو ككل The Situation as a Whole ، فلا يلتفت إلى سلوك الأفراد ، بقدر ما يهتم بسلوك جماعة إزاء جماعة أخرى . أى أن علم النفس يهتم فقط بالسلوك الفردى ، أما علم الثقافة فيلتفت فوراً إلى السلوك الجمعى Collective Behaviour فلا شك أن السلوك الجمعى هو العلة الأولى فى أفعال الأفراد ونزوعهم .

ولقد رأينا من المثال السابق ، كيف أن المجتمع قد فرض جزاءاته ، ووقع العقاب على القاتل عن طريق سلسلة طويلة من العمليات والأنماط السلوكية بدأت برجل البوليس فالقاضى فالجلاد . وإذا ما نظرنا إلى المسألة بصورة أعمق لوجب

أن نضيف إلى جانب هؤلاء الأشخاص ذلك الصحفى الذى ينشر تفاصيل المحاكمة . والمواطن العادى الذى يقرأ هذه التفصيلات الجزئية فى جريدته .

ومن هذا المثال ، يتبين لنا أن علم النفس وعلم الثقافة يتميزان بفروق أساسية ، حيث ينظر كل منهما إلى الأشياء والأفراد من وجهات نظر متباينة . فما يتصل بعلم النفس قد لا يتصل بعلوم الثقافة والأنثولوجيا ، حيث يدرس علم النفس مختلف « الأنساق السيكولوجية » كالجهاز العصبى وما يطرأ عليه من ظواهر تتصل بالوهم والانفعال بينما يدرس علم الثقافة سائر الأنساق الثقافية Cultural systems (1) كالنسق الدينى والنسق القرابى .

ولذلك كان من أسباب اضطراب المناهج فى العلوم الإثنولوجية والثقافة ، هو أنها لم تحاول أن تستقل كعلوم قائمة بذاتها ، فأخفقت إخفاقا شديداً لأنها فشلت إلى حد ما فى الاستقلال تماما عن علم النفس ، وعن وجهة النظر السيكولوجية فى تفسير ظواهر الثقافة . ومن أجل هذه الأسباب غلب الاتجاه السيكولوجى على الكثير من الدراسات الثقافية والاثنولوجية ، فكثيرا ما حدثنا علماء الثقافة عما يسمونه « بالثقافة والشخصية » وبخاصة عند « كلايد كلوكهون Kluckhohn » و «رالف لنتون Linton» كما انشغلت دراسات أخرى بما يسمى «بالثقافة والجنس» هذا الموضوع الذى اهتمت به روث بندكت Ruth Benedict » و «مارجريت ميد Margaret Mead » بالإضافة إلى كل ذلك درس علماء الثقافة مسألة «الشخصية والبناء الاجتماعى» مما يؤكد غلبة الاتجاه السيكولوجى فى تفسير مسائل «الشخصية» و «الثقافة» و «الجنس» ودراستها جميعاً فى ضوء البناء الثقافى برمته .

---

(1) Herskovitz, Melville., Cultural Anthropology, New York, 1964. p. 17,

وربما وجدنا مسحة سيكولوجية واضحة قد غلبت على كتابات « ماريت » و « مالينوفسكي » في انجلترا ، وعند «رادين Radin» و « روبرت لوى Lowie» في أمريكا ، بمعنى أن الإستعانة بعلم النفس كانت سمة من السمات الغالبة على كل الدراسات السائدة طوال تاريخ النظرية الاثنولوجية .

وأكبر الظن أن النظرية الاثنولوجية قد تأثرت بكتابات « فرويد Freud » في علم النفس ، كما تأثر الاتجاه الاثنولوجي القديم بمدارس علم النفس الفرنسي وعلم النفس الألماني ، وبخاصة فيما يتعلق بدراسة « سيكولوجية الجماعات » عند « جوستاف لوبون Le Bon » او بدراسة « روح الشعب » أو ما يسمى أحياناً بروح الكل Allgeist أو الروح المطلق عند « هيجل Hegel » وأتباعه من أمثال «لازرس Lazarus » و«ستينثال Steinthal » .

ومن أجل ذلك ، اختلطت دراسة سيكولوجية الشعوب بعلوم « فقه اللغة Philology » ، وعلوم الاثنولوجيا ، حيث يستقل روح الشعب وينفصل عن طبيعة الأفراد ، كما يتحقق في روح الشعب الكثير من الظواهر الثقافية ، فتتجسد اللغة والأساطير الشعبية والدين والفن والأدب والعادات والتقاليد بالإضافة إلى نظم التشريع والقانون ، حيث يتوقف وجود « روح الشعب » على وجود علم القانون وعلم اللغة وعلم الاثنولوجيا . ولذلك صدرت «مدرسة « سيكولوجيا الجماهير Folk-Psychology » أو علم نفس الشعوب ، صدرت هذه المدرسة في ألمانيا ، فاختلطت الكتابات الثقافية الألمانية بدراسات علم نفس الجماهير . كما صدرت في انجلترا الكثير من المجهودات والكتابات الاثنولوجية التي تحاول جهد الطاقة ، تفسير عادات الشعوب البدائية ومعتقداتها من وجهة النظر السلوكية البحتة .

ولا غرابة في هذا - فلقد حاول الانثروبولوجيون والاثنولوجيون الأوائل

تفسير العمليات العقلية Mental processes للكائن الإنساني عن طريق دراسة الثقافة وفى ضوء البناء الإجتماعى . فدرس الانثولوجيون الأوائل ، ظواهر السحر ومختلف العقائد والتصورات البدائية وعالجوها فى ضوء نتائج علم النفس . وبذلك واجه الانثولوجيون الشعوب البدائية وثقافاتها وهم مسلحون بعلم النفس، وحاولوا فهم هذه الشعوب إستناداً إلى مجموع القوانين السيكولوجية العامة ، وعلى سبيل المثال ، استخدم السير « جيمس فريزر Sir James Frazer » ، قانون التداعى Association of ideas ، فى تفسير الظواهر والتجارب السحرية ، وفى تحليل التصورات الجمعية الغيبية .

ولا يمكن بالطبع لمثل هذه التطبيقات السيكولوجية على ظواهر الثقافة ، أن يتوصل منها الانثولوجيون إلى ما يسمى بعلم الثقافة ، وبالتالى لن تتحقق تلك العلمية المنشودة للانثولوجيا . فلم يفعل الانثولوجيون شيئاً سوى أنهم طبقوا قوانين علم النفس فى ميدان الثقافة ، وهذا التطبيق لن يوصلنا إطلاقاً إلى « علم انثولوجى » . . . وإلا حاول عالم السيكولوجيا ، بصدد دراسة السلوك الإنسانى أن يطبق قوانين الفسيولوجيا ومبادىء علم وظائف الأعضاء ، وأن يفسر ظواهر السلوك الإنسانى فى حدود التفسير الفسيولوجى ، ثم يتشدق عالم السيكولوجيا أخيراً بأنه توصل بهذا التفسير الفسيولوجى الخالص إلى تأكيد وتثبيت أقدام علم النفس ، فكيف يؤكد عالم السيكولوجيا فى ضوء التفاسير الفسيولوجية واللاسيكولوجية، على مشروعية قيام العلم السيكولوجى ؟ ! إن هذا قصور واضح وإدعاء كاذب .

فالفسيولوجيا لا يمكن أن تطبق لتبرير قيام علم النفس ، كذلك الحال ، فان علم النفس لا يمكن أن يطبق فى ميدان الانثولوجيا لتبرير قيام « علم الثقافة » وتثبيت أقدامه . وإستناداً إلى هذا المعنى لا يمكن أن تستند الانثولوجيا كلية إلى علم النفس لتبرير وجود علم الثقافة ، تماماً حين لا يمكن أن يحول العلم

الفيسيولوجى كتفسير أو تبرير لوجود علم النفس ، فلا ينبغى أن تقف الإثنولوجيا على أكتاف علم آخر كى تبرر وجودها ، أو أن يقف علم النفس مستنداً إلى الفسيولوجيا كى يحل بديلا عنها .

ولما كان ذلك كذلك — ينبغى أن تستقل الإثنولوجيا وتتحرر تماماً من ميدان علم النفس والتفاسير السيكولوجية ، حيث نرى مثلا استقلال علم الإجتماع — من حيث منهجه وموضوعه ، حين يستخدم طرقه وأدواته التى تستهدف اكتشاف القوانين السوسيولوجية وهى قوانين « غير سيكولوجية » بالطبع . وإذا ماحاول علماء الثقافة أن يتحرروا من حبائل التفسير السيكولوجى ، عندئذ تقف الاثنولوجيا على أقدامها كعلم وضعى مستقل فى منهجه وموضوعه .

ومن الصعوبات الأخرى التى أدت إلى إضطراب مناهج الإثنولوجيا ، فوقفت حجر عثرة إزاء تقدمها ، تأثير فكرة التطور كما فهمها الأثنولوجيون من علماء العهد القديم من أمثال « ماكلينان » و « مورجان » و « باخوفن » حين وقعوا فى مشكلة « الأصول Origins » فتابعوا نظرية « المراحل » بتأثير التيار الداروني فقد إنزلق القدماء نحو دراسة الثقافة سعيا وراء أصولها ومراحلها وتطوراتها دون النظر إلى تكاملها ووظائفها وأنساقها الكلية .

ولكننا نرفض هذا الاتجاه التطورى القديم ، ونرفض فكرة التطور الثقافى كسلسلة من المراحل الظنية والأطوار الفرضية التى يمر بها المجتمع الإنسانى ، لأنها مراحل غير مؤكدة ، وأطوار « لا علمية » ولا تستند إلى يقين . إلا أننا لا نرفض هذا الإتجاه التطورى كلية ، ولا ينبغى أن ننكر التطور إنكاراً تاما ، وإنما ينبغى أن نؤكد على ضرورة إستخدام فكرة التطور فى صورة « قوانين » تتخذ شكل « المبادىء العامة » ، تماما كما يستخدم عالم البيولوجيا النظرية التطورية الجنينية

إستنادا إلى مكتشفات ونتائج علم الأجنة embryology حين يعيد الجنين فى بطن أمه «ماضية التطورى» خلال نموه فى الزمان الجنينى .

فكرة التطور ينبغى أن يستخدمها عالم الثقافة بنفس الفهم الذى نجده عنده عالم الأجنة ، بالرجوع إلى قوانين عامة لمراحل التطور الجنينى ، حين يتطور الماضى الجنينى من الأشكال الحفرية القديمة إلى أحدثها وأرقاها فى الأشكال الحية على . إعتبار أن الانسان هو « كائن حبلى فقرى ثديى رئيسى » . فى ضوء هذا القانون التطورى الجنينى ، يتحول الجنين خلال حياته البيولوجية من بويضة مخصبة ثم ينمو ويتبدل ويتشكل بسائر الأشكال الحبلية والفقرية ، فيمر بحالات أخرى من « اللا فقريات » إلى « الفقريات » كالأسماك ثم البرمائيات والثدييات ، فقردة العالم القديم إلى قردة العالم الحديث فالآدميات حتى يستوى فى النهاية إلى الحالة الانسانية التى تحمل فى طياتها كل الخصائص البشرية . وهذا هو الفهم ، العلمى للتطور ، بحيث نرفض فكرة « المراحل » بمعناها القديم ، ونأخذ بفكرة التطور المستندة إلى نتائج ومكتشفات وحقائق يقينية مؤكدة (١) .

الثقافة والاجناس :

ينبغى الإلتفات إلى ذلك التقسيم المشهور للثقافة حين نميز بين سائر أجناس البشر بالنظر إلى أجناس الانسان الحالى ، إلا أننا لا نعرف على وجه الدقة ، متى نشأت الأجناس ؟ ! وكيف بدأت السلالات البشرية الحديثة ؟ ! وأين ومتى وزعت ؟ .

إلا أننا فى الواقع ، نجد أن محاولة تصنيف الجنس البشرى ، إنما تقتضى منا ضرورة دراسة الملامح الفيزيقية ، ومعالم البناء الفيزيقى والثقافى واللغوى لدى كل جنس من أجناس البشر .

---

(١) أنظر مقال « موت آدم » مجلة تراث الإنسانية عدد أبريل ١٩٧١ ، أعده ونشره الدكتور قبارى محمد أسماعيل .

ولعل المشكلات العنصرية الأساسية ، وبخاصة مسألة المشابهات العنصرية إنما هي مشكلات حيوانية Zoological من الدرجة الأولى . لأنها تتعلق جميعاً بدراسة الجنس Race ، ومعرفة أجناس الإنسان بتحديد مختلف الملامح الفيزيقية ، التي تدخل في نطاق الخصائص الفسيولوجية لمختلف أشكال الإنسان (١) .

ولقد ذهب هادون Haddon ، إلى أن كلمة « جنس Race » إنما تستخدم في الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، كي تطلق عادة على مجموعة من بني الإنسان ، تشترك جميعها في بعض الخصائص المميزة ، والملامح الفيزيقية العامة (٢) .

ويصنف العلماء أجناس البشر ، إما على أساس الشعر ومقطع الشعرة كما هو الحال عند عالم الأنثروبولوجيا الطبيعية « دنكر Deniker » الذي صنف الأجناس إلى ذوي الشعر الصوفي كالبوشمن ، وذوي الشعر المجعد كالاستراليين ، والشعر المستقيم كالأندونيسيين ، وذوي الشعر الأشقر كالأوربيين .

أما « هادون Haddon » فله تصنيف آخر على أساس شكل الجمجمة ولون البشرة وطول القامة ، حيث نجد أجناس طويلة الرأس وأخرى متوسطة وثالثة

---

(١) اشتق كلمة جنس Race من اللفظة التشيكية « Raz » وتعني الأخيرة « شريان » أو « دم » ولقد استعمل الفيلسوف الرياضي ليبنز كلمة Race لتعني « الأجيال generations » كما أنها تتضمن معنى « النسل » أو « الذرية » . وعلى نحو ما أشرنا بصدد فكرة التصنيف ، قام عالم التاريخ الطبيعي « لينو Linnaeus » بتصنيف الكائنات الحية بالرجوع إلى فكرة النوع البيولوجي الذي تنتقل خصائصه مع حركة الأجيال . فالأنسان الطبيعي مثلا : جنسه هو « Homo » . أما « نوعه » الذي ينتقل من جيل إلى جيل فهو « Sapiens » . ويحافظ النوع كوحدة تصنيفية على صفاته ، باعتباره مجموعة متشابهة وراثياً وتكوينياً .

(2) Haddon., A.C., The Races of Man and Their Distribution., Cambridge. 1924.

عريضة الرأس ، وعلى مثال الأولى الاستراليين وشعوب البحر الأبيض ، أما المتوسطة فبين النورديين فى شمال أوربا ، والثالثة عند الأوربين الآسيويين، حيث يمتازون بالرأس العريضة .

وإذا كان « دنكر » إهتم بمقطع الشعر ، و « هادون » بحجم أو طول الجمجمة فقد التفت « فون ايكشتد Von Eickstedt » إلى لون البشرة أو السحنة ، كما استخدم « هوتون Hooton » لون البشرة ولون العين ، أما « سونيا كول Sonia Cole » فأشارت إلى مجموعات قوقازية ونجية ومغولية، كما أشارت أيضاً إلى مجموعات استرالية وأخرى بيضاء ، إستنادا إلى دراسة فصائل الدم التى تحدد درجة التشابه والاختلاف بين الجماعات البشرية .

ولكننا نتساءل . . . عن تلك الخصائص العنصرية . . . ما هى ؟ ! وكيف نحددها ؟ ! وما عدد الخصائص والصفات الفيزيقية التى نأخذها فى اعتبارنا فى دراسة الجنس البشرى ؟ ! .

وفى الرد على كل هذه المسائل .. إذا قلنا مثلا إن « أصحاب البشرة الشقراء إنما يندرجون تحت ما يسمى بالجنس الأبيض ، فلسوف يدخل فى هذا المعنى أصحاب « الرؤوس المستطيلة » مثل رؤوس الجنس الشمالى ، كما قد يدخل أيضا فى نفس الجنس أصحاب الرؤوس العريضة ، مثل رؤوس الجنس المغولى .

ولذلك تستخدم كلمة « الجنس » أو « العنصر » فى زعم « هادون » للدلالة على مجموعة فيزيقية مميزة من مجموعات بنى الإنسان، كما أن مختلف الأسماء والمصطلحات التى نطلقها على الأجناس المختلفة، مثل قولنا «الجنس الشمالى» أو «الألبى Alpine» إنما هى مجرد مصطلحات أو « اتفاقات » يأخذ بها العلماء على سبيل التجريد . إذ أن أسماء الأجناس ، إنما تعبر عن مجردات منطقية . فهى تصانيف ليست حقيقية ، وإنما هى ضرورة علمية ، تفرضها طبيعة الدراسة .

ويمكننا أن نتساءل : هل هناك رابطة بين العنصرية والذكاء ؟ وإلى أي حد يمكن دراسة الملكات العقلية في سائر الأجناس ؟

وفي الواقع ، يسود الاعتقاد بوجود فروق ذكائية وإنفعالية بين مختلف أجناس البشر ، كما سادت الفكرة نفسها بين علماء الاجتماع أنفسهم وبخاصة عند « لوسيان ليفي بريل Lucien Lèvy-Bruhl » حيث نظر إلى العقلية البدائية ، على أنها عقلية متخلفة أو سابقة على التفكير المنطقي (١) .

وينبغي أن نؤكد دائماً على وجود تلك الفجوة القائمة بين التفكير الموضوعي الرزين، وبين معتقدات الناس وتصوراتهم وأهوائهم، فلقد أخطأ بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، في الافتراض القائل بأن الفوارق بين أجناس البشر هي فوارق أصيلة وملازمة لتلك الأجناس ، وليست نتاجا ثقافيا ينجم عن تراكم عوامل بيئية ومناشط وأنماط ثقافية .

وهذا هو السبب الذي من أجله نجد « جوبينو Gobineau » العنصر الآري ، في مقاله الأشهر عن اختلاف أجناس البشر ، فتشدق بنقاء الآرية وأصالتها وعبقريتها ، على الرغم من أن الآرية « لغة » وليست « جنساً » ، ولا صلة إطلاقا بين اللغة كظاهرة ثقافية ، والجنس كظاهرة بيولوجية ، بالإضافة إلى أن الآرية حتى كعنصر ، لا تشكل عنصراً نقياً خالصاً . فالآريين لا يشكلون عرقا واحداً بالمعنى الدقيق .

فهناك فروق واختلافات هائلة في النواحي السيكولوجية والعنصرية والاجتماعية . فمن الناحية السيكولوجية مثلا ، لا يوجد أي تجانس ما بين أفراد القبيلة الواحدة . فنلاحظ في المناطق الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة ، حيث نجد أن قبائل « الأباش » التي تنزع دائما إلى الحرب والصراع ، إنما تنتمي إلى

---

(١) دكتور قباري محمد اسماعيل «علم الاجتماع الفرنسي» دار الكتب الجامعية ١٩٧١ صفحات ١٠٣ ــ ١٠٥ .

بنفس العنصر أو الجنس الذى تنتمى إليه قبائل البوبيلوس ، تلك التى تنزع دائماً إلى السلام والهدوء والسكينة .

ولا تؤدى الفروق العنصرية أو الجنسية بالضرورة إلى فروق سيكولوجية . فلون الجلد مثلا وحجم الجمجمة وشكل الأنف لا صلة له إطلاقا بدرجة الذكاء أو مستوى الثقافة أو حالة النضج الإنفعالى ، أو حتى القدرة على التعبير والتجريد .

إن لون البشرة وحجم الجمجمة وشكل الأنف إنما تتصل جميعها بعوامل وراثية ومؤثرات بيئية . حيث يرتبط لون السحنة مثلا وهو الأصل الجوهرى فى التفرقة العنصرية كحاجز يميز بين سائر أجناس البشر ، بمدى أثر أشعة الشمس على المادة الملونة ، الموجودة تحت سطح الجلد الذى يغطى الجسم البشرى كله .

فإذا الجلد قليل المادة الملونة ، كما هو الحال فى أوربا الشمالية ، فإن لون الجلد يبقى كما هو لإنه يمتص أشعة الشمس الضعيفة . وعلى العكس تماما من المناطق الإستوائية أو الحارة ، فإن سطح الجلد يتعرض لأكبر كمية ممكنة من أشعة الشمس فيحتاج الجسم إلى قدرة هائلة من الإختضاب الذى يقى الجسم من امتصاص كمية كبيرة من أشعة الشمس . وهـذا هو السبب فى سواد سحنة الزنوج نظراً للزيادة فى المادة الملونة وزيادة الاختضاب بالوقاية من أشعة الشمس الحارقة .

ومن هنا اكتسب الجنس الإبيض القدرة على البقاء فى المناطق النوردية ، على عكس الجنس الأسود الذى استطاع أن يحتمل قسوة المناطق الحارة ، بسبب الزيادة أو النقص فى كمية المادة الملونة الموجودة تحت سطح الجلد الخارجى الذى يغطى الجسم البشرى .

ولعل فارق الزيادة أو النقص فى كمية المادة الملونة ، هو فارق فسيولوجى بحت ، فرضته «حكمة الجسم Wisdom of the body» على مايقول البيولوجيون ولا تلعب العوامل السيكولوجية أى دور فى تفسير الفروق الفسيولوجية

أو التشريحية . حيث لا ينجم الفارق السيكولوجى بالضرورة عن الفارق البيولوجى فلا صلة إطلاقا بين سمات الشخصية ومقدار أو كمية المادة الملونة ، وليس لنا أن نتوقع علاقة أو رابطة بين « لون الفكر ولون البشرة » .

ولقد أجريت بعض اختبارات الذكاء على عينات مختلفة فى الولايات المتحدة الامريكية ، ولوحظ فى نتائج هذه الاختبارات ، وجود فروق فردية ذكائية بين أفراد أو فئات الزنوج الأمريكيين بالإضافة إلى جماعات مكسيكية وبرتغالية وهنود حمر .

ولوحظ أيضا أن متوسط الذكاء بين سائر هذه الجماعات والفئات المختلفة هو واحد بعينه إلا بنسب طفيفة تتراوح بين ٨٤ — ٨٣٫٤ .

وفى إختبار « الفا » للجيش الامريكى ، سجل الزنوج درجة ذكائية أعلى حين تفوقوا على زملائهم البيض ، وفى اختبارات أخرى إزدادت متوسطات الذكاء بين فئات من الزنوج الشماليين على بعض الفئات من البيض الجنوبيين ، حيث سجل زنوج « أوهايو » و « إنديانا » تفوقا ملحوظا على البيض فى ولايتى « مسيسبى » و « كنتوكى » .

ولوحظ أن « ظروف البيئة » تعتبر من العوامل الأساسية فى تحديد « مستوى الذكاء » فالزنوج الامريكيين الذين يعيشون فى بيئة مواتية نسبياً ، نجدهم قد تفوقوا بنسب عالية عن البيض الجنوبيين الذين يعيشون فى ظروف سيئة نسبياً وهكذا يبدو أن العامل المتغير Variable ، الذى يلعب دوراً حاسما فى تحديد الذكاء هو « البيئة وظروفها » وليس مجرد العامل العنصرى البيولوجى .

وفيما يتعلق بعامل البيئة ، نجد أن هناك عوائق كثيرة وضعتها العقلية العنصرية الأمريكية ، مثل ذلك « الحاجز اللونى Colonr Bar » الذى يعطى ويمنح

الأبيض ، كى يمنع عن الأسود ويقف إزاء أطفال الزنوج ليحجب تقدمهم الذكائى ويعوق نموهم الانفعالى :

وكشفت البيانات الإحصائية التى تحدد لنـــا مستوى « الخدمة التعليمية » ودرجاتها فى سائر الولايات الأمريكية ، فلوحظ أن أطفال البيض فى الجنوب أقل حظاً فى الخدمات التعليمية من زملائهم من بيض الشمال (١) . وأن الأبيض الجنوبى أكثر حظاً من زميله الزنجى الجنوبى . الأمر الذى معه بلغ متوسط النفقات التعليمية للطفل الواحد فى ولاية نيويورك وكاليفورنيا أكثر من ١١٥ دولاراً فى السنة ، بينما بلغ متوسط النفقات التعليمية للطفل الزنجى الجنوبى ١٧٫٤ دولاراً فى السنة . ومن هنا يتضح لنا مدى الفارق الهائل بين ظروف طفل الشمال الأبيض وطفل الجنوب الأسود . وإلى أى حد لا تتكافأ الفرصة فى النفقة التعليمية عند ديموقراطية أمريكا ، تلك التى تتشدق بالحرية والمساواة .

ولقد أجرى « ويتى Witty » و « جنكنز Jinkins » دراسة نشرها تحت عنوان : حالة « ب » الفتاة الزنجية الموهوبة The Case of "B" a gifted Negro Girl وصدرت عام ١٩٢٥ فى « مجلة علم النفس الاجتماعى Journal of Social Psychology » .

وهذه الدراسة عبارة عن تقرير لحالة فتاة زنجية تقدمت لاختبار (ستانفورد بينيه) وهى تبلغ من العمر ٩ سنوات وأربعة شهور ، وكانت الفتاة عبقرية وموهوبة بحيث بلغت أقصى مستوى للذكاء ونالت حاصل ذكاء بلغ ٢٠٠ . وتنحدر الفتاة بيولوجيا من أبوين زنجيين ، وشغل أبوها منصب أستاذ فى كلية ، أما أمها فكانت تعمل قبل زواجها كمدرسة فى مدينة كبرى . ومن الواضح أن المستوى

---

(١) لنتون (رالف) الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف بيروت ١٩٦٧ .

الاقتصادى والجو الثقافى وظروف الحياة ، كان لماجيمهارد فضل فى تحديد متوسط الذكاء الانسانى . مما يؤكد أنه ليس هناك أى مبرر للتعصب ضد السود بحجة النقص الوراثى أو التاريخ البيولوجى . حيث ثبت أن أنماط الفكر ومستوى الذكاء تفسرها ظروف البيئة والمستوى الاقتصادى والخدمة التعليمية المتكافئة وإتاحة الفرص للجميع للتوصل إلى حياة أفضل .

خرافة الجنس النقى

إن تقسيمات أشكال الأجناس البشرية ، إنما هى تصنيفات منطقية وليست هى بالأشكال الحقيقية . فان نماذج الأجناس Race types لا توجد إلا فى عقولنا فحسب حيث تمتزج الأجناس وتختلط ملامحها بين بنى البشر ، فلا يوجد على وجه الأرض « الانسان المنعزل » كما لا يوجد بأى حال من الأحوال « الجنس المنعزل » الذى لا يختلط أو يلتحم بسائر الأجناس الأخرى ، بمعنى أن فكرة « الجنس النقى » هى أسطورة عنصرية ، كما أن فكرة « الجنس الخالص » ، ما هى إلا خرافة لا وجود لها إلا فى الذهن . وبالتالى فهى فكرة « لا علمية » ولا وجود لها فى عالم الواقع الاجتماعى .

ويروج الاستعمار والرجعيون من الامبرياليين والبرجوازيين مايسمى بنظرية الأجناس ، ويدعون أن الأجناس ليست متساوية من الناحية البيولوجية والنفسية وأن الناس يختلفون من ناحية التطور العقلى والخواص التشريحية ، وأن الأجناس صدرت عن مختلف القردة الشبيهة بالانسان . فتوجد بذلك أجناس راقية وأخرى منحطة ، فكانت هذه الفكرة مبرراً سياسياً للفتح والاستعمار .

ولقد أكد علماء الانثروبولوجيا ، أنه لا توجد أية فروق معنوية بين هؤلاء الناس ، من حيث التطور البيولوجى أو الجهد السيكولوجى والمستوى الذكائى .

ولقد وجد فى الكهف الاعلى فى شوكوتين Chukutien فى الصين الشمالية

الاث جماجم لها نفس العمر على وجه التقريب . فالجمجمة الاولى تشبه جمجمة صينى شمالى من السكان الحاليين ، والثانية تشبه جماجم سكان ميلانيزيا ، والثالثة تشبه جماجم الاسكيمو ، مما يؤكد أن تكون كل هذه الاجناس قد اتصلت منذ عصر بعيد ، فانتشرت واختلطت ، الامر الذى يؤكد خرافة الجنس النقى .

ولكن هناك الشعوب البدائية والمجتمعات المتخلفة ، التى كانت أقرب إلى العزلة العنصرية والثقافية ، مثل «الاندمانيين Andamanese » و « البوشمن Bushmen فيبدو أنها قد كانت من قبل مجتمعات منعزلة لم تختلط بغيرها .

ويمكننا أن نستخدم بعض المناهج الخاصة بدراسة الاجناس البشرية ولعل أهم هذه المناهج التى اشتغل بها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية والفيزيقية هو المنهج الثقافى ، وهو ذلك المنهج الذى يستند أصلا إلى تتبع سمات الثقافة ، حتى يمكن تقسيم الاجناس وتصنيفها ، إستناداً إلى المشابهات الثقافية ، تلك التى تستند إلى ما يسمى « بالثقافة العنصرية Racial Culture [1] .

الثقافة العنصرية :

تقوم كل ثقافة من ثقافات الشعوب ، على مدى التأثير المتبادل بين أصحاب الثقافة الواحـــدة ، كما تستند ثقافة المجتمع بالدرجة الاولى إلى « أسلوب الحياة Style of Life » إذ أن نمط السلوك وأسلوب الحياة ، كلها ردود أفعال بشرية ، تعبر أولا وقبل كل شىء ، عن « طبيعة الحياة البيئية » وتصدر عن تلك الشروط الفيزيقية التى يمليها الوجود الجغرافى للمجتمع .

كما يدخل فى نطاق دراسة الثقافة العنصرية ، كل ما يتعلق بحركة الشعوب وامتزاج المجتمعات ، طبقاً لشروط الاحتكاك الثقافى وما ينجم عن الاحتكاك بين سائر الثقافات من اندماج .

(1) Haddon, A. C., The Races of Man and their distribution, Cambridge 1924.

وفى ميدان دراسة الثقافة العنصرية ، هناك ما يسمى « بالهجرة الثقافيـة » تلك الدراسة التى تفسر لنا بالضرورة ، علة ما يوجد بين سائر الأجناس من اندماج واختلاط عنصرى ، ولعل دراسة الهجرات الثقافية سوف تلقى ضوءاً على تاريخ الجنس البشرى ، حيث نتفهمه فى موضوعية ، وحيث ندرس تاريخ الإنسان الفيزيقى كحقيقة علمية واقعة .

ويذهب « هادون Haddon » ، إلى أنه ليس هناك خاصية فيزيقية واحدة يمكننا بفضلها أن نحدد أو نصنف أجناس بنى الانسان، ولكننا حين نصنف أشكال الجنس البشرى ، ينبغى أن نستند فى تقسيمنا وتصنيفنا إلى مجموعة من الخصائص والملامح الفيزيقية العامة ، مثل حجم الجمجمة وشكل الرأس ، ومقاييس الهيكل العظمى ، ولون البشرة ، وطول القامة ، وشكل الشعر ، وبالإشارة إلى مجموعة الملامح الفيزيقية الخاصة بشكل الأنف ، ولون العين ، وشكل الوجه (١) .

الملونون Coloured :

أما عن لون البشرة ، فنحن نعرف أن أهم السلالات والأجناس ، هى السلالات السمراء التى تعيش فى المناطق المدارية مثل زنوج إفريقيـا فى حوض الكونغو ، وكلها مجتمعات قريبة من المنطقة الاستوائية .

ولعل لون البشرة إنما يختلف باختلاف ألوان البشر وأشكالهم ، فهناك البشرة البيضاء عند الأوربيين ، والبشرة البنية ، وتختلف ألوانها على درجات ، حيث تتباين وتتدرج بين البنى الفاتح والبنى الغامق ، كما هو الحال عند «الحاميين Hamites» والامرنديين Amerinds » و « المقصـود بالامرنديين ، هم الهنـود الحمر » أو الهنود الامريكان » (٢) .

---

(1) Ibid., p. 4.

(٢) تنقسم الأجناس عادة إلى أربعة أشكال لونية : =

ولا شك أن التفسير العلمى ، والسبب الجوهرى فى اختلاف لون الجلد والبشرة ، إنما يرجع إلى اختلاف « المادة الملونة » حيث يتوقف مقدار المادة الملونة فى الجلد على وجود حبيبات خاصة فى الطبقات السفلى والعميقة من طبقات البشرة . ولذلك ترجع الاختلافات فى لون السحنة بين مختلف الشعوب وسائر أجناس البشر وألوان الناس ، حيث تتوقف هذه الاختلافات اللونية على كمية هذه المادة الملونة التى توجد تحت الجلد فى أعمق طبقات البشرة بمعنى أن العيب الوحيد فى

= (أ) الجنس الأبيض أو القوقازى (ب) الجنس الأسود أو الزنجى (ج) الجنس الأصفر أو المغولى (د) الجنس الأحمر أو الهندى .

ويمتاز الجنس القوقازى بالعيون الزرقاء التى تتدرج إلى البنى الغامق . أما الأنف فيمتاز بالضيق وقد تميل الى الاعتدال أحياناً . والقامة معتدلة أو قد تمتاز بالطول فتصل الى ١٧٠سم فأكثر . والرأس طويل أو معتدل ، ويميل الوجه إلى العلو والضيق . ولون الشعر أشقر فاتح يتدرج الى بنى غامق مستقيم أو متموج ، معتدل أو كثيف .

أما الجنس المغولى فيتميز بلون زعفرانى ، وهو معتدل أو قصير القامة تتراوح ما بين ١٦٠سم الى ١٧٠سم ، والرأس عريض ، ويميل الوجه الى الطول والاعتدال ويتدرج الوجه من الاعتدال فى العرض الى العريض للغاية مع وجنات مكتنزة وعالية . ونسيج الشعر خشن مستقيم الشكل ، ويميل إلى البنى أو البنى الغامق وتمتاز العيون بالثنيات الجانبية الشائعة ، كما تشتهر أيضا عيونهم بالجفون المنتفخة .

أما الجنس الأسود ، فيمتاز بطول القامة ، كما يميل الوجه الى الاعتدال ، والزنجى طويل الرأس بارز الفكين ، جعد الشعر ، وهو مثل المغولى قليل الكثافة فى شعر الجسم .

أما الجنس الرابع والأخير ، هو الجنس الأحمر ، وهو متوسط أو قصير الرأس ، ويقل طول القامة عن ١٧٠ سم ، متوسط الأنف مستقيم الشعر . إلا أن هذه الفوارق التشريحية والبيولوجية قد يكون لها رد فعلها على معتقدات الناس وتصوراتهم ، وهذا هو السبب فى ظهور النزعات العنصرية Racism كما يقول ردفيلد Redfield ، فهى لا تستند الى علم وهى (لا إنسانية) تثير مواقف خاطئة ومستهجنة .

اختلاف في أشكال الناس وألوان سحناتهم ، يكمن في كمية تلك المادة الملونة المخزونة تحت طبقات الجلد . . وهنا نقول ، لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى . . ، فالملونين في أمريكا ليسوا أقل حظا في الفكر أو النوع أو الدرجة ، وإنما يختلف الأبيض عن الأسود بكمية هذه المادة الملونة .

التصنيف اللوني للاجناس :

ويمكننا تصنيف الأجناس ، استناداً إلى لون البشرة ، ولو أن هـذا التقسيم ليس حاسما ، فمن اللاموضوعية تقسيم الناس حسب أشكالهم ، فهذه نزعة عنصرية ، لا علمية ، فليس اللون من الخصائص الجوهرية التي تفرق بين الناس أو تميز بين أجناس البشر ، أو حتى تحدد سلالات الإنسان .

ولذلك فإن التقسيم حسب اللون ، هو ضرورة منطقية ، وليس بالحقيقة العلمية ، حيث يساعدنا تحديد لون البشرة في تلك التصنيفات المنطقية المجردة ، واستنادا إلى تمييز أشكال الناس بالنسبة إلى ألوانهم ، هنـــاك الجنس الزنجي أو ما يسمى « بالنجرو Negroid » . ويمتاز الزنوج بلون البشرة الداكن ، ولـكن هذا اللون إنما يتغير مـن مجتمع إلى آخر في مختلف مجتمعات الزنوج ، فهناك البشرة البنية الداكنة والغامقة ، وهناك البشرة البنية المشربة بحمرة ، وهناك البشرة القريبة من لون الشيكولاتة .

وإلى جانب كل هـــذه الأشكال من البشرة الزنجية ، هناك البشرة السوداء مثل بشرة الاندمانيين Andamanese ، ومعظم القبائل البدائية الإفريقية ، وسائر قبائل ميلانيزيا Melanesians .

ويمتاز الزنوج بخصائص فيزيقية ، منهـا الشعر الجعد أو المفلفل ، والرأس الطويلة أو العريضة ، والشفاه الغليظة ، والفك البارز ، وعظام الخد غير البارزة ، والأنف الأفطس المسطح ، والعيون الواسعة السوداء ، والاسنان الكبيرة الناصعة

البياض . وكلها خصائص جوهرية ، تميز أصحاب البشرة السمراء التى تحيا فى المجتمعات الاستوائية والمدارية .

وإلى جانب الجنس الزنجى ، يوجد الجنس الابيض ، وهو ذلك الجنس الذى يعيش فى أوربا وشمال إفريقيا والشرق الاوسط . وواضح أن البيض إنما يتميزون جميعا ببشرة فاتحة أو ناصعة البياض ، كما يتسمون بشعر أشقر وعيون زرقاء . كما هو الحال تماما فى الجنس الشمالى أو النوردى Nordic ، والجنس الألبى Alpine ، وجنس البحر الابيض المتوسط .

وينتشر الجنس الشمالى أو النوردى حول بحر البلطيق وبحر الشمال . بينما يحتل جنس البحر الابيض المتوسط ، وشواطىء هذا البحر فى مصر وشمال إفريقيا ، وجنوب أوربا ، وبعض الدول الآسيوية على حوض البحر الابيض .

أما الجنس الإلبى ، فيسود معظم آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان ، ولعل لهذه الأجناس صفاتها وخصائصها التى لا تربطها إطلاقا بالاقسام السياسية . بمعنى أن حدود الاجناس ، لا ترتبط بالحدود السياسية أو الإقليمية ، حيث يجد الجنس الشمالى أو النوردى مثـــلا ، ينتشر فى شمال ألمانيا ، بينما يستقر الجنس الإلبى فى جنوب ألمانيا ، وحيث نجد أيضاً الألبيين فى شمال إيطاليا بينما يسود جنس البحر الابيض فى جنوبها . أما فى فرنســا وحدها فنجد الاجناس الثلاثة النوردى فى شمالها ، والإلبى فى وسطها ، والبحر الابيض فى جنوبها .

وإلى جانب الجنس الابيض أو القوقازى هنـاك الجنس المغولى ، وهو ذلك الجنس الذى يتميز بلون البشرة الصفراء والعين المغولية المائلة ، وهــذا الجنس الاصفر ، لا يوجد إلا فى دول شرق آسيا كالصين واليابان ، ومثل مغول الملايو ، ومثل الهنود الحمر فى أمريكا ، كما فى جزر الهند الشرقية وفى جنوب شرق آسيـا ،

وبالإضافة إلى ذلك تعتبر قبائل جماعات الإسكيمو إحدى فروع أو شعب الهنود الحمر من مغول أمريكا .

ويذهب «مادون» إلى أن هناك بعض الاجناس المغولية، تعيش فى المجتمعات البدائيـة الإفريقية ، ولـكنها بمجتمعـات وثقافات معزولة ، مثل « البوشمن » و « الهوتنتوت Hottentots » .

ويتميز الجنس المغولى ببعض الخصـائص الفيزيقية ، مثل الرأس العريضـة ، وعظام الخد البارزة ، والعيون السـوداء ، والشـعر الناعم الفاحم . كما يحتفظ الصينيون واليابانيون بالـكثير من السمات المميزة للسلالات المغولية مثل الشـعر المستقيم المسترسل، واللحية الخفيفة المتناثرة والوجه المسطح ذى الانف العريض الدقيق ، والعيون المائلة بسبب إنثناء الجلد فوق فتحة العين .

وبذلك يكون للجنس المغولى سماته الوجهية وصفـاته الانفية ، حيث تجتمع فى هـذا الجنس معظم الخصـائص والملامح التى ينبغى توافرها فى تحديد صفـات الاجناس ، مثل لون البشرة الصفراء وشكل للشـــعر المستر-ل الناعم والانف العريض الصغير ، والوجه المستدير وعظام الخد البارزة ، والعيون المائلة ، وكلها خصائص ضرورية فى تحديد ملامح للمغولى الجنسية .

الأصل السلالى والثقافى للجنس المغولى ؟

ولعل الأصل الاول الذى عنه صدرت السلالة المغولية ، إنما تتمثل فى أصل عنصرى صدرت عنه الهنود الحمر، هؤلاء الذين يتميزون بالشعر الاسود المسترسل، والعيون الداكنة ، والوجوه العريضة ، والجبـاه الضخمـة ، والانوف البارزة . وفى هذا الصدد ... يقول « وليام هاولز » : « إنه من السـهل أن نتصور أنه يقيم فى آسيا فى أواخر العصر الحجرى القديم . شعب قريب الشبه بهم ، كان يتألف من زمر صغـيرة تعيش على صيد الحيوان ، فعبر فريق منهم مضيق بهرنج إلى أمريكا ،

بينما حاصرت الثلوج فى سيبريا الفريق الآخر ، وخضعت وجوههم لذلك التطور السريع » .

فقد حدثت هجرة فى عصر البلايستوسين . حين وفدت أفواج بشرية من شمال آسيا وعبرت مضيق بيرنج بقوارب خفيفة أثناء انخفاض مستوى سطح البحر ، وعن هذا الطريق الضيق هاجر سكان آسيا وحملوا معهم ثقافتهم . فظهر الهنود الحمر ونقلوا سمات الثقافة الآسيوية ، واستوطنوا أمريكا منذ ذلك العهد السحيق .

مقارنة فيزيقية بين الهندى الاحمر وإنسان الاسيكمو :

فاذا كانت أنوف الهنود الحمر ، كما نشاهدها ، هى أنوف بارزة ، فلقد تطورت الملامح الأنفية والوجهية ، وخضعت لقسوة البرد فى سيبريا فصدرت لنا ملامح الإسكيمو . حيث أننا إذا ما أردنا تصوريا أن نعيد تشكيل وجه شخص ما لكى نحميه من البرد « فلسوف نصل فى النهاية إلى تصور « وجه الاسكيمو » » .

ولقد تطورت السمات الوجهية التى تميز بها الهندى الأحمر القديم ، إستجابة للبيئة الجليدية ، فزاد إنخفاض الحاجبين ، واختزنت محاجر العيون مزيداً من الشحم ، وتكونت طبقة بارزة من الجلد فوق فتحة العين ، وقاية ضد العمى الذى ينشأ عن الجليد والصقيع . ولقد انخفض الأنف البارز الذى يتميز به الهندى الاحمر ، كما استطال الأنف وضاق كما هو الحال تماماً عند الاسكيمو . وهذه هى بعض التطورات الفيزيقية التى خضعت لها جحافل الهنود الحمر التى حاصرتها ثلوج سيبريا ، لتتحول إلى مجتمعات الإسكيمو البدائية .

بمعنى أن هناك ملاءمة طبيعية بين ملامح الانسان الفيزيقية ، بين ما يواجهه من ظواهر بيئية ومناخية ، وما يتحكم فيه من عوامل جغرافيه فربما كان الشعر

الصوف مظهراً من مظاهر الملاءمة للانسان الافريقي وأن القصد من هذا الشعر الصوفي هي حماية الرأس من الحرارة الشديدة .

واستناداً إلى لون الشعر والبشرة ، والسمات الوجهية والأنفية تنقسم الأجناس الحالية ، إلى « النجرو » والإلبي ، والنوردي ، والمغولي والبحر الأبيض المتوسط ولقد حاول قدماء المصريين ، أن يعبروا عن هذه الحقائق العنصرية للشعوب ، فجاء الفن الفرعوني بزخارفه ونقوشه الرائعة ، التي خلفها لنا الفنان المصري القديم على القبور الملكية في « طيبة Thebes » فميز المصريون القدامى ، بين مختلف أشكال البشر وألوانهم . وحددوا أجناس الشعوب في أربعة :

(١) المصريون ، واتخذوا في شكل البشرة اللون الأحمر ، كي يعبر عن المصريين في تلك الرسوم الخاصة بالمعابد والقبور .

(٢) الآسيويون أو الساميون Semites ، واتخذوا في رسوم المصريين القدماء اللون الأصفر ، كي يحدد لون بشرة الاسيوي .

(٣) الجنوبيون أو الزنوج Negroes ، واتخذت أشكالهم البشرة السوداء .

(٤) الشماليون ، واتخذوا في رسوم المصريين القدماء ، اللون الأبيض (١) .

وإلى جانب لون البشرة ، هناك بعض الخصائص الفيزيقية التي تشارك في تحديد أشكال البشر وألوانهم ، مثل شكل الرأس ولون الشعر . ويرى « هادون » أن شكل الرأس يعتبر من السمات الفيزيقيه المميزة لاجناس الإنسان ، بل أننا نستطيع القول أن شكل الرأس يعتبر سمة رئيسية من سمات الإنسان . ولها قيمتها ودورها في تحديد نوع الجنس البشري الذي ينتسب إليه الإنسان موضوع الدراسة .

---

(1) Haddon, A. C, The Races of Man, Cambridge, 1924, p. 7.

فهناك الرؤوس المستطيلة ، وهى رؤوس عادة ضيقة وتميل إلى الصغر فى الحجم وهناك الرؤوس العريضة ، وهى رؤوس تميل عادة إلى القصر فى الطول . وعلى هذا النحو نشاهد بين أجناس الناس وألوانهم أصحاب الرؤوس المستديرة وأصحاب الرؤوس الضيقة ، ولكن العيب الرئيسى فى شكل الرأس . كصفة أساسية يصنف الإنسان بمقتضاها إلى أجناس ، هو أنها لاتعطينا نتائج حاسمة فى موضوع بحثنا . ومن ثم فقد قيل بأن هذه الصفة لا تصلح فى التقسيم إلى أجناس كبرى ، وإنما تنحصر فائدتها فقط فى التقسيم إلى أجناس فرعية ، حين نميز مثلا بين قبيلة وقبيلة ، حيث أن الجنس الواحد قد يحتوى عدد كبير من أشكال الرؤوس المختلفة فالهنود الحمر مثلا ، وهم يعتبرون جنساً قائماً بذاته ، ومع ذلك نجدهم يختلفون فيما بينهم إختلافا كبيراً فى شكل الرأس :

مقطع الشعر وأصل الاجناس :

هذا من شكل الرأس كسمة فيزيقية جوهرية فى التصنيف ، أما عن « الشعر » فيعتبر ميزة فيزيقية ، يمكن بفضلها أن نميز بين أجناس بنى البشر . وأهم خاصية فى دراسة الشعر ، هو مقطع الشعرة نفسها ، فهو الذى يعطى اختلاف مظهرها . حيث إن إختلاف طبيعه المقطع إنما يعطى إختلاف شكل الشعر ومظهره .

وهناك الكثير من أنواع الشعر وأشكاله تلك الأنواع التى تختلف بإختلاف الاجناس ، مثل الشعر الناعم ، والمموج ، والمفلفل ، والمجعد ، والصوفى ، والمستقيم .

أما الشعر الناعم ، فتمتاز به الشعوب الشمالية وبخاصة فى أوروبا وأمريكا الشمالية . ويمتاز الشعر الناعم بمقطع رفيع ، وبإسترساله فى غير تجعد .

أما الشعر المموج ، فتكون شعرته ذات أمواج ، حيث يمتاز هذا الشعر

المموج بوجود بعض التموجات المتوسطة أو الضحلة العميقة . وقد يتشكل الشعر المموج فيأخذ الشكل المنحنى الحلزونى .

أما الشعر المفلفل ، فهو ذلك الشعر الذى تمتاز به الأجناس الزنجية ، ويتميز هذا الشعر بوجود مناطق عارية من الشعر . نظراً لإنفصال كل حفنة من الشعر عن الأخرى ، إذ يتجمع الشعر فى بقع متفرقة من الرأس ويسمى هذا الشكل من الشعر باسم Pepper Corn . ويشاهد هـــذا الشعر على وجه الخصوص عند « البوشمن Bushmen » .

وهناك الشعر المجعد ، ويتميز هـــذا الشعر المجعد بوجود دوائر حلزونية فى مقطع كل شعرة . فتظهر كل شعرة لتتخذ شكل دوائر كاملة الاستدارة .

أما الشعر الصوفى ، وتكون كل شعرة فيه دائرة كاملة قطرها أقل من سنتيمتر أما الشعر المستقيم فتتصف كل شعرة فيه بالإستقامة التامة التى لا التواء فيها .

وليس من شك فى أن طبيعة الشعر إنمـــا تحددها مختلف الظروف المناخية والظروف الجوية ، حيث يختلف شكل الشعر بإختلاف درجة الحرارة .

وإلى جانب طبيعة مقطع الشعرة ، تلك الطبيعة التى تعطى كل شعرة إختـلاف مظهرها ، هناك ناحية أخرى ، هى أن لون الشعر إنما يختلف من مجتمع إلى آخر ، فهناك الشعر الأسود ، والشعر البنى فى وسط وجنوب أوربا ، أما الشعر الأحمر فتتميز به شعوب أوربا الوسطى وآسيا الغربية (١) .

اللغة والاجناس :

وإذا كان « هادون Haddon » يهتم بابراز الجوانب الفيزيقية فى تحديد السلالات البشرية ، فان « سلجمان Seligman » إنمـــا يهتم بصفة خاصة بإبراز

(1) Haddon, A.C., The Races of Man and Their Distribution Cambridge 1924 p. 5.

الجوانب « الثقافية » و « اللغوية » . ولعل « هادون » هو الآخر « إنما يعتبر أن اللغة هي جانب رئيسي من جوانب دراسة الثقافة ، حيث إنها فرع من فروع الثقافة ، كما تشير اللغة بالضرورة إلى مختلف الصور والأشكال التي أندمجت فيها الثقافات والشعوب ، فعن طريق اللغة نستطيع أن نتوصل إلى طبيعة وتفسير ذلك « الاحتكاك الثقافي » الحـــادث بين سائر اللهجات ، ومدى ما تحمله كل لغة من ثقافات أخرى ، نتيجة الاحتكاك والانتشار بين مختلف الأنساق اللغوية ، تلك التي قد ينتج عنها بعض المشابهات في اللغة Similarity of language ، ففي اللغة الإنجليزية مثلا نشاهد بعض الكلمات الفرنسية ، مما يؤكد الاحتكاك اللغوي والثقافي بين إنجلترا وفرنسا .

وفي ضوء هـذا الاحتكاك اللغوي ، يمكننـا تقسيم الأجناس وتصنيف بني البشر إستناداً إلى اللغة . إلا أن اللغة ليست هي العامل الحاسم والوحيد ، فكثيراً ما تتعدى حدود اللغة ، حدود المجتمعات والثقافات والأجناس .

فمن الخطأ بهذا المعنى أن نتفهم حدود اللغة ، على أنها حدود عنصرية أو سياسية للمجتمعات ، على ما كان يظن « هتلر » ، حين حاول أن يعتبر الألماني هو كل من يتكلم الألمانية من شعوب وسط أوروبا المحيطة بألمانيا ، فهو يريد أن يدخل كل هذه الشعوب تحت حكمه وسلطاته . وهذا زعم أجوف ، وخرافة أسطورية لا تستند إلى عـــلم .

ولكن سلجمان Seligman في كتابه « أجناس أفريقيا Races of Africa » حاول أن يقوم ببعض الدراسات الأنثروبولوجية اللغوية والإجتماعية كي يحدد معالم أجناس إفريقيا ، إستناداً إلى مجموعة من اللهجات واللغات المتمايزة . ومن ثم كان تقسيم سلجمان للاجناس الافريقية « إنما يعادل إلى حد كبير تقسيمه لسائر

اللغات واللهجات السائدة فى الشعوب والمجتمعات والقبائل الإفريقية (١) .

فهناك فى إفريقيا تختلط الثقافات واللغات « السامية » و « الحامية » ، كما توجد ثقافات « الهوتنتوت Hottentots » وهى قبائل تقطن جنوب غرب إفريقيا . وإلى جانب الهوتنتوت ، توجد قبائل البانتو Bantu ، وتقطن هذه القبائل معظم إفريقيا الوسطى ، وإفريقيا الجنوبية ، ولكل من الهوتنتوت والبانتو لغتها ولهجاتها المتباينة .

ولعل تصنيف الشعوب على أساس الثقافة ، إنما يفيد علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الإجتماعية ، حيث نجد فى المجتمع البشرى أشكالا من الثقافات . فهناك فى إفريقيا « الثقافات الحامية النيلية Nilo-Hamites » ، وهى تلك الثقافات المتصلة باللغات واللهجات الزنجية ، تلك القائمة فى مجتمعات إفريقيا الشرقية وشعوب شرق إفريقيا الوسطى (٢) .

ويندرج فى نطاق هذه الشعوب ، معظم أجزاء كينيا Kenya كما يدخل فيها الجزء الشمالى من تنجانقيا Tanganyika ، وبعض أجزاء من أوغنده Uganda حيث يلتحم الجنس الحامى Hamites بالجنس الزنجى ، ويستخدمون الثقافات واللغات النيلية . مثل قبائل الماساى Massai . والناندى Nandi . والكبسجيس Kipsigis . والتركانا Turkana . أما الثقافات واللغات النيلية Nilotic . فغالباً ما تنتشر بين قبائل النوير Nuer والدنكا Dinka . والشيلوك Shilluk (٣) .

---

(1) Seligman, C.G. Races of Africa, London; Oxford, 1959, p. 7.

(2) Ibid. p. 142.

(3) Ibid. p. 154.

الفصل السابع

الأيكولوجيا والبناء الثقافي

- كيف صدرت كلمة إيكولوجيا؟
- الإيكولوجيا والبيئة
- التفاضل الثقافي والتنظيم الإيكولوجي
- التفاضل السيكوفزيولوجي
- التفاضل الإقليمي
- الكثافة الفيزيقية

تمهيد :

إن المنهج الإيكولوجى ، هو ذلك المنهج الأولى الذى يستخدم كبداية أولية لكل دراسة حقلية ، يقوم بها الباحث فى ميدان الدراسات السوسيولوجية ، والأنثروبولوجية ، وتستند النظرية الإيكولوجية إلى قضية منطقية جوهرية ، تفترض إستمرار أو ديمومة « أنماط الحياة life Patterns » بكل صورها العضوية ، كما تتجلى فى أشكالها الإنسانية والحيوانية والنباتية .

الايكولوجيا والثقافة :

ولعل البدايات الأولية فى دراسات الايكولوجيا الإنسانية Human Ecology إنما بدأت أولا بتلك المساهمات التى قام بها علماء إيكولوجيا النبات ، وإيكولوجيا الحيوان ، حيث وضعت تلك الكتابات الركائز الأساسية ، التى إليها تستند قضايا النظرية الايكولوجية العامة ، حين تعبر عن « بنـــاء » أو « نسق » من القضايا الإيكولوجية إستناداً إلى مصارها ومضامينها المنطقية حين تتصل « النظرية الايكولوجية » ببعض المسائل السوسيولوجية الجوهرية ، مثل مسألة « طبيعة nature » و « تطور development » البنايات الإجتماعية . إذ أننا ننظر أصلا إلى الايكولوجيا على أنها دراسة « كل مظاهر الحياة » من زاوية علاقتها بتطور البيئة الفيزيقية Physical development إلى الدرجة التى معها اتسعت الدراسات الإيكولوجية ، لتشمل الايكولوجيا المائية أو البحرية ، كى تتناول التوزيع البيولوجى للأحياء المائية فى أعماق البحار والمحيطات ، ومدى ملاءمة هذه الكائنات البحرية مع درجة حرارة الماء أو نسبة الإكسوجين الذائب ، فيه وقياس درجات الحوضة والقلوية ومدى إتساقها كبيئة فيزيقية تتلاءم مع الجوانب البيولوجية . وقد تتسع دراسات الايكولوجيا فى المستقبل ، كى تدرس وتتناول

إيكولوجيا الفضاء لامكان وجود بيولوجيا فضائية ، ولاحتمال وجود أشكال أخرى من الحياة فى أجرام أو كواكب أخرى بعيدة عن كوكبنا الأرضى .

كيف صدرت كلمة إيكولوجيا ؟

وتشتق كلمة « إيكولوجيا » من الأصل اليونانى « Qikos » ليعنى « بيت » أو « منزل » أو مكان الاقامة والمعيشة ، ومن هذا الأصل اليونانى صدرت مصطلحات أكثر تداولا ، مثل كلمتى « economics » و « economy » (1) .

ولقد اصطنع العالم البيولوجى الألمانى « هيكل Haeckel » الإصطلاح العلمى « إيكولوجيا Ecology » ، كى يطلقه على دراسة الكائنات النباتية الحية . ولقد صدر هذا الاصطلاح أول ما صدر فى عام ١٩٦٨ .

ولكن الإيكولوجيا كعلم وضعى ، هى علم حديث نسبياً ، ظهر مع بدايات القرن العشرين ، حين صدرت كتابات العالم النباتى « أجنس ورمنج Eugenus Warming » فى علم « إيكولوجيا النبات Ecology of plants » وبخاصة عام ١٩٠٩ . وفى عام ١٩٠٥ صدرت كتابات « كلمنتس Clements » فى مناهج البحث فى الايكولوجيا Research Methods in Ecology » وفى عام ١٩٠٧ صدرت دراسة لنفس هذا الكاتب تحت عنوان : « إيكولوجيا وفسيولوجيا النبات Plant physiology and Ecology » ، ومن ثم بدأت المطابع تصدر العديد من سائر الدراسات والكتابات الايكولوجية ، والتى أخذت تثرى وتترى وتتواتر ، فإزدادت المكتبة الايكولوجية ثراء فوق ثراء . حيث بدأ إهتمام العلماء بهذا الفرع من فروع العلوم البيولوجية والتشريحية .

---

(1) Hawley, Amos H., Human Ecology, A Theory of Community Structure, Ronald, New york, 1950. p. 3.

الايكولوجيا والتكيف :

وتعرف دائرة المعارف البريطانية « Encyclopaedia Britannica » ميدان البحث الايكولوجى ، بأنه هذا الميدان الذى يضطلع بدراسة الصلة بين الكائنات أو جماعات الكائنات العضوية فى صلاتها وعلاقاتها بالبيئة . على إعتبار أن « عالم الحياة World of Life » هو نسق دينامى متفاعل » .

على إعتبار أن كل كائن حى ، إنما يواجه بيئة خارجة عن ذاته ، كما يضطر إلى « التكيف adjustment » معها ، بفضل « عملية ثابتة constant Process » من عمليات التكيف . ويخضع لهذه العملية الضرورية كل كائن عضوى ، سواء أكان « جنساً » فى مملكة النبات ، أو « نوعا » فى دنيا الحيوان ، أو « فرداً » فى عالم الانسان .

حيث ترتبط حياة الكائن العضوى بشروط البيئة الفيزيقية ، تلك الشروط التى لا تتصل فحسب بشروط « المناخ » و « الطوبوغرافيا Topography » وهى الدراسة الخاصة بالتحديدات المكانية ، بل وترتبط أيضاً حياة الكائن العضوى بشروط البيئة ، من حيث « المناشط الجمعية Collective activities التى تقوم بها مختلف الزمر وسائر الجماعات » و « رد فعلها المباشر » إزاء حتم البيئة .

وفى هذا الصدد أعلن « Bews » أن ثالوث الحياة ، إنما يتألف أصلا من « البيئة Environment » و « الوظيفة Function » و « والكائن العضوى organism » . . . وهذا هو الثالوث البيولوجى الرئيسى ، حيث نجد أن كل مناشط الكائنات الحية والجماعات الانسانية ، إنما تتجه أصلا أثناء حياتها وتطورها نحو القيام بعملية أساسية ، حين تقصد الموجودات الحية ، والكائنات البشرية ، نحو قصد واحد فحسب ، وذلك هو قصد « عملية التكيف المباشر » مع البيئة الفيزيقية القاسية .

ولعل الكتابات الايكولوجية ، إنما تمتد جذورها بعيداً ، فى العلم البيولوجى وفى الفكر السوسيولوجى على السواء ، حيث بدأت طلائعها منذ عام ١٨٥٩ مع كتاب « أصل الأنواع Origin of Species » الذى نشره « تشارلس داورن Darwin » .

حيث حدثنا داورن فى هذا الكتاب ، عن فكرته الأصلية عن «الصراع من أجل البقاء Struggle for existence » بمعنى بقاء الأصلح وكفاحه المستمر ضد البيئة الفيزيقية التى لا ترحم . ومايعنينا من ذلك ، هو أن نؤكد أن بدايات الايكولوجيا الأولى ، قد صدرت مع كتابات « داورن » و « والاس Wallace » .

ومع سائر الدراسات البيوفيزيقية التى صاحبت « النزعة التجريبية البيولوجية Biological empiricism » ، تلك النزعة التى صدرت مع ظهور القرن التاسع عشر ، حين بدأت سائر الدراسات والكتابات فى ميدان « التاريخ الطبيعى natural History » .

وفى هذا الميدان ، عالج داورن مسائل « الانتخاب الطبيعى natural selection » ، حين ذهب إلى أن عملية التكيف ، إنما هى عملية صراع من أجل الوجود ، ففى ضوء مبدأ الانتخاب الطبيعى ، يبقى الأصلح بعد صراع مرير من أجل الحياة ، حين تتحداه البيئة الطبيعية ، فيمارس الكائن العضوى تجربة صعبة ، حين يفوز بالحياة بعد إمتحان رهيب ، تفرضه البيئة وتمليه ظروف الحياة ، إستناداً إلى قانون « البقاء للأصلح Survival for the fittest » .

الايكولوجيا والبيئة

وفى الدراسة الايكولوجية ، يقصد بالبيئة Environment كل « العوامل الخارجية external factors » التى تضغط على الفرد وتؤثر فى تحديد أنماط سلوكه ولقد نبه داورن أذهان علماء الحيوان Zoologists ، وعلماء النبات Botanists

كى يعودوا إلى معاملهم ، لاجراء الملاحظات ، وممارسة التجريب العلمى فى ميادين « المورفولوجيا Morphology » ، « والفسيولوجيا Physiology » ، حيث يقضى هؤلاء العلماء ويبذلون جهدهم بحثا وتنقيباً ، ووصفاً وتصنيفاً .

ولقد تقدمت علوم إيكولوجيا النبات بسرعة أكثر من تقدم الدراسة فى علم إيكولوجيا الحيوان ، ثم ظهرت فى نهاية المطاف « دراسات إيكولوجيا الانسان ، التى هى « الايكولوجيا الانسانية » .

ولقد ظهرت الايكولوجيا الانسانية ، مع ظهور « كتابات بارك R.E. Park » و « برجس E. W. Burgess » ، وبخاصة فى كتابهما « مقدمة فى علم الاجتماع An introduction to the science of sociology » فذاعت بذلك كتابات الايكولوجيا فى ميدان علم الاجتماع ، بعد أن كانت قاصرة على إيكولوجيا علوم النبات والحيوان .

ويحدد « و. ب. تايلور W. B. Tylor » مجال دراسة الايكولوجيا ، فى كل العلاقات الخاصة لكل الكائنات العضوية المرتبطة بكل البيئات All relations of all organisms to all their Environment ، ولهذا السبب ، كثيرا ما يقال إن البيئة ، والوظيفة ، والكائن العضوى ، هم الثلاثى البيولوجى المشهور Biological Triad .

البيئة والكائنات الحية :

وهناك قضية جوهرية ، فى علم البيولوجيا ، وهى تلك القضية القائلة : بأننا دائما على صلة متمادة ورابطة وثيقة بالحياة . حيث أن الحياة هى جوهر وجودنا الحى ، كما أنها تحيط بنا من كل جانب . وما يحيط بنا دائما ، هو إما « مادة حية living matter » ، وإما « مادة غير حية nonliving matter » ، وتتميز

للمادة الحية ، بميزة أساسية ،وتقسم بسمة رئيسية ، وهى أن المادة الحية هى «كيف دينامى» ، بمعنى أنها تمتاز « بكيفيتها الدينامية Dynamic quality » ، وهذه الكيفية الدينامية ، هى ميزة المادة الحية ، عن المادة غير الحية .

حيث يتوافر التفاعل والنشاط والحركة التى تؤدى إلى كيفيات لا تتوافر فى «المادة غير الحية» ، مثل «النمو» و « الاغتذاء » و «التناسل» حتى تتجدد «دورة الحياة Life Cycles » . فلقد أكدت علوم النباتات الحفرية والحيوانات المتحجرة Paleontology ، أن أشكال الحياة إنما تتجدد وتتنوع ، حين يزول القديم ، كى تحل محله صورة جديدة من صور الحياة .

بمعنى أن « الكيفية الدينامية » للحياة ، إنما تؤكد قدرتها على التغير الدائب ، والتجدد الدائم ، فالتغير هو جوهر الحياة . وتستند عملية الحياة بالضرورة وفى كل أشكالها ومظاهرها ، إلى شيئين :

أ ـ التركيب الكيميائى Chemical compositiou من جهة .

ب ـ والعملية Process ، من جهة أخرى .

وعن طريق التركيب الكيمائى ، ومناشطه فى عمليات الحياة ، تتشكل صور الحياة ، وتتنوع أشكال الكائنات ، فيظهر ما بينها من تمايز يفصح عن نفسه ، بالكشف عن مختلف « الأشكال Shapes » و « الأحجام Size » .

وفى عملية الحياة ، تتساوى « البكتريا الميكروسكوبية » مع الشجرة العملاقة الضخمة ، كما تتعادل فى الحياة « الأميبا Amoeba » من جهة ، والحوت الهائل من جهة أخرى . وبين هذه الكائنات المتباينة ، تتمايز درجات الحياة ، كما تتحقق فى صور وأشكال وأحجام .

ولكن الحياة فى ذاتها ، لا يمكن أن توجد « فى فراغ in vacue » وإنما

تدب الحياة بأقدامها على الأرض ، أو فوق الجبل ، كما تدب الحياة فى جوف بحر أو باطن صحراء بمعنى أن هناك بعض القوى الخارجية والتأثيرات والعوامل التى تصدر عن العامل الفيزيقى ، ليكون لهـــا صداها ورد فعلها فى عملية الحياة Process of Life .

فالكائنات الحية هى فى مسيس الحـاجة إلى « مكان Space » تمارس فيـه « مناشطها الضرورية necessary activities » القيام بعملياتها الحيوية ، وتلك شروط ضرورية وحيوية ، نجدهـا متضمنة أصلا فى العـالم الخارجى ، وقائمة فى البيئة الفيزيقية .

فالحياة بهذا المعنى هى « تركيب Synthesis » أو تأليف بين « الكائن العضوى organism » و « البيئة Environment » وهذه هى القضية المنطقية الجوهرية التى بمقتضاها قامت « النظرية الايكولوجية » .

الانسان والمكان الايكولوجى :

يتضح لنا من هذه المقدمة الاستهلالية ، أن النظرية الايكولوجية ، إنما تستند بالضرورة إلى محورين أساسين هما « الأرض » من ناحية ، بالاضافة إلى مايتفاعل مع هذه الأرض من ناحية أخرى بما « يغطيها » من سائر الغطاءات النبـاتية والحيوانية والبشرية بمعنى ان الايكولوجيا الإنسانية كعلم وضعى ، إنما يرتكز إلى قطبى « الانسان » و « المكان » أو « البيئة » .

و « البيئة Environment » هى إصطلاح ايكولوجى علمى ، يطلق على كل العوامل أو « القوى الخارجية external Forces » التى يكون لها صداها ورد فعلها فى تكوين وتنظيم حياة الكائن العضوى .

وتشتمل « البيئة » على كل ما تحتويه من مادة ضرورية للحياة ، وما يحيط بها من عوامل وشروط تسهل أو تعقد من سبل المعيشة ، وكلهـا شروط جغرافية

وظروف جيولوجية أو عوامل بيولوجية ، وما أعنيه ببساطة ، هو أن « القوى الايكولوجية الخارجية » هى قوة تتعلق بالجو أو المنـاخ ، أو عوامل تتصل بالارض وطبقاتها ، أو ظروف الوراثة بما تكمن فيها من سائر القوى الحيوية التى تتحكم فيها قوانين البيولوجيا نباتية كانت أم حيوانية .

وما يعنينا من كل ذلك — هو التأكد من أن هـذه « القوى الايكولوجيـة الخارجية » إنما تفرض على الكائن العضوى أن يتكيف معها ، تحقيقاً لبقائه وتأكيداً لمبدأ الصراع من أجل الوجود .

ولهذا السبب تتصل دراسة الايكولوجيا بعلوم البيولوجيا والمورفولوجيا Morphology ، والاقتصاد كما ترتبط بعلوم الجغرافيا البشرية ، والديموجرافيـا demography ، الأمر الذى يجعلهـا فى نهاية الأمر ترتبط بالضرورة بعجلة علم الاجتماع .

حيث تعالج الايكولوجيـا مسألة السكان ومناشطهم على سطح الأرض فيدرس الايكولوجى بيئة الكائن الإنسانى ويقوم بمسوح طبيعية وثقافية لتلك البيئة ، ثم يربط أخيراً بين مختلف المناطق والبقاع الطبيعية natural area من جهة ، وبين الدوائر والمناطق الثقافية Cultural area من جهة أخرى (١) .

ولقد إهتم بمسألة الربط بين الدوائر الطبيعية والثقافية ، مختلف علماء الاجتماع الحضارى ، من أمثال « جيدس Geddes » و « برانفورد Branford » و « لوبلاى Le Play » و « جيدنجز Giddings » كما درس « كروبير Kroeber » ، فى هذا الصدد تلك الصلة الوثيقة التى تربط بين المناطق الطبيعية والمناطق الثقافية ، وبخاصة بين القبائل الأصلية فى شمال أمريكا ، ثم قسم « كروبير » هذه المناطق الطبيعية الى مناطق ثقافية كبرى .

(1) Hawley. H., Amos., Human Ecology, A Theory of Community Structnre. Ronald, New York 1950.

ولا مشاحة فى أن علاقة الإنسان ومناشطه وخضوعه للظروف أو الشروط الفيزيقية التى تتصل بالأرض والبيئة الطبيعية ، إنما تجعلنا نقترب إلى حد بعيد من حقل الدراسات الجغرافية ، وما يتصل بها من علـــوم الجيومورفولوجيا Geomorphology والديموجرافيا والجغرافيا البشرية Human Geography ،

ولكن الجغرافيا البشرية ، إنمـا تتمايز تماما عن الايكولوجيـا الإنسانيـة ، حيث تؤكد الجغرافيا البشرية فقط على تأثير البيئة الفيزيقية على الإنسان ، على ما يذكر أصحاب مدرسة الحتم البيئى environmental determinism وعلى رأسهم « راتزل Ratzel » ، وفيدال دى لابلاش Paul Vidal de la Blache وجين برون Jean Brunhes ، وغيرهم من أتباع تلك النظرية التى تؤكد أثر العوامل الجغرافية فى السلوك الإنسانى ، إلى الدرجة التى معها يذهب « باروس Barrows » إلى أن الجغرافيا هى علم الايكولوجيا الإنسانية Human Ecology حيث تدرس الجغرافيا البشرية مختلف الجماعات الانسانية كجزء من الغطاء الطبيعى تماما كما ينظر إلى « الغلاف الهوائى » أو الغطاء النباتى ، أو الحيوانى ، فالغلاف البشرى هو جزء متمم ومتكامل مع سائر هذه الأغلفة والغطاءات الكونية والعضوية .

ولهذا السبب يصنف الجغرافيون ذلك النمط المتغير The changing Pattern الذى يتعلق بدرجة كثافة الكتلة البشرية ، وتوزيع السكان Population distr - ibution ، ويفسر كل ذلك فى ضوء العوامل الجغرافية Geographical factors

ولكن الغطاء الانسانى ليس مجرد « غطاء طبيعى » يغلف سطح الأرض ، حيث نجد للانسان ردود أفعاله إزاء الطبيعـة ، فهو ليس جامداً كتمثال حيال البيئـة ، وإنما نجده يخرق الجبال ويبنى السدود ، ويزيل الغابات ، ويمهد الطرق ويزرع الصحراء ، وتلك هى جهود الانسان التى تلخصها دائمـــا كلمة « حضارة Civilization »

فالانسان هو خالق حضارته وصانعها ، أما الحيوان فلا ثقافة له أو حضارة ، حيث يغير الانسان ما هو بيئى أو طبيعى natural ، والثقافة أو الحضارة ، هى عملية تعديل modification مستمر للموقف الطبيعى. كما لا تصدر الثقافة إلا عن عملية تكيف adjustment إنسانى مع البيئة الفيزيقية .

وبهذا المعنى تمايز الجغرافيا البشرية عن الايكولوجيا الانسانية ، حيث تتعامل الجغرافيا مع الناس ومناشطهم activities وتوزيعهم distribution على بقعة الأرض ، فلا ينشغل الجغرافى بتلك العلاقات المتبادلة interrelation تلك التى تنجم عن تفاعل interaction الجماعات والنظم والظواهر والانساق الاجتماعية . وتلك هى وظيفة الايكولوجيا الانسانية فلا ينشغل الايكولوجى على العكس من الجغرافى ، إلا بالعلاقة المباشرة بين الانسان الاجتماعى والبيئة الطبيعية ومدى تضافر الجهود الجمعية والعلاقات الاجتماعية فى تساندها وتعامدها interdependence وتماحه فيما يتعلق بتحديد الأفعال action وتنظيم ردود الأفعال reactian ، تلك التى تربط الجهود الجمعية لعملية التكيف مع البيئة الطبيعية .

وبينما يهتم الجغرافى بانتشار الانسان على سطح الأرض ، ينشغل الايكولوجى بتحليل عمليات التكيف الاجتماعى بالبيئات الفيزيقية ودراسة أثر عمليات التكيف الجمعى فى تحديد شكل العـــلاقات الاجتماعية وصور التنظيم الاجتماعى Social organization ، ومن ثم تضطلع الايكولوجيا الانسانية بمهمة سوسيولوجية وتعالج مسألة جوهرية فى علم الاجتماع ، وهى تلك المسألة الخاصة بتطور التنظيم الاجتماعى الذى يكون له صداه فى عمليات التغير الاجتماعى .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن للايكولوجيا الإنسانية دورها ومجالها ، كما تستند النظرية الايكولوجية إلى مجموعة من القضايا والفروض العـامة ، تلك التى تستمد أصلا من علوم إيكولوجيا النبات والحيوان والانسان ، وبالتالى فإن

المضامين المنطقية logical implication المتعلقة بالنظرية الايكولوجية العامة ، إنما تنسجم وتتكامل مع دراسات متعددة ومستفيضة فى علوم التشريح والبيولوجيا والجيولوجيا ، وهى علوم متصلة بعالم الكائنات الحية ، هذا العالم الهائل الذى يحوى بين طياته حقول النبات وبيئات الحيوان ، ومجتمعات الإنسان .

الايكولوجيا والتنظيم الاجتماعى :

وليس من شك من أن هناك ما يؤكد تلك الرابطة الوثيقة التى تربط بين الايكولوجيا من جهة ، والتنظيم الاجتماعى Social organization من جهة أخرى ، فلا يمكن أن يسبح أى شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى فى فراغ ، حيث تتداخل القوى الايكولوجية إلى حد بعيد فى تحديد الصور الخاصة بأشكال التنظيمات الاجتماعية .

و « التنظيم الايكولوجى Ecological organization بمعناه الوسيع ، هو شبكة العلاقات ، والتفاعلات الوظيفية Functional interrelatinship ، التى بفضلها وبمقتضاها ينتظم الناس فى حياة جمعية (1) .

واستناداً إلى هذا المعنى ، ينبغى على العالم الايكولوجى ، أن يركز الانتباه إلى دراسة تنظيم العلاقات الوظيفية organization of functional relations

ولهذا السبب كان الزمان Time ، والمكان Space من المحاور الأساسية لكل دراسة ايكولوجية ، وكثيراً ما حدثنا علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وبخاصة إيفانز بريتشارد Evans Pritchard عن « الزمان الإيكولوجى » و « المكان الايكولوجى » ، واستند إيفانز بريتشارد إلى تلك الأبعاد الايكولوجية ecological dimensions ، الزمانية والمكانية ، كمدخل رئيسى لدراسته المشهورة

(1) Ibid : p, 198.

عن « النوير The Nuer » (١) .

بمعنى أن الزمان والمكان هما من قبيل الأبعاد الرئيسية ، التي في ضوئهما نستطيع أن نقيس أو ان نلاحظ كل تنظيم ايكولوجي ، ولا يمكن أن يقاس أو يدرس زى شكل من أشكال التنظيمات الايكولوجية ، إلا من خلال إطاري « الزمان الاجتماعي والمكان الاجتماعي Social Space » (٢) .

وجملة القول ـ فإن « الايكولوجيا الإنسانية » ، إنما تدرس كل مظاهر التنظيم الايكولوجي ، في ضوء دراسة السكان في علاقاتهم بالتنظيم الاقتصادي ، ومناشطهم في الحياة الجمعية ، كما تظهر وتنجلي من طبيعة أسطح البيئات الفيزيقية وأشكالها وتضاريسها وتعاريجها ، وهذا هو طبيعة المكان الاجتماعي » ، بمعنى أن التنظيم الايكولوجي ، إنما يتصل بكل أشكال الأنشطة الجمعية ، ودراستها من زاوية الزمان والمكان ، أي أننا ببساطة ، تدرس النشاط الجمعي - Collective activity كما يظهر العيان على سطح الأرض .

التفاضل الثقافي والتنظيم الايكولوجي :

ويدخل في باب التنظيم الايكولوجي ، كل الظواهر التي تتعلق بالتفاضل الاجتماعي Social differentiation . على إعتبار أن « المجتمع ما هو إلا تنظيم من المشابهات والاختلافات Organization of differences and Similarities كما تنبثق أسس التفاضل الاجتماعي عن جوهر وطبيعة الحياة الجمعية ، تلك التي تستند أصلا إلى « الأفراد individuals » كما ترجع أيضا إلى شروط البيئة

---

(1) Evans - Pritchard E. E., The Nuer, Clarendon Press - Oxford. 1950

(٢) أنظر كتابنا « علم الاجتماع والفلسفة » الجزء الثاني نظرية المعرفة ، دار الطلبة العرب ، بيروت ، ودار المعرفة الجامعية الاسكندرية ، الشاطبي .

الفيزيقية حيث أن المجموع الكلى للمناشط أو القـدرات الفردية - individual abilities ، هو بمثابة المادة الخام raw material التى عنهـا تصدر الأصول الأولى لكل ظاهرة جمعية .

ولا شك أن هناك ما يميز « التفاضل » عن « التنظيم » ، فالتفاضل الاجتماعى يرجع أصلا إلى ما ينجم عن ذات المجموع الكلي لقـدرات الأفراد . كما يصدر التفاضل عن ذلك التركيب الاجتماعى الماثل الذى يتألف من فئات السن age والجنس Sex ، تلك الفئات التى تتوظف فى الحياة الجمعية ، كما يستند التفاضل إلى شروط الظروف المحلية للإقليم local territorial circumstances ويرجع ذلك التفاضل إلى ذلك التمايز الحادث بين مختلف الطبقات ومستويات المعيشة وأوضاع الأفراد ومراتبهم فى النسق الاجتماعى الكلى .

ومن هنا يكون « التفاضل » ما هو إلا الركيزة الأولية التى اليها يستند التنظيم organization ، ويقوم كل تنظيم على نوعين من التفاضل ، هما : التفاضل الفيزيوسيكولوجى أو السيكوفيزيولوجى Physio-psychological differentiation من جهـة ، والتفاضل الاقليمى territorial differentiation من جهة أخرى .

وقبل الاشارة إلى نوعى التفاضل ، ينبغى التركيز على ماهيـة « التنظيم » فى ضوء فهمنا لطبيعة التفاضل : فنقول إن التنظيم هو ذلك المفتاح الرئيسى الذى يعالج به عالم الايكولوجيا صور وأشكال التجمعات الإنسانية رغم ما فيهـا من تفاضل ظاهر فى تركيب هذه التجمعات .

ولذلك تحاول الدراسات الايكولوجية أن تكتشف أو أن تصف كل أنماط التنظيم الإنسانى human organization ، على اعتبار أن القضية الجوهرية التى تستند اليها النظرية الايكولوجيا ecological theory برمتها ، هى تلك القضية

القائلة بأن التفاعل الاجتماعي ، هو المظهر الرئيسي للوجود الإنساني human existence . ولا شك أن هذا التفاعل إنما ينتج عنه بالضرورة مختلف أشكال أو صور التنظيم ، ولكننا نتساءل : وما معنى التنظيم في ذاته ؟!

في الرد على هذه المسألة نقول إن التنظيم الاجتماعي إنما يعبر عن تضامن أو تعاون مجموعات من الأفراد والجماعات ، حين تتوظف هذه المجموعات للقيام بدور محدد من أدوار تقسيم العمل الاجتماعي .

بمعنى أن التنظيم هو عبارة عن تعاون جماعة من الأفراد للقيام بوظيفة من وظائف تقسيم العمل . فالأسرة مثلا هي وحدة تتألف من مجموعة من الأفراد ، حيث نجد داخل اطارها مجموعة من العناصر المتفاضلة ، ففيها الكهل والشيخ والرجل ، وفيها الشباب من أنثى وذكر . فالتنظيم هو تركيب متفاضل الأجزاء للقيام بمهام أو أدوار أو وظائف .

وبهذا المعنى يكون التنظيم الايكولوجي ecological organization هو ذلك الكل المعقد الذي يتألف من شبكة الوظائف function والعلاقات التي بفضلها يعيش الأفراد على إعتبار ان الأفراد هم العناصر الأولية في كل تنظيم اجتماعي .

وفي ضوء ما يتعلق بطبيعة التنظيم ، علينا أن نشير الآن إلى نوعي التفاضل السيكوفيزيولوجي من جهة ، والتفاضل الاقليمي من جهة أخرى .

١ - التفاضل السيكوفيزيولوجي :

من المسلمات الأولية في علم الاجتماع ، أن الأفراد هم المصادر المبدئية للفعل الاجتماعي social action كما أنهم أيضا ، حملة الملامح والسمات السلوكية Bearers of behavior traits ومن المسلم به ايضا على نحو اكسيوماتيكي Axiomatic ، أننا لن نعثر على فردين إثنين متماثلين . بمعنى أنه لا يوجد ولن يوجد إنسان يتطابق تماما مع إنسان آخر من حيث السمات السلوكية والذكائية .

واستناداً إلى نتائج ومكتشفات علوم الأجنة embryology وما يتصل بها من ظواهر كالتهجين والتلقيح وانتقال الموروثات من جيل إلى آخر ، فلا مشاحة فى أن التفاضل بين الناس ، هو حقيقة بيولوجية استناداً إلى تلك العوامل الجنينية واختلاف الموروثات ، الأمر الذى يؤدى بالطبـــع إلى التفاضل من الزاوية السيكوفيزيقية من جهة والسيكوسوسيولوجية من جهة أخرى .

ومن المعروف أن الجينات genes التى تنجم عن التلقيح باتصال الذكر بالأنثى ، إنما تأتلف كى تكون باتحادها بويضة مخصبة Fertilized ovum . ولا شك أن لهذه البويضة أثرها فى الزمان الجنينى ، حيث يتطور الكائن العضوى ، وحيث يتشكل البناء الفيزيقى الحى ، وتتحدد النسب الذكائية والملامح العضوية بفضل انتقال الموروثات والجينات من الأبوين « كهدية أولى يهديانها طفلهما الوليد » .

وطبقاً لقوانين الوراثة heredity لن نعثر على فردين إثنين لهما نفس السمات الوراثية ، ومن وجهة النظر الاحصائية وطبقاً لمبادىء الاحتمال probability هناك احتمال ضعيف بل ومتناهى الصغر infinitesimal فى العثـور على إثنين متشابهين من حيث القدرات العقلية والمظاهر الجسمية والسلوكية والانفعالية .

وحتى فى حالة التوائم Twins ، تلك الحالة تنشأ عن إنشطـار خليـة خصبة واحدة a single fertilized cell ، فإننا من الناحية النظرية نجد أن الخلية المنشطرة إنما تتشابه وتتطابق فى شطريها ، ولذلك غالباً ما تتشابه التوائم من حيث السمات والملامح ، ومع ذلك فقد تظهر اختلافات جوهرية وهامة ، فإذا كان التوأم الأول يمتاز بالقوة الجسدية ، نجد أن الثانى يتميز بالضعف الجثمانى ، وإذا كان الأول أعسراً أو « أشول » left-handed ، فيكون الثانى أيمناً أو « غير أعسر » right-handed ، كما وقد تتمايز التوائم من حيث سمات أو طرز الشخصية personality ، ومن حيث القدرات العقلية والذكائية . وهذا ما تؤكده

دراسة « تولمان Tollman » المقارنة عن تطابق أو عدم تطابق التوائم بالاشارة إلى المشابهات الذكائية :

« A Comparative study of identical and non-identical twins with respect to intelligence resemblances »

وبالاضافة إلى العناصر البيولوجية فى عملية الوراثة ، فإن توزيع أفراد المجتمع وانقسام الفئات الاجتماعية إلى مجموعتين من فئات السن والجنس ، فإن هذا التوزيع الأولى يعتبر من المصادر الأساسية التى يصدر عنها « التفاضل الوظيفى Functional differentiation الذى إليه يستند كل تنظيم اجتماعى حيث أن « تقسيم العمل » هو الركيزة الأولى فى كل تنظيم اجتماعى ، كما يتفاضل الناس استناداً إلى اختلاف الوظائف التى يقومون بها فى التنظيم الاجتماعى وطبقا لمبدأ « تقسيم العمل » .

ومها كانت حالة البناء الاجتماعى من التعقد أو البساطة ، ومها بلغت درجة تحضر المجتمع أو بدائيته ، فإن إنشطار البناء إلى فئات للجنس من ذكر أو أنثى ، وأنقسام المجتمع إلى فئات للسن من شبان ورجال وشيوخ ، يعتبر هذا الانشطار أو الانقسام بمثابة الركن الأساسى فى عملية توزيع الوظائف الاجتماعية ، تلك التى تنعكس بالتالى على كل مظاهر النشاط فى الحياة الجمعية collective life . حيث تميل الجماعات المتفاضلة إلى تنظيم أنفسها بالقيام بمختلف الوظائف التى يكون لها دورها على أرضية البناء الاجتماعى .

ومن هنا صدرت مختلف المناشط الجمعية لألوان الجماعات التى تختلف وأشكال الزمر التى تأتلف فى القيام ببعض الأدوار التى تتوظف فى سائر الأنساق الاجتماعية فيظهر التجانس homogeneity واللاتجانس heterogeneity فى كل أشكال تقسيم العمل . وينقسم العمل الاجتماعى ، وتتفاضل الجماعات والزمر ، كما تظهر

على مسرح المجتمع أشكال من الظواهر الايكولوجية . والمناشط الاقتصادية . وقد تحدث بعض التغــيرات التى تطرأ على الوظائف المتفاضلة فتتغير فجأة مختلف الأنشطة السائدة فى بنية المجتمع .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حين نجحت الحكومة الفيدرالية نهائياً فى هدم وتحطيم القوى العسكرية والحربية الخاصة بمجتمع الأروكوا Iroquois ، طرأت بعض التغيرات على الوظائف البنائية ، وتبدلت المناشط الايكولوجية وتغيرت أشكال تقسيم العمل الاجتماعى ، فلقد كان مجتمع الرجال عنـد الاوركوا قبـل الالتحام والخضوع للحكم الفيدرالى ، هو مجتمع القوة العسكرية ، وكانت الوظيفة الاجتماعية لفئة الرجال وظيفة حربية وسياسية ، فالرجال هم هيئة المحاربين التى تنظر إلى الزراعة agriculture نظرة إحتقار وإزدراء إذ أنها مهنـة المرأة ووظيفة النساء . ثم تغيرت وظائف فئات الجنس والعمر مع إنهيار البناء العسكرى والحربى الأمر الذى معه يتلاشى السبب الجوهرى فى إزدراء الزراعة وإهمالها حين تحول الرجل عنـــد الإروكوا من « محارب » إلى « مزارع » ، حيث ألقى بالقوس والحربة كى يهتم بالفلاحة والزراعة ، وتغيرت وظيفة رجل الكر والفر ، وظهرت وظيفة فلاح الأرض المستقر . ومن هنا تتفاضل الوظائف والمناشط الايكولوجية وتتغير الظواهر العامة التى كانت سائدة فى تقسيم العمل الاجتماعى .

ومعنى ذلك أن التفاضل السيكوفيزيولوجى إنما يتم عن عامل الجنس ، وهناك أيضا طبقات عمرية متفاضلة فى المجتمع وتكشف عن قواه العاملة ، حين تتمايز هذه الحالات العمرية بين الطفولة والصبا والشباب والرجولة والكهولة . فالأطفـال والشيوخ « فئات معولة لا تعمل » ، وتقلل من طاقة المجتمع وتضعف من قواه ، بينما الشباب هم فئة العمل والانتاج . وبالاضافة إلى هذه العوامل الخاصة لفئات الجنس وطبقات العمر ، هناك أحد العوامل السيكوفيزيولوجية وهو عامل « السلالة

أو العنصر Race ، وهو عامل بيولوجي يهتم به دارس علم السلالات حيث تتفاضل أجناس الناس وتتمايز ألوانهم ومشاربهم استناداً إلى خصائص ومميزات فيزيقية يكون لها دورها في عملية التفاضل .

٢ - التفاضل الاقليمي :

لاشك أن سطح الأرض لا يستوى على نحو محدد ، وإنما نجده يتعرج ويلتوى حين ينخفض تارة ويرتفع أخرى ، كي تظهر المنخفضات والأخاديد والوديان من جهة ، كما ترتفع الجبال والهضاب من جهة أخرى . وتلعب هذه الأشكال التضاريسية دورها في كل الظاهرات الايكولوجية ، ويكون لها رد فعلها في عالم النبات والحيوان ، حين تخضع لشروط المكان وظروف المناخ . ومن ثم تصدر عن تلك العوامل الاقليمية والايكولوجية بعض التصورات والظاهرات الثقافية التي تنشأ أصلا عن مدى درجة الاتصال والعزلة . ومن هنا يكون للتفاضل الاقليمي أثره في صدور التفاضل الثقافي Cultural differentiation الأمر الذي من أجله يتمايز « الاسكيمو Eskimo » من شعوب المناطق الحارة ، ويختلف « رجل الجبل » عن « عامل المنجم » ، وتظهر الفوارق واضحة بين « البدوى » الصحراوى المتنقل ، ورجل السهول المزارع المستقر . بمعنى أن التفاضل الاقليمي إنما يفرض أشكالا مختلفة من مظاهر التفاضل الثقافي . وبمعنى أن التفاضل الاقليمي أيضا إنما هو تعريف في ذاته وعلى نحو قبلي apriori هو أحد الشروط الجوهرية في تحديد أنماط الثقافة ، كما يعتبر التوزيع الفيزيقي أحد العوامل السوسيولوجية التي تؤسس الثقافة من جهة ، والتي تغير الأساس المادى للمجتمع من جهة أخرى .

٣ - الكثافة الفيزيقية :

وبالاضافة إلى وظائف التفاضل السيكوفيزيولوجي والتفاضل الاقليمي وأثرهما في التنظيم الايكولوجي ، هناك عامل الكثافة الفيزيقية physical density ، على

اعتبار أن الزيادة فى تعداد السكان ، إنما تتأثر بهذه الأشكال الأولى للتفاضل ، حيث يحمل الإنسان فى انتقاله كل الملامح الاقليمية والثقافية . ولقد اهتم « اميل دور كايم » بأثر الكثافة الفيزيقية حين ميزها فى دراساته المورفولوجية عن الكثافة الاجتماعية social densily حيث أن الكثافة الفيزيقية ترتبط بتحديد النسبة بين عدد السكان ومساحة الأرض ، وبالتالى نحصل على درجة الكثافة السكانية أو الفيزيقية أما الكثافة الاجتماعية فترتبط بدرجة الاحتكاك أو « تواتر العلاقات » القائمة بين الناس . فقد يتسم شعب معين بالذات بدرجة عالية من الكثافة السكانية مع الاحتفاظ فى الوقت عينه بدرجة منخفضة من الكثافة الاجتماعية (١) . ولذلك تنقسم كل دراسة فى كل تنظيم ايكولوجى إلى مظهرين أساسين :

أ ـ مظهر مكانى من جهة .

ب ـ ومظهر زمانى من جهة أخرى :

أ ـ المظهر المكانى :

يرتبط كل تنظيم أيكولوجى بالضرورة بالأساس المادى أو التحديد المكانى spatial . حيث أن التوزيع المكانى ما هو فى حقيقة أمره سوى شكل من أشكال « التوزيع السكانى » ، حيث تتأثر الجماعات الانسانية فى تنظيماتها حين تتناثر وتتوزع فى انتشارها على سطح المكان الاجتماعى ، إما فى تجمعات صغيرة نسبياً ، وإما فى تكتلات هائلة(٢) .

---

(1) Ibid. p. 196

(2) Ibid. p. 234

أنظر أيضا فى هذا الصدد :

Halbwachs Maurice., Population and Society, Introduction to social Morphology. Free Press of Glencoe 1960. p. 12.

ونستطيع أن نتساءل عن علة توزيع السكان وانتشارهم فى المكان الايكولوجى ما هى ؟! وكيف تترتب الجماعات وتنتظم الزمر الإنسانية على سطح الأرض ؟ وما هى العوامل الجوهرية التى تسهم فى عملية التوزيع السكانى Spatial distribution ؟!

للاجابة على هذه المسائل ، نقول إن هناك ثلاثة عوامل أساسية بصدد التوزيع الايكولوجى ومصادر تنظيم المناشط الانســـانية ، بما يتمشى مع الأسس الأيكولوجية للمكان الاجتماعى وأول هذه العوامل يتصل بعملية الاعتماد المتبادل interdependence بين مختلف الجماعات والزمر ، على اعتبار أن هناك مظـــاهر تبادلية للتداخل والتعاضد بين علاقات البشر وتكتلاتهم . ويتصل العامل الثانى بعملية اعتماد المناشط activities البشرية ، على المميزات العامة للمكان الفيزيقى حيث تستند الوظائف Functions فى تقسيم العمل الاجتماعى وفى تفسير الظواهر الأيكولوجية إلى مختلف الخصائص والسمات التى تتسم بها البيئة أو طبيعة الأرض أما العامل الثالث والأخير فيرتبط بذلك الامتداد المكانى الذى يتيح الغطاء الانسانى فرصة التلاحم والاحتكاك contact .

وبصدد هذه العوامل ، لا يستقل عامل بذاته عن سائر العوامل الأخرى ، حيث أنها عوامل تتضافر وتتكامل دون ما إنفصال أو استقلال ، ولا يفصل بينها علماء الاجتماع إلا بقصد ما تتطلبه عملية التحليل فلا يميزون فيما بينها إلا لأغراض الدراسة فحسب . فالفصل بين هذه العوامل ليس حقيقياً ، وإنما هو بمثابة فصل ظاهرى يقتضيه التجريد العلمى . فهناك اعتماد متبادل دون شك بين مناشط الانسان ونوع البيئة الفيزيقية ، كما يقلل العامل الأيكولوجى أو يزيد من درجة تركز Concentration السكان أو تخلخلها ، الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تحديد شكل التنظيم الأيكولوجى من زاوية طبيعه المكان الاجتماعى .

ب - المظهر الزمانى :

إن التحديد الزمانى temporal يتكامل تماماً مع التحديد المكانى ، حيث أن الزمان كالمكان له دوره الخطير فى تحديد شكل التنظيم الأيكولوجى ومداه ، ودرجة إتصال أو تماسك الجماعات . وفرض أنماط أو صور عامة للسلوك الجمعى Forms of Collective behaviour وفقاً لطبيعة المناشط الايكولوجية التى تتغير من حين لآخر طبقاً لتواتر مختلف الفصول التى تشكل إطاراً زمنياً عاماً تدور فيه مختلف أنماط السلوك الاقتصادى وأساليب الحياة الجمعية ، تلك الأساليب والأنماط التى لا تنظمها وتفرضها سوى مجموعة من الأبعـــاد الزمانية . temporal dimensions

ولا يمكننا بالطبع فصل ما هو « مكانى » عما هو « زمانى » إذ أن الزمان والمكان من الصور الاجتماعية الأساسية التى تتدخل فى صلب كل دراسة سوسيولوجية أوحقلية . ولا يمكن أن نفصل الزمان الاجتماعى عن المكان الفيزيقى إلا على سبيل التجريد abstraction إذ أننا لا ننتقل فى المكان إلا خلال الزمان ، ولا يمر بنا الزمان ويتواتر إلا داخل صورة مكانية أياً كانت . فالنمط الزمانى temporal pattern هو متضمن أصلا فى كل نمط مكانى Spatial Pattern.

وإن كان ذلك كذلك ، فان فكرة الزمان ، لا تتولد عن التجربة الشعورية الفرد ، وإنما تصدر عن أصل اجتماعى ، وتنبع عن تلك التجربة الحية القائمة فى الحياة الجمعية ، فالتقويم الزمنى هو إذن تعبير صريح عن إيقاع الحياة الاجتماعية ، وما يصاحبها من مظاهر وظواهر النشاط الجمعى . وهكذا يصدر الزمان الاجتماعى ، عن تلك الديمومة الكلية المطلقة الكامنة فى حياة الجماعات .

ولقد تابع « هوبير » و « موس » هذا الاتجاه الدوركيمى ، وقالا بالأصل الدينى والسحرى لفكرة الزمان . والتفت « مارسيل موس » إلى الزمان باعتباره

نتاجا ضروريا ينجم عن تلك الأفعال والطقوس الدينية ، كما حاول أيضا أن يؤكد الأصل الدينى الغيبى وأن يدعمه بدراساته المختلفة حول التصورات السحرية(١) .

وخلاصة القول إن الزمان الدوركيمى ليس صورة من صور الحدس ، كما أنه ليس قبليا a Priori فى العقل الخالص ، على نحو ما ذهب كانط Kant(٢) وإنما حاول دوركايم وأتباعه أن يؤكدوا الصورة الاجتماعية لفكرة الزمان . وأن ينكروا قبليتها ، بابراز الأصل الاجتماعى لحركة الزمان ، من حيث أن تلك الصور الزمانية إنما تستمد خصائصها الضرورية والكلية من واقع التتابع الاجتماعى للأحداث ، ومن تتالى الشعائر والطقوس الدينية .

وبهذا المعنى يصبح الزمان عند دوركايم ، هو زمان الجماعة ودعومتها الكلية الصائرة ، على مر السنين كما تصبح « مقولة الزمن » عندد وركايم ، ظاهرة إجتماعية تشكل فى بنية المجتمع « نظاما إجتماعيا » ثابتا(٣) .

وهكذا يلقى علم الاجتماع على فكرة الزمان ضوءاً ، ويضفى عليه طابعاً إجتماعيا ، ويعطى لها تفسيرا يكشف عن مغزاها الدينى ومبناها الجمعى .

لقد عقد الاجتماعيون والتاريخيون أهمية كبرى على فكرة الزمن ، وذلك

---

(1) Huber Et Mauss, Mélanges D'Histoire des Religious, Paris 1929. p. 191.

(2) Kant, Emmanuel Critique de la Raissou pure, Traduction Française avec noies par A. Tremesaygues et B. Pacaud. Press Universitaires de France, Paria 1950 p. 63.

(3) Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse. F Alcan Paris 1912. p. 15.

يربطها بالماضى الاجتماعى ، أو الماضى التاريخى ، ذلك الماضى الإنسانى الذى يظهر بظهور المجتمعات ، والذى يتصل بالانسان منذأن كانت له تجاربه وأعماله وجهوده ومنذ أن شاد نظمه الاجتماعية ، تلك التى تلخصها جميعاً كلمة « الحضارة » ومن ثم كان الزمان الاجتماعى هو الزمان الممتلىء بالتجارب الانسانية والاجتماعية ، وهو « الذاكرة الاجتماعية » التى تحفظ حضارة الانسان الفكرية والدينية والخلقية.

وفى هذا الصدد كشف « موريس هاليفاكس Halbwachs » فى كتابه عن « الاطارات الاجتماعية للذاكرة les Cadres Sociaux de la Mémoire » .

كشف(١) عن فكرة الزمان باعتبارها إطاراً إجتماعيا من إطارات الذاكرة ، وعنصراً رئيسيا من عناصر عملية التذكر ، حيث أننا أثناء قيامنا بالتذكر ، إنما نحاول أن نتوصل إلى الأحداث من خلال معرفتنا وتذكرنا لزمانها ومكانها .

ولما كانت الذكريات تتصل بالواقع الاجتماعى فاننا نقول مع « هاليفاكس » : إن الزمان والمكان من الاطارات الاجتماعية للذاكرة ، حيث أننا لا نمضى من الذكرى إلى الزمان ، ولكننا نمضى من الزمان كاطار إجتماعى ، إلى الذكرى كحدث ولى وانقضى ، كما أننا لا نستثير الذكرى إلا فى سبيل ملء الاطار ، ولقدكنا نفقد الذكرى لو لم يكن لدينا الاطار لنملأه .

ومن ثم كان من الواضح أن الزمان إطار إجتماعى ممتلىء بالعناصر الاجتماعية والتجارب الجمعية والأحداث الانسانية(٢) . ومن هنا ربط « هاليفاكس » فكرة الزمن بفكرة الماضى للتذكر ، وأضفى على مقولة الزمان عنصراً إجتماعيا خالصا

(1) Halbwachs, Maurice., Les Cadress Sociaux de la Mémoire Nouvelle Edition. F. Alcan Paris 1955. p, 28.

(2) Blondel, Charles., Introduction à la Psychologie Collective., Collection Armand colin, Paris. 1949 p. 137.

باعتباره شرطاً أو إطاراً لقيام الذكريات .

وهناك من الدلائل الاجتماعية ما يكشف عن العناصر الجمعية والتاريخية التى تكمن فى فكرة الزمن ، مؤداها : أن المجموعات الزمنية ، والتقاويم المستعملة فى قياس الزمن ، قد صدرت جميعها بصدور حضارات نبتت فى مجتمعات قديمة ، كما هو الحال فى مصر واليونان وفلسطين والهند ، ومن ثم فقد أصبح لدينا تلك التقاويم الهامة كالتقويم المصرى والتقويم الفلسطينى والتقويم الهندى .

كما أن هناك أحداثاً هامة قد نعتبرها مبدأ تاريخياً لحساب السنين ، مثل « الأولمبياد الأولى » أو « تأسيس روما »(١) ، كما ويتفق المؤرخون على أن « سقوط روما » أمام غزوات البرابرة ، هو الحد الفاصل بين التاريخ القديم والعصور الوسطى .

وتلك أحداث تاريخية خالصة ، ولكن هناك أيضاً أحداثاً دينية كبرى قبلتها الجماعات البشرية كبدايات للتقويم الميلادى أو الهجرى ، تلك التى بدأت « بميلاد » المسيح عليه السلام ، أو « بهجرة » الرسول ﷺ ، وهى أحداث زمانية مقدسة لدى الشعوب الأوربية والاسلامية مما جعلها « مراكز تثبيت » ، أو نقاط ارتكاز هامة فى التاريخ الانسانى .

ولعل « موريس هاليفاكس » قد عبر تعبيراً صادقاً « عن المعنى الاجتماعى والتاريخى » للزمان بالاشارة إلى فكرة الذاكرة الجمعية ، والمجموعات الزمانية ، أى التقاويم المستخدمة فى قياس الزمن ، وبهذا المعنى يكون « هاليفاكس » « ممثلاً » للاتجاه الدوركيمى » فى معنى « مضمون الزمان الاجتماعى .

---

(1) Blondel, Charles: Introducion â la Psychologie collective, A Collin. Paris 1946. p. 123.

الفصل الثامن

الأبعاد الثقافية في الفن والأدب

* تمهيـــد
* الانسان والفنان
* الاغتراب والفن المعاصر
* علم اجتماع الفن Sociologie de l'art
* الوظيفة الاجتماعية للأدب
* علم الاجتماع الفينومينولوجي وظواهر الأدب
* الأدب والطابع القومي

تمهيد :

هذه دراسة فى « علم الإجتماع الثقافى Cultural Sociology » إنشغلت بها منذ سنوات قليلة ، تطلبت شيئاً من المثابرة بعد طول صبر ، حيث بذلت بصددها الكثير ما بين شاق وعسير ، وبخاصة حين أتناول بالدراسة الآن ، حقلا جديداً من حقول التجربة الفنية ، أو التجربة السوسيولوجية The Sociological experiment (١) . وهى كتجربة أدخل إلى ميدان « علم سوسيولوجيا المسرح The Sociology of the theatre » ، على حد تعبير « جورج جورفتش Gurvitch (٢) » أو إلى دراسة ما يسميه « جان دفنيو Jean Duvignaud (٣) « بسوسيولوجيا الخلق الفنى Sociologie de la Creation artistique حيث كان « جان دفنيو » ينظر إلى المجتمع على أنه « مسرح الحياة » .

أ — ولقد طرحت الكثير من القضايا الأساسية فى ميدان تخطيط الفن والمسرح و « تطوير الإعلام والثقافة » وبخاصة من زاوية الأبعاد الاجتماعية فى الفن والأدب ، أو ما يسمى أيضا « بسوسيوجيا الأدب والدراما Sociology of Literature and Drama » ومنها قضايا تقليدية مشهورة ، مثل الفن وهل هو الفن أم للمجتمع ؟ وما صلة الفن بروح العصر ؟ وعلى أى نحو يمكن فهم الوظيفة الاجتماعية للأدب ؟ .

وهناك قضايا جديدة يطرحها نقاد الفن والأدب ، ورواد التخطيط لمستقبل

---

(1) Burns, Tome., Sociology of Literature & Drama, penguin, U.S.A 1973. p. 77

(2) Ibid : p. 71

(3) Duvignaud, Jean., Sociologie de I'art., press. univers. de Farnce, paris. 1967. pp. 1 - 6.

الثقافة ، حين نربط بين « الإنسان والمجتمع والطبيعة » ، عن طريق « الفن » كقنطرة إجتماعية وإعلامية وثقافية ، لنعيد تقييم « بناء الإنسان المصرى المعاصر » . فكيف نعالج أنساق الفن والقيم الاجتماعية social Values ؟ وعلى أى أساس يصبح الفن نسقاً جوهرياً من أنساق الثقافة Culture وعلى أى نحو يعالج علم الاجتماع الفينومينولوجى phenomenological Sociology ظواهر الفن والأدب؟ . وماذا نقصد بسوسيولوجية الخلق الفنى ؟ ! وكيف يمكن تصور الأدب كنظام Literature as an institution على ما يقول « هارى لفن Harry Levin » .

كل هذه مسائل تحاول هذه الدراسة أن تميط عنها اللثام ، حتى يمكننا أن نخطط تخطيطاً علمياً وموضوعياً للفن والأدب ، وحتى يمكن أيضا أن نعىء الجهود المشتركة نحو « بناء الإنسان المعاصر » ، حين تتضافر كل الجهود وتتعاون من أجل « تنمية الإنسان المصرى » ، وعلاج « مشكلة الثقافة » فى جمهورية مصر العربية .

ب ـ ولاشك أن قضية الفن والأدب ، هى أخطر بكثير من أن تقتصر على الفنانين والأدباء وحدهم ، بل ينبغى أن يظهر على المسرح ، أبطال جدد ، وبخاصة حين يدخل الساحة ، طبقات أخرى من العلماء والباحثين والفلاسفة ، فتتضافر جهود علماء الاجتماع الصناعى والثقافى ، ورجال الدين والاقتصاد والسياسة ، من أجل دراسة وفهم أبعاد هذه « الأرضية الأيديولوجية الخطيرة » .

ولا شك أن « تاريخ الفن والأدب » ، هو سجـــل حافل بقضايا « السلام والحرية والديمقراطية » ، بـل وقد يتفوق تاريخ الفن بعظمته وإنسانيته ، على تاريخ الحرب والصراع ، والرعب والدمار . فلقد أسعدت قيم الفن والخير والجمال ملايين البشر ، وبعثت فيهم تحت شعار « الحرية والتفاؤل » ، كل البهجة ،

والأمل ، والقوة ، والحب والإلتحام بالحياة . ومن هنا يمكن النظر إلى « بعث الماضى ، كوسيلة إعلامية الحاضر ، ومن ثم فيكون الفن من أجل الفهم والحكمة والموعظة الحسنة ، ومن هنا أيضا يصبح التاريخ والفن والأدب وسيلة إعلامية التثقيف، يزداد الإنسان المعاصر بفضلها فهما وثقافة وعمقاً ، ومن ثم يصبح المسرح أداة إعلامية قوية من أدوات الجهاز التعليمى فى « سوسيولوجية التربية Sociologie de L'Education » .

وقد يدخل تاريخ الفن والأدب والثقافة ، كعنصر جوهرى فى « التحليل البنائى » لروح العصر ، كما قد يضفى « روح العصر » عنصراً إجتماعيا وايديولوجيا يشكل « خلفية ثقافية » . أو يعبر عن حقبة فنية تتميز بها سائر عصور الفن والجمال، ويبرز لنا التاريخ الحضارى البشرى ، تطورات إجتماعية تعبر بوضوح عما يسميه « جان كلود باسيرو Jean-Claude Passeron » « بسوسيولوجية العقول Sociologie des intellectuels » ، وذلك عن طريق التركيز على معطيات فنية وتاريخية ، توحى بمؤشرات تعطى طعما ثقافياً ، وإجتماعيا مميزاً بما تضفيه « سوسيولوجية الواقعة السياسية Sociologie du fait Politique » على حد تعبير « جورج لافو Georges Lavau » فهناك أبعاد سيكولوجية واقتصادية تكمن فى سوسيولوجية الواقعة السياسية ، فقد حفل تاريخ النظم السياسية ، تحت ستار « العدالة » أو « الفضيلة » أو « إنتصار العقل » أو حتى « الصالح العام » ، بأحداث الصراع والحرب والنصر وسفك الدماء . وفارق شاسع وبون واسع ، بين نتاج حروب تقتل وتدمر وتفسد فى الأرض ، وبين عطاء الفن والحضارة فى عصور الأمن والبناء والسلام .

الانسان والفنان :

وإذا ما وصف الإنسان بأنه إجتماعى بطبعه ، فإنه بخياله وأوهامه وآماله ،

فنان ذواقه بالسليقة ، « فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » كما يقول الكتاب المقدس (١) .

أ — فهناك إلى جانب عالم الشهوات واللذات ، والتجربة والخبرة ، والمتعة الحسية ، نجد عالماً ميتافيزيقياً يخاطب الوجدان بلغة « متعالية Transcendental » تحلق ينافى المطلق ، وتشطح فى دنيا الخيال . وهى لغة تتعدى التجربة وتتحدى الخبرة ، وتتعالى على المادة والحس ، حين تطرق عالماً مثالياً يناجى القلب والروح والمشاعر ، بألحان صوفيـة تتسامى فوق اللذة الحسية ، وكلها جوانب فوقيـة وجمالية ، لا يشبعها فينا سوى عالم الفن والأدب .

وطبقا لخصوبة فحوى الزمان التـاريخى ، ودوام حركته ومساره ، فلقـد سكب التاريخ فى شتى قوالب الفن ورموزه الكثير من خبرات الإنسان وتجـارب البشر ، بما تحويه من مضامين الثقافة وفلسفات المجتمع والتاريخ والحضارة .

ب — ومع تعدد « المضامين » الثقافية ، وإختلاف كيفيـات « الفحوى » صدرت على مسرح الفن ، شتى الأشكال ، ومختلف الألوان والصور . فلقـد حفلت قوالب الفن ، وإمتلأت إطاراته بعطاء إجتماعى سخى ، فاض بالضرورة من تجارب البشر وثقافة المجتمعات .

وفى هذه الأيام ، وقد قارب القرن العشرون على الانتهاء ، تتردد فى دوائر الفن صيحات التجديد ، فكثيرا ما نسمع عن « السيريالية » و « التكعيبية » و « التجريدية » ، فلقد اضطربت فى ميدان الفن مختلف الأشكال والألوان ، وتبعثرت الصور والرموز ، حتى تتعقد أحياناً غاية فى التعقيد فلا نكاد نفهم شيئاً ، وقد تتميع أحياناً أخرى أو يصيبها « الغموض » فتصبح « تجريداً خاليـاً من المعنى » .

---

(١) نجيل متى : الاصحاح الرابع .

الاغتراب والفن المعاصر :

أ ـ ويمثل القرن العشرون حقيقة ما يسميه « هربرت كومل Herbert Kohl» « بعصر التعقيد[1] The age of complexity » . والتعقيـــد فى عصرنا ، ليس تعقيداً فلسفيا ووجوديا فحسب ، بل هو « تعقيد اجتماعى وفنى وثقافى » فى نفس الوقت .

فلقد إنسحق الفنان التكعيبى والتجريدى المعاصر ، تحت ضغط الحضارة الخانق ، وعانى الفن الكثير من وطأة التصنيع ومحنة التكنولوجيا ، فكانت الازمة الباطنية التى أثارت فناناً معاصراً مثل « بيكاسو Picasso » فحاول أن يثور فى أعماله الفنية الخالدة ، فخرج على القواعد الفنية التقليدية ، وحاول أن يتمرد وأن يحطم الصور والأشكال ، أو قد ينزع منها ويجرد ، حين يخلع أبرز ما فيها من سمات وصفات وخصائص ، ثم يقوم « بيكاسو » بعد عملية التجريد والنزع بعملية « إعادة بناء Reconstruction » ما خلع أو نزع من صفات ، وما جرد من خصائص وسمات ، وتلك هى « التجريدية » . وإما بمحاولة الفنان إعادة أو عودة ما حطم من أجزاء وعناصر الصور والأشكال ، وهذه هى التكعيبية .

ب ـ وأغلب الظن ، هو أن الفنان « التكعيبى » أو « التجريدى » المعاصر ، إنما يعبر عن ضجره وهربه من واقعه المحتوم ، وعدم الإذعان لقيمه ، فثار على عصر التكنولوجيا وحضارة التصنيع ، وحطم الصور التعبير عن « الإنسحاب » و « الإغتراب Alienation » ، نظراً لوجود الاحساس المرير الممتلىء بالسخط على جو الحضارة الكئيب ، مع زحمة الحياة العصرية Modernism بأثقالها ، ومع ضجيج المدينة وضجيجها ، فلقد خلفت تكنولوجيا الصناعة ، وحضارة التصنيع بعض المخلفات والرواسب ، التى أصبحت « أغلفة كثيفة » ، تحجب الرؤية ،

---

(1) Kohl, Herbert., The age of Complexity, Mentor, 1965.

حين تحاط « الروح » بتلك القشرة السميكة ، ويصاغ الإنسان المعاصر في العديد المتنوع من القوالب ، والمتكثر من الأنماط ، والمعقد من نسيج القيود التي أعدت له وفرضت عليه في جمود ، فكان الإحباط Frustration والشعور بالغربة[1] .

ولقد عبر الأدب الوجودي المعاصر ، عن اللا معقول ، واللا معنى Nonsens ، والإغتراب أقوى تعبير ، حين كتب الوجوديون وأطنبوا عن « العبث » و « سوء التفاهم Le malentendu » و « القلق » و « الغثيان » و « السقوط La chute » و « الإنسان المتمرد L'homme révolte » ، وكلها ظواهر أدبية وجودية تعبر عن مأساة الإنسان في القرن العشرين ، كما تشهد إلى ضجره ويأسه ، وإلى اكتئابه واغترابه ، وهذه هي أمراض العصر[2] .

ولكي نواجه أمراض العصر ، علينا أن نقوم بحملات إعلامية وثقافية لحماية الإنسان وتنميته ، بالبحث عن غذاء للروح وترقية للمشاعر والتسامي بالجوانب والأبعاد الجمالية .

وظيفة البعد الجمالي :

الجمال عيون يرى بها إعجاب الناس ، والجمال أيضاً آذانه التي يستطيب بفضلها كلمات الإعجاب والإطراء ، وله مشاعره الدافئة التي تبعث الحياة في كل ذرة من ذرات الكون العجيب .

---

(١) فقد تعالت الصيحات بالاحتجاج والرفض ، وظهرت السلبية واللامبالاة ، وانتشرت روح التشكك والتفكك وحركات التمرد ، وازدادت الضجة بين طوائف الشباب في العالم .

(٢) الدكتور محمد زكي العشماوي ، أمراض الفكر في القرن العشرين ، المجلد الأول ، العدد الاول من مجلة عالم الفكر إبريل مايو يونيه ١٩٧٠ . الكويت .

ومما يؤكد قيمة الجمال ، أن الحياة قد تنمو حول جدران القبور ، مع ظهور الخضرة وإنبثاق أوراق الزهور ، حيث يشعر الإنسان بحرارة الوجود المنطلق في الحرية على الرغم من جمود العدم . ففي الحياة حرية وانبثاق ، ومع العدم جمود وفراغ ، وحين ينظر الإنسان إلى الجمال ، يندفع نحو الأمل والتفاؤل ، حين يجد بهجة الحياة تتحدى سكون الموت ، فتستمر حركة الحياه دائما ، رغم قسوة الاكتئاب والعدم والتشاؤم ، لأن الحياة أقوى من الموت ، والوجود أشرف من العدم . الأمر الذى يكشف لنا في النهاية حقيقة ومأساة ، حول هذه الرؤية العابرة ، تلك الدراما التى تدور حول رؤية الحياة والنضارة ، إلى جانب الموت والعدم ، مما يثير الدهش عند كل إنسان يقع في الحيرة ما بين « زهور » و « قبور » .

ولقد وصف المولى سبحانه وتعالى ، بالجمال والجلال ، فهو تعالى محقق كل الجمال ، وخالق كل جميل ، إلا أن الجمال والجلال صفتان متلازمتان للألوهية ، وليست من صفات بشر ، فالجلال صفة العظمة الإلهية والاستواء والوحدانية ، والجمال صفة الرحمن الذى يفيض عنه الخير الذى ينبت في كل شيء ، فأصبح لله في كل شيء آية ، هي آية الجمال ، وقد تقسو هذه الآيات في جبروتها فتبلغ غاية البيان في تصوير البطش الالهى ، وهى صورة تدعو إلى الخشية من ذات الله ، رهبة وأدبا وقربة ، فيدوم السجود ، مع التهجد وقيام الليل ، وهذا هو مقام الجلال الذى نجده في روعته في كل آية من آيات الجلال المتعددة بين سائر أجزاء القرآن وأقسامه .

وقد نقول إن الله هو الرحمن ، وقد تكون كلمة الرحمن صفة لله وحده ، فالانسان لا يشارك الله تعالى في كونه « رحمن » ، ولكنه يشاركه في كونه تعالى « رحيم » . فلا يمكن أن يطلق لفظ الرحمن على الإنسان ، لأن الرحمن هو البصير السميع ، وكلها صفات وخصائص للذات الإلهية ، وليست خاصة بالذات

الوشرية .

الادراك الاجتماعي للجمال :

يتحقق إدراك المجتمع للجمال في تذوق الشعر والفن والأدب ، ويثير « البعد الجمالي » في نفوس الأفراد شعوراً بالنقص وهنا يكمن سر الجمال كعامل من عوامل ترقي الاحساس وتطور المشاعر الفردية والجمعية والتفافها حول قيم جمالية تسيطر على وجدان الأفراد وتدفعهم دفعاً نحو « عالم أمثل » تترقى فيه المشاعر ، وقد يكون البعد الجمالي وظيفته لأنه بعد حضاري ، وعامل ثقافي ، يجب أن يواكب تطور التكنولوجيا الرهيب . فلاشك أن « الجمال غذاء القلب والعقل والروح » ، وكم نحن في محنة التصنيع ، وحضارة التكنولوجيا في مسيس الحاجة إلى مثل هذه الأبعاد الجمالية والروحية .

وقد لا يشعر الماركسي بهذه الأبعاد الجمالية لسبب بسيط جداً يكمن في طبيعة إهتماماته المادية والنفعية فحسب ، ولذلك يتقوقع المجتمع الشيوعي الماركسي كما يقول « هربرت ماركيوز Herbert Marcuse » في قوقعة البيروقراطية فيتحجر ولا يتطور ، « فالحرية هي العامل الوحيد « للتغيير » والتطوير » وليست « ثورة البروليتاريا » التي حدثنا عنها ماركس . فهذه الثورة سرعان ما تخمد وتتجمد لتصبح « دولة شيوعية » ، ونحن نعلم أن المجتمع الشيوعي يقوم على نظم تتمايز تماما عن النظم الرأسمالية حيث كثيراً ما ينغلق المجتمع الشيوعي على ذاته بحجة التغيير والتطوير . وكيف يتشدق الماركسي ويتمسك بمبادىء البروليتاريا؟ وعلى أي أساس يعتنق الماركسي مبادىء الاشتراكية العلمية مع أن طبقة البروليتاريا الآن قد ذابت في عصر الرأسمالية بفضل «التنظيمات الصناعية والادارية الجديدة» فتحولت طبقة البروليتاريا وتفككت وأصبحت مجموعات متمايزة من فئات العمال تسلسلت في « مراكز اشرافية » و « أدوار فنية » يحددها التنظيم الصناعي طبقاً

لنوع الخبرة والمستوى الثقافى والفنى ، ومن هنا تحولت البروليتاريا إلى فئات وتفتت بعد أن إنقسمت على ذاتها إلى طبقات متنافسة بل ومتصارعة فى هرم من العمالة ووظائف الملاحظين والمشرفين وأدوار Roles الفنيين فى البناء الصناعى أو « البناء التنظيمى للمصنع » ، فأصبحت البروليتاريا أسطورة يمكن وضعها فى متحف الطبقات الاجتماعية ، الذى يحوى ماضى الحرف والمهن والصناعات اليدوية هكذا يحدثنا تاريخ التجمعات الطبقية والاقتصادية فلقد كان للبروليتاريا يوما ما « دورها الثورى » فى هذا الماضى الماركسى البعيد وفى مرحلة من مراحل التطور الصناعى والاقتصادى ، وهذه هى نقطة الضعف الشديدة التى تقلب النظرية الماركسية رأساً على عقب .

علم اجتماع الفن Sociologie de l'art :

- قد يمكن دراسة مادة وظواهر وموضوعات « علم اجتماع الفن » حين يحاول عالم الاجتماع ، رصد ظواهر الأدب وروائع الموسيقى ، وما تركه كبار الرسامين من لوحات .

وتتجلى موضوعات الفن ، فى تلك « الأشياء الإجتماعية Choses Sociales» التى تمتاز بالندرة والعبقرية والخلود ، تلك التى قد تتحقق فى أعمال فذة وفريدة unique مثل « هاملت شكسبير » و « إليـــاذة هوميروس » و « موناليزا La Mona Liza » دافنشى[١] ، و جحيم دانتى فى « الكوميديا الإلهية » ، و

---

(١) هى أشهر لوحة فى تاريخ الفن ، رسمها مع أنغام الموسيقى « ليوناردو دافنشى Leonordo Da Vinci » (١٤٥٢ — ١٥١٩) وهو مهندس ومعمارى وموسيقى ، وعالم كيموى ، مشرح ومخترع ، بالاضافة الى كونه مثال ورسام . وموناليزا هى زوجة فرنسسكو دل جيوكندو أحد كبار المشوابن بفلورنسا ، واشتهرت اللوحة بإبتسامة غامضة كابتسامة أبى الهول التى تتحدى الزمان .

« رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري ، و « فاوست » للشاعر الألماني « جوته » وبكاها وثائق إجتماعية . خلفها كبار الشعراء والرسامين وتركها الكتاب والأدباء، لكي تكون « مادة سوسيولوجية » ينفذ فيا وراءها ويفضها « علم إجتماع الفن »(٢) .

ولا يمكن أن تصدر أعمال الفنان أو تتجلى في سياق التاريخ مهما كان «سرياليا» أو « تجريديا » ، إلا باستنادها إلى أصولها الإجتماعية ومصادرها الثقافية ، تلك التي انبثقت أصلا من « روح العصر Spirit of age » .

فلقد فرضت « روح العصر » نفسها على كل فن ، وتركت بصماتها واضحة متميزة في سائر الأعمال الفنية ، بمعنى أن الفن الأصيل ، إنما تبرزه روح إجتماعية أصيلة ، تعبر عن العصر كله ، وترسم ملامحه وتحدد أيديولوجيته وتصنع خطوطه وألوانه ، كما تفرض سماته وأنماطه .

وقد يكون التوحش ، من طباع الفنانين والرسامين والعباقرة ، ففيهم طفولة وبدائية ونقاء ، هذا وتظهر الوحشية في وضوح كامل في معظم الرسوم التكعيبية . والصور التجريدية ، السائدة في سائر اللوحات المشهورة لكبار الفنانين والعباقرة ، تلك التي تعبر عن حقيقة « الفنون اللامعقولة » التي ظهرت في عصرنا .

والفنان العبقري الملهم إنما يقدم لنا ترجمة أصيلة وأمينة لكل ما يدور في عصره من « قيم » و « اتجاهات » « ومواقف » ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين « الفن والايديولوجيا » من جهة ، وبين « الفن وروح العصر » من جهة أخرى. والفنان إنسان يعيش في مجتمع ، وينتمي إلى طبقة ، وينخرط في جماعة ، والفن في ذاته « عمل وموقف ودور » . عمل ايجابي ، يقوم به الفنان ، حيث يحقق على نحو

(1) Duvignaud, Jean., Sociologie de L'art, Press. univers. de France. Paris. 1967.

بجوهري وظيفة جمالية بالضرورة . وموقف الفنان موقف إجتماعي يتمثل في تحصيل الحاصل ، وهضم كل ما يدور من حوله ، ثم يتمثل موقفه بعد ذلك في الغاء كل وجود ناقص ميأسر ، والتطلع نحو وجود أكثر فاعلية وخصوبة . وقد يقوم الفنان الملهم ، بدوره القيادى ، حين يرصد فى عبقرية فذة ، وعلى نحو « فينومينولوجى » مختلف ظواهر الحياة ، ويقتحم لحمها الحى ، ثم يقدم لنا منها « شريحة » أو « قطعة » . وقد يرتقى الفنان فيقوم بالتمرد على الواقع وتغييره ، وقد يتسامى فيتجه إلى عالم أرقى ، وقد يثور فيحطم جمود الوجود ، ويحيله إلى وجود أكثر الفة وخصوبة وثراء ، فلقد أصبح وجوداً إجتماعياً له « معناه ومغزاه » ، بعد أن كان ثقيلا مائعاً وكثيفاً ، فقد « المعنى والقبول » ، بعد أن سقط « الفهم » .

وما يعنينا من كل ذلك — هو أن الفنان لا يعمل فى فراغ ، ولا ينحت النحات فى العدم ، ولا يمكن أن يكون خيال الفنان مهما حلق بنا بعيداً فى سماوات الفن ، إلا بعضا من واقعه ، كما يحمل خياله شيئاً من ماضيه وثقافته .

فاذا استمعنا مثلا إلى سيمفونيات « موزارت Mozart » لوجدناها مترجمة بموسيقى الموت ، ذات اللحن الجنائزى ، مشحونة بعناصر الحزن الدفين ، ففى موسيقى « موزارت » صلاة على أرواح الموتى ، وفيها طلب الرحمة والغفران ، وهذا هو ظاهر النغم الحزين (١) .

ويذهب ورنر ستارك Werner Stark ، إلى أننا نستطيع أن نفسر حقيقة تلك الالحان ، وأن نتوصل إلى باطن تلك الأنغام الحزينة ، باكتشاف العنصر الاجتماعى الكامن فيها ، حين تصبح الحان تلك « الموسيقى » من وجهة نظر علم

---

(1) Stark, Werner., The Sociology of knowledge, Routledge and Kegan Paul. London. 1960.

الاجتماع ، إنعكاسا فنيا لأحوال «موزارت» الاجتماعية ، وما اصطدم به من ظروف قاسية بحثاً عما يسد رمقه طلبا للحياة ، ومن هنا كانت نظرته القلقة إلى العالم ، تلك التى صاغها فى « قوالب فنية » وصيغ موسيقية ، تغلب عليها فلسفة الفن الحزين ، وتعبر عن ذلك « الموقف الاجتماعى » فى قلقه ويأسه واضطرابه(١) .

هذا عن فن الموسيقى الذى تهتز أوتاره ، مع تفسير المواقف والأوضاع الإجتماعية ، أما من ناحية « سوسيولوجية الدراما Sociology of drama » ، نجد أن الروائى أو المسرحى ، إنما يقدم لنا شريحة حية تنبض بالحياة ، فلقد عالج « برنارد شو » فى بجماليون ، أسطورة قديمة أخذها عن أصلها فى الأدب اليونانى الكلاسيكى ، فخلع عنها ماضيها ونفض عنها ما تراكم عليها ، ثم نفخ فيها من روحه ، وفاض عليها بالجديد من روح عصره ، وكذلك فعل الروائى المصرى الكبير « توفيق الحكيم » حين قدم « بجماليون » فى الأدب العربى بقراءة جديدة وبوعى جديد . فليست الروايات والمسرحيات جميعها إذا ما قمنا بتحليلها تحليلا سوسيولوجيا ، سوى الحياة نفسها ، وقد أصبحت عارية عن كل مضمون ، وكشفت عن نفسها أمام المتفرج ، بفضل جهود فنية جماعية قام بها المؤلف والمخرج ، ولعب أدوارها الممثلون على خشبة المسرح ، فلا يظهر أو يعرض على المسرح سوى نماذج من البشر ، ومواقف أو شرائح من المجتمع ، مع أنماط من السلوك والشخصيات . وصور من الأحداث والعلاقات التى تتعقد وتتشابك خلال « الحبكة Plot » الدرامية المسرحية ، تلك التى تدور حولها الاحداث التى

---

(١) لكى أشير الى أهمية مثال « ورنر ستارك » فى ميدان سوسيولوجية الفن ، رجعت إلى كتابنا « علم الاجتماع الالمانى » حيث وردت هذه الفقرة كما هى بنصها ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧١ ص ٢٧ .

ألقى ضوءاً على طبيعة المؤلف ، كما قد تكشف « المسرحية » عن جوانب عميقة من أنماط الشخصية ونماذج البشر .

علم اجتماع الوهم والخيال L'imaginaire :

هناك أوهام فى العقل البشرى ، أشار إليها بيكون Bacon وبرجسون Bergson . فلقد تكلم بيكون عن أصنام العقل idola mentis وهى عيوب فى تركيب العقل ، يجب أن نتحرر منها حتى لا نخطىء فى فهم أو معرفة الحقيقة[1] فأشار بيكون إلى أوهام القبيلة والكهف والسوق والمسرح ، أما الأولى فهى « أوهام ناشئة عن الطبيعة الإجتماعية ، وهى أوهام مشتركة بين سائر البشر ، والثانية ناشئة عن « الطبيعة الفردية » ، بصدورها عن الاستعدادات الفطرية ، أما أوهام السوق ، فهى « لغوية ولفظية » وتتكون طبقاً للحاجات العملية حيث يجمع البدائى تصوراته ، ويبتكر ألفاظه وكلماته القابلة ، من محيطه الفيزيقى الاجتماعى الضيق ، أما أوهام المسرح ، فهى أفكار ونظريات منقولة ، « تقليدية ومتوارثة » .

أوهام البشر :

الوهم هو أول درجة من درجات التفسير تلك التى تؤدى بنا إلى درجتى « التوقع » ثم « التنبؤ Predicticn » فكانت « الأوهام » فى بداية أمرهـــا « تنبؤات » تجسمت بعد ذلك فى « أساطير » كاستجابة لحاجة ضرورية ، وهى الحاجة إلى الأمن .

وبذلك يلجأ الإنسان البدائى إلى الوهم ، كقنطرة ، تربط بينه وبين الكون والوجود فالوهم هو وسيلة الفكر البدائى ومنهجه لتفسير الكون والعالم . وإلا فقد الأمن والتكيف والتوازن .

---

(١) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف بمصر ، ص ٤٦ .

وأوهام البشر ، تحمل أساطير الأولين ، كما تحمل تاريخ الفكر الإنسانى ، بماضيه الحافل بصراعات مأساوية ، ومخاوف فاجعة ، ولذلك استقرت أوهام الناس فى طبقات دنيا وبناءات سفلى تحت ركام « اللاوعى » البعيد ، حيث تعيش أوهامنا فى « بنية » عقولنا اللاوعية ، فيتعامل الوهم مع اللاشعور .

ويقول « خبراء النفوس » ، إن كثرة الأوهام قد تظهر كوساوس تطرأ على سطح الوجدان ، فتسيطر على فكر الإنسان وسلوكه ، الأمر الذى معــــه تهتز الشخصية ويختل التوازن ، بين العقل والوجود .

ولكن ما هى الاوهام ؟ !

كل ما هو « وهمى » هو « لا معقول » أو « غير منظـــور » أو غيبى mystique والاوهام تزيد وتنقص ، ولا يقـاس الوهم كما نقيس الحرارة ، وإنما يتزايد الوهم بطريقة خاصة ، وتتراكم الاوهام فى كثرة غريبة ، ليست بالكمية quantitative ، وإنما تتزايد بكثرة كيفية qualitative .

وللوهم شدته وعمقه ومداه ، أما شدته فتولد الكرب والوساوس والأمراض ، وأما عمقه ومداه ، فيختلف باختلاف درجة الثقـافة culture ، ولذلك كان عبء المثقف من أوهامه أخف وطأة ، نظراً لما يتيحه العلم ويفسحه، فيضىء لنا الكثير من جوانب الحقيقة ، فيكتشف العلم المجهول ، ويكتسح أمامه الكثير من المخاوف والأوهام . وقد يتخيل بعض الناس ، ان السعادة قد تكون وهماً ، وقد تنقلب الأوهام نفسها إلى لحظات سعيدة ، إلا إن مثل هذه الأوهام خادعة ومضللة ، وقد تتسرب هاربه من باطن « اللاوعى » فتسبب كثرتها « الإنحرافات النفسية » حين تعرض تحت وطأتها « الأنا Ego » فتضطرب الذات ، ويهتز بناء الشخصية .

الوظيفة الاجتماعية للوهم :

والإنسان كائن متوهم بطبيعة ، سواء أكان أوربيا متحضراً ، أم بدائياً متخلفاً . فلقد كان موقف « الوهم البدائي » هو موقف تفسيري explanatory . ومع تقدم الحضارة تنكمش الأوهام ، وتطرد المخاوف . لأن العلم وظيفته التكيف مع الوجود ، ويحيل التكيف الأوهام إلى معارف ، ولابد وأن يحدث التوازن بين الإنسان ووجوده طبقاً لعملية التكيف ، حين يفسر « كل ظاهره لا يتفهمها» فينجح في التعرف على كل مجهول . وفي ميدان « العلم Science » قد يكون البحث و « الاكتشاف » والنجاح غاية ، وقد تكون الغايات هي الأخرى أوهاما نحاول أن ننجح في الوصول اليها ، فتتحقق الغايات البعيدة ، وتصبح أوهام الأمس حقائق اليوم . ولذلك قد تتدافع الأوهام وراء الإنسان الناجح فتتحقق أمانيه البعيدة ، وتتغير مستويات طموحه level of aspiration ، فهناك الكثير من الأهداف التي تحققت قد كانت « آمالا بعيدة المنال » ، دنت إلينا بالكفاح والعمل الدائب ، حيث تختفي الطموحات دائما فيما وراء أوهام ، وهكذا خلق الإنسان في كبد ، فلا تأتي الخيرات بالتمني ، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا .

ولما كان ذلك كذلك ـ يستبقي الإنسان دائما ، وعلى الرغم منه « بعضا من أوهام » ، قد تسعده ، أو تؤرقه فتدفعه نحو الأمل . وهنا تمتزج الأوهام بالأحلام وتختلط بالآمال والأهداف ، وبخاصة حين تتحول أوهامنا إلى أسئلة جديدة أو إلى « علامات إستفهام » تنتظر الحلول والتفاسير . هذا عن سيكولوجية الوهم ووظيفته الاجتماعية ، حيث يعتبر الوهم من المباحث الرئيسية في « علم إجتماع الوهم والخيال » أما المبحث الثاني فهو سوسيولوجية المسرح .

سوسيولوجية المسرح :

هل يمكن أن يصبح المسرح وسيلة للدراسة السوسيولوجية ، وللنماذج

التربوية ؟ وما هى إمكانية المسرح كنهج Method يستخدم فى تثقيف الطفل ؟ !

هناك محاولات سابقة فى علم النفس الجماعى Collective psychology ، قام بها « مورينو Moreno » حيث استخدم المسرح فى التأثير على النظارة من مرضاه وعلاجهم ، وبخاصة فيما أطلق عليه اسم « السيكودراما psychodrama » و « السوسيودراما Sociodrama » ، وهى محاولات مسرحية لدراسة مختلف أنواع الإستجابة response فى علاج المرضى النفسيين ، حين يرون أنفسهم وحالاتهم ومشاعرهم على خشبة المسرح ، فتتكشف لهم الحقائق ، وتتبدى أمراضهم عارية عن كل مضمون . فقد يحصل المريض على الصحة ، حين تتعرى شخصيته تماماً أمام عينيه ، فيتفهم حقيقة موقفة النفسى والاجتماعى .

بمعنى أن سوسيولوجية المسرح ، قد كان لها بفضل ما وضعه أو اكتشفه « مورينو » ، الأثر العميق فى حل الكثير من المشكلات ، وعلاج مختلف أنواع الإنحرافات النفسية والاجتماعية . فكان للمسرح بمثابة وسيلة الترفيه ثم استخدم فى الطب النفسى كوسيلة من وسائل العلاج النفسى والبحث السوسيولوجى فى الوقت ذاته . فأصبح المسرح بفضل حركة التقدم الجديدة ، يقوم بدوره العلاجى Clinical فى شفاء المرضى . وهذا هو ما أفصح عنه « مورينو » فى كتابيه الشهيرين ، من الذى سيخلد ؟ who Shall survive « وأسس السوسيومترى Foundations of Sociometry » ، ويذهب « جورفتش Gurvitch » ، فى مقال له عن « سوسيولوجية المسرح Sociology of the Theatre » ، فأكد على أن هناك أربعة فروع بنائية وتحليلية ، وجماعية ووظيفية ، وتتفرع كلها من سوسيولوجية المسرح . ويقوم الفرع البنائى Structural بتحديد الوحدة والتكامل والتماسك فى بنية العمل المسرحى . ويقوم الفرع التحليلى analytic

بتحليل مختلف المواقف والمشاهد ، من خلال شبكة الحياة الاجتماعية ، ومن وجهة نظر الواقع الثقافى الراهن . أما الفرع الثالث ، فيتصل ، بدراسة الممثلين كفريق متعاون ، يعمل فى تكامل منسجم على أرضيـة من الفهم البنـائى كجماعة إجتماعية Social group تحاول بكل جهدها الفنى ، الانطلاق على خشبة المسرح كى تعمل على تحقيق المطلوب (١) .

ويتصل الفرع الرابع فى سوسيولوجية المسرح ، بدراسة العلاقات الوظيفية بين محتوى الأدوار Roles التى يلعبها الممثلون على خشبة المسرح ، وهنا تصبح دراسة « سوسيولوجية المسرح ، هى جزء جوهرى لا يتجزأ أو ينفصل عن علم إجتماع المعرفة Sociology of Knowledge ويقول « جان ديفنيو Jean Duvignaud يبدأ « المشهد » حين تطفأ الأنوار ، ويظهر الممثلون على المسرح ، ثم تلتف الخيوط حول موقف من مواقف الحياة life-situaton ، سواء أكان موقفاً دينياً أم سياسياً أم عائلياً أم قانونياً . وقد يكون المعبد أو البرلمان أو الأسرة أو المحكمة ، بمثابة الساحة الاجتماعية للموقف المسرحى . ولا ترتد الحياة بالطبع إلى مشاهد المسرح ، بل إن المسرح نفسه ، هو الذى يرتد إلى الحياة ، فيقتطع منها موقفاً حتى نشهده ، ونستمتع به .

وتظهر الحقائق أمامنـا على المسرح ، عارية عن كل مضمون ، فقـد يكشف المسرح عن ملهاة comedy ضاحكة ، أو مأساة tragedy فاجعة ، حين يعرض لنا الأحداث كما تتواتر وتتضافر حول « الحبكة » فى شكل درامى مؤثر .

ولقد صدق « شيلر Schiller حين قال « إن تراجيديا الإغريق مثـل مأساة أوديب Oedipus وسائر المسرحيات اليونانية الكلاسيكية ، قد خدمت جميعها

(1) Burns, Tome., Sociology of Literature & Drama, penguin, 1973. p p. 71 - 77

كوسائل إعلامية وفنية راقية للتثقيف ، والتربية Education (١) .

الفن والحضارة :

ولا مشاحة فى أن « الرسام » و « النحات » و « الموسيقى » و « الروائى » و « الأديب » و « الشاعر » هم على قمة مجتمعاتهم ، الصفوة الخلاقة élite Crèatrices ، على حد تعبير « جان ديفنيو Jean Duvignaud ، تلك الصفوة التى تنفعل بالجمال ، وتلقف القيم الجمالية des Valeurs esthétique من العالم ، وتلتقط من الوجود كل ما هو « جميل » ، ولقد إمتازت هذه الصفوة بالخيال الخصب ، ولذلك يدرس « علم إجتماع الخيال Sociologie de l'imaginaire » مجهودات الأديب ، وأعمال النحات ، ونتاج الروائى والموسيقى .

ويتمركز « جوهر الفن essence de l'art » خيالياً أومثالياً فى تجربة الفنان المعاشة ، كما لا يمكن فهم « التجربة الفنية L'experience artistique » إلا من خلال التجربة الجمعية الكلية totalité de l'experience sociale (٢) وتمتلىء « التجربة الفنية » بالضرورة بعناصر خيالية ، كما أنها غنية بمعينها الفطرى الذى لا ينضب ، خصبة بغدير الروح الكامن فى قاع الوجدان . فطالما تهتف « أصوات العبقرية » بالنداء ، وقد تشدو نشيداً تناجى به المطلق ، حيث تسجد وتقترب من الخالق سبحانه وتعالى فهو « الفنان العظيم » .

ومع تدفق الخيال والوجدان ، تفجرت عبقرية الإنسان مع مطلع الحياة ، فكانت حضارة الفن أسبق من حضارة التاريخ ، حيث ولد الفن كما يقول « جان

(1) Burns, Tom., Sociology of Literatare & Drama, Penguin, U.S.A: 1973. p. 99.

(2) Duvignaud, Jean., Sociologie de l'art., press. uuivers. Paris. 1967. p. 34.

دفنيو Jean Duvignaud ، فى حضن الطبيعة ، خارج إطار التاريخ ، ثم تقدم موكب الحضارة(١) .

فالفن قديم قدم الحضارة ، له ماضيه فى باطن الثقافة ، وتراثه فى جوف التاريخ ، بحيث يمكننا أن نقول فى بساطة لقد بدأ الفن مع « خيال الجماعات الإنسانية الأولى » ، فى أولى موقف للتكيف الإنسانى الجمعى ، حيث بدأ الفن مع الخيال السوسيولوجى الجمعى ، بدأ فى عملية واحدة مع الحياة نفسها ، وتحت قسوة الظروف وقهر الطبيعة .

وكأن « العمل الفنى » فى هذه الحقبة السحيقة ، لم يكن متمايزاً على الإطلاق ، عن « عملية الحياة process of life » بل كان ملتحما بها منذ البداية كل الإلتحام. وفى تحد صارم واجه الإنسان الطبيعة ، ومن أجل البقاء تشبث بالحياة والتحم بالوجود ، وكانت هذه هى أول « أزمة » يعانى منها « الإنسان الحفرى » وهو الكائن الأعزل الضعيف ، فانطلقت القوى الحبيسة والإمكانيات الكامنة فى صدر الإنسان وفكره ووجدانه .

ومن هنا بدأ الفن قبل أن يبدأ التاريخ بأمد طويل ، فلقد إتفق المؤرخون والأثريون فيما بينهم على صدور التاريخ وبدايته منذ بدأت «الكتابة القديمة» .

فلم ينتظر الفن حتى يبدأ التاريخ ، ولكنه كان قد بدأ بالفعل قبل بداية التاريخ نفسه ، حين كشف لنا علم آثار ما قبل التاريخ Prehistoric Archaeology عن ظواهر فنية حفرية ، بدأت قبل ميلاد التاريخ ، حيث صدرت الطلائع الأولى للفنون .

ولقد تفجرت قدرات الانسان وطاقاته ومواهبه ، قبل أن يعرف كيف

---

(1) Duvignaud, Jean., Sociologie du Thèâtre., Press. univers. Paris 1965.

يكتب ؟ فكان الفن قد بدأ بالفعل حينما حاول الانسان أن يعرف كيف وأين يستقر ؟

فأقام لنفسه المأوى ، وثقف العصا ، وشطف الحجر ، واكتشف النار ، وظهرت مهارات « الانسان الصانع Homo-Faber » فى مواجهة قسوة الطبيعة ، وضراوة الحيوان ، وأصبحت « تكنولوجيا صناعة الحجر » هى أول فن يشبع أول حاجة للأمن والغذاء والدفاع .

وعلى مدخل « كهف لاسكو Lascaux » جنوب غرب فرنسا ، تكشف الرسوم والألوان عن موهبة خارقة للفن الحفرى المنقرض ، فهناك صورة رائعة لصف متتابع من رؤوس المها والظباء ، كما وتكشف صورة أخرى عن جاموسة وحشية جريحة وقد تدلت أحشاؤها . وإذا قمنا بدراسة ماضى هذه النقوش والرسوم الحفرية المنقرضة ، لوجدناها ترجع ترجع إلى ١٥ الف سنة ، وهذا التقدير زمنى أولى وتقريبى(١) .

وإستناداً إلى هذا كله ، أصبح الفن منذ القدم ، أداة من أدوات الثقافة لاشباع حاجات الانسان ، كما أصبح الفن على مر التاريخ لغة رمزية Symbolic language للتعبير عن سائر القيم الجمالية ، وللتسامى فى نفس الوقت بأنماط الحياة ، كما تتمثل فى مظاهرها العليا ، حين تتحقق فى الذوق والفكر والوجدان .

ولقد ولد الانسان على الفطرة ، وعاش حياته الأولى كائنا أو « مخلوقاً » متوهما Creature imaginaire » فلقد كان الانسان يتوهم ويتخيل ، قبل أن يحلل ويعلل ، ولجأ إلى مشاعره قبل أن يكتب ويسجل ، ومن هنا هبطت الفنون على الأرض قبل صدور الأدب والعلم والفلسفة ، فلقد بدأت الانسانية تطل على العالم من نافذة الشعور ، ونظرت إلى الوجود من عيون الوجدان .

---

(١) د. حسن شحاته سعفان ، الموجز فى تاريخ الحضارة والثقافة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ٥٤ .

الخيال الجاهلى :

لقد فاض الأدب الجاهلى بأبلغ بيان وأفصح لسان ، وكانت دولة الشعر عند فحول شعراء الجاهلية أقدم عهداً من دولة النثر والكتابة ، لأن الخيال على العموم هو أسبق من الفكر ، ومن المعروف أن خيال العصر الجاهلى كان جامحا ، ثم جاء الاسلام فخفف كثيراً من حدة الجموح ، حين نهى عن الهجاء والفخر والمدح ، كما أنكر الاسلام الكذب « والشعر يزينه الكذب » ، كما يقول الشاعر الاسلامى الأول حسان بن ثابت الأنصارى ، وبعد أن كبح الاسلام الخيال الجاهلى الجامح حطم أجنحته وهبط به إلى أرض الواقع ، ووجه أنظار الناس نحو العقل والتفكير والتدبير ، وفى هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »(١) .

عصر الوهم الاكبر :

ومع هذه الآيات البليغة ، بدأ نور الفكر والايمان ، حيث كان الاعجاز والبهر ، فلقد عاشت الجاهلية قبل الاسلام ، عصر الوهم الأكبر ، وتحققت هذه الأوهام ، حين غادرت تصورات القوم ، فانتقلت من «بنية الفكر الجاهلى العتيق» وتحركت فحوى المشاعر والأوهام البدائية ، لكى تلتحم فى أصنام ، ولتحقق الأوهام فى أجسام ، فلقد تسلطت هذه الأوهام التوتمية Totemique على الانسان البدائى الجاهلى ، حتى توحدت تصوراته المكانية مع أساطيره ومعتقداته ومشاعره فتوحد الاله التوتمى بمجتمعه . ثم قطع دوركايم الغموض والابهام ، حين قال قولته الشهيرة : « ليس الله والمجتمع إلا شيئا واحداً(٢) Le Dieu et la

(١) سورة الغاشيه : الآيات رقم ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(2) Durkheim, Emile., Les Formes Elémentaires de la vie Religieuse, Paris. 1912. pp. 294-295.

Societé ne font qu'un ، ومن الأدلة على ذلك ، عبادة القبيلة لأصنام الجاهلية وهى أصنام وأجسام يصنعونها الناس بأيديهم ، كى تتلاقى مع « ما فى عقولهم من أوهام » تجسمت فى آلهة يعبدونها ، فسجدوا لما صنعوه ، وكأنما يعبدون أنفسهم ، فلقد ساعدت هذه الأوهام القبيلة الأولى ، التى تفتحت عليها عيون العصر الجاهلى بأنساقه الدينية وأنماطه السلوكية البدائية ، وعصبياته العشائرية والقبلية ، على خلق أو تصور تعدد للآلهة ، Polythéisme طبقا لتعدد الأوهام والأساطير ذات الأبعاد المكانية والزمانية المتخلفة فى ماضى الفكر الانسانى السحيق .

وتحدثنا أساطير الأولين ، عن أوهام وأصنام وآلهة لها تاريخها الحافل ، وماضيها الاجتماعى الخصب ، فهى أساطير مضت وإنقضت ، وحفلت بمخلوقات إنسانية وإلهية على صورة البشر . تعالى الله سبحانه ، فهو كموجود ميتافيزيقى ، لا تاريخ له ، ولا يحده زمان أو مكان ، ولا يحيط به علم ، ولا تخلقه أو تصنعه مخلوقات بشرية ، فهو الواحد الأحد ، القيوم بذاته ، وليس كمثله شىء .

ولقد حققت هذه الأوثان والأصنام تمييزات مكانية نظراً لأهميتها ودرجة جاذبيتها الاجتماعية فحددت أجزاء المكان ، وميزت الشمال والجنوب ، والشرق والغرب .

فالشمال مثلا يلحقه وثن العشيرة الضاربة فى الشمال ، والجنوب يلحقه وثن العشيرة المجتمعة فى الجنوب [1] فكانت هذه الأوثان والآلهة هى علامات مكانية تحدد لنا مختلف السبل المؤدية إلى الشمال أو الجنوب ، فهى علامات على الطريق توضح لنا الرؤية ، وتكشف عن مختلف مواضع المكان واتجاهاته .

---

(1) Blondel, ch., Introduction à la psychologie collective, collec. A. colin. Paris. 1952. p. 58.

فجر الفكر الاسلامى :

ومع تباشير فجر الإسلام وضحاه ، دالت دولة الخيال الجاهلى الجامح تحت وهج النور ، مشدودة بفصاحة الآيات ، مأخوذة بجمال اللفظ ، وسحر موسيقاه فى جرس ونغم وبلاغة ، وتنسجم كل هذه العناصر فى إعجاز وبيان الأدب القرآنى العظيم . فاصطدم صلف الخيال الجاهلى بالإيمان ، وأصبح « التفكير مطلباً إسلامياً » ، بدلا من الركون إلى خيال الجاهلية بصلفها وجموحها .

ولاشك أن الخيال هو نفسه نوع من التفكير ، إلا أنه تفكير يتمايز عن « التفكير الموضوعى » فالخيال تفكير منطلق ولا تحده حدود . بحيث يمكننا القول أن الفكر بمجالاته التى تحلق فى المطلق ، وميادينه التى تكتشف الجديد باسم منهج العلم ، وتطلعاته فى دنيا العقل والثقافة ، وتجاربه فى عالم الفن والأدب . وقد يعتمد الفكر على الخيال حين يسبح فى المطلق ، وعلى التصور والتذكر أوحتى الوهم حين يصطدم بالمجتمع .

ويحدد ، علم اجتماع الوهم « مجالات الفكر » بحدود اجتماعية صارمة ، فالخيال نوع من الفكر الجامح الذى يشطح بعيداً فيما وراء الواقع ، بل وقـــد يتجاوز الخيال ما وراء الواقع ، فيطرق « أبواب المجهول » . و « الخيال العلمى » هو خير مثال ، يعبر أصدق تعبير عن هذا النوع من « التفكير المنطلق » .

ومع « التصور » هبط الخيال من دنيا ماوراء الواقع ، كى ينحصر بين قطبى الزمان والمكان .

والتصور الواقعى ، هو الواقع المعقول ، بحيث نستطيع أن نقول إن كل مانتصوره وما لا نتصوره هوموجود فى عالم الواقع . لماذا ... لأن ما لاأتصوره أنا شخصياً قد يتصوره غيرى فى واقعة المشخص . بمعنى أن التصور هنا هو « أمر نسبى خالص » ، كما أن الواقع المتصور هو الآخر منظور من وجهة نظر معينة ، يكون لها رد فعلها فى طبيعة الإدراك والتصور .

إن الخبرة والممارسة والتجربة العملية ، هي مصادر أساسية لكل تصور ، ومن هنا يكون التصور « قاعدة واقعية » بمعنى أنى أتصور فقط ما يقع ويحدث ويجرى هنا والآن ، عن « طريق إستحضار الصور » التى وقعت والأحداث التى جرت ومضت ثم انقضت وان تعود إلينا إلا بالتصور والاستحضار والتذكر ، الأمر الذى معه يمكننا القول بأن الماضى كزمن والمكان كمحل والأحداث كمحتوى ومضمون ، كلها عناصر إجتماعية تلتحم فى نسيج الماضى ، وهى « الاطارات الاجتماعية الضرورية » لكل عملية من عمليات التصور والاستحضار والتذكر .

ومن هنا كان التصور أبعاده ووقائعه وماضيه داخل إطار الخبرة والتاريخ المتذكر .

أما التذكر ، فعملية إستحضار لتصورات مكانية وزمانية ، فالتذكر يعتمد على التصور ، والتصور يستند إلى الواقع الإجتماعى الوضعى والنسبى والمحدد بشرطى الزمان والمكان .

بمعنى أن هناك شيئا من المجتمع يوجد فى جوف التصور الفردى ، فما هو جمعى يتمثل فيما هو « فردى » ، وما يحويه التصور الجمعى ينصب بالتالى فى « وعاء الفكر الفردى » ويلج فى مشاعر الفرد وتصوراته . ونحن بالتذكر نستحضر الزمان الاجتماعى ، ونعيد الماضى ، باستدعاء ما فيه من فحوى ، ونسترجع الأحداث والوقائع فى تتابع رتيب ومنظم . بحيث نعيد بناء الماضى كما تتمثله الذاكرة الجمعية La mémoire collective بالتحامها بالتراث والتاريخ ، ودوامها فى الزمان الاجتماعى (1) .

والزمان الاجتماعى هو الزمان الممتلىء بالتجارب الإنسانية والاجتماعية ،

(1) Halbwachs, Maurice., Les Cadres Sociaux de la Mémoire, Nouvelle Edition, F Alcan. Paris 1935. p. 377.

وهو « الذاكرة الاجتماعية » التي تحفظ لنا حضارة الإنسان الفكرية والدينية والخلقية . ولذلك كان الزمان إطاراً إجتماعيا من إطارات الذاكرة . فالزمان والمكان من الاطارات الاجتماعية للذاكرة ، حيث أننا لا نمضي من الذكرى إلى الزمان ، ولكننا نمضي من الزمان كاطار اجتماعي ، إلى الذكرى كحدث ولى وإنقضى ، كما أننا لا نستثير الذكرى إلا في سبيل ملء الاطار . ولقد كنا نفقد الذكرى لو لم يكن لدينا الاطار لنملأه .

ولا يعتمد التذكر على التخيل ، لاننا نتذكر ما كنا قد تصورناه ، ونتصور ما كنا قد رأيناه في الواقع . ومثالنا على ذلك حين نقول : « نحن لا نتصور الجنة والنار ولكننا نتخيلهما » ، ولا نتذكرهما ، لأن الذكرى تتعامل مع الماضي ، أما الخيال فيتعامل فقط مع المستقبل .

هذا عن ميادين « الخيال والتصور والتذكر » في مجالات الفكر ، وكأنها حلقات متتابعة ، تتوظف كل منها وتتحكم في « مجال محدد من مجالات الفكر » .

أما عن « الوهم » ، وهو المجال الرابع الذي يتساند مع التخيلات والذكريات ، فنقول يختلف الوهم باختلاف طبقات الناس وأذواقهم ، وقد يتدخل عنصر الثقافة Culture والجنس sex في تحديد عمق الوهم ومداه . ومع تقدم العلم والثقافة ، تنكمش الأوهام وتنحسر . والانسان كائن متوهم بطبعه ، ولكن شتان ما بين « وهم البدائي » (١) الممتلىء بالنفوس والأرواح والغيبيات ، ووهم الانسان المثقف أو « المتحضر » . فالجاهل وهمه مركب ، ولا يستوى الأعمى والبصير ، ولذلك كان عبء المثقف من أوهامه أخف وطأة ، حيث بضوء العلم فيكشف لنا أركان الوهم المظلمة ، ومع استمرار ودوام حركة العلم التقدمية ، تقل مساحة

---

(١) « نظرة البدائيين الى الكون » للدكتور أحمد أبو زيد مجلة عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الثالث ، ديسمبر ١٩٧٠ .

المجهول unknown وتطرد المخاوف والأوهام التى إستقرت طويلا بين جنبات العقل الإنسانى .

وإذا كان الوهم هو نوع من التفكير المنطلق ، إلا أن هذا التفكير الواهم قد يكون « غيبيا mystique » ولذلك كان الانسان البدائى أكثر وهما من الانسان المتحضر نظراً لانتشار الخرافة La superstition والغيبيات فى بنية الفكر البدائى . وما زلنا حتى الآن نشهد فى مجتمعات متقدمة آثاراً للخرافة والغيبيات والأوهام ، ما زالت عالقة فى جوانب الحضارة الحديثة ، حيث نشهد فى مجتمعات أوربا نفسها ، شدة الايمان بمسائل غيبية أو خرافية .

ويقول برجسون Bergson ، إن « الخرافة وظيفتها فى العقل الانسانى » ، إذ أن الكائن العاقل هو بطبيعته كائن متوهم ، لأن هناك جوانب « لا معقولة » فى العقل ، تميل إلى الأخذ بالغريب و « اللامعقول » فالخرافة والوهم والايمان بالقوى « الغيبية غير المنظورة » هى ظواهر موجودة فى كل المجتمعات لأن الانسان هو الكائن الوحيد الذى يرتبط عقله بأشياء غير معقولة dèraisonnable .

ولذلك يعتقد « رجل الشارع » أو « الانسان الكادح » أن « الفنان » أو الفيلسوف » أو « الاديب » إنما هم نوع غريب من البشر ، لايقفون بأقدامهم على الأرض ، نظراً لشدة إرتباطهم بأشياء وهمية ولا تهمه شخصياً ، وذلك بالنسبة لتصورية رجل الشارع على الاقل ، لأنها غير مستمدة من واقعة فهى « لا معقولة » ، ولذلك كثيراً ما تتهم تلك التصورية الساذجة ، سلوك « الفنان أو الفيلسوف » بالجنون ، لأنه بالنسبة اليها سلوك غير عادى ، كما أنه غير مألوف لديها . وهذه هى أول صدمة يصطدم بها الفنان ، أثناء كفاحه من أجل قضيته الفنية السامية

---

(1) Bergson, Henri,, Les deux Sources de la Marale et de la Religion, Paris. 1955. p. 106.

قضية « الفن للفن » :

قد تتعالى الصيحات بالتساؤل بين الحين والحين ، « هل الفن للفن ؟ » أم أن « الفن من أجل المجتمع » ؟ ! ، وقد تزداد حدة الصراع ، وتشتد الضجة ، وتدور المناقشات الحامية بين كل فريق . وسنحاول أن نطرح المسألة بدورنا عن طريق تحليل قضية « الفن من أجل الفن L'art pour l'art » حتى نستطيع أن نكشف النقاب عما وراء هذه القضية من جوانب ايديولوجية وظروف إجتماعية ، مرت خلال التاريخ السياسي الأوربي ، وبخاصة على المسرح الفرنسي بالذات .

فلقد صدرت دعوى « الفن للفن » كحركة إجتماعية الأصل ، كانت صدى لحركة « تقسيم العمل الإجتماعي » الذي أصبح أساساً لكل تنظيم صناعي في سائر الأنساق والبناءات الاقتصادية . وفي « بناء » كل مصنع نجد نسقاً إدارياً يصاحبه تنظيم بيروقراطي يحترم مبادىء « التخصص » و « العمل » و « الاستقلال الذاتي » . ومع انتشار النزعات الأنانية المتحررة ، أصبح الفن « ظاهرة تلقائية » ، ويغلب عليها الطابع الفردي المشبع بروح الاستقلال . حين يتسامى الفنان في برجه العاجي ، مترفعاً لا يدنو ، متعالياً لا يهبط .

ولقد إستغلت « البورجوازية » الصاعدة في فرنسا نظرية الفيلسوف الألماني « كانط Kant » في القيم الجمالية ، وفلسفته المتعالية Transcendental بصدد « مبدأ إستقلال الإرادة » (1) ، إستغلالا بارعاً . فحاولت البورجوازية ، إبعاد طبقة الفن والفنانين عن الالتحام بالتيارات الاجتماعية الثورية فاخترعت « مبدأ الفن للفن » حتى تعزل الفنان ، فلا يقف من المجتمع موقفاً إيجابياً ضد الظلم الاجتماعي ، الذي تفشى واستشرى مع أمراض البورجوازية .

---

(1) Ruyer, Raymond., Philosophie de Valeur, Callec. A. Colin. Paris 1952. p. 122.

فالفن للفن ، نداء سلبي إنهزامى ، يدعو إلى عزلة الفنان ، وعدم مساهمته أو ثوريته . وفى قضية « الفن للفن » سلبية ، وفى السلبية كما يقول « باسكال Pascal » جبن وتدهور ، بحيث يقتصر الفن على الشكل والطلاء ، والزخرفة الخارجية لسطح البناء الاجتماعى ، دون أن يلتحم الفنـان بالمضمون والجوهر والفحوى . ومع انكشاف زيف هذا النداء ، توافت « فن الزينه والزخرفة » غير الملتزم ، لأنه كاذب وغير صادق وجبان ، فصدر « الفن الملتزم » حتى لا يكون الفن مجرد « ملهاة » أو « مسلاه » لا جدوى منها لطبقة الفارغين .

إن من ينادى بشعار « الفن للفن » إنما يجد أنه ينادى بشعار أجوف ، كشكل بلا مضمون ، ولفظ بلا معنى ، أو دعوى بلا فحوى ، فالفن نسق System له وظيفته الاجتماعية ، كما أنه فى نفس الوقت ظاهرة ثقافية تشبع فى الإنسان حاجته إلى « القيم الجمالية » .

وفى قولنا « الفن للفن » ضعف وسلبية ورجعية ، فمن الضعف أن ننظر إلى للفن فى عزلته عن الواقع الاجتماعى ، ومن السلبية أن ينشغل الفنان بقضايا لا تحتك بمجتمعه ولا تصطدم بتاريخه ، ومن الرجعية ألا نحترم حرية الفنان وتعبيره وصدقه ، فالعمل الفنى والحرية صنوان . فلقد إنطلق الفن فى التاريخ ومشى وإستقام على الأرض مستنداً إلى الصدق والحرية والجمال . هذا هو الفن الاجتماعى الملتزم والمنتمى ، أما الفن الفارغ اللامنتمى ، فهو « فن الضياع والسلبية » ، فن الإنسحاب والإغتراب .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن الفنان إنسان ملهم ويشارك فى صنع الحياة . فمن الانعزالية أن ندعو الفنان ليصبح ، كائناً هلامياً ، يتقوقع فى القاع لكى يقبع بين الحصى والمحار ، أو لكى يقف بعيداً كالعناكب Spiders ، تفرز من حولها الخيوط . فلا يتقوقع الأديب أو يتشرنق ، فيتخلف عن الركب ، ويتجمد فى

عقم ، فلا ينتج أو يبدع ، وإنما يواكب الفنان حركة التطور الحضارى ، فى عالم سريع التغير ، بالاضافة إلى أن الفنان محاط بالضرورة بقشرة ايديولوجية وبحدود تاريخية وبقيم إجتماعية ، فرضت نفسها جميعاً على نحو صارم . فالنتاج الفنى ، هو نتاج حضارة ، وفيض ثقافـــة بأسرها ، حيث أن ، الحتم الوجودى للمعرفة existential determination of Knowledge مفروض مقدما على كل عمل فى الفن والأدب .

وليس الفن غاية فى ذاته ، وإلا أصبح ترفاً أرستقراطياً لايشنى ولايغنى من جوع ، ولكن الفن فى ذاته ، وظيفة إجتماعية وثقافية يقوم بها الفنان ، حتى يشبع حاجة مجتمعه بقبس من عبقريته الفنية الفريدة ، مما يذكرنا بنتاج « رافائيل Raphael » وروائعه الناطقة فى النحت ، و « سيريالية سلفـــادور دالى Salvador Dali »(١) ، وسيمفونيات « بيتهوفن Beethhoven » ومقطوعات « باخ » ، والحان « موزار Mozart » ، كل هؤلاء العباقرة قد استخدموا « الأصابع العبقرية التى تتكلم » فتشدو ما يتغنى به الدهر ، وما يتحدث عنه الزمان ، ويحكى التاريخ ، فهى تخلق وتنطق وتحمل المشاعل كى تضىء للمجتمع ، وتضيف لحضارة الإنسان ، بل وتعلم الإنسانية كلها .

وعلى هذا النحو أصبح الفن ملتزماً بالمجتمع ، ملتحماً بالحضارة ، بل وقـد يصبح الفن ثورياً ديناميكيـاً ، حين يكون فى خدمة المجتمع ، كحافز عمـل ، وكبرنامج للتغيير الاجتماعى ، لتحقيق المثل العليا ، وللمساهمة فى رفاهية المجتمع .

---

(١) من أعلام الفن السريالى « سلفادور دالى Salvador Dali » و « جوان ميرو Joan Miro » وتهتم النزعة السريالية Surrealism برسم الدوافع اللا إرادية ، ورسم الأحلام والجوانب الفوقية الكامنة فيما وراء الواقع ، فيتطلع السرياليون دائمـاً إلى ما فوق الواقعية Superealism .

فن أجل الحرية ثارت الأديبة الفرنسية جورج صاند George Sand (١) ، وهرب الموسيقار العالمى « فردريك شوبان Chopin » من وطنه طلباً للتحرر من الخوف والبطش (٢) ، فالفن الملتزم هو الفن الاجتماعى التغييرى، وهو الفن الاشتراكى الثورى ، فهى « الفن من أجل الحضارة » قوة وإيجابية وفاعلية . قوة تغييرية ، وإيجابية ثورية ، وفاعلية مدركة ومتحركة .

الفن الاشتراكى :

يؤكد الاشتراكيون على أن الفن لا يصدر من العدم ، ولا يمكن أن يعمل فى فراغ ، وإنما يتجلى كل فن على أرضية الوجود الاجتماعى ، التى هى أرضية كل

---

(١) ولدت الكاتبة « جورج صاند » عام ١٨٠٤ وعاشت حتى زادت على السبعين من عمرها فماتت سنة ١٨٧٦ . وهى مناضلة فرنسية ثورية ، ثارت حتى على نفسها وعلى بنى جنسها من النساء ، فقدمت باسم الرجال ، وكشخصية تاريخية ، كان لها دورها السياسى البارز ، فاشتهرت بعبارتها الدموية ، التى كثيرا ما يستخدمها الماركسيون والثوريون : « الحرب أو الموت ، الصراع الدموى أو العدم :

Le Combat ou la mort, la lutte sanguinaire ou le néant

أنظر فى هذا الصدد :

Marx; Karl., The poverty of philosophy. Moscow. 1966.

(٢) هرب فردريك شوبان Chopin من وطنه تخلصاً من الظلم والطغيان ، أما أسرته وأهله فقد جلدوهم حتى الموت . وفى باريس تعرف على « جورج صاند » المناضلة السياسية المشهورة ، فصادقته ، وعملت على نشر موسيقاه ، وانتقل معها إلى شواطىء جزر مايوركا . ولما ذاعت شهرته فى باريس ، عزفت له دور الاوبرا حين تنقل بين فيينا وبودابست وروما . ثم سافر إلى أمستردام وستوكهلم ولندن ، كى يشدو بألحانه فى كل مكان ثم انتابته العلة ومات على فراش المرض .

مذهب أو فكرة أو إتجاه ، فالتاريخ الاجتماعي للفن ، هو مبعث كل موقف للأدب ، ومصدر كل منزع أو مذهب أو فلسفة للفن .

ولقد طالب الاشتراكيون الثوريون ونادوا بقضية « الفن الجماهيري » بعد أن أصبح الثراء هو السمة البارزة في عصر التصنيع البورجوازي ، وظهرت طبقة أصحاب الياقات البيضاء من كبار رجال المال والتجارة الذين يحتلون الصدارة . في مقاعد وقاعات البرلمان ، فهم الصفوة Elite المختارة في النسق السياسي ، يمثلون « أرستقراطية الصناعة » التي إنضمت إلى الكنيسة ، وتقربت من الملوك والأمراء ، بعد انهيار أرستقراطية الاقطاع . وبتقربها ورعايتها وإنتمائها للكنيسة ورجالها ، أضفت البورجوازية حولها هالة من القداسة .

ولهذه الأسباب جميعها إنتشرت الأفكار الاشتراكية وذاعت بفضل كتابات « سان سيمون » و « فورييه » ، وبدأت الرومانتيكية تتقهقر أمام النقد اللاذع ضد الفن السلبي الذي يأخذ بالشكل والمظهرية ، وأخذت الصيحات ترتفع ، والضجة تشتد ، والأصوات تتعالى مطالبة بالأدب الاجتماعي والفن السياسي الذي يخدم قضايا جوهرية ، يلتزم بها الأديب ، وترفض فناً سلبياً وعدمياً لاينفع الناس ، ولا يمكث في الأرض .

ويؤكد الفن الاشتراكي على قيمة العامل ودور الفـــلاح ، كما يرحب الاشتراكيون بالثقافة من أجل تحرير عقول البروليتاريا ، فالعامل المثقف أكثر انتاجا ونشاطاً وحيوية من العامل غير المثقف . وكذلك الحال بالنسبة للفلاح الناضج الذي يتميز بالوعي والفهم ، فهو خير ألف مرة من الفلاح الجاهل المتزمت . فالثقافة بعد أساسي وجوهري في البناء البروليتاري ، وهي مصدر تماسك البناء وقوته إزاء البورجوازية . ومن هنا كانت القضية الجوهرية والأساسية « للثقافة الجماهيرية الاشتراكية » ، هي تلك القضية القائلة : « دع مائة زهرة تتفتح ،

ومالة مدرسة فكرية تقليدى » .

هذا هو الموقف الاشتراكى بالنسبة لدور الثقافة والفن والأدب ، فالأديب لا يردد ترديداً ببغاوياً ما يدور فى واقع أجوف ، والفن هو حركة واقعية وبناءة ، تتطلع نحو واقع أفضل ، وتلك هى فاعلية الأديب والفنان والمثقف ، فى مواقفهم الايجابية فى تغيير الوجود وتبديل العالم ، وتطوير الإنسان ، وتقدم الثقافة على الأرض . وفى ظل الاشتراكية ، لا يكتسب الأديب أو الفنان ، أدبه أو فنه ، إلا بالنظر اليه ككائن اجتماعى متحضر ، لأن الفنان لا يحس أو يشعر ويتأمل إلا من خلال بنية المجتمع وقوالب الثقافة السائدة فى مجتمعه ، ومن ثم كانت الرابطة أصيلة بين الفن الاشتراكى والمجتمع .

إن القضية الأساسية فى سوسيولوجية الأدب ، هى أن هناك حتمية determinism فرضتها الثقافة على الأديب ، فهو لا يفكر إلا من خلال إطارات إجتماعية صارمة ، فمعاييره وقيمه وثقافته ، هى معايير وقيم وثقافة مجتمعه ، حتى اللغة التى يستخدمها الأديب ، وردت اليه من عالمه الاجتماعى .

فالأديب هو سجين تجربته ، لا يستطيع أن يتخلص من عصره ، أو أن يهرب من طبقته أو أن يتجرد عن قيمه وثقافته . وهذا هو « القفص الذهبى » لكل أديب ولكل إنسان على الأرض . إلا أن الأديب رغم ذلك القفص الثقافى الذهبى ، إنما يمتاز بسمة ثورية ودافعة ونشطة ، وهى « سمة عبقرية فذة » ، وبصيرة من نوع خاص ، وشخصية ممتلئة بالمشاعر ، مشحونة بالانفعالات ، من أجل الادراك الاجتماعى المرهف ، بالتوحد مع وجدان المجتمع ، عن طريق « البصيرة السيكولوجية intraceptiveness » ، وهى قدرة متفوقة للحساسية الاجتماعية والتقمص الوجدانى ، ولا تتوافر مثل هذه القدرة إلا بين عباقرة الأدب وأقطاب الفن والثقافة ، من أمثال « شكسبير ، ودافنشى ، وجوته ، ودستويفسكى » . فالكل

منهم « بصيرته السيكولوجية ، النفاذة ، حين يعايش وينفعل ، فيتقمص شخصياته الفنية والروائية ، وحين يعانى ويجاهد » فيهضم ثقافة عصره ويتوحد مع مجتمعه ، بكل أنساقه وقيمه .

أنماط الفن والثقافة :

فى تعريف مشهور للثقافة Culture ، يقول « إدوارد بيرنت تايلور Tylor « إنها ذلك الكل المركب من المعرفة والمعتقدات والفن واللغة والعادات والتقاليد التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى مجتمع » . فالثقافة تنظيم يحتوى على الفن ، ولذلك يمكن النظر الى الفن كظاهرة ثقافية تشبع فينا حاجاتنا الى القيم الجمالية ، ومن هنا إرتبط الفن بأنساق الثقافة فى سائر المجتمعات .

الفن البدائى :

أ ـ فالكل مجتمع مهما بلغت درجة بدائيته أو تحضره ، رسومه ونقوشه وألوانه وفنونه التى يشكلها من الصلصال أو يشطفها من الصوان أو الظران Flint ، وقد يحفرها الانسان على الخشب ، أو ينحتها على الحجر ، أو ينقشها على المعدن ويقول « رالف بدنجتون Palph Piddington » إن الفن البدائى هو « استجابة ثقافية Cultural Response » نجمت عن محاولة إشباع حاجات عضوية وفسيولوجية فى مرحلة جمع الطعام Food-gathering [1] . ولذلك تحقق تكنولوجيا الفن البدائى مطلباً فرضته الشروط الضرورية للحياة neceseary conditions For life ، ولذلك هبطت الفنون الأولى على الأرض وقد إلتحمت بالثقافة ، وانصاعت لحتمية الوجود الاجتماعى .

ولقد اشتهر « الفنان البدائى » حتى يومنا هذا بمهاراته اليدوية الفذة ، التى قد

---

(1) Piddington, Ralph , An Introduction to Social Anthropology, Vol : 1 Oliver and Boyd, 1960. P. 212.

تثير دهشة الانسان المعاصر ، بل والتي قد يعجز فعلا عن تقليدها ، فليس الفارق بين « الفن البدائي » و « المعاصر » سوى فارق في « المحتوى » و « المضمون » إذ أن الفنان المعاصر ، لا يعمل اليوم ، وينصب على نفس المادة « البدائية » ، وهذا ينجم عن إختلاف الثقافة وتبدل حاجات المجتمع ، إذ أن حضارة العصر وثقافته التكنولوجية قد ركمت في المحيط الاجتماعي ، كما زحفت على الانسان المعاصر ، طبقات كثيفة من العادات والخبرات ، وإذا نحن انتزعنا هذه « القشرة السطحية » ومحوناها ، لوجدنا في أعماق الإنسان ، تلك الانسانية البدائية بصفاتها ونقائها[1].

ولقد امتلأ « الخيال البدائي » طبقا لنزعته التشبيهية anthropomorphism[2] بعالم غيبي مشخص ، يتحكم في كل ما يقع أو يحدث أو يظهر في المجتمع ، بشأن السحر والمحرمات taboo ، ويقوى فوق طبيعته Supernatural ، وهذا هو عالم « النفوس » و « الأرواح » و « الآلهة » .

فلقد شيد البدائي لنفسه عالماً رمزياً غامضاً ، إنغلق فيه الإنسان البدائي على ذاته ، فلم يعد إنسانا يواجه وجوده مباشرة ، أو يرى واقعه وجها لوجه ، بل يراه في صور ، ويشاهده في رموز Symbols ، يراه منعكسا في مرآة نفسه ، تلك التي تتألف من شبكة معقدة إستقاها من مجموع تجاربه الغيبية ويقول أتباع المذهب الحيوي Animism الذي أكده « تايلور Tylor » إن النزعة الرمزية هي التي غلبت على الفكر البدائي ، فواقع البدائي هو واقعه الغيبي ، وعالمه هو عالم من الرموز ، تلك التي تتميز بأنها « غير معقولة inintelligible » ويرجع السبب في

---

(1) Bergson, Henri., Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Paris. 1955. p. 105.

(٢) نزعة بدائية عقلية ، تفسر الاحداث والوقائع بطريقة خاصة ، تنزع نحو تشبيه الطبيعة بالانسان.

عدم معقوليتها ، إلى أن الفكر البدائي قد أحاط نفسه بأغلفة ثقـافية كثيفة ، وبطبقات متراكمة من الرموز التي وردت من عالم بدائي سحيق وظلت ثابتة طوال ماضي الثقافة البدائية نفسها ، ولقد حجبت هذه الجوانب الأيديولوجية ، عن البدائي « كل واقع في ذاته[١] » .

وقد يكون للفن البدائي ماضيه الطويل في تراث الثقافة البدائية ، وعلى سبيل المثال ، فان ثقافة « الهندي الأحمر » في أمريكا إنما ترجع إلى عصر موغل في القدم كما أصبحت مهاراته اليدوية أقرب إلى الفن منها إلى الصناعة والتكنولوجيا ، فظهرت مختلف الصيغ والأشكال في صناعة الأدوات والأواني ، وعلى هذا الأساس شيد الهندي الأحمر ثقافة « الأنكا » وحضارة « المايا » و « الأزتك Aztek » .

---

(١) يعتقد البدائي أن النفس تتمايز تماماً عن البدن باستقلالها عنه ، وقد تنفصل عن بدنها وتتخلى عنه في حالات النوم أو الاغماء أو الموت . وتتحرر النفس كي تعيش طليقة في الغابات ، كما أن للنفس وجودها المستقل في العالم الآخر ، فهي تأكل وتشرب وتقوم بعمليات الصيد والقنص . ولذلك تنتشر في المجتمع البدائي « النفوس » و « الأرواح » ، تلك التي وردت من « عالم الاموات » فهي أرواح « الابطال » و « الاسلاف » التي تعيش حرة بعد مغادرة الجسد ، كما أن لها وجودها المستقل في حركتها وانتقالها ، فقد تسكن الاشجار والنجوم وتعيش إلى جانب البحيرات والصخور . تلك هي الحياة المزدوجة التي يحياها البدائي في يقظته ونومه ، حيث أن النفس تظل نفساً طالما هي قابعة في البدن ، ولا تصبح أو تسمى روحاً إلا إذا انتقلت من البدن ، وتحررت من الجسم ، والموت هو وسيلتها للانتقال والتحرر أنظر كتاب دوركايم « الصور الأولية للحياة الدينية »

Les Formes Elèmentaires de la vie Rleligieuse, F. Alcan, Paris 1912 p. 70.

الاستعارة وهجرة السمات الفنية :

ب ـ يولد الفن كأى كائن حى ، وينمو ويعيش ويزدهر ، وينتقل ويهاجر ، ولذلك إتصل ميلاد كل فن ونموه وتطوره ، بأسباب إجتماعية وجمعية ، كما ترتبط هجرة السمات الفنية وإنتقالها وإنتشارها ، بأسباب تاريخية وأصول ثقافية ومصادر حضارية .

فللفن أنماطه كأنماط الثقافة ، فلكل فن طابعه وفلسفته ؛ كما تتحرك سماته وتنتقل ملامحه فى فاعلية وديناميكية ، وقد تتفاعل وتلتحم وتفرض نفسها فى ثقافات أو فنون اخرى ، عن طريق « الاحتكاك الثقافى Cultural contact » أو مايسمى بالتحضير acculturation ، وقد يبقى الفن هامشيا Marginal ، لا يستطيع أن يتكيف أو يتفاعل كفن دخيل ، مع « ثقافة أخرى أصيلة » ، وقد يذوب فيها ذوبانا ، فتضيع معالم الفن الدخيل ، حين تبتلعه سمات الفن الأصيل .

والفن الفرعونى مثلا شخصيته وإرادته التى فرضها كفن غاز على فنون أخرى خضعت للفن المصرى القديم تحت ضغط الحضارة المصرية وإمتداد إمبراطوريتها مع الفتح والغزو والحرب .

الفن الفرعونى :

حـ ـ ولقد اشتهر الفنان الفرعونى ، بحبه للطبيعة ، فألهمته هذه النزعة فى صياغة الكثير من أعماله ، وهناك لوحة « لاوزات ست تبحث عن طعامها » ، وقد غلبت عليها مسحة زخرفية . ونجد فى عصر « إخناتون » رسوما أكثر وحيا وغزارة وخصوبة ، صدرت فى رقة وجمال يبرزان الطابع الفرعونى الأصيل . هذا الفن الذى طاب الخلود وقهر الزمن ، ببناء الهرم كمقبرة « للاله خوفو » فقامت فنون الهندسة وتكنولوجيا البناء ، حتى يبقى « خوفو » باقيا أبدا ، فهو فى نظرهم ، الإله الحى الذى لايموت ، وبعظمة فن النحت غلبت على تماثيل الفراعنة مسحة من

الكبرياء ، كما صدرت العظمة مع إبتسامة أبى الهول ، تلك التى تبقى كما يقال عنها « هى هى دائما ، تشاهد تواتر الأجيال والشعوب بوجه لا يعروه التغير أبداً » .

وفى إنجلترا اشتهر عالم التشريح البريطانى السير جرافتون أليوت سميث Sir Grafton Eliot Smith بدراسة ثقافات مصر القديمة ، وبتشريح المخ الفرعونى فى ضوء دراسة جماجم الموميات المصرية . ومن علماء المدرسة الانتشارية فى انجلترا يطلق « و.ج برى W. J. Perry » على الفراعنة اسم « أبناء الشمس Children of the sun » وهو اسم اطلقه أيضا على أهم كتبه ، الذى يؤكد فيه إنتشار الثقافة الانسانية كلها ، من « مراكزها الأصيلة فى مصر القديمة » ، فلقد انتشر الفن المصرى الفرعونى ، حتى بلغ دول وثقافات أمريكا الجنوبية ، بمعنى أن المصريين « هم أبناء الشمس » ، التى سطعت وانتشر ضياؤها على العالم القديم(١) .

الفن اليونانى والرومانى :

د — لقد غلبت على الفن اليونانى مسحة فلسفية ، تتوافق مع نظرة الاغريق الواقعية وميلهم للهندسة ، وعلمهم الرياضى وحبهم البطولة ، ويكفى أنه الفن الذى أبدع الحضارة « تمثال الإلهة فينوس » وغيرها من الآلهة فى ساحة « الأولمب » المشهورة . ثم هاجرت تلك السمات الاغريقية إلى روما ، وكان رد فعلها وصداها واضحاً فى ملامح الفن الرومانى وخطوطه .

ولقد نظر الفنان الشرقى إلى الانسان على أنه « جزء من هذا العالم » ، وأن القدرة الإلهية هى المسيطرة على الوجود . وبذلك ظهر « الفن الاسلامى » الجديد وحطم ، كل الجوانب الوثنية التى كانت قائمة فى جاهلية اليونان والرومان .

---

(1) Herskovits, Melveille.. Cultural Anthropology. New York 1964.

الفن الاسلامى :

٥ — مع إنتشار الحضارة الاسلامية ، وتحت وطـــأة الغزو ، وإزدياد الفتوح ، تعـددت الطرز فى الفن الاسلامى ، كالطراز الأندلسى والمغربى والتركى والهندى ، بالاضافة إلى الطرازين العباسى والأموى .

ولقد اهتم الفنان الاسلامى بالرسوم الطبيعية والحيوانية ، وبأعمال الزخرفة الفنية كما تتمثل فى « الأرابيسك » ، وباستخدام الخامات البسيطة والنقوش الرقيقة على الاحجار الكريمة ، وتزيين المساجد ونوافذها والإهتمام بالمحراب والمنبر ، بحيث تنسجم كلها مع روعة وبساطة « الفن الاسلامى » .

ثقافة الباروك :

إن حضارة العصور الوسطى ، لم تمت أو تسقط فجأة ، كما تموت الكائنات البيولوجية الحية ، وإنما أخذت فى الانفصال والتفكك ، فمـزج فن العمارة بين القديم والحديث ، وخلطت هندسة البناء بين«الطراز القوطى»، وسائر فنون البناء التى سادت عصر النهضة الأوربية .

ومع أيديولوجية الفيزياء الجديدة ، ومسلمات الميكانيـكا التى واكبت ظهور الرأسمالية التجارية ، ظهر التعقيد الحضرى الجديد ، والنظام الموحـد للمدينة الباروكية فى القرن السابع عشر ، وفيه تتكامل أسس التخطيط الباروكى مع توافر الحديقة الباروكية المشيدة طبقا لنمط ومنهج باروكى .

منهج التخطيط الباروكى :

التخطيط الباروكى ، تخطيط مستقيم الاناقة ، انتهى مع احتضار عصر الملكة فيكتوريا ، حيث ظهر النموذج الارستقراطى ، ثم ظهر التخطيط الباروكى الملائم لسكنى الطبقات الوسطى .

ومن ظواهر التخطيط الباروكى ، « البواكى » بأقواسها الثلاث المستديرة ،

وهى معروفة باسم « لوجيا دى لانزى Logyia die Lanzi » فى فلورنسا ، وشيدت منذ عام ١٣٨٧ ، ولما كانت تنتمى إلى العصور الوسطى أصلا ومن حيث التاريخ ، إلا أنها تنتمى إلى عصور النهضة من حيث الاشكال والصور Forms .

واشتهرت عمارة الباروك ، بخطوطها الطليقة وأشكالها الرصينة ، وأقواسها الثلاث المستديرة ، وأعمدتها الكلاسيكية . وعلى الرغم من ذلك لم تظهر مدينة واحدة فى عصور النهضة ، تعبر عن الواقع الفنى الجمالى ، أو الطابع الفريد الذى يجمع كل خصائص فن النهضة ، فلم تكن هناك « مدينة نهضة » تعبر تماما عن النمط الفنى الكامل لعصور النهضة ، وإنما وجدنا فقط بعض قطع وملامح منتقاه وأجزاء مأخوذة من عصر النهضة ، إلا أنها قطع وملامح وأجزاء منتقاه ومأخوذة فى نفس الوقت من أنماط وطرز مدينة العصور الوسطى .

وإذا ما استخدمنا لغة الموسيقى ، نقول : إن اللحن ظل طويلا من ألحان العصور الوسطى ، وقد أضيفت اليه القوالب والصيغ والآلات الجديدة ، فتغيرت سرعة إيقاع اللحن ونغماته .

سمات وملامح المدينة الباروكية:

من مظاهر هذا الطراز الجديد فى عصر النهضة ، الشارع المستقيم ، والخط الإفقى المتواصل المسقوف ، والقوس المستديرة ، وتجانس واجهات المبنى ، وتشابه النافورات المزينة بزخارفها المنحوتة ، وامتازت العمارة بصرامتها وانعزالها ، وبعدها عن روح التعاون كما امتازت منازلها بضخامة نوافذها وأعمدتها ، وهذه كلها هى سمات المدينة الباروكية بنماذجها الكلاسيكية .

وبدأت بواكير الطراز الباروكى ، مع بدايات وأوائل عصر النهضة ، أما الطراز الباروكى المتأخر ، فهو يعاصر النماذج الكلاسيكية الحديثة ، كما اتسم القرن الثامن عشر ، باحياء الطراز القوطى، الذى يتسم بالرومانطيقية المستمرة بل والجامحة .

ولم يبرز نموذج بعينه يمتاز بشيوعه وثباته ، حيث أصبحت نماذج النهضة هى المتغيرة ، بينما سادت وبرزت النماذج الباروكية ، على حين تميزت المدينة فى المناطق الحضرية بوجود هذا التحول الحضارى المعقد الذى اتسم بنماذج كلاسيكية حديثة .

ومن نماذج مدن العصور الوسطى ، «مدينة هامبورج» التجارية ومدينة ليون الصناعية ، حيث الحياة الاقتصادية الحافلة المتواصلة النشاط ، كما كان عدد سكان كل منهما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ نسمة منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وكانت روما ، كغيرها من سائر المدن فى حالة حرب دائمة ، وكانت المدن تحكم حكما مطلقا ، فسادت الدكتاتورية ونظم الحكم الاستبدادى ، وتركزت السلطة السياسية فى يد الملك كحاكم مستبد يتحكم فى القوة العسكرية ، ورأس المال الاقتصادى ، ولذلك كان الملوك يحاولون بسط السلطة القائمة بين جيرانهم ، بينما يفقد رعاياهم التمتع بالحرية .

وفى حالة الحروب كان « البلاط » عبارة عن « معسكر متنقل » ، حيث كانت « اليقظة والحركة والانتباه والتجسس » هى الثمن الحقيقى للسلطة . ففقد المجتمع السياسى بذلك ما كان يتمتع به من حرية داخلية . ولقد كان الخطأ الشائع ، هو الخطأ القائل ، بأن اختراع البارود ، هو الذى قضى على نظام الاقطاع ، وهدم الملكيات ، بل لقد أنقذ البارود نبلاء الاقطاع من ضغط المدن المحصنة ، وأتاح اختراع البارود الفرصة لضمان بقاء نبلاء الاقطاع .

وبذلك ينهدم الأساس المنطقى والتاريخى ، استناداً لذلك الخطأ الشائع إلى عهد قريب ، حين أشاعوا أن « روجر بيكون Roger Bacon » ، أو برتولد شفارتز Berthold Schwartz هو الذى اخترع البارود . ولكن الرأى العلمى السائد اليوم ، هو أن البارود من اختراع « آسيا » ، وخاصة « الصين » فى القرن التاسع ،

ثم أدخل استعماله فى أوربا منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

البلاط الباروكى :

وكان للبلاط الباروكى أكبر الأثر على مدنية ونظم العصور الوسطى ، وكانت كلمة « قصر Palazzo » تعنى فى إيطاليا « المبنى الفخم » الذى يشغله أحد النبلاء أو الأمراء ، والطراز الباروكى هو كناية عن الاتساع والقوة والاكتفاء الذاتى .

وكانت « روما » تفخر وتزهو بمستشفى مجهز بمعدات لإيواء ٥٠٤ لقيطا ، ٥٠٠ بنت وبألف سرير للمرضى فى جناح واحد ، مما ينطوى على فقدان لكل المعايير الانسانية ، الأمر الذى معه تحولت العلاقات الشخصية إلى صلات مادية تقوم على الانانية وعلاقات نفعية وتصرفات آلية .

وحين نؤرخ لأرقى فنادق روما اليوم ، نجدها هى نفسها قصور الترف القديمة التى استخدمت فيما بعد كمعارض الفن ومسارح ومتاحف ومجامع علمية .

ولقد ابتكر « السير جون » هارينجتون عام ١٥٩٦ تحسيناً على القصور والمنازل ، بادخال « المرحاض الصحى » ، بدلا من المرحاض الجاف والكراسى ذات العجلات لازالة بقايا الانسان وافرازاته الهضمية والبولية .

وظهرت عادة استخدام ورق المرحاض ، التى صحبت ظهـــور المرحاض الصحى ، وهى عادة صحية تقنية مبكرة مستمدة من الصين رأساً . وكان الطراز الباروكى أكثر ميلا الى القوة الاقتصادية والعسكرية فلقد صدر أصلا عن الاستبداد السياسى والسيطرة على المجتمع . وكانت العبادة الباروكية للقوة أكثر بروزاً وثباتاً فى الجيش والحكومة والمشروعات الرأسمالية ، فكانت أكثر وضوحا حتى من أيديوجيه العصور الوسطى .

الأمر الذى معه ظل شبح الطراز الباروكى واضح السمات ، فوضع بصماته التى تركها تفصح عن شيوعه على كل من فن العماره ، ومناهج التخطيط حتى أصبح التخطيط

الباروكى خاصية حضارية بارزة فى باريس ومدريد وبرلين .

وتعبر الروح الباروكية عن الاسراف العاتى ، واحتقار الحاجات البشرية ، كما غيرت الرأسمالية وقلبت ميزان القوى باسره ، وبدأت الحوافز للتوسع الحضرى، والاهتمام بمشكلات البطالة ، وشئون المال والتجارة ، ورأس المال الصناعى كما أدى الى التطوير الهائل فى نظم البنوك .

ومن الظواهر الاساسية لشدة التحول الحضرى ، مانجم عن التطور الرأسمالى ، فتطورت النظم والمعاملات ، وظهرت المشروعات التجـــارية المنظمة إدارياً ، بظهور أمساك الدفاتر والمؤسسات البيروقراطية والشركات المساهمة ، واتسعت أحواض السفن الثلاثية القلاع ، ونشطت الموانى ذات الفنارات، لسهولة المرور بين المدن التجارية ، وزيادة الحركة فى مختلف ساحات الأسواق نظراً للاهتمام بمستلزمات اقتصاديات السوق ، مع التوسع التجارى والنمو الحضرى .

ولقد كانت أهم اعتراضات «آدم سميث» على نظم التجارة فى العصور الوسطى، إرتفاع ثمن الارض التى أصبحت سلعة كالعمال ، نظراً لتحويل المزارع إلى أراضى البناء ، وافتقار المدينة إلى وسائل سريعة النقل ، وأصبح كل شـــارع مزدحما بالمرور .

ولقد كانت لآدم سميث فى مؤلفه « ثروة الامم The Wealth of Nations» نظرية جامعة عن « المجتمع الحضرى » كما كان له نظرته السديدة فى الاساس الاقتصادى للمدينة ووظائفها ، كما غلبته الرغبة الجامحة فى زيادة ثروة الافراد . وكان النمو الحضرى قد بدأ فى الحقيقة لاسباب تجارية وصناعية ، وقبل أن تبدأ ثورة التكنولوجيا وإستخدام الوسائل التقنية .

وكان لإزدياد الاقبال على قوة الماء فى الانتاج ، إنتشرت صناعة المنسوجات فى أودية يوركشير ، وفيما بعد على طول نهرى كونتيكت ومريماك فى

فى نيو إنجلند .

ولقد كانت المزايا التجارية للمدينة المتمتعة بالحقوق البلدية ، توازى المزايا الصناعية لرخص القوى المحركة وإنخفاض مستوى الأجور ، وزيادة الأيدى العاملة ، فى قرية المصنع . إلا أن أسوأ سمات نظام العمل الصناعى هو ساعات العمل الطويلة ، والعمل المحل والأجور المنخفضة ، وإساءة استخدام الأحداث فى العمل .

وباستخدام الآلة البخارية التى ابتكرها وات watt ، بوصفها أداة رئيسية للحركة ، أصبح من الميسور الماضى فى زيادة تركيز كل من الصناعات والعمال إلى حد أشد كثافة، كما نقلت العامل نفسه إلى مكان أكثر بعداً عن موطنه الريفى . ومع ظهور حقول الفحم ، شجع الوقود الجديد على إقامة الصناعة فى الأماكن التى يسهل الوصول اليها بوسائل النقل البرى والبحرى ، كالقنوات والسكك الحديدية.

ولقد أدى البخار مهمته الحضرية على أكمل وجه ، وأدارت الآلة البخارية المصانع الكبرى والصغرى ، وتألفت «نواة المدينة الحضرية» من آلات توليد القوى والوسائل التقنية مع تعدد المصانع الصغرى التى يمكن أن يستخدم كل منها أكثر من مائتين وخمسين عاملا. ومن هنا أصبح «المركز الحضرى الكبير» بالغ الأهمية بالنسبة للصناعة . كما كان المصنع هو العامل الأول فى زيادة نطاق الإزدحام الحضرى ، وشجع ذلك على نظام النقل بالطرق الحديدية .

ولقد ساعدت طرق النقل بالأساليب التقنية ، وعاونت مع مناجم الحديد وحقول الفحم ، فى إقامة الصناعات الرأسمالية الحديثة ، وتجمعاتها الحضرية ، وظهور الصناعات الثقيلة ، مثل صهر المعادن كالنحاس والحديد وصناعة الصلب والآلات القاطعة ، والزجاج ، وأصبح «المصنع» بذلك هو «نواة الكائن الحضرى الجديد» .

ظهور فن البلاط :

و — لقد بدأ الفن بمعناه الكلاسيكي في بلاط الملوك وقصور النبلاء وقلاع الأمراء ، وكانت تلك القصور والقلاع هي نفسها مراكز إنتشار « فن البلاط » وآداب السلوك الرسمي « الاتيكيت etiquette » ، وأصبحت الصالونات هي ملتقى السادة والاشراف ، ومصدراً للفن والذوق والثقافة .

ولقد استخدم « فن البلاط » الرخام والعقيق والحرير والبلور والمرمر ، كما امتاز بالوحدة العضوية في الطلاء والألوان والزخرفة الفنية . والروكوكو Rococo (١) هو فن القصور وإقطاع العصور الوسطى ، وهو كفن كلاسيكي يقوم على الفخامة والضخامة ، والتسلية والترفية والمباهاة وإظهار النعمة . وفي « فن البلاط » سرف مهول لاحدله ، وترف أرستقراطي متكبر ، وما بين السرف والترف ضاعت حياة الناس ، ونفذت موارد الدول والامارات . فلا حياة سوى لبلاط القصور ومن فيها من ملوك وأمراء ، وكرادلة وإقطاعيين ..

وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، هاجرت من فرنسا إلى المانيا الكثير من سمات وملامح « الروكوكو الفرنسي » . حيث استورد « أمراء الاقطاع الألماني » بطريقة ذليلة ، سمات الفن الباريسي ، ولقد حدث ذلك « الاقتباس »

---

(١) الروكوكو Rococo ، نوع متطور من فن الباروك ، وهو أسلوب في التزيين ، وفن معماري يمتاز بالزخرفة البالغة ، والروكوكو فن فرنسي الأصل ، ظهر في الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وكلمة Rococo مشتقة من الكلمة الفرنسية Rocailles ، وهي توحي بما يسود أو يحف بحدائق فرساي بمناظر الصخور والكهوف الطبيعية . ويعتمد فن الروكوكو على العموم ، على الفخامة والزخرفة والخيال الخصب .

(1) Encyclopaedia Britannica. 14 th. edition, Vol : 19. p. 370.

الفني عن طريق « الاستعارة الثقافية » بهجرة عناصر الفن الفرنسي الذي كان قد بلغ في « عصر الباروك » درجة عالية فاستوردت ألمانيا معظم النماذج الفرنسية ، كما كان الأمراء الألمان يحاكون ملك فرنسا وبلاط قصر فرساى ، فامتلأت قلاع وقصور الامراء ، بنوع ألماني ركيك ، من الروكوكو الفرنسي .

وبعد إندلاع الثورة الفرنسية ، « لم يعد في فرنسا بلاط » ، أو مسارح وقصور وصالونات وقلاع ، تحمل كل ملامح الذوق الفخم Grand Cout .
ولقد أحدثت الثورة الكبرى في فرنسا أزمة في الفكر الأوربي ، حيث حدثت هزة عنيفة أصابت الروح الأوربي بعد إنهيار الفن الشعائري للبلاط ، وانتهاء النزعة الكلاسيكية لعصر الباروك Baroque (1) الذي امتاز بالمظهرية وبالخط العظيم الثابت .

وبعد إنهيار فتنة الروكوكو Rococo ، وانتهاء ما في هذا الفن من طلاوة وفخامة وزخرفة ، ظهرت « رصانة الألوان » و « صرامة الخطوط » واستقامتها في فن الثورة الفرنسية . ومع صدور الثورة الصناعية في انجلترا ، هاجرت الثقافة

---

(١) الباروك Baroque من أساليب الفن الكبرى التي ظهرت في نهاية عصر النهضة ، وهو أسلوب يمتاز بالفخامة والعظمة ودقة الزخرفة وغرابتها أحيانا بل وبالتعقيد الذي يثير الدهشة والاعجاب ، في أغلب الأحيان . ولقد ساد فن الباروك طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهناك اتجاه باروكي في فن العمارة والزخرفة ، يميل الى الأخذ بالأشكال المنحرفة أو الملتوية ، ولقد ساد الاتجاه الباروكي أيضاً في أدبيات القرن السابع عشر ، حين يمتاز الأدب الباروكي بالتعقيد كما يأخذ بالصور التي تعبر عن الغرابة ، وتميل إلى الغريب وغير المألوف . أما كلمة « باروك » نفسها فهي مشتقة من الكلمة الأسبانية Barrueco ، وتعني لؤلؤة كبيرة الحجم وغير منتظمة الشكل .
Encyclopaedia Britannica, 14 th edition Vol : 3. p. 132.

من باريس ، وانتقلت الزعامة العقلية والأدبية فى القرن الثامن عشر ، من فرنسا إلى بريطانيا ، التى أصبحت إقتصادياً وسياسياً ، أكثر تقــدماً ، فسيطرت البورجوازية الانجليزية على حركة الفن والأدب ، وسادت الحركة الرومانيكية الكبرى .

الادب البورجوازى :

بعد إنتصار الثورة الكبرى فى فرنسا ، سادت النزعة البورجوازية ، وسيطرت على سائر اتجاهات الفن والأدب . فغلبت على الفنون الجوانب الحسية والوجدانية ، بعد أن كان الفن قبل ذلك ، أرستقراطياً شديد الترفع .

ولقد خرجت الطبقة البورجوازية من الحدود الجامدة للنظام الطبقى الاقطاعى وأصبحت الطبقة العاملة الانجليزية ، كما أشار « ديكنز » فى بعض رواياته (١) تلقى من البورجوازية نفس المهانة التى كانت تلقاها نظيرتها فى فرنسا . فأخذت طبقة الشعب والطبقـــة الارستقراطية ، تشتركان فى نفس الموقف الذى يعانى الكثير من الآلام ، بفعل الطبقتين الوسطى والرأسمالية .

---

(١) « تشارلز ديكنز Charles Dickens » كاتب بورجوازى يقدم بالمثاليه ، وهو روائى كتب ضد « الاقتصاد الحر » ، وأخذ بمبدأ المنفعة والاقتصاد الموجه . وهو كاتب شعبى ومن أوائل تلاميذ كارلايل ، كتب مذكرات بيكويك Pickwick Papers المشهـورة وقد بيعت منها أربعون ألف نسخة منذ العدد الخامس عشر فصاعداً . وتمتاز لغته بالاستواء والتلقائية والفخامة فكان أسلوبه شعبيا بل وسوقيـــا مثل « كيتس » يهبط إلى « مستوى جمهوره » ليكتب بنفس المشاعر ، وبالطريقة التى يتحدث بها البقال والخادمة . فكان ديكنز صديقا للشعب ، قريبا من الناس ، إلا أنه لم يكن ثورياً . بل كان مصلحاً ينادى بالعـــدل والمثابرة والتدبير ، والسعادة فى الرخاء المعقول ، وفى الحصول على حياة رغدة وكريمة .

Dickens, Charles.; Mr. Pickwick, Selection from Pickwick Papers., Pilot Books, University of London. 1949.

فلقد تغيرت النظرة إلى الفن ، بظهور نقابات وفئات وأيديولوجيات طبقية جديدة ، تعبر عن « اتجاهات » و « مصالح » خاصة بالطبقة الوسطى المثقفة . فالأدب البورجوازى هو « أدب الغالبية » من محدثى النعمة من « طبقة ذوى الياقات البيضاء » وهم رجال الدولة والبرلمان ، وهم من تلك الطبقة التى احتلت مركز الصدارة فى بورصات الأسهم ، والتى كانت تظهر إشمئزازها من كل ما هو إقطاعى ، فنظرت البورجوازية المتطلعة إلى « كل الفنون الارستقراطية المعقدة » على أنها فنون منحلة وفارغة من المضمون .

واستناداً إلى هذا الموقف الثقافى العام ، أصبح الأدب البورجوازى أدباً شعبياً ، كى يتعارض مع الأدب الأرستقراطى المترفع . وبذلك يتغنى الأديب البورجوازى مثل « ديكنز » بحماسة العامل « النبيل » ويثير نشاطه واجتهاده ، ويعمل على تقارب وجهات النظر بين سائر الطبقات . ولذلك كان الأديب البورجوازى الناجح ، هو الذى يقترب إلى حد بعيد من مستوى القارىء العادى وعقليته ، ويحدثه بلغته وأسلوبه . كما كان الأدب البورجوازى فى انجلترا عقلانيا وصارما ، يلتزم بقيم الأخلاق ، وبالمثل الأعلى فى احترام الذات ، ويقف فى منتصف الطريق من أخلاقيات « فرسان العصور الوسطى » الذين كانوا يتطلعون كطبقة الى « القوة » و « الفتوة » و « الشجاعة » و « الأمانة » و « الولاء » ، كما يدعم الأدب البورجوازى أيضا مبادىء المذهب البيوريتانى التطهرى للنساك والرهبان .

ولم تكن الطبقة الوسطى ، تبغى من الفن والمسرح سوى التسلية والترفية ، ودون أن تصطدم بهما بعنف ، فيكون العرض المسرحى سهلا ويسيراً ومرحاً . فالشاعر ليس « عراةاً متنبئاً » ، بل هو إنسان يجلب المتعة والترفيه . وهكذا استبدت الرغبة بالطبقة البورجوازية ، بعد صراع خانق وجو ملبد بالظروف

و الأزمات السياسية ، فكانت الحاجة إلى « فن التسلية » والمتعة وإلى استنشاق الهواء النقى .

ولقد إتجه أقطاب الأدب البورجوازى الفرنسى ، نحو التركيز على القضايم الجمالية . فظهر أدب الصالونات المتأنقة بعد أن ذاعت كتابات « لامرتين » و « هيجو » و « دى موسيه » ، وهم أهم من أتباع الاتجاه الأكاديمى ، كما أخذوا جميعاً بتعاليم المبادىء البورجوازية ، تلك التى كانت تصدر من مدرسة العقل السليم école de bon Sense وبذلك إنتصر « أدب الصالونات » على الفن الجماهيرى والأدب الاشتراكى .

الادب الاشتراكى :

ومع ظهور الأدب الاشتراكى ، بدأ كارلايل Carlyle يهاجم الطبقة البورجوازية ، كما إشتد هجومه أيضا على المذاهب الرأسمالية ، حيث أن الانتاج المادى وأساليب التكنولوجيا والعلاقات الصناعية ، وما فيها من تنظيمات آلية تبعث الجمود فى نفوس الناس ، « فتقتل فيهم روح الفن » ، وبخاصة حين يذوى مع الآلية « الإحساس بالجمال » .

وتمثل كتابات ومسرحيات « برناردشو » قمة الأدب الاشتراكى ، حيث يكشف فى مسرحياته عن أمراض المجتمع البورجوازى وعيوبه ، ويركز فى نفس الوقت على فكرة « قوة الحياة Life Force » التى أخذها عن « نيتشة » ، كما ويؤكد على دفعة الحياة élan vital التى يقول بها « برجسون Bergson » .

وينبغى ألا يفوتنا أن « برناردشو » هو سليل عصر التنوير ، وخليفة الكاتب النرويجى « إبسن Ibsin » ، حيث أخذ عنه أسلوبه فى السخرية ، وطريقته فى هدم كل قديم ، وتحطيم الغريب واللامعقول ، وكشف حقيقة الأوهام والأساطير ، تلك النزعة الأدبية التى إشتهرت عنده باسم « سيكولوجيا الفضح exposure »

أو الكشف والتعرية ، إلا أن برنارد شو كان يكشف عن كل العيوب البورجوازية ، في جو من « الطرافة والمرح » .

ولقد ذهب الرومانتيكيون Romantics ، إلى أن الثروة إنما تزداد وتتكاثر في أيدي البورجوازيين ، بينما يزداد « الشقـــاء » ، ويتفشى بين مختلف فئات البروليتاريا ، تلك « الآلات البشرية » التي تخلق الثروة ، وتصنع سعادة البورجوازي ، حين ينظر من « برجه العاجي » إلى هؤلاء الأشقياء نظرة الكبرياء والاستعلاء .

ولم يكن الأدب الروائي « وحده هو الذي تعرض للهجوم على القيم البورجوازية ، فلقد دخلت « السينما » كوسيلة إعلامية خطيرة ، حين بدأ عصر السينما العالمية ، بأفلام « شارلي شابلن Charlie Chaplin » العظيم ، فهو كفنان وممثل وإنسان قاوم الجشع البورجوازي ، وتارضد ظلم الإنسان لأخيه الانسان .

وفي فيلم « العصر الحديث Modern Time » ، بدأ « شارلي شابلن » الممثل والمخرج ، في سخرية لاذعة بتصوير قطيع متشابه من الأغنام والخراف ، ثم ينقلنا « شابلن » كي نشهد فوراً أحد أبواب المصانع الكبرى بينما هي تنفتح فجأة ثم تخرج منها كتل هائلة من آلاف العمال .

وإذا ما قارنا بين « الأدب الروائي » ، وامكانيات السينما ، لوجدنا أن الرواية الادبية لا ترقى إلى حرية الحركة السينمائية ، حيث يجمع المخرج السينمائي في لقطتين متتابعتين بين الماضي والحاضر حين يتجه إلى الوراء في لقطة تاريخية ، أو عودة للماضي Flash-Back ، ثم يعود بنا إلى الحاضر ، وقد يعرض المخرج الاحداث المتمايزة زمنياً في وقت واحـــد بالتتابع alternative أو بالعرض المزدوج double exposure ، وهذه الامكانيات الهائلة في فن الاخراج السينمائي لا تتوافر على الاطلاق في فن تأليف القصة أو الرواية .

ولقد ظهرت النزعة النفعية utilitarianism واضحة عند فلاسفة البورجوازية وعلى رأسهم « جون ستيوارت ميل » حيث تقاس الغاية الاخلاقية لدى هؤلاء الفلاسفة ، بمقدار الطمأنينة المادية التى تتحقق عند أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع (١) ، وعلى هذا الاساس ، أدت الفلسفة النفعية خدمة جليلة للبورجوازية ، كما أدت من قبل « فلسفة اللذة » خدمة جليلة للفكر الاقطاعى ، ولطبقة النبالة Noblesse ، وبخاصة عندما صدرت أخلاقيات « أرستيب Aristippe » وسائر فلاسفة اللذة فى المدرسة القورينائية .

ولقد تمسكت القيم البورجوازية بأخلاقيات « الكسب » و « المنفعة » و « الانتاج » . وكلها قيم مادية ، تدور حول أرباح رأس المال ، وما ينجم عنها من « فائض أو عائد » .

ولقد إنشغل « بلزاك » و « دكنز » (٢) وغيرهما من اتباع المذهب الواقعى

---

(1) Mill, John. Stuart.. utilitarianism, The Fontana library, Collins, 1964.

(٢) كانت روايات « ديكنز » عمليه واجتماعية ، حيث يقف ضد آثام المجتمع ، وغلظه قلوب الأغنياء ، وصرامة القانون ، والقسوة على الاطفال ، ووحشية الاوضاع فى السجون ، واللا انسانيه فى المصانع والمدارس ، فكان « ديكنز » ينادى باحترام الانسان لحقوق الانسان فدوت كلماته فى كل الآذان وملأت كل القلوب .

وكان ديكنز أديباً مستنيراً ، خيرى النزعة Philanthropist ، طيب القلب ، كما كان ضحيه عقدة الماضى التى أذاته فى صباه وشبابه . فكان « بورجوازياً صغيراً » ، لم يستطع أبداً أن يتغلب على صدمة طرده من الطبقة الوسطى فى شبابه ثم وصوله إلى حافة الطبقه العاملة فكان شعر بالهبوط وبأنه كان موشكاً على الاقل بالسقوط ، حين شعر بأنه قد سقط إلى « أسفل السلم الاجتماعى » .

Realism فى الأدب بدراسة الطبقات الدنيا والوسطى ، كما أهملوا نهائيا فكرة « الفن للفن L'art pour l'art » .

أما الادب الشيوعى فلقد اهتم بالاصلاح الاجتماعى ، ونظر الشيوعيون المتطرفون الى الكاتب أو الاديب على أنه « مهندس الارواح البشرية » على حد تعبير ستالين Stalin (١) .

الوضعية وموقفها من الفنى والادب :

إن المنهج الوضعى فى علم الاجتماع ، هو منهج « مستورد » إن صح هذا التعبير ، من علوم أخرى رياضية وطبيعية ، وكلها علوم « حيادية » تدعم الموضوعية ، ويحاول علم الاجتماع الوضعى الذى يتشدق بالحيادية إزاء ظواهر انسانية حية ، فيقتل « الحياة باسم الموضوعية ، ويحيل « ظواهر الفكر والفن والحياة » إلى أشياء خامدة لا حياة فيها .

ولقد استعار علم الاجتماع من علوم الطبيعة ، اصطلاح « الاستاتيكا » و « الديناميكا » و « التوازن » و « القوة » و « التغير » و « الحركة » ، ومن علم الكيمياء استخدم مصطلح « التفاعل » و « التركيب » و « العناصر » ، ومن علوم الذرة استعمل علماء الاجتماع ، اصطلاح « البناء » و « التنظيم » ، ومن علوم البيولوجيا « الوظيفة Function » و « العملية Process » ومن علم النفس « المجال » و « الموقف » .

وعلى هذا الاساس ، حاول علماء الاجتماع أن يستوردوا مناهج العلم الطبيعى ، كى تطبق على ظواهر إنسانية ، ولا تتفق مناهج العلم أصلا مع ظاهرة إنسانية ، ولا يحدث التوائم أو التكيف بين مناهج مستوردة من علم وضعى آخر كى تفرض

(١) د. ناصر الحانى المصطلح فى الادب الغربى ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ١٩٦٨ ص ١٨٧ .

على ظواهر إنسانية غريبة على ميدان هذا العلم الوضعى .

خرافة الادب الشيوعى :

قال «أندريه جيد» بعد عودته من زيارة الاتحاد السوفيتى : «لم تعد روسيا قادرة على انجاب «تشيكوف» و «جوجول» و «ديستوفسكى» و «تولستوى» وغيرهم من عمالقة الأدب الروسى . فليست العظمة أو العبقرية هى المطلب الأخير، إنما المطلوب فقط هو الإنتماء إلى الحزب ، والإلتزام بنماذجه .

وبذلك يكون الأدب الشيوعى الراهن هو أدب مضلل ، لأنه «أدب الحزب» وبوقه» الذى ينشر الاضاليل مع الكثيرين من أتباع الماركسية فى العالم ، ولقد أدرك السوفييت أن الحلم الجميل الذى وعدت به الشيوعية أتباعها ، لم يتحقق بعد ، فظهرت «الواقعية الجديدة» التى تحتم على الفنان الشيوعى تشويه الحقيقة حين يصور الحياة كما يراها ويتصورها الحزب ويريدها للناس ، وهذا هو الالتزام الذى أسماه «لينين Lenin» بأدب الحزب .

والفن الحقيقى ، ليس خادماً لمذهب أو دعوى ، وليس الانسان هو كائن وحيد أو منعزل أو سجين مجتمعه وقد يكون المصاب أكثر فداحة ، حين ينكر الفنان الحقيقة ويشوهها ، وأى تدمير يمكن أن يصيب الانسان عندما يصبح الفن الذى يقدم لبنى البشر خاليا من الحقيقة ، عمنا فى الخرافة والتضليل . ولم يكن غريبا أن يموت الفن الروسى ، بعد سنوات من الثورة الشيوعية الكبرى عام ١٩١٧ .

فلا وجود للفن فى غياب حرية الفنان ، فالحرية هى التى تتيح للفنان أن يرى الرؤية الصادقة ، دون أن يعوقه عائق ، وحينما يفقد الناقد حريته تصبح الثقافة فى خطر(١) .

---

(١) الدكتور رشاد رشدى ، مقال منشور بجريدة الاهرام بتاريخ ٧/٢/١٩٨٥ .

ولقد كشف لنا « سيجموند فرويد » فى كتابه « الإبداع الأدبى وأحلام اليقظة » عن دور الوعى فى الإفصاح عن الخلفيات اللاشعورية ، وفضح العلاقة بين « المشاعر الفوقية » و « الذات التحتية » .

وعلى هذا النحو الفرويدى ، كان الأدب الشيوعى هو الآخر ، محاولة صريحة الكشف عن خلفيات « البؤس » وتصوير الشقـــاء الإنسانى عن طريق فضح العلاقة بين البناء الاقتصادى التحتى ، الذى يعبر عن الأساس المادى لقوى الانتاج ، وبين البناء الفوقى للثقافة الذى يتألف من الفن واللغة والأدب والفلسفة والقانون.

فلم يكتب « ماكسيم جوركى Gorky كتابه عن « الأم » إلا لكى يقدم لنا صورة واقعية تعبر عن حياة عمال المصانع ، ويكشف عن طبقة العمالة من خلال صراعها وآمالها ومخاوفها . فالأدب الشيوعى ينطلق أصلا من أرض الواقع الطبقى المادى عن طريق الممارسة والإلتحام (١) .

ويقول « لينين Lenin » إن « الأدب البروليتارى » إنما يقف إلى جانب الإنسان الكادح ، كما أن الفن والأدب عنده هما مسمار وترس فى بنيـة المجتمع ، والشعور عند ماركس ليس إلا حركة آلية لها بدايتها ومنتهاهـا ، حيث يبـدأ الشعور بالحيـاة وينتهى بالمـوت ، ولا يعترف المـاركسى بأى شكل من أشكال الوجود سوى الوجود المادى أولا وقبل كل شىء ، وما العقل والنفس والشعور عند الماركسيين إلا « ظواهر إجتماعية لاحقـة » ، فالأدب والثقـافة والفن ، هى ظواهر إجتماعية لاحقة أو مضافة . وهذا ما يدعيه أصحاب الاتجاهات السيكوفيزيقية(٢) .

---

(١) مقال للدكتور نبـارى محمـد اسماعيل ، نشرته جريدة الأهرام العـدد ٣٣٥٨٦ بتاريخ ١٩٧٩/١١/٢٤ .

(2) Durkheim. Emile., Sociology and Philosophy, trans: by D.F. Pocock, London, 1953.

من أتباع النزعة الظلية Epiphénoménalisme ، وهم من القائلين بأن التصورات والمشاعر ليست إلا « ظلا un Reflet »(1) أو انعكاساً للاساس المادي للمجتمع ، الذي هو الاساس الأسفل Infra-Structure فالعقل مادة وليس ظلا ينبعث من المخ cerebrum والمخيخ cerebellum ، أو ينعكس عن مادة عضوية ، ينجم عنها الفكر الفوقي المنبثق عن الأصول الاقتصادية . ويمكن أن نتصور مع الماركسيين سائر « العمليات العقلية » على أنهـــا عمليات سيكوفيزيقية Psycho-physique وأعصاب أو مادة شوكية ، ترتد إلى مجموع الخلايا العصبية الحسية والحركية ، فان هذا التصور السيكوفيزيقي للعقل ، إنما سيؤدي بنا حتمـاً إلى الشك في حقيقـة العقل ذاته ، بل وفي طبيعة التصورات العقلية والجماعية Collective .

وفي الواقع إن الادب الشيوعي لا يحترم الحقيقة ، فلقد أكد الماركسيون وفرضوا المادة على حساب الحقيقـة ، ثم إن الماركسي لا يتوصل الى الحقيقـة إلا بثمن الدم ، وبالصراع الذي يحل التناقض . وهذه نزعة دموية مدمرة فلا يمكن أن نخلق أدباً يستند إلى أرض النفاق والكراهية والحقـد ، كما لا يمكن أن نقـيم مجتمعاً يكون في حالة حرب مستمرة . وأغلب الظن أن « وظيفة الأدب الشيوعي » إنما تتمثل في ضرورة سيكولوجية هامة ، وهي وظيفـة « تنويم النـاس تنـويماً مغناطيسياً . حتى يصبح الإنسان فاقداً لحريته وإرادته وفكره .

فاذا كان « فرويد » ينظر إلى الإنسان من أسفله ، ويدرس أسفـل الآثامن زاوية « الليبدو Libido » أو الجنس وديناميانه ، فان ماركس أيضاً إنما ينظر إلى المجتمع من زاوية « قوى الإنتاج » كمصدر للحركة ومبعث الطاقة ... وإذا كان « فرويد » يحلل أحشاء النفس البشرية من ناحية العقد والكبت ، فان ماركس

(1) Blondel, ch., Introduclion à la psychologie Collective, Collect. A. Colin. Paris. 1952. p. 44.

يحلل البناء الاجتماعي من ناحية الصراع وحرب الطبقات . ولا يحتوي « ضميره الشيوعي » إلا على صراعات طبقية ، وإنفعالات فاجعة ومكبوته ، ولذلك كان الادب الشيوعي نابعاً من عقـــد الماضي الدموية ، ولا يمكن أن نتصور أدباً صارماً وملتزماً ، لايحترم الحرية ، كما هو الحال في الأدب الشيوعي .

إن أعظم ما أنتجه أديب إنما هو النتاج الحر الخلاق الذي يصدر في خلوة حرة وصادقة ،فلا يمكن أن نتصور أدباً يقوم على الكذب والتضليل، وهذا ما يتعارض مع خرافة الادب الشيوعي ، فعلينا أن نتجه نحو النور ، نحو الادب الحق الذي يستند إلى الصدق والحرية والاصالة .

التحليل النفسي وعلم اجتماع الادب :

يستخدم علماء الاجتماع الثقافي ، الادب كوسيلة من وسائل التحليل النفسي والاجتماعي لروح العصر ، ولفهم بنيـة المجتمعات ، وسبر « غـور الثقـافة » ، ومعايشة التصورات الاجتماعيـة . أو بكلمات أخرى ، يتمكن عـلم الاجتماع عن طريق المنشور والمخطوط من ظـواهر الشعر والنـثر والادب ، أن يتطرق إلى دراسة طبيعة « الايديولوجيات » الشائعة ، والأنمـاط الثقافية السائدة في أي عصر من عصور الادب ، التي هي ببساطـة بمثـابة « عصور للفـكر وللفلسفة وللتاريخ » .

فالأدب هو فن من جهة ، كما أنه عصر من جهة أخرى ، بمعنى أنه فن الكتابة والتعبير واللغة ، عبرت عنه الكلمات الصادقة والمتحررة تلك التي تنطلق في اصالة ونقاء « كعدسة لامة » لكل ما يطرح أمامها من عناصر الثقافة وسماتها . حيث أن الأدب بهذا المعنى هو « الثقافة المكتوبة والمقروءة » ، وهو سجـل العصر . فاذا ما تكلمنا مثلا عن « الأدب الفيكتوري » ، فانما نتكلم فوراً عن « عصـر كامل » له سماته ومقوماته .

كذلك سجل لنـــا « شكسبير Shakespeare » « عصر اليزابيث Elizabethan age[1] الذى يلقى ضوءاً » على روعة الحركة المسرحية فى لندن».
فعبر شكسبير أصدق تعبير عن روح مجتمعه وعصره ، كما كشف أدب شكسبير لنا عن عناصر الثقافة الإنجليزية ، وملامح الفكر الإنجليزى ، وسجل لنا كل ما يدور من سمات ، وظواهر ، كانت سائدة فى هذا العصر . حتى مسرحيات شكسبير نفسها قد اختلطت بروح عصر اليزابيث رغم أنها مأخوذة عن آداب قديمة .

ففى مسرحية « يوليوس قيصر Julius Caesar » ، حاول شكسبير أن يلقى ضوءاً على ظروف المجتمع الرومانى القديم ، بالكشف عن الجو الثقافى والأشكال الطبقية السائدة إلا أن شكسبير ، على الرغم منه قد أضاف شيئا من عصره على وجود المأساة الرومانية ، فعبرهو نفسه عن طبيعة مجتمعه وعصره وثقافته ومختلف الأنماط السلوكية واللفظية واللغوية التى كانت سائدة فى عصر اليزابث . فلقد نقل إلينا شكسبير كل أحداث ووقائع « يوليوس قيصر » من مسرح روما Roma القديم ، إلى مسرحه الذى أقامه فى لندن وأسماه بالجلوب Globe .

ولا يقتصر الأدب العظيم على التعبير عن « روح العصر » الاقليمية أو المحلية ، أو حتى القومية ، فقد يعبر الادب الانسانى العالمى عن حضارة بأسرها ، كما عبر « فرجيل Virgil » عن الحضارة اللاتينية الرعائية Pastoral ، فكتب أناشيده وأبدع فى « أدب الرعاة » . كما أصدر لنا « هومير »[2] أدباً حضارياً من نوع خاص ، هو أدب الملاحم الذى يحكى أساطير الحروب الفارسية ويسجل

---

(1) Shakespeare, W., Julius Caesar, Cambridge. London. 1950.

(٢) دكتور لطفى عبد الوهاب : هوميروس مركز التعاون ١٩٦٨ .

لنا طبيعة النمط الأسبرطى فى التربية والحرب ، ويقارنه بحضارة طروادة . وظروفها الاجتماعية والانسانية .

وحين يسجل الأديب للانسانية برمتها ، هنا يتحول أدبه إلى « فلسفة » ، فيكتب الأديب أدبا عالميا ، يتغنى به الدهر ، فيكتب للانسانية برمتها كما يسجل الفيلسوف فلسفة للحضارة كلها .. وهذا هو السبب الذى من أجله صار الادب الحضارى العالمى ، أدباً من نوع خاص ، يتخطى « الامم » و « القوميات » ، أو يتعدى المجتمعات و « الطبقات » ، يطوى الزمان والمكان ، لا شعوبية فيه ، أو إقليمية محلية ضيقة ، وهذه هى الشروط الضرورية للادب الإنسانى العالمى ، الذى يعبر عن تجارب الانسان ومحنه وآلامه ، حين يطلق صيحته ككائن مطلق متحرر من الحاجة . هذا هو أدب الانسان من حيث هو إنسان ، الذى يخاطب الإنسان ككائن[1] ميتافيزيقى أو متعالى transcendental ، وكمقولة كلية ، لاتحدها حدود حضارية ، وتصورات قومية ، وهذا هو « أدب الانسانية » المتحرر من المصلحة السياسية ، والذى يتجرد عن النزعات الاجتماعية ، وسواء أكان الادب طبقيا أو وطنيا ، قوميا أم عالميا ، فهناك عنصر مشترك فى كل تلك « النماذج

---

(١) أقصد بالانسان ككائن ميتافيزيقى ، هو الانسان ككائن مجرد Abstract أو مطلق Absolute . لأن الانسان على العموم . هو إما كائن مشخص Concrete مثل الانسان التاريخى الواقعى ، والنسبى والمحدد الذى نراه هنا والآن Here and now .

وهذا هو الإنسان الاجتماعى المنتمى إلى زمرة ، أو طبقة ، هو الإنسان الراهن الذى يعيش هنا الآن فى « مجتمع أو فى ثقافة محددة بالذات » مثل زيد أبو عبيد .

أما الإنسان ككائن مطلق ، فهو الانسان بلا زمان أو مكان . أو الانسان الذى نراه فى كل الازمنة ، أو الانسان كما وجدناه دائماً يقيم كل حضارة أو يشيد كل عمران . « فالادب العالمى » ، هو الادب الذى يخاطب الانسان فى كل مكان على سطح المعمورة .

الادبية » ، هو نبض الحياة وحركة الواقع الحى ، حين تعبر عنه الكلمات والالفاظ واللغة فتنساب فى حرية وصدق وأصالة .

واستنادا الى كل ماتقدم ، ينبغى أن ننظر إلى الادب على أنه عنصر جوهرى من عناصر التحليل النفسى ، وهو طريقة من طرق التحليل الجماعى ، وعلى المؤرخ الاجتماعى للتاريخ مثلا ، أن يلم إلماماً هائلا بآداب العصور ، باهتمامه بعصور الادب ، قبل اهتمامه بعصور التاريخ ، وانشغاله بوقائعه وأحداثه وماضيه ، كما ينبغى على عالم الاجتماع الثقافى ، أن يدرس الآداب والعلوم ، وكل مظاهر الفلكلور والفن الشعبى ، حتى يمكنه أن يتعرف مثلا على « ثقافة مجتمع ما » أو حين يدرس « فلسفة روح العصر » الذى يريد أن يدرسه ، أو حين ينشغل مثلا بمسائل قيمية أو حرفية ، روحية أو جمعية ، فيغوص فى « سيكولوجية الطبقة » . وعن طريق تلمس القيم والمعايير ودراسة أنماط السلوك والفكر والعمل ، يتمكن الباحث من أن يتفهم فوراً « روح الجماعات » أو « نفسية الشعوب » الأمر الذى يقربنـــا ويقرب الادب إلى حد بعيد من عملية التحليل النفسى . فالاديب كما يقول « سارتر » هو صاحب الكلمة ، و « الكلمات » هى امتداد لحواسنا ، وحين يتكلم الاديب ، فانه يجعلنا نرى بكلماته غيرنا من الناس ، كما يخبرنا بنتاجه الادبى بوجود الآخر ، وقد يحذرنا منه أو يحمينا .

ولما كان الادب هو التزام ، فينبغى أن تكون كلمات الاديب هى صـــدى لاحداث عصره ، يرن جرسها فى آذاننا ، ويحدثنا « بنداء » وكأنه قريب منا . إلى الدرجة التى معها يكون الاديب عند سارتر ، هو الإنسان الذى يؤمن بأن « الصمت » والامتناع عن الكلام ، يعنى وجود علامة استفهام ، فقد يكون الصمت أبلغ من الكلام ، ولايعنى الصمت هو السكوت ، بل قد يعنى « ثورة » أو « تساؤل » أو حتى محاولة ديموقراطية لطالب الكلمة مرة أخرى ، إما للرد أو لتوضيح الرؤية .

فليس الأديب هو الكائن المنعزل فى برجه الميتافيزيقى البعيد ، وإنما هو إنسان تغوص قدماه فى ثقافة عصره وتمتد فى سياق التاريخ »(١) .

والأدب لدى جمهرة الفلاسفة وعلماء الاجتماع الثقافى ، هو حوار له جمهوره حوار يستند إلى الحرية فى التعبير ، والأديب هو الذى ينشغل بخلق العمل الأدبى فينقله إلى جمهوره ، ملتزما بمبادىء الحق والانسانية ، مدافعاً عن الحرية ، ولذلك يمتاز الأدب العالمى بالضرورة ، بالصدق والحرية والاصالة . ويذهب العالم النفسانى « إرنست جون E. Jones » ، وهو من أكثر النقاد العالميين سخاء وعطاء النقد الادبى ، وبخاصة فى دراسته المشهورة « هاملت وأوديب » ، إلى أن هناك حالات ثلاث ، أو طرق ضرورية تمكن الأدب من أن يصبح عالميا وحضاريا ، وهى نفسها بمثابة ثلاث خصائص للادب العالمى .

والخاصية الاولى ، هى فهم العلاقات الإنسانية وتحليلها نفسياً واجتماعيا وثقافيا . وتتمثل الخاصية الثانية ، فى مقاربة الانساق الشعورية والعاطفية والوجدانية ، التى تتصل بالبناء السيكولوجى والثقافى الكامن فى « ذات Ego الاديب » بدراسة « بناء شخصيته » ومفتاحها ، وهل هناك تكامل يربط أو يسود بين « بناء الشخصية » وبنية الشعور والوجدان . أما الخاصية الثالثة فتتمثل فى تقييم العمل الفنى والادبى بوضعه فى الإطار الإسطورى ، الذى يضفى عليه طابعا عالميا ، وتتصل هذه النقاط بما يسمى بالنقد النفسى Psychocritique ، أو النقد الذى يقوم أصلا على التحليل النفسى ، وبخاصة عند « شارل مورون » ، حين يحاول أن يغوص فى « فينومينولوجيا الادب » فيما وراء حالات الوعى واللاوعى ، سعيا وراء تحليل الشخصيات ، من زاويتى علم النفس ، وعلم الاجتماع الفينومينولوجى .

---

(١) د . سامية احمد أسعد : فى الادب الفرنسى المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣٢ .

علم الاجتماع الفينومينولوجي وظواهر الادب :

لقد فتحت الفينومينولوجيا طريقا الى دراسة ظواهر الادب والدين والفلسفة الكشف عن مضمون « القيم » وللقبض على « المعرفة الجوهرية » ، حيث يتيح لنا المنهج الفينومينولوجي مجالا للمعرفة ، ولإدراك « الماهيات » وحدس مكنون القيم وجوهر الاشياء دون الالتفات إلى الجوانب السطحية ، أو الاعراض الحسية الظاهرة . من حيث أن المعرفة الحقيقيه هي إدراكنا لذلك الجوهر حين يكشف عن ذاته كلية ، وحين تتجلى تلك النماذج والماهيات والقيم ، فتكشف عن مضمونها وتزيل النقاب عن مكنونها الجوهري العميق .

ويمكننا أن نميز بين الإنسان كما يدرسه عالم الاجتماع التقليدي ، وبين الانسان في « علم الفينومينولوجيا » ، فقد يكون الانسان الواقعي هو كائن تاريخي اجتماعي ، وقد يكون هو نفسه الحيوان الصانع للالات Homo Haber ، أو الإنسان الاقتصادي Homo Economicus ، هذا هو الانسان كما يتبدى لنا في العيان الظاهر على سطح الواقع . ولكننا إذا ما تعمقنا قليلا ونظرنا فيما وراء ذلك الكائن الواقعي الظاهري ، لإصطدمنا بالإنسان « الباطني الحق » ذلك الكائن « الاصيل original » « غير المنظور invisible » حيث تواجهنا تلك « الذات العميقة Le moi Profond » على حد تعبير برجسون Bergson ، حين يشير إلى « النفس المتفتحة L'âme ouverte »(1) عند القس و « الحكيم » و « البطل » ، ولدى كبار الصوفية والكتاب والفنانين .

وقد يشغل علم الاجتماع التقليدي بالإنسان التاريخي الواقعي ككائن إقتصادي ، أو كصانع ، ولكن علم الإجتماع الفينومينولوجي يتجه نحو

---

(1) Bergson, Henri., Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Press. Univers. Paris. 1955.

« الانسان الجوهرى Essence Man » (١) و « الذات العميقة » و « النفس المتفتحة » ، حيث يصدر الالهام ، ويفيض الوجدان ، وينبع الوحى ، وتتجدد الافكار والمعارف والقيم .

بمعنى أن علم الاجتماع الفينومينولوجى يدرس ظواهر علم إجتماع حاملى المعرفة Carriers of Knowledge على حد تعبير زنانيكى Znaniecki Florian ، (٢)

ويرصد عالم إجتماع حاملى المعرفة ، ظواهر الفكر والفن والثقافة ، وكل ما يتصل بالإنسان ككائن أخلاقى متدين ، حامل للتصورات ، صانع القيم .

وتصدر ظواهر الادب ، عن إبداع الأديب وإلهامه ، وما يعانية فى « عملية الخلق الفنى » ، حين يكتب ويسجل ما عن له من ظواهر ، ومن هنا كانت ظواهر الأدب وثيقة الصلة بقيم الحياة المعاصرة ، فالأديب لا يعيش منزوياً أو منفصلا عن قيم العصر ومشكلاته ، فليس هناك ما يباعد ما بين الأديب ومسرح الحياة(٣) .

ويحاول علم الاجتماع الفينومينولوجى أن يدلى بدلوه فى عالم الشعر والأدب ، ويغوص بين « المبنى » و « المعنى » ، ويتعمق كلمات الأديب ، ويتـــذوق ما وراءها من « مغزى » ، ويتصيد القوالب الشعرية لدى فحول الشعراء ، ليكشف عما فيها ، لانها قد تفصح عن جوانب لم يقصدها الشاعر مهما جاهد فى إخفائهـا ، ومن خلال فهم « المعانى » التى تقفز قفزاً حين تنطلق وتتحرر من عالم الكلمات

---

(1) Mannheim, Karl., Essays on Sociology of Knowledge, Routledge, London. 1952. P. 158.

(2) Stark, Werner., The Sociology of Knowledge, Routledge, London: 1960.

(٣) د . محمد زكى العشماوى « الادب والحياة المعاصرة » الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

والألفاظ ، نستطيع أن نلتقط شخصية الشاعر ، ونلتمس السبيل إلى «ذوهية» بحدس فينومينولوجي جوهري Wessensschau ، هذا الحدس الاصيل الذى يكشف عن روح الشاعر وحياته ، وظروفه ، وما يسود عصره من قيم وأيديولوجيات ومعارف (١) . كما يمكننا بفضل تطبيق المنهج الفينومينولوجي فى علم الاجتماع أن ندرس «شخصية» الأديب من خلال إنتاجه ، وأن نتعرف على ما يسود مجتمعه من اتجاهات وقيم فلقد كان «تولستوى» فى روايته عن «الحرب والسلام» يؤرخ لروسيا المسيحية القيصرية كلها ، وكذلك فعل توفيق الحكيم فى «يوميات نائب فى الارياف» وطه حسين فى «الأيام» ، فكشفا عن حقيقة النظم والاوضاع الاجتماعية فى مصر منذ مطلع الربع الاول من القرن العشرين .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو إمكان تطبيق المنهج الفينومينولوجي فى علم الاجتماع على ظواهر الشعر والادب ، حتى نتوصل فوراً الى مصدر «الوعى» الباطن ، ونتلمس السبيل إلى حقيقة «الروح» التى تخلق وتبدع ، فنتعرف فى بساطة ويسر على ما يدور فى «وجدان الاديب» ، ونلتقط مفتاح سيكولوجية الكاتب والروائى ، ونواجه «الذات الشاعرة» كما تتمثل فى نماذج الاديب، فمن طريق قوالب الشعر مثلا يمكننا أن نتعرف فوراً على صلف المتنبى ، ومجون بشار ، وشطحات ابن الفارض ، وفلسفة مارلو وشكسبير ، وتطير ابن الرومى . كما نستطيع أيضا فى ضوء دراستنا للإنتاج الفلسفى والادبى ، أن نواجه تشاؤم «شوبنهاور» وسخرية فولتير وموليير ، كما نشهد الحبكة الدرامية الضاحكة فى روايات «تشارلس ديكنز» ومسرحيات «شو» . وبذلك يكشف الادب عن حياة الشعراء والكتاب والأدباء .

(1) Mannheim, Karl., Essays On Sociology of Knowledge, Routledge, London. 1952. p. 155.

وفى هذا الصدد يقول لانسون Lanson « إن الادب تتمة الحيــاة » Literature is Complementary to life ، لأن الادب يعبر عما يدور فى المجتمع ، كما يعبر الكلام عما يجيش فى صدورنا . فالادب مرآة الحياة ، ولذلك كان « شكسبير مرآة عصره Mirror of his time » على ما يقول هارى لفن Harry Levin ، فى مقاله عن « الادب كنظام Literature as an institution »(1)

ومن هنا ينبغى أن يلتفت المؤرخ المسرحى ، إلى أهمية « التفسير السوسيولوجى للموقف » ، فيشاهد المؤرخ المواقف المسرحية ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، وفى حالاتها الكلية أو بتجليها فى الموقف السوسيولوجى Sociological Situation ، أو حتى فى المجال السيكولوجى Psychological Field ، ومن هنـا ينفذ المؤرخ المسرحى فيما وراء المواقف ، فيسعى نحو الكشف عن « النظم institutions والانساق Systems » ، التى تلقى ضوءاً أو فى وأدق على بعض مواقف الحيـاة life-Situation التى تكشف لنا عنها مختلف مواقف المسرح ، طبقا لنوع الخبرة والتجربة التى يسكبها « فن المسرح » فى فحوى الثقافة .

وظيفة الفن فى الثقافة :

ولايكون الجمال ممكناً إلا فى مجتمع تسوده العدالة والرفاهية ، ولايزدهر الفن العظيم إلا فى حياة حرة وفى مثالية أخلاقية . ولكن انتشار التصنيع وذيوع المادية وتكنولوجيا العصر ، قد أثرت جميعها فى ثقافة الإنسان الصناعى ، فضعف إحساسه بالجمال ، وقلت قدرته على خلق الفن الرفيع . فقد تحطمت القيم الجمالية فى الثقافة المصنع ، وقيم تكنولوجيا الجرى وراء الكسب والربح . ولذلك نجد أن العناصر الروحية قد تفككت ، بينما القيم الدينية قد جمدت وضعفت ، بين مختلف

(1) Burns, Tom., Sociology of Literature & Drama, Penguin. 1973, p. 67.

طبقات العمال . فكان الاغتراب ، واللامبالاة ، وعدم الانتماء . بمعنى أن العامل قد أصبح مغترباً عن نتاج يديه ، كما ويشك فى صلته بعمله وبرؤسائه ومديريه . وإزاء هذا الاغتراب ، قامت حركة العلاقات الإنسانية فى الصناعة (١) .

ولقد صدرت لفظة « الاغتراب » بعد الثورة الصناعية ، وحروب نابليون المدمرة ، التى زلزلت النفوس فى المجتمع الاوربى . فهرب الكتاب والادباء نحو « سحر الشرق » واغراء « علاء الدين والمصباح » وقصص « الف ليلة وليلة » .

---

(١) اهتمت أبحاث « العلاقات الانسانية » بدراسة السلوك الصناعى ، وحل مشكلة الاغتراب ، ومساعدة العمال على التقارب فى وجهات النظر السائدة فى البناء الصناعى ككل ، حتى تتغير العلاقات الانسانية ، من مستوى الجماعات اللاانسانية العددية aggregate group الى مستوى الجماعات الانسانية العضوية organic group . وذلك من أجل تنمية العامل ، وإعادة بناء شخصيته ، وتطوير العمل والانتاج ، وزيادة الالفة بين العامل والآلة مع زيادة التعاطف والتجاوب بين العمال والادارة ، دون تعسف أو اكراه .

Friedman, G., Industrial society. The emergence of Human Relations of Automation. Glencoe 1964.

كما اهتمت الباحثة الامريكية « مارى فوليت Mary Follet » بميدان التنظيمات الصناعية ، بل وكتبت أول بحث لها لرفع معنويات العمال بعنوان : « التنظيم الصناعى Industrial organization » حيث كشفت « فوليت » عن الصراعات السيكولوجية ، ودافعيات السلطة وتعددها فى كل تنظيم صناعى ، وعلى حد قولها « يجب ألا نعلم أين نضع السلطة ، بل يجب أن نتعلم كيف نمارس السلطة » ومن هنا بدأت أبحاث العلاقات الانسانية فى تخفيف حدة الصراع والتوتر داخل إطار التنظيمات الصناعية وعلى الرؤساء والملاحظين أن يدربوا العمال على حكم أنفسهم ، باتخاذ قراراتهم وحل مشكلاتهم ، فيتعلم العامل ، حرية التفكير والتعبير ، وديموقراطية الادارة ، وأسلوب التكامل والعلاقات .

Follet, M.P., Freedom and co-ordination, London 1949.

التي ترجمها المستشرق الفرنسي « أنطوان جالان Antoine Galland وكذلك فعل « لورد بايرون Lord Byron » (١٧٨٨ - ١٨٢٤) ، وهو من أكبر الشعراء الذين عانـــوا الاغتراب ، وعبروا عن حالاتهم الشعورية والنفسية بالحنين إلى الشرق (١) .

وإستلهاما من قصص الشرق ، وأساطير الهند ، أخذ فن القصـة في الإنتشـار في الأدب البورجوازي الفرنسي ، فظهرت القصة على اختلاف أنواعها ، فالقصـة القصيرة Conte هي بمثابة « قطاع من الحياة وقد استقـل بشخصياته ومقوماته داخل إطار مكاني زماني محدود ، أما القصة بمعنى nouvelle إنما تتنـاول قطاعا أطول من الحياة ، وبخاصة في إطاراته الزمانية والمكانية . أما الرواية Roman ، كالحرب والسلام و « الأخوة كرامازوف » ، فهي زاخرة بالأبطال، حافلة بالمواقف ممتلئة بتدفق تيار الحياة الاجتماعية ، التي تحمـل في طياتها طابع « روح العصـر » ، وهذا هو حال فحول الفن وأساطين الأدب ، فقد امتازوا بشفافية القلب وصدق الاحساس ، ونقاء الإدراك ، وقوة العـاطفة ، فالقلب يؤمن ، والعقل يلحـد ، والقلب يحب ، والعقل يحذر ، وهنا فقط ، في هذا الموقف الإنساني النبيل ، يقف الفنان والأديب والفيلسوف ، وأقدامهم غائرة في روح العصر ، ويجمع الأديب ما بين العلم والإيمان والعقل والقلب ، والفكر والحب ، وتلك هي المثالية الفنية ، حيث يدور جوهر الفن essence de L'art ويتمركز خياليا ومثاليا في تجارب الفن experience artistique تلك التي تمتلىء كلها بعناصر ثقافية واجتماعية ، وهذا ما تؤكده دراسات « سوسيولوجيا الخيال » ، ولذلك يتابع « علم الإجتماع الخيالي » ، مجهودات الأديب ، حين يسجل عالم الإجتماع اللغوي ، ما وراء اللغة

---

(١) د. ناصر الحـاني ، المصطلح في الادب الغربي ، منشورات المـكتبة العصرية صيدا — بيروت ١٩٦٨ .

من ظواهر ومعان وتصورات اجتماعية ، كما يعتمد المحصول meta-Langage الأدبى ، على الصدق والجمال ، كخاصيتين جوهريتين للفن[1].

الوظيفة الأجتماعية للادب :

إن الأدب بنثره وشعره ، بقصصه ولغته ، وما يدور فى رواياته من مأساة أو ملهاة ، ومن وجهة نظر سوسيولوجية للمعرفة Sociology of Knolwedge هو الوثيقة الإجتماعية ، أو العدسة اللامة ، لتصورات المجتمع ومثله وأفكاره واتجاهاته وسيكولوجيته ، يصوغها الكتاب فى صور قد تفصح عن نفسها فى غير ألغاز ، وقد يعبر عنها الأديب فى رموز Symbols مستترة وراء أغطية كثيفة تحجب عنها المعانى ، إلا أنها تخرج جميعا فى صيغ وتراكيب وبناءات لغوية متمايزة ، كالاغانى والاساطير ، والصلوات والابتهالات الدينية والتعاويذ السحرية والكلمات والغيبيات والظاهر الفلكلورية الجماعية كالتراتيل والانشاد .

هذه أنماط من السلوك اللغوى يقوم بها الإنسان للتعبير عما يريده ، كما تسجل أيضا ما يدور فى مجتمعه ولما كان الادب وثيق الصلة بالايديولوجيا اشدة تأثيره على جمهور القراء ، فان الاديب الحق هو الصادق الامين الذى يسجل ويرصد أفراح مجتمعه وأتراحه ، إنتصاراته ونكساته ، حربه وسلمه .

وقد تدور الايديولوجيات فى الادب حول حكايات وأساطير أو حول معان أخلاقية تستند إلى أصول روحية أو قيم دينية ، ولاشك أن جانب الحكاية أو القصة ، هو عنصر جوهرى فى الايديولوجيا ، بمعنى أن القصة أو الاسطورة الايديولوجية ، عبارة عن قصة ذات مضمون أخلاقى ، ويتصل الجانب الايديولوجى بالقصة نفسها ، فاذا ما توفر العنصر الاخلاقى دون مضمون

---

(١) جونسون ، أ . ه ، فلسفة هوايتهد فى الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن باغى بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٦٥ .

أسطورى ، أو طابع قصصى ، فلسوف لا يتوافر لدينا على الإطلاق ذلك العنصر الايديولوجى » . وتشرح القصة الايديولوجية أو تفسر كل فعل أو حدث أو موقف من المواقف السوسيولوجية العامة ، وهذا هذا السبب الحقيقى فى اسبية المواقف والافكار والفنون ، كما تتجلى أو تحلق فى آفاق الميثولوجيا Mythology

ولا يكتسب الاديب أو الفنان « أدبه » أو « فنه » إلا بالنظر إليه ككائن اجتماعى متحضر ، لا يحس أو يشعر ويتأمل إلا من خلال بنية المجتمع ، وقوالب الثقافة السائدة فى سائر المجتمعات والحضارات ، ومن ثم كانت الرابطة أصيلة بين « الفن » و « المجتمع » .

ومن زاوية سوسيولوجيا الشعر مثلا ، يمكننا دراسة أدب الملاحم ، حتى نتعرف على روح الماضى وحركة مجتمعاته ، فلقد سجل لنـــا « هوميروس Homeros » (١) الشاعر اليونانى الضرير الذى أتهم بأن شعره فى « الإلياذة والاوديسية » إنما لم يصدر عن أواقع التاريخى ، ولكنه من خياله الخصب .

ولكن الحفائر العلمية قد كشفت عن بقايا « مدينة طروادة الاثرية» التى حدثنا عنها « هوميروس » ، وتأكد هذا الكشف فى إحدى طبقات منطقة ، تبعد أربعة كيلو مترات عن شواطى الدردنيل . مما يؤكد الرابطة التى أثبتها « هوميروس » وراء الحقيقة التاريخية بالشعر والقصص ، فطابق بين الرواية والواقع ، بين الشعر والتاريخ . وزالت عنه التهمة فلم تشطح ملاحمه فى الخيال ، وكان أدبه سجلا صادقا لعصره اليونانى القديم بكل قيمه وأنساقه ونظمه .

وما يعنينا من سوسيولوجية الشعر من مثالنا الذى سقناه عن « هوميروس» وملاحمه ، نقول فى بساطة ، إن « الإلياذة والاوديسية » إذا ما نظر إليها عالم الاجتماع الدرامى كعمل فنى شعرى فى أدب الملاحم ، لوجد نفسه فجأة وقد

---

(١) دكتور لطفى عبد الوهاب « هوميروس » تاريخ حياة مصر ١٩٦٨ .

« شاهد بعينى رأسه عصراً إغريقياً ينبض بالحياة » ، وكأنما عاد إلينا من الماضى البعيد ، وسقط بين ظهرانينا وجاءنا هنا والآن Here and now وقد هبط علينا « نموذجاً حيا » نراه بشحمه ولحمه .

الدور القيادى والكارزمى للأديب :

لقد قصد « هنريك إبسن H. Ibsin » الروائى النرويجى الشهير ، بروايته « بيت الدمية Doll's House » قصداً تحريرياً هائلا ، وبلغ المسرح النرويجى مقصده من دراما عالمية رائعة ، كانت سبباً جوهرياً وحقيقياً فى تحرير المرأة فى أوربا كلها .

ومما يؤكد الوظيفة الاجتماعية للأدب ، أن كبار الأدباء والكتاب من أمثال « تولستوى » و « جوته » و « هوجو » و « زولا » و « همنجـــوارى » ، هم حقيقة قادة ، إلا أنهم ليسوا بالقادة السياسيين ، وإنما هم إذا استخدمنا لغة ماكس فبر Max weber قوى كارزمية Charismatic Forces لها تأثيرها الايديولوجى على نفوس الناس وعقولهم وأذواقهم ، ولذلك كان لسائر الأدباء العالميين ، وكبار الكتاب أدوارهم القيادية والكارزمية فى مجتمعاتهم .

ويلحظ الأديب الملهم على نحو فينومينولوجى ، وبحدس جوهرى عميق ، جوانب النقص فى مجتمعه ، ويقدم ما يراه من حلول للمشكلات أو عـــلاج للأمراض الاجتماعية ، فلقد نبهنا « جيته » فى مقدمة مأساته المشهورة « فاوست » وكشف عن دور « مفيستوفيل » تلك الروح الشريرة التى تنفى وتدمر وتهـدم ، فأكد على أن هذا الدور هو « دور تقدمى وتطورى » ، يهدم القـديم ويرفضه وقد يقتلعه من جذوره أمام ريح التغيير الدائم المستمر ، حتى تبقى « شجرة الحيـاة خضراء إلى الأبد » على حد قول « مفيستوفيل » .

فأدب « جيته » العظيم ، هو ترجمة وابداع لما يدور فى « روح عصره » ،

وهو عاطفة جياشة وإنفعال خصب يصاحب التغيير الاجتماعي وتطوير القيم ، بعبقرية « لافطة » وعاكسة (١) فكانت « فاوست » هي المرآة التي عكست لنا في صدق وجمال صورة حقيقية الواقع الاجتماعي الذي شاهده جيته بعيني رأسه .

وقد تحذرنا كتابات الأديب، بكلمات تحيطها القداسة ، ولها وقعها في النفوس، وكأنها الأجراس التي توقظنا من نوم دجما طبقي عميق .

وكانت أعمال « فولتير » و« روسو » من الأعمال القيادية التي عجلت بالثورة الفرنسية ، وكان « روسو » هو الممثل الحقيقي لأدب التنـــوير ، نظراً لدوره الكارزمي ، وكان أدبه هو أدب أوروبا برمتها ، كما عبر لنا عن فكر وتصورات العصور الوسطى ، ومن ثم كان أدبه أدبا « عالميا » .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن الفنان لا يعيش في قصور من الفراغ ، ولا يكتب الأديب في أبراج من عاج ، فهذه نظره ساذجة وفاسدة فالأدب هو نبضات من قلب الأديب ، وصيحات من ذكائه ، وصرخات من وعيه حيال عقله ووجوده ، ولذلك تعبر الأعمال الأدبية الكبرى عن معاناة الأديب وغزارة وعيه ، وعن حرارة مشاعره وكلماته الصادقة الحية التي تبقى أبـداً خالدة ، لا تموت ، « مضيئة » لا تنطفيء أو حتى تخبو .

وليس من شك في أن العمل الفني هو عمل وجودي يتصل بصلب الواقع ، ويستغرق تيار الحياة ، وهذا هو ما يؤكده التاريخ الاجتماعي للفن في موقفه من الحياة وتلك هي وظيفة الاديب الوجودي الحق ، أو دوره الكارزمي في كشف وعلاج أمراض مجتمعه .

وقد يكشف الأديب عن أمراض مجتمعه ويعالجها من وجهة نظره ، كمصلح

---

(١) جونسون ، ا . ه ، فلسفة هوايتهد في الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن ياغي بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٦٥ .

سياسى أو كرائد إجتماعى ، وقد يستخدم الاسلوب العلمى فى دراسة أمراض الحياة الاجتماعية Pathologie de la vie Sociale ، وينتظر ما تقدمه الدراسة من علاج . ولقد ظهر الكثير من أمراض القرن العشرين ، كالغثيـــان والتمرد واللامعقول والعبث ، وكلها أمراض عالجها الادب الوجودي المعاصر لذى تصدى لتلك الازمات حتى يرد المثقفين إلى صوابهم ، وأن يعيد ثقتهم بالحياة وإيمانهم بالله وتمسكهم بالخير وحبهم للانسان (١) .

ولا شك أن علمـــاء الاجتماع الدينى والثقافى بالاضافة إلى مشاركة علماء الانثروبولوجيا الإجتماعية واللغوية ، إنما يشتغلون بدراسة « أدب الرعاة » و « الشعر الرعائى » (٢) و « أدب البدو » و « أدب المهجر » وما فيه من حنين للأوطان والايام الخوالى .

فالادب على العموم ، هو مرآة تعكس لنا مشاعر الجماعات وآمالهم وآلامهم

---

(١) د. محمد زكى العشماوى ، الادب وقيم الحياة المعاصرة الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية .

(٢) الشعر الرعائى Pastoral Poetry ، هو شعر عصر الثقافة اللاتينيـة ، ويعتبر « ثيوكريتس Theocritus » أول من كتب فى هذا اللون من شعر الرعاة ، فأسهب فى وصف الريف ، كما استطاع « فرجيل Virgil » فى أناشيده أن يبدع أيضا فأخرج روائعه فى أدب الرعاة . فنظر اليه النقاد نظرة التبجيل ، وأعدوه فى مقام « ثيوكريتس » كما استعمل « بوكاشيو » الشعر والنثر ، وسجل روايته أميتو Ameto » كما كتب « سانازارو Sanazaro » روايته أركاديا عام ١٥٠٤ . وهى أول رواية كان لها أثرها الضخم فى أدب الرعاة ، بل وفى عصر النهضة برمته . أنظر فى هذا الصدد :

د. ناصر الحانى ، المصطلح فى الأدب الغربى ، منشورات المكتبة العصـرية ، صيدا — بيروت ١٩٦٨ ص ٦٠.

وخلجاتهم ، تلك التى جمعها الاديب فى قوالب لفظية وحاكها بطريقة جمالية يتغنى بها الدهر . وكم يتمنى الاديب ولو كان ماركسياً مسرفاً فى ماديته ، أن يعبر «أدبه» عن روح مجتمعه ، وأن تذهب العقول الواعية مذهبه فى الحياة ، وأن تشيع كلماته ونظراته ، بين مختلف طبقات الناس ومنازلهم .

الادب والطابع القومى :

وإذا ما حاولنا الإشارة إلى الابعاد الحضارية فى الادب القومى ، لا نفتح أمامنا فجأة « وجدان شعب بأكمله » ، بمشاعره وقيمة وآرائه ، وهنا يكشف الاديب فى براعة فينومينولوجية فائقة عن طبيعة هذا الوجدان ، كما يفصح لنا فى نفس الوقت ، عن طبيعة الانساق السيكولوجية ، والانماط الثقافية السائدة بحثا عن « روح الشعب Volksgeist » على حد تعبير هيجل (١) ، أو عن « الروح العامة للأمة L'esprit général d'une nation » فيما يقول مونتسكيو (٢) .

ولاشك أن « روح الشعب » إنما تتحقق فى الطابع القومى لكل مجتمع . والاديب كمسجل ومؤرخ لظواهر الفكر ، إنما يرصد الخصائص العقلية والانماط السلوكية ، التى تحدد مختلف ملامح أو سمات الطابع القومى ، عن طريق « معرفة سيكولوجيا الجماعات » ، ووعى الطبقات بذاتها ، ودراسة نفسية الشعوب ، حين يفصح الاديب عن ثقافاتها وتقاليدها وأساطيرها ومثلها Ideals ، نظراً لانعكاس

---

(1) Wein, Hermann., Trends to Philosophical Anthropology and Cultural Anthorpology in Postwar Germany, Philosophy of Science Vol : 24 No. 1 January. 1957.

(2) Radcliffe—Brown , A.R., Structure and Function in Primitive Society, Cohen & West, London: 1969. p. 6.

كل ذلك على أنماط « الفعـــل الاجتماعى social action » وأشكال السلوك الإنسانى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حينما يدرس عالم الاجتماع اللغوى أو الثقافى ، مختلف السمات العامة للطابع القومى عند الفرنسيين أو الألمان ، إنما يفتش فى واقع الأمر عن سيكولوجية الفرنسيين والألمان ، وخصائصها العامة . الأمر الذى يفرض عليه حتماً أن يدرس الملامح العقلية والأنماط السلوكية الناجمة عن شروط الحياة فى نسق إجتماعى فرنسى أو ألمانى (1) فالفرنسى يعتقد بسموه لحبه لحريته الفردية ، بينما يقدس الالمانى «النظام» ، ويضحى بحريته من أجله.

وفى هذا الصدد ، يستطيع كل من الاديب وعالم الاجتماع الثقافى تحديد مجموعة الملامح الخاصة بالعقـــل الفرنسى أو « الروح الالمانى » ، كما يتجلى فى سلوك الفرنسيين والالمان ، وأنماط أفعالهم ، وكلها « خصائص جوهرية وقومية » ، تنجم بالضرورة عن ظواهر التكيف الثقافى ، أو « التطبيع الإجتماعى » داخل إطار أنساق إجتماعية ، أو أنماط ثقافية معينة بالذات .

ويعبر « الطابع القومى » عند الاديب ، وفى علم الإجتماع الثقـــافى عن « سيكولوجيا خاصة Special psychology » بثقافة مجتمع معين . حيث يترك الطابع القومى لوجدان الشعب . كل خصائصه وسماته واضحة على معالم الفن والادب . فالادب الانجليزى مثلا إنما يعبر بالضرورة عن الطابع القومى الانجليزى بكل حذافيره وبما يحيطه وما يدور فيه . وكذلك الحال بالنسبة للادب العربى والادب الفرنسى ، حيث يستطيع علماء الإجتماع اللغوى والثقافى والسيكولوجى والدينى أن يتعرفوا على مجموعة الخصائص العامة لسيكولوجيا

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Merhod in Social Anthropology, Chicago. 1958, pp. 103-104.

الشعوب ، وأنماط سلوكها ومثلها العليا Ideals ، وكافة ظواهر « الفكر » و « العقل » الخاصة بحياة المجتمعات وأنساق الثقافات ، تلك التي تتأثر بتراث الماضي وبآمال المستقبل . فالطابع القومي اليوناني يتأثر بماضيه وتراثه ، حيث يفاخر اليوناني بأفلاطون وأرسطو ، بينما يفخر الامريكي بالنجاح والكفاح ، فهو ابن شعب يتجه بكليته نحو المستقبل ، ويحترم « القيم البراجماتيكية » ، ويقدس العمل والطموح من أجل الرفاهية .

وقد يتضمن الطابع القومي عناصر إقتصادية ، وضغوط سيكولوجية ، وتصورات تاريخية ، وذات جذور عنصرية ،(١) ، لها ذكريات أليمة وفاجعة . فى

---

(١) ليست الفوارق الحقيقية بين الناس ؛ هي فوارق لونية ؛ أو تميزات عضوية وفيزيقية فهذه « خرافة » لاسند لها من علم . فالعنصرية وهم من أوهام الرق وتجارة العبيد في أسواق النخاسة ؛ وكلها ظواهر نجمت عن عصور استعباد الانسان ؛ التي بدأت مع الفتح والاستعمار والمكتشفات الجغرافيه الأولى .

والملون Coloured ، ليس أقل حظاً من الأبيض في مستوى الفكر والذكاء ، أو أدنى درجة في النوع والجنس ، ولقد تأكدت « خرافة الجنس النقي » ، حين ظهرت فلسفات آرية و « لا انسانية » لكي تدعم العنصرية كمذهب ، حين توهم « جوبينو Gobineau » فأعلن سيادة ونقاء العنصر الآرى ، وتشدق أمجاده وعبقريته وأصالته التاريخية ، على الرغم من أن « الآرية » لغة ، وليست « جنساً » ، ولقد استنكر « ردفيلد » النظرة العنصرية ، والفوارق البيولوجية والعرقية ، على إعتبار أن الفوارق الحقيقية بين الناس إنما تتمثل في ذلك التمايز القائم بين تصورات ومعتقدات الناس ، وأوهامهم ، وما يستحوذ على اهتماماتهم وتفضيلاتهم الشخصية وتطلعاتهم واختياراتهم ، وينص ميثاق حقوق الانسان في هيئة الأمم المتحدة ، على تكريم الانسانية ، واحترام حقوق الانسان دون نظر إلى لونه أو جنسه ، أنظر في هذا الصدد ، كتابنا : أصول الأنثروبولوجيا العامة ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ، صفحات ١٥٦ — ١٦٢ .

=

« مسارح الملونين » من زنوج أمريكا ، نجد أن الجنة لا يدخلها ويسكنها سوى السود ، بينما أغلب ما فى النار أو كلهم من البيض. ولاشك أن لهذه الاستعراضات الفنية صداها السيكولوجى ، حيث ترضى هذه « اللوحات المسرحية » طموح الزنجى ومشاعره ، وتخفف من الضغوط المفروضة على أسلوب حياته .

= وأنظر أيضا :

لنتون ، رالف : الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف . المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١١١ .

الباب الرابع

مشكلات الثقافة والشخصية

- الثقافة وإعداد الحياة
- ثقافة الطفل
- الثقافة والتربية Education
- مشكلات الشباب وشغل الفراغ

  Leisure
- ثقافات هامشية Marginal cultures
- ثقافة ذوى الياقات البيضاء
- الثقافة وانحرافات الشخصية
- نمط الثقافة والتركيب الدينامى للشخصية

تمهيـــد

يولد الانسان ككائن طبيعى ، ويحيا ويعيش فى أسرة أو زمرة ، فيتشرب ثقافة مجتمعه ، ويتشبع بقيم الحياة ، ولقد قيل إن الانسان « نبات الأرض » ، وأكد حكماء الهنود على أن الناس جميعاً قد شربوا من كأس واحدة ، تلك هى « كأس الثقافة » .

الانسان بين الحياة والطبيعة :

ومع الحياة ، يعيش الانسان ليتذوق حلوها ومرها ، ولذلك يتشبث الانسان بكل ما فى الحياة ، ويتردد بين جمالها وقبحها ، ففى الحياة جمال السعادة والرخاء ، وفيها قبح التعاسة والشقاء .

ومع الطبيعة ، يبتهج الإنسان بما صنع البارى ، فلقد خلق الله سبحانه فى الطبيعة ذلك الإمتداد الاستاتيكى والتناسق الأزلى . ففى سياق الطبيعة تتوازن القوى وتتعادل.

وفى الطبيعة يتبدى إبداع الخالق الذى يتحقق فى جمال الوجود فى كون مادى منتظم ، ولا نهائية فسيحة ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد المبدع ، فقد تعبر الوردة عن جمالها الطبيعى ، وقد تكشف الزهرة عن بديع صنع البارى وجماله وهو القائل سبحانه : « كنت كنزاً مخفياً ، وأحببت أن أعرف فخلقت العالم ، فيه عرفونى » هذا حديث إلهى قدسى ، يكشف لنا عن برهان على حقيقة الوجود الإلهى . فالجمال الإلهى لا يحتاج إلى ضمان لأن القضيه الجمالية قضية واضحة جلية بينة بذاتها تبرهن عن وجودها ، وتكشف عن طبيعتها حين تتحقق فى « وردة » أو « زهرة » كواقعة عينية مشخصة لا تحتاج إلى دليل مادى أو تعقيد تجريبى .

فالوردة لا تحتاج فى تفسيرها إلى ضمان ، لكى يكشف لنـــا عن حقيقتها أو واقعها الجمالى « بينما قد يحتاج تفسير الانسان » إلى ذلك القبس الإلهى الذى يضىء له أركان « الضمير الخلقى » .

ولا تتحقق الحياة السعيدة ، إلا بخلع الأنانية ، ونزع الحقد ، وتطهير النفس بالمحبة ، فالمحبة دواء القلوب المريضة ، لأن المحبة رابطة ، والرابطة إنتماء .

بمعنى أن محبة الانسان لأخيه الإنسان ، هي رابطة وإنتماء ، رابطة بانسان مشخص Concrete أو محدد بالذات ، وإنتماء إلى « الانسانية كلها » كحقيقة كلية ومطلقة ، وكقيمة مجردة .

وفلسفة الحياة .. ماهي ؟ وكيف تكون ؟ وفيم تتحقق ؟ :

قد نلحظ شواهد الحياة بارزة وراء غشاء بويضة ، حيث تؤكد لنا فلسفة البيولوجيـــا ومبادئها الأولى ، أن وراء كل بويضة مخصبة Fertilized ovum تتحرك أجنة الكائنات الحية omni vivo omni ovum .

وقد نرى تيار الحياة واضحاً ، من خلال عمليـــات ديناميةDynamuic processes كعمليتي « الهدم والبناء » حين تعمل كل منهما في خلايا الأنسجة ، وفي كرات الدم الحمراء والبيضاء ، وقد نلحظ حركة الحياة واضحة . في عملية « تفتح » على صفحة ورقة خضراء ، من أوراق الربيع .

وقد تنبثق الحياة لا كمنصر حيوى أو خلوى يترجرج مع مادة السيتوبلازم داخل غشاء خلية أوحول نواة بويضة ، وقد تتدفق الحياة لا كعملية فسيولوجية مستمرة ، تتصل بالبقاء والوجود ، وهذه هي وظيفة العمليات عـــلى العموم ، سواء في البناء الاجتماعي Social Structure ، أو حتى في البنـــاء العضوى organic structure ففي الأول عمليات جمعية collective ، وثقـــافية cultural ، أما في الثاني فنجد أن كل العمليات فسيولوجية وفردية .

وتتوظف كل هذه العمليات وتعمل من أجل الحياة ، ولذلك تسمى بعمليات الحياة Processes of life ، ولها دورها في الأجهزة العضوية ، بل وفي كل بناء وفي كل تنظيم organization ، وهي عمليات ضرورية لبقاء المجتمع ، وحياة

الكائن العضوى ، مثل عمليات الهدم والبناء ، والتعاون والصراع ، والتفاضل والتكامل ، والتكيف والتفكك .

وقد نرى ظواهر الحياة تحت عدسات الميكروسكوب ، حين تتعذر رؤيتها بعيون بشرية محدودة المجال والبصر والقدرة . فالعين المجردة ، لا تستطيع أن تبصر مناشط الحياة فى الكائنات الدقيقة ، كالبكتريا والجراثيم والميكروبات . وكلها كائنات دقيقة حية لها دورها فى الحياة ، بل وتحمل فى طياتها كل خصائص ووظائف الحياة من حركة ونمو واغتذاء ، وهذه هى الوظائف الأولى للكائنات الدقيقة الحية ، مثل البروتوزوا Protozoa أو الكائنات وحيدة الخلية ، كما خلقت منذ صدرت الحياة على سطح البسيطة .

وقد يتتبع البيولوجى ظواهر الحياة ، حين يقبض عليها فيما وراء الأصداف المتحجرة ، فيرصدها من خلل الكائنات الخلامية ، والشعب المرجانية . وهناك يعالج الكيموى « المادة الحية » كما تتمثل فى تركيب « بنية كائنات بسيطة ، تتألف من مادة معقدة ، بسيطة البناء والتكوين ، لها دورها البيولوجى ، وضوابطها فى عمليات الهضم والحركة والنمو . وهنا قد تتدخل عمليات عضوية تقوم بها خلايا موظفة ، حيث أننا نعلم من دروسنا فى علوم النبات Botany ، تمايز نماذج الخلايا ووظائفها فى سائر قطاعات النبات المختلفة ، من أوراق وسيقان ، ومن مقاطع الجذور والثمار والزهور ، فلكل مقطع من قطاع ، خلاياه الخاصة ، فتختلف الخلايا باختلاف الشرائح والمقاطع ، وقد تتحقق الحياة فى « ماضى إنسان » فتحكى تاريخه ، وتسجل لنا سماته ، وترسم ملامح شخصيته ، وتكشف لنا عن أمراضه وعلله ، كما تترك لنا الحياة فى النهاية « آثاره » و « بقاياه » .

موقف الفنان والفيلسوف من الحياة :

من الأخطاء الشائعة وجود علم معاصر يقال له « علم الحياة » أو « البيولوجيا

Biology » ، حيث أن الحياة كظاهرة لا يمكن إطلاقا لأى «عالم وضعى» أن يسبر غورها . لسبب بسيط جداً ، وهو أن العلوم الوضعية إنما تدرس « طبائع الأشياء » والموجودات الكونية ، كالطبيعيات أو « الجوامد » التى فقدت الحياة ، ومن الطبيعيات الهواء والماء والفضاء والأسطح، والطبقات الجيولوجية ، ومن « الجوامد » العناصر والأحماض والقلويات والبالورات ، وكلها موضوعات تخضع للعلم والتجربة والمنهج الوضعى Positive method

ويمكن البيولوجيا أيضا كعلم البويضة المخصبة ، أن تدرس « طبيعة المادة الحية » كالخلايا والأنسجة ، وأن تكشف عن حقيقة الحياة الكامنة فيما وراء المادة حين تصبح الحياة عارية أو منعزلة عما يحيطها من عناصر وتفاعلات داخل إطار الخلايا التى يضطلع بها علم متخصص من علوم الحياة ، هو علم « الهستولوجيا Histology » .

ولاشك أن الحياة أشمل بالطبع من مجرد الوقوف عند « خلية » أو « بويضة Ovum » أو كائنات وحيدة الخلية Protozoa . حيث أن الحياة شيء زاخر ومتدفق ، فقد حفلت بالكثير من الألوان والصور ، فجمعت بين الاضداد ، ففيها اليابس والرطب ، ويغلب عليها ما هو « مادى » وما هو « روحى » ، وفيها حركة استاتيكية ثابتة كالشروق والغروب وتعاقب الفصول ، وما يكون له رد فعله فى أيكولوجيا Ecology النبات والحيوان ، وفيها يتعاقب الليل والنهار ، وتتتابع الظلمة والنور ، والظل والحرور .

تلك هى حركة الافلاك الاستاتيكية ، أما عن حركة الحياة اليومية ، فلقد حوت فى طياتها « الجميل والقبيح » و « الصادق والكاذب » ، يتمثل فى « الحق » و « العدل » والظلم والانظلام ، وفى الحياة دفع الناس وصراع البشر ، وتدفق الكل من أجل السعى والرزق والعمل ، فلقد خلق الانسان فى كبد . يشقى ويعمل

ويكة من أجل الحياة . ومن أجل العمل كان « الرق » ، ومن أجل أصحاب العمل راجت « تجارة العبيد » بعد صيدهم وشحنهم من موانى إفريقيا السوداء ، ومن أجل حضارة الرجل الأبيض . أبيد « الهنود الحمر » بلا رحمة فى سهول أمريكا .
هذه هى عجلة الحياة كما تدور ، وهذه هى القصة كما يحكيها التاريخ .

وقد يقال إن الحياة منطقها ، أو أن للحياة فلسفتها وأخلاقياتها ، أما عن منطق الحياة logic of life فلا يسير على وتيرة واحدة ، ولا يتجه طبقا لمقدمات ونتائج بعينها ، وإنما يتألف منطق الحياة مما يشتق منها من أنساق وأقيسة وقضايا قد تبدو لنا « مضادة للمنطق anti-logic » بل و « لامعقولة » فى أغلب الاحيان

أما « فلسفة الحياة » فحافلة بالمتناقضات ، وهى فلسفة خصبة لا تتوقف ، لانها متغيرة ومتجددة . الحياة كفلسفة تقوم على مبدأ الهدم والبناء ، هدم القديم المتهالك ، وبناء الجديد المتطلع . أما أخلاقيات الحياة فقد جمعت بين فلسفات متفائلة وأخرى متشائمة ، ومزجت الحياة بين حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، ودمجت فى عائلة واحدة ، ما بين السماء والارض ، فاجتمع حول المائدة ، الفاضل والرذل ، والناسك والزنديق .

وقد يقال إن « الحياة فن » على ما يذكر بل ويمان ، أديب فرنسا الكبير « اندريه مورروا » ، فيصدر كتاباً باسم « فن الحياة » وذلك لان فن الحياة ، إنما يتمايز عن أسلوب الحياة style of life فمن طريق فن الحياه يمكننا أن نمارس السعادة والصداقة والعمل ، لان فن الحياة هو الحياة كما ينبغى أن نعيشها ، ولذلك يعلمنا « فن الحياة » الكثير ، مثل « فن الزواج » و « فن التفكير » و « فن الحب » بل وقد نتعلم أيضا « فن الشيخوخة » ، حتى نحقق أفضل حياة ، وأسعد لحظة .

غاية الحياة ... إعداد وتربية :

ولا نعجب فالحياة مدرسة وإعداد وتربية ، وأمل وغاية ، فقد تقوم الحياة من أجل تحقيق هدف أو حلم بعيد ، يكافح الإنسان من أجله فالحياة مسرح كبير

فيه حركة وإعداد ، وتأهب واستعداد . وتدور على مسرح الحياة ملهاة أو مأساة ، تجتمع فيها مواقف يكون منها الإنسان هو المشاهد ، القريب البعيد ، القريب بمشاعره وطموحاته ، بعيد بظروفه وواقعه . ولاشك أن مواقف مسرح الحياة ، هي حافلة بالأنانية والغيرية ، بالحقد والحسد ، مفعمة بالحب والكراهية ، بالغيرة التعصب ، فسرح الحياة ، هو مسرح القوة والعنف ، اليأس والرجاء ، القبض والبسط ، الرحمة والفظاظة ، وقد تتجلى على «مسرح الحياة» أحياناً سمات من العبقرية والجنون .

وكلها مواقف إنسانية لحماً ودماً ، تتفجر بالمعانى التى قد يلتقفها أديب ، أو يترجمها فنان أو يلتقطها فليسوف ، ليكشف لنا كل منهم بمنهجه وأسلوبه وأدواته ، فيرسم لنا صورة ، أو ليغوص فى لحمها الحى فيأتى بالقريب النادر ، وقد يكشف للأديب والفنان والفيلسوف عن جوانب خافية أو غافية ، لا يراهب إلا عبقرى ولا يسجلها سوى شعور مرهف ، ولا يتصورها سوى خيال مبدع ، ولا يفسرها أو يفضها سوى « فيلسوف » .

فلقد جمعت مواقف الحياة بين دفتيها كل نتاج البشر من فكر وحضارة ، من أمل وألم ، كما حفلت كل تجارب الناس المفعمة بالبغض والمروق والعقوق ، فى الحياة ، ماضى الأمم والشعوب والحضارات وهو ما من حافل بالحرب والسلام بالنصر والهزيمة .

هذه هى الحياة ، سراء وضراء ، حكمة وسخرية ، الانسان فيها بطل تلعب به الأقدار ، وتتصرف فيه كدمية وسط أنواء الظروف التى تحركه وتسخره ، وقد يسيطر الانسان على دفة الحياة ، فيصيب أو يخفق ، لأن الحياة هى أقوى تيار ، تندفع كالريح لاتتوقف ، إلا من أجل تجديد الحياة مع تبسم الأرض بالخضرة ، وتفجرها بالخير والنعمة والبركة .

ومن مجموع آلام البشر ، وتراكم شقاء الإنسان ، ظهرت الحضارة ، ولكى يشيد الإنسان لنفسه ثقافة ، فكانت « طلائع الحضارة » التى بدأت منذ ميلاد الحياة وتطورها وحركتها على ظهر الأرض .

إن عجلة الحياة تجرى وتدور بلا رحمة ، فهى تمر وتكر فلا يعنيها تفاؤل أو تشاؤم . والحياة وفق « تصورية رجل الشارع » هى أهم ما يهتم به الإنسان ، وهذه هى «التصورية الساذجة» . حيث يكون العلم للحياة ، والفلسفة للحياة فالحياة أكثر قدراً من قيمة وأهمية العلم والفلسفة ، نكافح من أجلها ، فلا تخضع لعلم بعينه أو فلسفة بعينها ، لسبب بسيط جداً وهو أن «الحياة لا تتفق مع النظرية Theory» ، ولا تخضع لقانون علمى Scientific law . فليست هناك نظرية للحياة كحقيقة ثابته ومنتظمة تخضع للقياس Measurement والتنبؤ Prediction ، لأن عملية الحياة هى عملية واحدة فردة ، ولا يمكن أن يصدر القانون العلمى الذى يحكم عملية واحدة فردة .

وإن كان ذلك كذلك ـ فلسوف تتحول حركة الحياة إلى حركة استاتيكية ثابتة ، يمكن رصدها ، وسبر غورها ، إلا أن عجلة الحيـــاة لا تدور كما تدور الأفلاك والأجرام التى تسبح فى الفضاء ، لأن حركة الحياة هى حركة ديناميكية «لا تقبل القياس» ، هى حركة مضادة للنظرية . لأن فلسفة الحيـــاة ، هى فلسفة مضادة للنظرية ، مما يذكرنا فوراً بعبارة « مفيستوفيل » فى مأساة جوته المشهورة « فاوست » : « إن النظرية رمادية اللون ياصديقى ، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد » .

فاذا كانت الحياة حركة وخلق وديمومة duration فلسوف تحيل النظرية حركة الحياة إلى « عدم » و « جمود » . إلا أنها حركة متجددة رغم أنف العدم ، ذلك الذى تحيله الحياة إلى « خلق » و « وجود » لأن الحياة حـــركة متدفقة

ومضادة للعدمية والجمود ، بل وتحيل «ماهو بالقوة إلى ما هو بالفعل»، فيخرج الحى من الميت ، فتنتقل «المورثات الحية» إلى الجمادات وإلى عالم النبات ومملكة الحيوان ، فيكون الخلق من العدم ، وتتولد الحياة من موات ، فيجرف تيار الحياه كل شيء أمامه .

والموت هو الحالة الفيزيقية الوحيده لتوقف الحياة ، إلا أن هناك حالات شعوريه كالضجر واليأس والغثيان وفى تلك الحالات الوجودية ، يشعر الانسان بهبوط الحياة ، وبخاصة إذا ما ثقلت علينا أثقال الزمن ، فتقل البهجة ، ويقف الانسان من حياته موقفاً سلبياً . وتتمثل مهمة الأديب أو الفنـــان فى إعادة البهجة إلى الأشياء ، والحركة إلى الزمن ، والحياه الى الوجود الكثيف المانع .

وحين يعيد الأديب البهجة والحركة ، تشيع الألفة ، فنقف من الحياه موقفاً إيجابياً ، وقد ينظر الأديب إلى تراث الماضى البعيد ومادته القديمة ، فيعيد اليها النبض والحركة ، بعد أن يضع عناصر الحيـــاة ، وينفخ فى مادة الماضى وتراث التاريخ من روحه ، فيظهر الخلق الجديد من أطلال التاريخ وموات الماضى وعدم الزمان والحركة ، وتلك هى عبقرية الأديب والفنان ، حين يبعث الماضى من جديد ، فتنبعث فيه الحياه ، وتدب الحركة فى ثوب معاصر ومتجدد .

وقد يشهد الإنسان فى تيار الحياة الجارف ، صوراً بلا معنى Meaningleas على الرغم من أن عمق الحياة بعيد ، ولاضيق فيه ، لأنه عمق مستعرض . فلا يراه الا النابه الفطن ، فهناك من الناس من لا يشعر بالحياه ، حين تجرى وتدور ، فهو إما مريض أو معتوه أو متخلف . فهناك من يحيا ويعيش ثم يموت وكأن شيئاً لم يكن، فقد ينشغل «الإنسان المتعب الكادح» بأثقال الحياة ، فيبقى عشوراً فى زحمتها، فلايتذوقها نظراً لضعف قدرته على المعايشة ، فلايشعر المتعب الكادح بالحياة نظراً لشدة المعاناة ، واصطدامه أو صراعه مع الوجود الكثيف المانع . وعلينـا أن نشعل

لهؤلاء شموع الفلسفة ، والفن والأدب ، مواقد الثقافة ، وأنوار الفكر ، وأضواء العلم ، ولنوقد معاً شمعة حتى تضيء لهم جوانب الحياة المظلمة ، فتجعلها أكثر تقبلا وتكيفاً، حين نتعاطف مع الوجود ، فتبتهج الحياة وتزداد نفوس الناس طمأنينة ومرحاً .

الفصل التاسع

ثقافة الطفل

* تمهيــــد
* فن تثقيف الطفل
* التنشئة الاجتماعية
* الإعلام
* سينما الأطفال
* التخطيط التربوى
* التربية والمدرسة والطفل
* الشباب وشغل الفراغ Leisure

تمهيد :

الأطفال زهور الأسرة ، وبراعم الحياة وربيع العمر ، هم أمل الغد ورجاله قال فيهم شاعر النيل حافظ ابراهيم :

رجال الغد المأمول إنا بحـــاجة إلى قـــادة تبنى وشعب يعمـــر

وفى ضوء تلك المعانى ، إرتبطت الطفولة بالحياة برباط عضوى ، فالأطفال براعم الحياة ، ومع هذه البراعم المتفتحة تستمر الحياة ، ولسوف تستمر الحياة ، رغم أنف العدم . ومن خلال فهمنا لهذه العبارة التى أصدرتها كشعار ، تستطيع أن تتذكر إذا ما عدنا قليلا الوراء ، كيف احتفل العالم كله بعام الطفل ، فكانت أعياده فى كل بيت ومدرسة ، نقيمها فى سائر المؤسســـات التربوية . فظهرت فى هذه الأيام الاهتمامات الجديدة بفن تثقيف الطفل ، كما ظهرت فنون جديدة للاعلام من أجل إعداد الطفل إعداداً تربوياً ناجحاً وسليماً .

فن تثقيف الطفل :

لما كانت « الثقافة Culture » هى المعين الوحيد الذى شرب منه الناس ، فلقد شرب الناس جميعاً ، كما يقول حكماء الهنود ، من كأس واحدة ، تلك هى كأس واحدة ، تلك هى كأس الثقافة . فليس الإنسان إلا « نبات الأرض » يتـــأثر بالبيئة العقلية والاجتماعية ، ويتشرب ثقافة مجتمعه . وعن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية . تنتقل الثقافة إلى الأطفال . وللمدرسة دورها الإجتماعى الخطير فى تثقيف الطفل . ونقل « التراث الاجتماعى » . من أدب وعلم ودين وفلسفة . ومما يعمل على شرح الثقافة ونقلها إلى عقلية الطفل ، مختلف وسائل الإعلام المشهورة وأهمها « المسرح » ، حيث يمكن اعتباره من أهم وسائل نقل التراث الثقافى للاطفال وهو وسيلة التربية والاستزادة والاستفادة . وكذلك تعرض « مســـارح الأطفال » سائر البرامج التى تتمشى مع تصوراتهم وأحلامهم الصغيرة ، وتخيلاتهم

التي تتفق مع نظراتهم البريئة وإحساساتهم البسيطة سواء أكان ذلك في مراحل الطفولة المبكرة أو حتى المتأخرة .

وقد يستخدم مسرح الأطفال كوسيلة لإيضاح سوسيولوجية وسيكولوجية ، للكشف عن مواقف « عسكرية » أو « بوليسية » مع عرض القصص التاريخية والسياحية من أجل توسيع وتعميق أذهان الأطفال وآفاقهم .

ومن أهم المسارح التي قدمت للأطفال أمتع البرامج ، ذلك النوع من المسرح المسمى ، بمسرح العرائس ، وهو قريب من أفـــلام « الكارتون Cartoon » في السينما والتلفزيون ، ومن أشهر برامج مسرح العرائس في جمهورية مصر العربية ، برنامج الليلة الكبيرة ، وهو برنامج مشهور يستمتع به الجميع من صغار وكبار المشاهدين .

التنشئة الاجتماعية :

من المشكلات التقليدية التي واجهها المربون وعلماء النفس والاجتماع ، مشكلة التنشئة الإجتماعية Socialization ، باعتبارها نقطة الإنطلاق الأساسية ، في إعداد الطفل وتربيته وتعليمه ، فتزايدت الصيحات ، وتكثفت الاهتمامات لدراسة مشكلات الأطفال الاجتماعية والصحية .

ولقد كشف خبراء اليونسكو عن دور المؤسسات العالمية ، وخاصة اليونيسيف حيث عبرت جميعها عن كيفية الاهتمام بالطفل والطفولة ، بيولوجياً ونفسياً ، مع ضرورة الإلتفات إلى إبراز الجوانب التي تدعم صحة الطفل بالكشف عن تنمية الطفل عضويا وتطويره اجتماعيا والعمل على تثقيفه ورفع مستواه .

ولكننا نتساءل ، كيف يمكننا الاهتمام بالطفل وثقافته ؟ وماذا نعني بثقافة الطفل ؟ وما هي الأجهزة والمؤسسات التي تهتم بهذه الوظائف الجوهرية في بنـــاء الطفل وترشيد سمات شخصيته ؟

فى الرد على كل تلك المسائل ، نقول ، لقد تكثفت فى السنوات القليلة الماضية اهتمامات العلماء ، وتصميم البحوث الخاصة بمؤسسات الأطفال ورعاية الطفولة ، وإعداد البرامج وتخطيط المشـــروعات ، وبرمجة Programmation الخدمات والوسائل والأدوات ، التى تهدف جميعها نحو هدف وحيد هو وتنمية ثقافة الطفل».

وكيف يمكن تنمية ثقافة الطفل ؟

بتدعيم شخصيته ، وتأكيد ذاتيته ، وإبراز جوانب القوة والذكاء ، وتشجيع المبادأة ، ودعم وتحسين مستواه بيئياً وإجتماعياً ، ولقد كان لإحتفالنا بعـــام الطفل ، صداه فى مدارسنا وجامعاتنا ومؤسساتنا ، وماصاحبه من إثارة وصخب وإعلان ، وما تخلله من توجيه وترشيد وإعلام . وتجد فى كل هـذه الأنشطة ، علامة طيبة تبرز لنا مدى خصوبة المادة ، ووفرة الدراسات حول عالم الأطفال ، تلك المادة التى يمكن جمعها وفهمها وهضمها بامتصاص كل ما يدور داخل جدران الأسرة والمدرسة والمجتمع ، من قيم ومبادىء وأنماط السلوك .

الأمر الذى يبرز لنا الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للاسرة ودور المجتمع فى حماية الطفل ، كما يؤكد لنا ضرورة إحترام الدولة للاسرة وسن التشريعات الدستورية المنظمة بقصد الحماية والرعاية ، حمـــاية الطفل ، ورعاية الأسرة ، باعتبارها اللبنة الأولى فى البناء الإقتصادى للمجتمع السياسى .

الاعلام والنمو الاجتماعى للطفل :

من أكبر وسائل الآعلامية للاطفال وجود المتاحف ، التاريخية والعلمية ، ومن أشهر المتاحف العلمية ، متحف الفضاء بولاية ألباما ، الذى فتح أبوابه لأفواج الأطفـال اليوميـة ، وذلك لبنـاء أو تشييد العقليـة العلميـة ، بالنسبة للاطفال وصغار الصبية . الذين يتعلمون محتويات المتحف العلمى ، بينما يسهدون وذلك دون إلقاء محاضرات أو عرض أفلام . بل طبقا لمبدأ ، تعلم وأنت تسهد ،

فيحصل الطفل على معلوماته أثناء جولته ، وقد يمارس التجارب ويتوصل بنفسه إلى الإجابات ، فيتدرب الأطفال على برامج التعليم الآلى بزيارة مراكز الكومبيوتر ، للمعلومات . ويتعلم الطفل قوانين العلم ، حين يقوم المشرفون بتحريك جرس معلق يثبت بالتجربة حقيقة القانون القائل « لكل فعل رد فعل مضاد له ومســـاو له فى الاتجاه » وقد تكثر وتتعدد وسائل الإيضاح البصرية والسمعية التى تقوم بتسهيل عمليات الحساب أو الهندسة للاطفال ، وقد تساعدهم فى عمليات « الهدم والبناء والتجميع والتركيب » وكلها عمليات مفيدة للنمو العقلى والارتقاء الذكائى بين الأطفال .

ولاشك أن « تنمية الذكاء » وتدعيم الفكر العلمى بين الأطفال ، إنما يكون له صداه فى تعميق معلوماته وغزارتها ، فتنتعش المدركات العلمية ، وتغزر التصورات الثقافية بين الأطفال ، وتزداد على مر الأيام إتساعا وعمقا .

ولكى تنمو وتزداد ثقافة الاطفال ، علينا الاهتمام بأدب الطفـل ، وتنوير عقول الصغار بأحسن القصص ، حيث تتلى عليهم قصص الزعماء والانبياء والابطال بقصد رفع مستوى الاطفال ، وشحذ هممهم ، وصقل قدراتهم الفكرية والذكائية ، الامر الذى يزداد فيه الخيال خصوبة ، مما يساعد على المبادءة والابتكار ، وتشجيع الذاتية وتعظيم الفضيلة والبطولة ، وفهم المروءة والتضحية وانكار الذات ، مع الاهتمام بكل برامج الاطفال التليفزيونية .

أدب الطفل :

تزداد مبيعات « كتب الاطفال » فى العالم العربى ، وأصبحت « مجلات الطفل » سلعة رائجة . ويحتاج « أدب الاطفال » إلى خبرة ناضجة ، وأسلوب بارع لمخاطبة الطفل ، كما يحتاج « كتاب الطفل » إلى اخراج بديع يناسبه تربويا ونفسيا . ويمكن توحيد كتب الدراسة ومناهجها ، وخاصة التاريخ والجغرافيا ، والتربية الوطنية والقومية بالنسبة لاطفال العالم العربى ، حتى يشعر الطفل بالإنتماء إلى وطنه العربى الكبير ،

يقرأ أحواله وتاريخه ، يدرسه ويعرفه . كما يمكن غرس الفضائل فى نفسية الطفل العربى عن طريق «القصة الاخلاقية» الجيدة ، وأحداثها المنطقية ووقائعها المسلسلة ، التى تزداد معها أخيلة الطفل خصوبة ، كما تثرى لغته وتزداد كلماته وتصوراته التى يستخدمها فى أحاديثه ، فيترقى أسلوبه ويزداد رشاقة وطلاوة ودقة .

ولقد كانت مجموعة كتب « الكيلانى » للاطفال من أهم المجموعات التى اهتمت بأدب الطفل ، وتربية تصوراته وتنمية إمكانه ، حتى تثرى لغته ومفرداته وتتزايد كلماته فقد تتغير أساليب الطفل الذى يتأدب بقراءة كتب الاطفال وقصصهم ، وتزداد مفرداته اللغوية وتغزر كلماته التى يستخدمها بمهارة فى التعبير الجيد عن مدركاته وتخيلاته وتصوراته . وهذا هو مطلب ضرورى لإنتعاش وتنمية «ثقافة الطفل» ، بالإهتمام بلغته وصوره وكلماته ، وتربيه فضائله وتهذيب سلوكه .

ولقد ظهرت « المكتبة الخضراء للأطفال » من دار المعارف بمصر ، تحت اشراف الأستاذ محمد عطيه الابراشى ، فكتب عن « أطفال الغابة » وظهرت « روضة الطفل » ، ومن سلسلة « والت ديزنى » التى تنشرها دار المعارف بلبنان ، ظهرت مجموعة « موجلى ابن الغابة » و « الأميرة الحسناء والاقزام السبعة » و « مغامرات الفارس المجهول » و « أميرة والفطيرة » و « الدجاجة الحائرة » وهما من مجموعة حكايات مجسمة بالصورة والكلمة حتى يتعلم منها صغار الاطفال وإلى جانب كل ذلك اهتم «أدب الاطفال المصرى» إهتماما واضحا بمجلة الطفل ، فصدرت مجلة « سمير » للاطفال من السابعة إلى الحادية عشرة ، وأصدرت مكتبة غريب مجموعة من قصص الاطفال «كالارنب الخبيث» و « صوت الضفدع » ، ومن «أدب الاطفال الهندى» نشرت الهيئة المصرية العامة « الاصدقاء الخمسة » ، وهى مجموعة من خمس قصص هندية ترجمها «صدقى ربيع» .

ولقد ظهرت أخيراً دور النشر المتخصصة فى كتب الاطفال ، ولا تنشر

غيرها ، مثل دار النشر الإيطالية « كابيتول » . واتجهت الهيئة المصرية العامة التأليف والنشر ، هذا المنهج الفنى الحديث ، فبدأت تيارا جديدا فى كتاب الطفل العربى ، حتى يتذوق كل جديد يصدره العلم يكون له دوره فى تثقيف الطفل وأثره على التركيب الدينامى لشخصيته .

فترجمت الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عن الإيطالية « بوبو توتى » و « البطل الهمام » و « القرد حارس المرمى » و « الجحش الكسول » و « النعام المغنى » .

ولقد أصدرت مطابع دار المعارف فى جمهورية مصر العربية مجموعة مغامرات « ثان ثان » ، وهو صحفى شاب يحكى ما يراه فى الغابات والجبال وفى أعمــــاق البحار بين الأسماك المتوحشة ، مما يكون له رد فعله فى تكوين الأساس العلمى لثقافة الطفل .

سينما الاطفال :

لا مشاحة فى أن السينما هى أخطر جهاز إعلامى ، له تأثيره المباشر والفعال فى توجيه الطفل وتكوين استعداداته وتشكيل ثقافته . وبخاصة حين تعرض سينما الأطفال ما يكون له جاذبيته الخاصة لدى مجتمع الأطفال ، وما يلائم عقولهم وتصوراتهم التى تمتاز بالنقاء والبراءة ، والتطلع والثقة .

ولقد أمتعتنا الشاشة الكبيرة ، فاستمتعنا بالكثير من برامج السينما أثناء طفولتنا المبكرة والمتأخرة ، فما زالت أفلام شارلى شابلن Charlie Chaplin و « إخوان ماركس » و « لوريل وهاردى Laurel et Hardy » و « بستر كيتون Buster Keaton » ، وغيرها من مسلسلات « آل كابونى » و « ميكى رونى » و « ميكى ماوس » ، وكلها برامج أمتعتنا فى الماضى ، وما زالت ممتعة أيضا لاطفال عصرنا مع أفلام « توتو Tutto toto » و « طرزان Tarzan » ، وأفلام

الاطفال التى تظهر كمسلسلات مثل « الفرجنيان » وهو من طراز « كاوبوى Cow boy » ، و « الرجل الاخضر » و « ستيف أوستن » ، المسلسل البوليسى المشهور « كوجاك » و « كولومبو » ، وقد تعبر كل هذه المسلسلات عن روح العصر العلمى ، والتى تسيطر عليه التكنولوجيا إلى درجة مسرفة فى الخيال العلمى الغريب ، فكيف نشاهد مغامرات « نملة ذرية Atom ant » وكيف يتمتع « ستيف أوستن » بسمع نووى خارق ؟! وكيف تتمتع إمرأة بالقدرة اللامعقولة ؟! فنسميها المرأة الخارقة ؟! ... وقد تؤثر على أطفال اليوم مثل هذه المسلسلات الغريبة التى سيطرت عليها الآلية وأدوات التدمير الرهيبة ، على الرغم من أن الطفل لا تستهويه مثل تلك التصورات الكاذبة ، بل قد تؤثر فى شخصيته ، فتكون لها آثارها السلبية على تكوينه الخلقى وطموحاته وتركيبه السيكولوجى .

ففى أفلام « طرزان Tarzan » التى قام بها السباح العالمى « جونى ويسمولر » لا نجد إطلاقا ما نجده فى سينما الاطفال اليوم ، حيث يحب الاطفال الشجاعة الحقيقية أو الطبيعية ، ومواجهة المخاطر وجها لوجه ، ويفضلها على الشجاعة التى تحميها الآلة الصماء ، وطرزان هو عملاق الغابة الذى يحبه الاطفال ، لانه بطل وشجاع ، يواجه التماسيح ويطارد أعداء الغابة ويصارع النمور والاسود ، وهذه هى الشجاعة الطبيعية ، وهى أفضل بكثير من شجاعة « ستيف أوستن » و « المرأة الخارقة » و « الكلاب ذات الاسنان النووية » التى تمزق سلاسل الحديد وتقطعها إربا بقوتها النووية الهائلة .

وهذه كلها أكاذيب قد تصدقها خيالات الاطفال ، وتلك بلية يبتلى بها أطفال عصر العلم والكومبيوتر ، فمن الغباء أن يصدق الطفل ، قوى خارقة فى الارجل أو الاسنان أو الاذن ، واذا اقتنع الطفل بما يعرض عليه فى السينما ، فالبلية أعظم ، حيث يتعلم الطفل الغش والنفاق ، والكذب والجبن .

فاذا كان الأطفال قد تأثروا إلى حد بعيد بالآلية السائدة فى عصر التكنولوجيا ، فنجد أن طرزان يمثل حالة « البراءة » و « الشجاعة » و « المروءة » ، ويعيش حياته البدائية Primitive بين « أحضان الطبيعة » لكى ينتصر بذلك على شرور المدنية وآليتها وسيطرة المادية عليها .

ولاشك أن عودة «أفلام طرزان» وتجديدها سيكون لها أطيب الآثار على سيكولوجيا الأطفال ، ونفضلها دون شك على تلك الأفلام الخارقة العادة ، مع رجل تكلفت إحدى ساقيه ستة ملايين من الدولارات ، جعلته إنساناً خارقاً لا يحترق بقانون الجاذبية ، ومثل هذه التصورات الخيالية الكاذبة ، قد تؤدى بالطفل إلى اللامبالاة وسرعة تصديق ما لا يقبله العقل ، والإيمان بما لا يمكن تصوره ، مع تقبل الخيالى والسطحى وغير المعقول ، الأمر الذى يضر بالصحة النفسية للطفل ، فيكون له رد فعله المباشر على شخصيته وأناه ، فلا يصبح الطفل سوياً normal ، وإنما تهتز أناه وتضطرب شخصيته وتمرض ، كنتيجة حتمية ومباشرة لوجود الصراع السيكولوجى بين المعقول واللامعقول ، بين الطبيعى وغير الطبيعى ، فتتفكك سمات الشخصية ، وتضطرب ميكانيزمات الضبط ، ومعايير السلوك ، نظراً لغزو ثقافة سينما الأطفال الكاذبة التى لا تتوافق مع تصورات علمية ثابتة ، حيث لا تتكيف صحة الأطفال النفسية مع ذلك « الهوس النووى » الذى ذاع وانتشر الايمان به فى هذه الايام .

الاطفال وبرامج التلفزيون :

تتأثر ثقافة الطفل ، بما يظهر على الشاشة الصغيرة من برامج . ويعكس لنا جهاز التليفزيون كل ألوان المناشط الفنية ، فهو « صورة مرئية ومسموعة » لكل حركة ، ويسجل لنا كل ما يدور فى المجتمع ومشروعاته الإقتصادية ، وبرامجه السياحية .

وتتأثر ثقافة الطفل بمختلف البرامج الثقافية والاستعراضية ، حيث يتخلل

أيضاً ذلك الجهاز الإعلامي الخطير في أعماق مجتمعنا ، فيطرق باب الأسرة في القرية والمدينة ، ويدخل حياتنا ويؤثر بطريقة اجتماعية وسيكولوجية فعالة في تطوير التصورات العائلية ، وتحديث الثقافة Modernization of culture .

ونظراً لذيوع وانتشار الشاشة الصغيرة ، بين سائر الكفور والنجوع ، ينبغي توجيه برامج التلفزة من أجل الريفي والحضري ، ولها ضرورتها أيضـــا لتنمية ثقافة رجل الشارع ، وترقية مشاعر الناس وأذواقهم ، وهـــذا هو ما نقصده بتحديث الثقـافة ، لأن التلفزيون هو وسيلة إعلامية وعلمية تستخدم في شرح مكتشفات العلم .

وقد يستخدم المربون جهاز التلفزيون في المدرسة ، كوسيلة سمعية وبصرية، يمكن الإفادة منها تربوياً كوسيلة للايضاح للطفل الصغـــير ، ولتثقيف طالب المدرسة الثانوية ، وإعداد وتقديم التجارب للطالب الجامعي ، لإستخدامها في فهم مناهجه وأبحاثه الدراسية .

ولقد طغى « فن التلفزة » على كل فنون الإعلام ، لماله من جاذبيـــة شخصية خاصة ، نظراً لما جمعته برامج التلفزيون من شتى الألوان والأذواق التي ترفع بكل مافيها من عناصر فنيـة وخصبة من « درجة الاحساس الجمالي » ، حيث يهتم التلفزيون بفن البـاليه ، ومسرح العرائس ، وعالم السـيرك ، والفنون الشعبيـة ، الأمر الذي معه تترقى القيم الجمالية والذوقية والفنية بين الناس ، فيكون لكل ذلك رد فعله في « تحديث الثقافة » .

وإني كأحد هواة التلفزيون ، ومن محبي مشاهدة البرامج الفنية والاستعراضية والعلمية ، مثل « عالم الحيوان » وهو من أنجح البرامج التلفزيونية وأكثرها عدداً بين المشاهدين ، ولقد أكدت الدراسات السوسيولوجية والإحصائية أن نسبة الاطفال الذين يذهبون إلى السينما ، قد هبطت إلى ٥٤٪ ، بينما كانت من قبل

أعلى بكثير حيث بلغت ٨٩٪ ، كما قلت فى نفس الوقت ، معدلات الأطفال التى كانت تميل من قبل إلى الاستماع إلى أجهزة الراديو(١) .

ويشبع التلفزيون حاجة الطفل والراشد ، ويتكيف مع قيم ومفاهيم ، ومظاهر السلوك الاجتماعى ، كما يزيد ويعمق من الخبرات ، وتشبيع المعارف ، وينمو ويترقى الادراك العام Common Sense . وذلك حين تحاول برامج التلفزيون أن تشبع الحاجات النفسية ، وبشيع البهجة بين الناس ، حين يربط بين الشعوب ، ويقرب المسافات فيما بين الحضارات ، حين تنتقل عدسة التلفزيون «حول العالم» فتنقلنا معها ، ثم تعود بنا بعد لحظات إلى عالمنا . ولذلك تكون للتلفزيون وظيفة تربوية ونفسية وأيديولوجية خطيرة كما أنه يدعم العلاقات الاجتماعية ويربط بين أفراد الاسرة ، فتزداد تماسكا وتكاملا .

ونظراً لخطورة وظيفة التلفزيون كوسيلة إعلامية ، ينبغى أن نحمى أبناءنا من ألوان الانحرافات التى قد تسىء إلى نفسياتهم وتفسد عقلياتهم ، فينبغى توجيه وتركيز الاهتمامات حول البرامج الدينية ، لكى ترسخ فى قلوبنا قواعد الإيمان ، فتتأكد قيمنا الروحية والجمالية والسلوكية إلى جانب الاستزادة بفيض المعارف حول المعالم التاريخية والجغرافية ، وإضافة «الخبرات الجديدة» بالإهتمام بدراسة «عالم الحيوان» ، حين نتابع سلوكه ، ونسجل طرق حياته ، ونشاهد خصاله وأفعاله .

فلقد أصبحت عدسة التلفزيون ، هى العدسة الحقيقية للمجتمع ، فهى «عدسة الثقافة Culture» التى تسجل فى أمانة وموضوعية معالم العالم ، وتطوف بنا بعيداً وتحلق فى رحاب العالم الفسيح ، بينما نحن فى بيوتنا قعود .

ومن الاحصائيات المشهورة بين أطفال العالم العربى ، والتى تربطنا بعالم الثقافة

---

(١) شيكرام ، ويلبور ، التلفزيون وأثره فى حياة أطفالنا ، ترجمة زكريا حسين ، مراجعة ناضر توفيق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ .

وترشيد برامج تثقيف الطفل العربي ، هو أن الاطفال العرب يمثلون « القاعدة في الهرم العمري» حيث يبلغ معدلات الاطفال ٤٠ ٪ من سكان الدول العربية .

وتهتم التنشئة الاجتماعية Socialization تثقيف الطفل عن طريق الاسرة ، وتأكيد دور الوالدين في تدريبه ، وأثر حضانة الأطفال في تكوينه النفسي ، وتعويده العادات الحسنة ، وكذلك تقوم المدرسة في البيئة كمركز للاشعاع الثقافي يخدم منطقة المدرسة كمؤسسة إجتماعية لها دورها ووظيفتها . حيث تستخدم المدرسة المنهج والكتاب ، كما تستخدم الراديو والتلفزيون ، وعن طريق سائر الانشطة المدرسية ، والرحلات والحفلات ، وزيارة المتاحف والمعارض ، وإستخدام مجلات الحائط والاهتمام بكتب وأدب ومجلات الاطفال بالاضافة إلى ضرورة تعويد الطفل العادات الحميدة ، كاحترام التقاليد ، وتقديس القيم والعمل الجماعي وتشجيع الفرق الرياضية ، وإثارة المنافسة الرياضية والعلمية .

الثقافة والتخطيط التربوي :

١ - التربية Education ، هي نظام إجتماعي له تنظيماته وميكانيزماته في سائر المجتمعات والدول ، وله ايضا وظائفه حين ننظر إلى التربية « كعملية نمو » ، ويواكب هذا النمو ما يدور أو يطرأ من « تغيرات » في بنية المجتمعات ، وما تعقد من ظواهر نجمت عن « تطور سريع » في سائر الثقافات والدول التي نالت شوطا من الحضارة والغنى والتقدم .

فالتربية عند فلاسفة التخطيط التربوي ، هي « تنمية للنفوس والعقول » ، حين تهدف إلى القيام بعملية التطبيع الإجتماعي Socialization ، وحين يكون لها دورها في « نقل التراث الثقافي » بقيمه الإجتماعية ، وأبعاده التاريخية ، وأنساقه السياسية ، التي صدرت في بنية المجتمع . بمعنى أن القيم قد ولدت في جوف المجتمع ثم إنطلقت في مسار حركة الزمان الإجتماعي .

ومن عملية التربية والتعليم ، يتلقى الإنسان الفرد دروسه الأولى فى آداب السلوك ، ويتلقى فى طفولته المبكرة والمتأخرة ، سائر القواعد والأنماط السلوكية فى خطوطها العامة ، كما يكتسب الطفل السمات الأولى للثقافة ، حين يتشرب مع « لبن أمه » الأساليب الكلامية والصور اللفظية الأولية ، حيث يحاكى مع نموه اللغوى المبكر ، نماذج معينة من الكلمات والعبارات والمدركات التى تعينه على معرفة العالم من حوله .

والمدرسة التى يرتادها الطفل ، هى « قطعة من الحياة » ، ففى مجتمع المدرسة يتكيف الطفل ويتطبع ، ويتفهم معنى القيم السلوكية الأولى ، حين يلقن « قواعد الضبط الاجتماعى » مع مبادىء الأخلاق والدين .

فالتربية هى عملية سوسيولوجية ، تهدف فى النهاية إلى « التطبع الإجتماعى » و « التكيف الثقافى » حين يتلقى الدارس ويلقن تربوياً « المفهومات الأولى لقيم المجتمع ، ومبادىء الدين ، وأنماط السلوك الخلقى . » وبفضل التربيـة الفنيـة ، واستخدام الوسائل السمعية والبصرية ، يتعلم الطفل القـواعد التى تحـدد الخطوط الأولى لرسم القيم الفنية والجمالية ، وبفضل تربية « الدواجن » ومبادىء التربيـة الزراعية ، يتوصل الطفل شيئاً فشيئاً ، إلى معرفة وتربية ما له قيمة إقتصادية ». وبالتالى يتابع الدارس التربوى بنفسه مفهومات مختلفة تدور فى ثقافتـه ، حول القيم الاقتصادية والإجتماعية والسياسية .

فإذا كانت القيمة الإقتصادية تدور حول « النادر » و « غير المتوافر » ، فإن القيمة الإجتماعية ، تقسم بالقبول الإجتماعى ، وتزداد وتنقص هـــذه القيمة الإجتماعيـة ، مع إزدياد أو نقصان « درجة القبول الإجتماعى » ، وبخاصة لما هو مرغوب فيه إجتماعيا . بينما تدور القيم الدينية حـول « موضوعات » ذات قداسة تقام حولها طقوس وشعائر أو عبادات وصلوات أما القيمة الفنية فمدارها حول

ما هو « جميل » وما هو « قبيح » ، مستحسن أو مستهجن، فترقى القدرات الذوقية بالتنمية الفنية والجمالية .

وتقاس القيمة السياسية ، بمدى الاتصال الجماهيرى ، وبدرجة إستقطاب الناس وتجمعهم حول شخص « زعيم » ، أو تآلفهم حول « قادة » لهم أدوارهم الكبرى فى ميدان من ميادين الخدمة العامة .

ب ـ ويمكننا أن نتساءل بصدد التخطيط التربوى ، هل تتوافق برامج التعليم وظروفه وإمكانياته ، مع مطالب التنمية الاقتصادية ؟ !

فى الرد على هذا التساؤل ، نقول إن برامج التعليم فى جمهورية مصر العربية ، ما زالت معوقة لبرامج التنمية الإقتصادية والصناعية ، فهى برامج تعليمية قاصرة، ولا تتلاءم مع حاجات النسق الإقتصادى ، فلقد إتسعت الهـــوة بين ما يدرسه الطالب فى المدرسة ، وبين « ما يتحقق بالفعل » فحدث التعارض ، بين ما يدور فى العقل ، وبين ما يراه فى الواقع المشخص ، الذى نشاهده فى تيار حياتنا . فينبغى أن نملأ ذلك الفراغ القائم بين النظرية » و « التطبيق » حتى نمارس بالفعل ما نفكر فيه ، وتترجم ثقافتنا إلى سلوك . ومن هنا يقترب « ما هو فى العقل » إلى « ما هو فى الواقع » ، وتلك هى العملية التربوية الناجحة . فلقد لاحظت ولاحظ النـــاس جميعاً ، تلك الحركات الطلابية المتذمرة التى اجتاحت معظم جامعات أوربا ، فلقد تعالت الصيحات التى تردد صداهـــا مدوياً « رغبة فى تغيير المناهج » . فبرامج المدرسة لا تكفى ، ومقررات الجامعة ، لا تنهض بملكات الطالب ، وإنما تعتمد فقط على « إجهاد الذاكرة » ، وإستهلاك عقل الطالب فى عمليات الحفظ والتلقين ونقل المعلومات . فينبغى أن نتعلم كيف نفكر How to think ؟ ، دون أن نتشبث بما كنا نفكر فيه What to think ، فنخضع لعادات فكرية صارمة .

ويأخذ فلاسفة التخطيط التربوى فى إعتبارهم أثناء وضع البرامج والمشروعات

المساعدة لتنمية التربية ، فلا يغيب عنهم أن مجتمعات العالم الثالث تتميز ببطء التنمية وسوء التغذية ، وأن خطط التعليم لا تنفصل فى أهميتها عن مواكبة حاجات أخرى ضرورية للمجتمع فى ميادين الاقتصاد والسياسة . فنحن بالتخطيط التربوى الناجح السليم ، نستطيع أن نعالج المشكلات والأخطاء . حين يحقق أصحاب التخطيط « الطموح الاجتماعى » ، بخلق الأجيال على أسس رشيدة وسليمة ، وفى إطار عقلى منفتح ، حيث أن « التربية من أجل التغيير » « هى فى ذاتها عملية تنمية للمجتمع » .

وتستند التربية كعملية ديموقراطية ومتحررة ، إلى الفهم والفاعلية واحترام الذاتية ، القائم على الفكر الحر الخلاق ، والمناقشة الواعية . والأخذ بمناهج تربوية وعصرية ، حين نرفض تماما تلك الأنماط التقليدية الجامدة فى التربية القائمة على الحفظ أو التلقين الببغـــاوى ، والتحصيل الآلى غير الواعى ، مما يخلق صوراً استاتيكية واحدة لأشكال عقلية متشابهة ، وأنماط فكرية متجانسة ، وشخصيات متكررة بنفسها ، أو نماذج بشرية خاوية ، و « زائغة العيون » تتدافع وتتواتر ، لكى تتخرج كل عام من الجامعات والمعاهد ، وقد فقدت الفاعلية والخلق والابتكار .

جـ - فالتربية بالتلقين هى سرقة للذكاء ، وتعمية للبصيرة ، ومصادرة على الفكر والحرية . وهناك تخطيط لعمليات التربيـة والتعليم ، بتغيير البرامج التقليـدية حيث تتعـــالى الصيحات فى هذه الأيام من أجل التربية المجددة Recurrent Education وهى دعوة إلى التعليم المستمر والتربية المتجددة والتخطيط التربوى الدورى المنظم ، وكلها عناصر أساسية وضرورية فى « عمليات التنمية والتربية » والتطوير . كما وتهدف كلها إلى محو الأمية . وزيادة نسبة تعليم الكبار ، ورفـع المستوى الثقافى والاجتماعى للفلاح والإنسان البدائى و « العامل الكادح » فى سائر المجتمعات التقليدية والمتخلفة . وبذلك تعمل التربيـة على تحقيق أغراض تعليمية واقتصادية ، باستخدام شعـارات « الحرية وتكافؤ الفرص » التى صدرت مـع

عصر التنوير .

الحرية وشعارات عصر التنوير :

أ ـ لقد قيل إن البورجوازية الفرنسية ، قد عجلت بظهور عصر التنوير Enlightenment ، الذى هو « عصر العقل » والاستنارة ، حيث أثيرت فى هذا المناخ الفكرى الخصب ، أفكار الحرية ، كما نادوا بالديمقراطية ، وشجعوا طبقة العمال على الوقوف ضد تحالف الرجعية المتمثل فى سلطان الملوك والاقطاع الدينى .

ومع شيوع فكرة « التقدم Progress » وانتشار مكتشفات العلم الوضعى ، وذيوع أفكار البورجوازيين وآمالهم فى النجاح والسيطرة على المادة والصناعة والاقتصاد ، فقد ساعدت «فلسفة التنوير» على ظهور وبلورة الأفكار التقدمية التى تتناقض مع الارستقراطية والنبالة ، والتى تهدم فى نفس الوقت تصورات رجعية ، صدرت فى العصور الوسطى ، منذ سادت فيها قلاع الإقطاع وهذا هو برنامج التحرير والاستنارة على ما فعل إثنان من كبار فلاسفة وكتاب فرنسا المتناهين من أمثال « فولتير Voltaire » و « جان جاك روسو Rousseau » — حين أعلن بداية عصر الايمان بالعقل والحرية ، والتأكيد على إحترام حقوق الإنسان ، الأمر الذى جعله ينتقد الكنيسة ، إنتقاداً لاذعا ، كما سخر من الانطاع ، وأعد الفكر الفرنسى إعداداً أيديولوجيا ، للالتفات إلى ما يتفشى فى ربوع فرنسا من أمراض إجتماعية ، كما نبه الأذهان نحو التعجيل بقيام الثورة الفرنسية .

أما « جان جاك روسو » فقد نظروا إلى كتابة الأشهر عن « العقد الاجتماعى » على أنه « إنجيل الثورة » ، حيث هاجم طغيان ملكية الفرد ، واستبداد الاقطاع واعتبر « الملكية هى أصل الشرور » ، ونادت فلسفة التنوير بالأخاء والعدالة والمساواة .

ب ـ ولقد صدرت « الحرية Freedom » مع مبادىء القرن الثامن عشر وهى

الحرية التي صدرت أصلا عن «عصر الاستنارة» الذي تبلور مع ظهور حركة الفيزيوقراط Physiocrate ، وتعاليمها التي تبارك التنافس الحر ، والتي تؤكد النظرة الطبيعية إلى الأشياء ، والتي تقلل من سيطرة المجتمع ، تطبيقاً للمبدأ الاقتصادي القائل «دعه يعمل ، دعه يمر Laissez faire laissez Passer»[1] .

ومن هذه النزعة الاقتصادية ، قلت حدة الصراع بين الفرد والمجتمع وهناك صيحة أخرى ، مضادة للمجتمع «anti-Society» أعلنها «جان جاك روسو Rousseau» ، حين أثار هذا الفيلسوف الكثير من القضايا التي تؤكد «العودة إلى الطبيعة Back to nature» ، على اعتبار أن المجتمع ، هو مصدر الشرور والآثام ، والرذائل والافساد ، ومبعث الانحلال : إذ أن كل شيء جميل مادام من صنع الخالق ، وكل شيء يلحقه الدمار إذا ما مسته يد الانسان

Everything is good as it comes from the hands of the Author of naure, everything degenerates in the hands of Man,

تلك هي الكلمات المشهورة التي افتتح بها «روسو» كتابه الخالد «إميل Emile» ، حيث هتك روسو في هذا الكتاب حجاب المجتمع ، وسخر من تقاليده التي هي مبعث القلق وأصل الضجر ، فهاجم روسو النظام الاجتماعية العتيقة ، إذ أن روسو لا يؤمن أصلا بالمجتمع أو بمعاييره ، فكانت فلسفته التربوية «مضادة للمجتمع» فلقد خلق الانسان طاهراً وبريئاً ، ثم تدنس بخطايا المجتمع ، وهذا هو السبب الذي من أجله نادى روسو «بالعودة إلى الطبيعة» ... حيث الحب والحرية ، والطهر والنقاء ... وحيث يستطيع «إميل» أن يحقق إنسانيته ، وينمي ذاتيته ، حين يتربى في أحضان الطبيعة .

---

(1) Wolf, Kurt, The Sociology of Georg Simmel, 1964. P. 64.

وفى ميدان « التربية Pédagogie » يصبح روسو ، معلنا سخريته اللاذعة وتهكمه على سائر المربين « فيقول : « سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى النجاح » و « إبعدوا الكتب عن الاطفال ففيها لعنة الطفولة » كما يقول روسو فى هذا الصدد: « نحن لا نعلم شيئا عن الطفولة ، وكلما سرنا فى تربية الاطفال ، ونكن على جهل بطبيعة الطفل ، كلما إزددنا تورطاً فى الامر ، وبعداً عن الصواب .

حـ ـ ومن هنا كان روسو هو فيلسوف التربية الذى يؤكد العودة إلى الطبيعة ويعلن صيحة الحرب على المجتمع . كما يكشف عن تذمره وسخطه ، ويسجل لنا منهجاً تربوياً ، يدخل فى صلب فلسفة أو دراسة « البيداجوجيا » على اعتبار أنه يعبر عن لون كلاسيكى ، من ألوان التربية ، وفن خاص من فنون التعليم .

ولذلك كان روسو هو رسول الحرية وفيلسوف التربية فى العصر الحديث ، وكان كتابه « انجيلا للثورة » كما ولقد حققت ثورة فرنسا كل تعاليم روسو فى التربية ، حيث يقول : « خلق الانسان حراً ، وهو مستعبد فى كل مكان » وكانت هذه الكلمات هى مطلع النور ومبعث الحرية ، حيث انسحبت فلول الظلمة التى ترنحت مع تراجع أو إنحسار تصورات العصور الوسطى ، ثم تنفس الصباح ، وسطعت شمس الحرية ، وتقهقرت حلكة الليل البهيم .

الحرية والادارة المدرسية :

أ ـ يمكننا أن نتساءل : كيف نربى الطفل ؟ وإلى أى حد يمكننا التوفيق بين التربية كنظام Order إجتماعى مفروض ، وبين التربية كمنهج Method يعتمد على الحرية ؟ حرية الفكر والخلق والابداع ، وهل يمكن أن تقتصر التربية على خلق وتكوين الإنسان ، الناجح اجتماعيا ؟ أم قد تتدخل التربية كنسق System من أنساق الثقافة ، حتى تملأ تلك الثغرة القائمة بين الإنسان ونفسه ، حيث أنه على الرغم من نجاح الإنسان فإنه بابتعاده عن نفسه ، قد يشعر بالاغتراب والاضطراب ،

نظراً لما « قد يؤرقه شعورياً » من مشكلات قد تعوقه ؟ !

وفى الواقع قد يكون النجاح هدفاً إجتماعيا وإقتصاديا ، يسعى إليه الإنسان ويكابد ولكن هذا « النجاح الصفوى » الذى قد يبلغه الإنسان نحو الصفوة ، وحين يلمع إجتماعياً واقتصاديا » ، قد يحدث فجوة بين « الناجح » و « نفسه » ، فهو أثناء كفاحه واستغراقه ، فى نجاحه الإجتماعى والمادى ، قد يبتعد عن نفسه ومشكلاته الذاتية ، التى تعوق حياته الخاصة ، حين تبقى بلا حل .

والنجاح متصل بقيم وأهداف اجتماعية ، ولكننا نطالب أيضا بالرضا وتحقيق الأمن الذاتى والسكينة ، لضرورات سيكولوجية تؤكد « التوازن » حيث يتحقق بالرضى Satisfaction والأمن والطمأنينة ، ذلك التوازن الديناميكى القائم على التوفيق بين قوى نفسية متصارعة ، بين الواقع والوهم ، بين الشهوة والجموح ، والأثم والطموح .

فإذا كان النجاح أمر مادى ، فالرضى أمر معنوى ، وإذا حقق النجاح هدفا إجتماعيا ، فان « الرضى والسكينة والشعور بالأمن والأمان والسعادة » هى أمور تحقق مطالب نفسية ، كما تشبع « السكينة » غايات أو أهداف ذاتية ، وعلينا أن نعرف كيف نقرب بين « الماديات » و « المعنويات » بين المجتمع و « الصحة النفسية » فقد يبلغ الإنسان مايريده ، ويحقق مايسعى إليه ، ويكابد نحو تحقيقه ، إلا أن هذا الإنسان المكافح ، هو فى نجاحه وسعيه وكفاحه ، وأثناء طموحه وتحقيق آماله ورغائبه ، إنما يواجه عوالم تعوقه ، وعناصر سيكولوجية أخرى تبعده عن نفسه ، فيشعر بالاغتراب ، وهو المقيم بين أهله وعشيرته حيث أن إحلال النجاح كحالة فجائية ، إنما يتطلب إحلال حالة من التوازن حين تنزل علينا السكينة فتحقق لنا فورا « حالة الرضا عن النفس ، وهنا تكمن سعادة الإنسان الحقة ، التى ينبغى أن تهدف إليها كل عملية تربوية ناجحة ، حين تعمل « التربية

بالرضى ، ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا ، على تحقيق سعادة الإنسان ، حين يحدث التوازن بين « الواقع » و « المثال » وحين يتم ملأ الثغرة بين « الإنسان ونفسه » فيتحقق النجاح والرضا ، حيث أن هدف التربية النهائى هو تحقيق الذاتية الراضية Self -Realization ، حين نكتسح المخاوف الكامنة فى أغوار نفوسنا . فتصبح شخصية كل فرد منا « راضية مرضية » ، آمنة من الخوف ومن المجهول .

ب — ويقول برتراندرسل Betrand Russel « إن الخوف هو الداء Fear is the enemy » فلا يمكن أن نعد الأطفال لمواجهة عالم مجهول ، وكل ما هو مجهول هو مخوف ومحفوف بالمخاطر ، وتحدث الطمأنينة « بالتكيف » ، كما وتنزل السكينة ، ويتحقق الرضى ، كلما ازدادت ساحة أو مجال المعلوم ، وضاق نطاق المجهول ، الأمر الذى معه يتفتح الذهن ، وتنقشع القدرات العقلية ، وتنكشف الطاقات الكامنة . وتقوم التربية الحقة ، على الحركة الايجابية ، والفاعلية والديناميكية ، فى التربية ، إنبساط لا إنقباض ، سيادة لا استعباد ، قوة لاذلة تطور لاجمود فيه ولا تزمت . وهذه هى الأسس الحقيقية للتربية المتحررة والادارة التربوية المعاصرة .

ولكن الحرية ليست هى الدعامة الوحيدة للتربية فهناك « النظام Order » و « السلطة » و « الضبط » وتمارسها جميعها « إدارة المدرسة » وهنا ينبغى أن تؤكد أن التربية الضاغطة الكابتة ، فيها لعنة الإنسانية ، فبالحرية تتطور الجماعات ، وبالتربية الديناميكية الحقة تتقدم الثقافات ، « فالتربية هى أمل العالم الوحيد » على حد تعبير الرئيس الأمريكى « إيزنهاور » .

وفيما يتعلق بنظام الإدارة فى التربية ، تقول « مارى فوليت Follet » « يجب ألا نتعلم أين نضع السلطة ، بل كيف نمارس تلك السلطة ؟ ! » وفى هذا المعنى نفسه ، يقول المشرع الانجليزى « آكتون Acton » إن السلطة مفسدة

والسلطة المطلقة إنما تفسد إطلاقاً Power corrupts, absolute Power corrupts absolutely .

ويتضح لنا من تلك الكلمات التي تحمل الكثير من المعاني ، التي تؤكد على « ديموقراطية الإدارة » ، فلا شك أن التربية اللامركزية الحرة ، إنما تخلق شخصية نامية متطورة ، متحررة رافعة الرأس . والإنسانية زاخرة بنماذج القيادات الناهضة والناجحة لأنها صنعت التاريخ . فينبغي أن ينظر الشباب إلى هؤلاء القادة والزعماء والعلماء ، وكبار الأدباء والكتاب ، الذين خلقوا لنا تراثاً ثقافيـــاً ، ونشروا المبادىء والتعاليم التي تجعل « حق الحرية مساوياً تماماً لحق الحياة » .

حـ ـ فلقد نهض « جاليليو » ورفـع رأسه أمام طغيان الكهنيـة ، وأثبت أن الأرض تدور رغم أنف الكهنة ، ومارتن لوثر Luther ، إنفصل بكنيسته عن البابا ، وصرخ في وجه الكنيسة ، وأنكر استاتيكية الكاثوليك ، وحمل على صكوك الغفران ، وأنكر قشرة الطقوس فالدين موقف صوفي خالص ، بين العبد وربه ، دون هيابه من شعائر جمعية ، وطقوس مرسومة ، حيث ينظر العبد إلى الله سبحانه وتعالى وحده ، كموضوع محبة objet d'amour تناجيه سبحانه ، دون غفلة أو حجاب ، وبدافع من التجرد الخالص والحب العميم (١) .

ولقد تحرر « إبسن Ibsin » فأخرج الناس من الجمود وكرم المرأة برواياته ومسرحياته ، وقصد قصداً تحريرياً هائلا بروايته « بيت الدمية Doll's House » . ومن هنا حرر المسرح والأدب النرويجي المرأة ، بانتزاعها من الأنوثة إلى الإنسانية . ولقد صاح « برناردشو » صيحة حرة قوية ، وهتك عرض الاستعمار ساخراً . وهناك الكثير من حملة المشاعل الذين « أيقظوا أممهم من رقدة العدم » وهم نماذج

---

(1) Le Senne, René, Traitè de Morale Générale, Press-Univers Paris 1949 p. 312.

بشرية و « قادة كاريزمية Charismatic leaders » ، بالمعـــنى الذى قصده « ماكس فبر » وتعمل كلها على تحقيق الخيرات وتربية الأمم وتوجيه العالم (١) . وهم حصيلة تربية حرة وخلاقة . وعلينا أن نؤمن بالحرية وأن نخلق الأحرار ، وأن نحرر العقول المستغلقة .

فالحرية ضرورة حتمتها نتائج علم النفس ، وفقه التاريخ ، وفلسفة البحث العلمى ، ففيها تأكيد للذاتية ، وفيها ما يدعم نمو الناس ذكائيا واجتماعيا واقتصاديا فلنرفض كل « تربية أو توقراطية مريضة » ، ولنرفض كل ديكتاتورية مستبدة ومستغلة ، تؤدى إلى الشعور بالهوان ، عن طريق « الإدارة المدرسية » اللا إنسانية ، وأساليبها الضاغطة الكابتة ، التى تؤدى إلى « مرض التوهين » .

فليس أضل ضلالا ، ولا أسفه سفاهة ، من أرتوقراطية معوقة للنمو ، ومن كفاية خانقة قابضة ، مهما كان حظها من القدرة والادارة والسلطـة . لأنها إدارة تعتاق نمو الجماعة ، بل وتحيل الجماعة الإنسانية العضوية Organic ، إلى جماعة « لا إنسانية » عددية aggregate ، كما يقول ويتفق كل من « مارى فرليت » ولورد « آكتون Acton » المشرع الإنجليزى التربوى .

د ـ وعلى كل إدارة مدرسية ، أن تتفهم الحرية الضابطة أو الضبط الحر ، والتعاون المشاع ، وفى هذا التعاون « ضبط ذاتى مثالى خالص » ، لأن الجماعة هى التى تخلق الضبط التعاونى ، كما أن الجماعة هى مصدر القانون والحكم الذاتى ، والحرية هى التى تخلق النظام ، فلسنا عبيداً لنظام ، ولكن الحرية تجعل منا دائما « سادة لنظام » ، وعلينا ألا نفكر فى أينية وضع السلطة ، بل ينبغى فقط أن نفكر فى كيفية « ممارسة السلطة » . لأننا إذا ما وضعنا السلطة فى مكان ما ، فلابد وأن

---

(1) Weber, Max, The Theory of social and Economic Organization, Glencoe 1967 p. 358.

يكون هناك « ضاغط » و « مضغوط » فيتولد عن ذلك « الخوف » ويستشرى « النفاق » . والنفاق سرقة الذكاء ، لأنه يعطل النمو ويعتاق القيادة ، ويقضى على « كوادر الادارة » ، ويهبط بالانتاج ، كما ويقتل « النفاق الجماعى » سائر الملكات والقدرات .

فى الحرية ينفسح المجال للتربية ، بالإدارة الرشيدة والحقة ، وفى مناخ ديموقراطى صحى يتحدد « دستور الشخصية » فى الطفولة المبكرة ، وخاصة قبل أن « يتحجر أسلوب الحياة » وتتجسد أنماط السلوك ، فالطفولة هى الأرض الطيبة والخصبة، التى تنبت فيها وتثمر « بذور الصحة النفسية » ، وينبغى أن نبعد عنها تماماً « جرثومة المرض » ، تلك التى تخلق لنا الشخصية « غير السوية » .

التربية والمدرسة والطفل ؟

أ ـ يقول « جون ديوى John Dewey » شيخ المربين الامريكان :

We must teach the child how to think, not what to think

« ينبغى أن نعلم الأطفال ، كيف يفكرون ، وليس ما يفكرون فيه » .

وهذا قول حق ، فلا شك أن كيفية التفكير ومداه ، وطرقه وأدواته ومناهجه ، هى أمور ضرورية ، بل وأكثر عمقاً ورحابة من « مادة الفكر وفحواه » .

وفى نفس هذا المعنى يقول « الفرد نورث هوايتد Whitehead » يجب أن نعلم الطفل الكيف لا الشىء ، الطريقة لا النتاج ، السبيل والمنهج لا المعتقدات والنتائج .

We must teach the child, the how not the what, the process not the product, the methcd of attack and enquiry not belief and Cconclusions.

ويتضح لنا من هذا الاتجاه ، أن هناك ضرورة تربوية تفرض على المربين « تنمية وترشيد مناهج الفكر » فى المدرسة ، حتى تترقى المدارك ، وتنمو قدرات الأطفال ، كلما اتسع نطاق المنهج ومداه ، فلا ينبغى أن نقتصر على مجرد حفظ المادة وتلقينها ، فعلينا أن نحترم « المنهج والكيف والطريقة » ، وهـذا ما تؤكده سائر الاتجاهات المعاصرة فى التربية وطرق التعليم . « ولكن الطفـــل هو نقطة البداية وهو المحور وهو الغاية من عملية التربية وهذا ما يقوله « جـون ديوى » فى كتابه : Education to day حـين يعبر بكلماته « Let the Child be the starting point the centre, the end of any education »

فالمدرسة إعداد للحياة ، والتربية هى الحياة نفسهـا ، وعلى المدرسة أن تقـدم للطفل كل ما يتصل بشرائح الحياة ، كحقائق مبسطة وحية وخصبة ، فتخلق التربية فى الطفل ذاتيته وفرديته الأصيلة . فعلينا معشر المربين أن نحقق ذاتية الأطفال ، بتربية رشيدة وهادفة ، وبطريقة ديناميكية وخلاقة .

ب - والتربية أمر اسمى بحت ، يختلف باختلاف الباحثين والعلماء ، فهنالك تربية دينية وأخرى فنية ، وثالثة علمية ، ورابعة ثقافية . ولذلك تعددت مداخل التربية مع تعدد المربين ، من معلمين ورجال دين ، وبيولوجيين وسيكولوجيين ، وفلاسفة واجتماعيين . فيعرفها البيولوجى بأنها « تكيف وملاءمة » ، بينما يراهـا السيكولوجى على « أنها وطرق التعلم صنوان » : كما يعتقـد الفيلسوف أن المدرسة « هيئة اجتماعية لتجه وجهـة فلسفية خاصة » وفى هـذا الصدد يقول فخته Fichté الشعب الألمانى Adresse te the German people « إن فن التربية لن يصل إلى درجة الوضوح المطلق دون مساعدة من الفلسفة » فالفلسفة موجه أساسى وجوهرى من موجهات التخطيط فى ميدان التربية والتعليم .

وقد يرى طالب « علم الاجتماع التربوى Educational Sociology » أن كل

هذه الوظائف البيولوجية والسيكولوجية والفلسفية ، قد تدخل فى صلب عملية التربية ، وهذه هى نسبية التربية من خلال منظورات مختلفة ، كل يعرفها وفقاً لون الثقافة والفهم وطبيعة الإدراك والتخصص . ولكن التربية عندى هى « عدسة لامة » لكل ما يدور فى بنية المجتمع والتراث والثقافة ، وهى عدسة لافطة لكل القيم ، السائدة والاتجاهات الشائعة ، كما حملت التربية ووسعت وعمقت الكثير من المفاهيم والمعانى ، بل وغيرت وطورت الكثير من القيم والتقاليد البالية .

فالتربية عملية « هادفة وتطورية وخلاقة » فهى تهدف إلى خلق ونمو الفرد المتحرر فى عالم سريع التغير ، كما أنها تخلق فى الإنسان فرديته ، وتنمى ذاتيته الأصيلة ، بالحفاظ على كل سمات شخصيته « الفريدة Unique » دون أن نفسدها بالتدخل ، أو نشكلها حسبما نريد ، حين نصبها الدولة فى القالب الذى تشتهيه ، ولكن يجب أن تعمل « هندسة التخطيط الإنسانى » فى التربية والتعليم ، على خلق الشخصية المنسجمة مع نفسها ، بحيث يصبح الإنسان كائناً منتجاً متحرراً ، ديناميكياً يسعى نحو الجديد والتجديد ، سعيداً قانعاً وراضياً Satisfied . وذلك حين نرفض التقاليد الآبقة ، والنظم الآسنة العتيقة ، وبذلك يتحرر المجتمع بالتربية السليمة ، من قيود الماضى وقوالب الثقافة ، وغبار التقاليد العتيقة ، التى لا تتفق وروح العصر الجديد .

حـ - وفيما يتعلق بتربية الطفل بالذات ، ينبغى أن تكون قائمة على التفكير وتشجيع التأمل « والابتكار » ، والقدرة على التكيف مع المواقف الجديدة ، حين يقع الطفل فى مشكلات بسيطة ، وحين يطالب بحلها باستخدام الذكاء والتفكير والتدبير ، فيجب أن تقوم التربية ، على تنمية قدرات التفكير ، وتطوير الذكاء ، وتهذيب التصورات ، عن طريق الرعاية الفكرية والثقافية ، فالتفكير هو أعظم ملكة ، وأعظم عملية ، ويقوم بأهم الوظائف ، حيث أن الفكر هو الشعاع الخلاق ،

الذى يكون معنا على الدوام . فى كل موقف ووراء كل سلوك ، وعلى المربين أن يخططوا لفكر الطفل وثقافته ، حتى ينضج عقله ، وتزداد معارفه ، حيث يقول « بوانكاريه Poincaré » . إن وقائع الطبيعة لا تجدى شيئا ، كما وتبقى غير مثمرة إذا لم تجد العقل الذى ينفضها ، والفهم الذى يفسرها وييسر غورها(١).

ويتغير معدل الذكاء مع إتساع حجم الخبرة ، فيحدث التعلم والتكيف ، حتى يصبح العالم من حولنا طبيعياً ومألوفاً ، مقبولا لعقولنا وأفهامنا ، بازدياد مجال المعلوم ، واضمحلال ساحة المجهول وضيقها ، كلما أتيحت للذكاء فرصته للتكيف والتعلم وازدياد الخبرة .

وللتعليم وظيفته السيكولوجية لتحقيق التلاؤم بين الإنسان وبيئته ، ولإزالة عدم التوازن Imbalance الناجم عن القلق والتوتر ، وكلها ظواهر سيكولوجية صدرت عن عدم التكيف Maladjustment حيث يحقق التكيف الناجم عن الخبرة والعلم والصواب حالة من التوازن equilibrium(٢).

ولاشك أن الفرصة المتاحة للصغير ، هى أهم بكثير مما يجب أن نفسحه ونتيحه للكبير حيث تقل الحاجة إلى الرعاية النفسية والتعليمية ، بازدياد سنوات العمر ، وهذا هو سر الاهتمام البالغ « بمدارس رياض الأطفال » ، حيث يتسع المجال الاجتماعى وينبسط ، وينكشف الذكاء ، وتنبثق الميول ، وتنقشع القدرات الكامنة ، وبخاصة فى تلك السنوات المبكرة بالذات ، حيث يزداد بعدها الذكاء إتساعا ، مع إتساع وعمق الخبرة التى تزداد على مر الأيام .

---

(1) Poincaré Henri, Science et Mèthode, Flammarion, Paris 1927 pp: 22-23.

(2) Lundberg., George, Foundations of Sociology, New York, Macmillan 1956 pp 207-234,

وهذه كلمة موجهة إلى السادة المخططين فى ميدان التربية والتعليم ، فللطفل « حقوقه ومطالبه » ، التى ينبغى أن تكفلها له أسرته ومدرسته ، عن طريق الرعاية والحنان ، والتوجيه والضبط ، مع الحرص والحذر ، خوفا على « ثقافة الطفل » المبكرة ، التى ينبغى أن تنمو باستخدام الأجهزة والوسائل التكنولوجية السمعية والبصرية ، حتى تصبح « ثقافة رشيدة وصحية وخصبة » . وعلى كل المربين أن يحققوا هذا الرجاء ، حتى نراه « كحقيقة واقعة بعد تخطيط تربوى ، منظم وهادف » .

• • •

د ـ وجملة القول ، فان « خبراء التربية وقادة الفكر والثقافة » حين يخططون من أجل الأجيال القادمة ، إنما يحققون أهدافا حضارية ، تغير من طرق التعليم القديمة ، ولا تستورد طرقا فرنسية أو إيطالية ، لا تتوافق مع مصريتنا وظروفنا كما لا يقتنع بها أيضا « المعلم » و « الموجه » وناظر المدرسة ، وكل من يقوم « بتطبيق المناهج » من أجل تحقيق أهداف الخطة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لقد واجهت طريقة « الرياضيات الحديثة » الكثير من الصعوبات ، وصادفتها المتاعب ، فلم يقتنع بها المدرس المصرى ، بل ولقد تراجعت عنها الكثير من الدول المتقدمة حضاريا كالسويد والولايات المتحدة . ولذلك يجب أن يضع « المخطط التربوى المصرى » خطة تعليمية نابعة من واقع مجتمعه وقيمه الأصيلة ، وهذا ما أعلنه وزير التعليم فى جمهورية مصر العربية فى مؤتمر عقدته لجنة التعليم المنبثقة من « الحزب الوطنى الديموقراطى » وحضره رجال الجامعة والمؤسسات العلمية والتربوية ، وذلك لمناقشة خطة تطوير التعليم[1] .

---

(١) جريدة الأهرام رقم ٣٣٨٠٢ ، الصادر فى يوم ١٩٧٩/٢/١٣ .

هذا عن التخطيط فى ميدان التربية ، وهناك ميادين أخرى للتخطيط الاقتصادى والسياسى ، بالإضافة إلى مبدأ تخطيط آخر لتنمية البيئة ، حيث يجب أن يلتفت « المخطط الاقتصادى » ، وينتبه إلى تعدد الحاجات والمشكلات ، حتى يحدث التكامل المطلوب فى تنمية سائر نواحى الحياة بتنسيق الجهود المشتركة « من أجل المتابعة الشمولية والمساهمة المتكاملة ، مع الاشراف الفعلى » على كافة المرافق والخدمات .

وفى ميدان « التخطيط السياسى » ، يمكن تنمية التنظيمات السياسية ، بتطوير مفهوم « السلطة » . وتغيير نظم الاشراف ، وخلق الأدوار والمراكز الجديدة فى التنظيمات والأنساق السياسية ، مع إدخال صور متطورة الرقابة ، وتجديد الاشكال البدائية والقبلية فى نظم « الضبط الاجتماعى » بتطوير الأنساق التقليدية والقواعد المنظمة للعرف والمعايير ، مع تغيير « بناء القوة » فى المجتمع ، والاتجاه نحو قيم وتنظيمات سياسية جديدة ، تضىء لنا جوانب أخرى لمفهومات جديدة فى « العدل السياسى » و « العدل الاجتماعى » و « الحكم المحلى » ، بتعديل الأنماط السياسية القديمة ، التى كانت تدور حول مفهومات « السلطة » و « الحكم » و « الصالح العام » ، وذلك بتدعيم « الرقابة الشعبية » ، لأن الشعوب والأمم والمجتمعات ، وهى صاحبة المصلحة الحقيقية ، ومصدر السلطة . ولذلك نشأت فى جمهوريتنا المصرية « أشكالا جديدة من التنظيمات الشعبية » لفرض الرقابة وممارسة السلطة ، مثل « مجالس القرى والمدن والأقاليم والمحافظات » ، بحيث تتوظف فى كل هذه المجالس « لجان خاصة » بقطاعات الزراعة والصناعة والخدمات .

أما فيما يتعلق بتخطيط تنمية البيئة Ecodevelopment ، فيكون ذلك بالتركيز على تطوير أنماط الحياة ، وتيسير الطرق ورصفها ، وشق الترع وإقامة الجسور ، وحفر المصارف فى المناطق الزراعيه وذلك من أجل « تنمية البيئة

القروية » ، أما بالنسبة لتنمية المدن والبيئات الحضرية ، فينبغى إعداد وتهيئة البيئة حضاريا من أجل إدخال مشروعات إقتصادية أو صناعية ، وذلك بتطوير وسائل النقل والمواصلات السلكية واللاسلكية ، وبناء الأنفاق والكبارى والمطارات ومد الخطوط الحديدية .

وختاما ، من أجل التعجيل بالتنمية ، والاسراع بتنفيذ خطط التطوير الاقتصادى يجب « أن يكون التخطيط مرنا » . ومعتمدا على أرضية تجريبية صلبة من البحوث العلمية والدراسات الحقلية . والمسوح الدورية للواقع الاجتماعى والاقتصادى ، حتى تتوافق عملية التخطيط مع طبيعة مشكلات المجتمع ، محل التخطيط » .

هـ - وإذا ما تساءلنا عن مختلف الأسباب والدوافع التى تساعد خبراء التخطيط والتى تعجل بالتنمية . وكيف تتضافر هذه الدوافع فى استراتيجيات التخطيط الاقتصادى والاجتماعى ؟!

نقول فى الرد على هذا التساؤل : ان القبائل والقرى والمناطق البدائية ، هى مجتمعات تقليدية متخلفة . ومن خصائصها ، وجود ظواهر الاستاتيكية والثبات والولاء والعصبية ، فى مجتمع يقوم فى علاقاته على المركز Status ، كما تتشابه فيه أنماط السلوك الاقتصادى . وتقل بل وتنعدم فيه حوافز زيادة الانتاج والادخار والاستثمار .

إلا أن تطوير هذه المجتمعات التقليدية الثابتة ، وتحويلها إلى مجتمعات ديناميكية dynamic متمدينة Civiived ومتعلمة . وتقوم العلاقات فيها على العقد Contract كما يظهر الطموح ambition والولاء للمجتمع ككل(١) .

---

(١) دكتورة جيهان احمد رشتى . نظم الاتصال ، والاعلام فى الدول النامية ، دار الفكر العربى — الطبعة الاولى ١٩٧٢ .

وتنحصر معظم «دوافع التطوير الحضاري» في وجود أسباب خارجية، مثل الاعلام وأثره في تسهيل إتصال المجتمع التقليدى بمجتمعات أخرى متقدمة. وقيام «حكومات مركزية قوية» تدفع عجلة التطوير الاقتصادى، وتساعد على هدم القديم، وانهيار القيم التقليدية. كما يؤدى انتشار مبادىء العدالة والمساواة ونظم الاصلاح الزراعى في معظم الدول النامية إلى تغيير علاقة الفلاح بالأرض.

أما عن الأسباب الداخلية التى تعمل على نجاح التخطيط فهى «سيكولوجية وسوسيولوجية» من جهة، كما أنها «بيئية وايكولوجية» من جهة أخرى، فلاشك أن الصراعات الداخلية والتغييرات الثورية، إنما تؤدى بالضرورة إلى إحلال القانون محل العرف، والتقليل من هيبة ماله قيمة، أو ما قد «تحاط به هالة من قداسة»، حتى لا تتسلط على عقول الناس «عادات فكرية جامدة». أما عن السبب الايكولوجى فيتصل بتنمية البيئة ecodevelopment مثل تعبيد الطرق وبناء الكبارى، وتوسيع المبانى، وتشييد المدن، وربط المدن بالقرى، مع الاكثار من الأسواق حتى يزداد حجم ومعدلات التبادل التجارى والرواج الاقتصادى، وهذا هو الهدف الحقيقى من«كل استراتيجيات التنمية والتخطيط».

شباب الجامعة في خدمة البيئة :

وكم نحن في جمهوريتنا، وفى سائر مدننا وقرانا، في حاجة إلى تنمية عاجلة وسريعة، وكم نحن في بلدنا نتطلع لفلسفة تربوية جديدة «تعيد النظر في هياكل وبرامج التنمية والتعليم، وإلى تغيير جذرى وتطوير جوهرى في طرق ومناهج التدريس، حين تخلف وراء ظهورنا، تربية عتيقة ولا جدوى منها، فهى بتلقينها ضاغطة خانقة، «تفرض مادة جامدة» وتخلق شخصية فارغة ومقصوعة، تتميز بأنها ناقصة الذكاء، فاقدة الفحوى، فينبغى «ألا نأخذ بتعليم ملقن» يقضى على ملكات الإنسان، ولا يخلف لنا سوى نماذج متجانسة من بنى البشر، حين تتواتر

وتندافع نحو التخرج كل عام ، وفى أنماط استاتيكية ، دفعات فجة وزائعة البصر ، وهى نماذج تحققت فى صور عقلية متشابهة ، وصيغت فى قوالب جامدة . فتوحدت جميعها فى نفس الشكل والمضمون .

ونظراً لخطورة كل هذه الأسباب والنتائج ، فعلى رجال التعليم ومخططى التربية أن يعملوا على خلق المناهج وتطوير البرامج ، وتحرير الفكر ، وتشجيع القدرات الذاتية ، وإنعاش ذكاء الإنسان ، وتنمية شخصيته ، بالكشف عن مواهب الفرد وإمكانياته ، ودفع طاقاته الخلاقة ، نحو العمل المنتج ، ونحو الإحساس بأهمية أو « قيمة الزمن كعنصر اقتصادى » .

اقتراح مخطط :

أ ـ ولكى يحقق التعليم الجامعى أهدافه ، علينا أن نصمم برامج العمل ، وأن نحدد مجالات التطوير ، فنرسم إطاراً مخططاً يتجه العمل فى مساره ، مع معرفة وفهم الإجراءات العملية والتطبيقية ، لتحقيق « الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للجامعات » .

ففى جمهورية مصر العربية ، هناك قطاعات قروية وحضرية وبدوية ، وكلها مناطق ومواقع تحتاج إلى الكثير من الجهود فى ميادين الرعاية والثقافة والتنمية بفضل وسائل الإعلام السمعية والبصرية ، مع تنظيم الخدمات ، وتوجيه الطاقات ، وشحذ الهمم ، بخلق وتنمية « القيادات » النشطة والمنتجة ، وبناء « الكوادر » الوطنية والخاصة .

ولاشك أن القطاع القروى فى جمهوريتنا ، إنما يشكل القاعدة العريضة والأساسية فى الاقتصاد المصرى . بالاضافة إلى أن « القرية المصرية » هى أكثر القطاعات على العموم حاجة إلى الرعاية والخدمات ، حيث تعانى القرى فى مصر الكثير من صنوف النقص والتخلف على المستوى الزراعى والصحى ، وفى الميدان

التعليمى والحضارى ، ومن ثم كان لزاماً على جامعاتنا أن تقوم بسد الكثير من جوانب النقص فى القرية المصرية .

وبالنسبة لطلبة جامعة الاسكندرية بالذات ، تتعدد القرى المتاخمة ، التى تعيش كمجتمعات هامشية Marginal ، حيث تحاط الاسكندرية من كل جانب بمناطق زراعية وبيئات قروية ، على شكل « عزب صغيرة » مثل « عزبة سعد » أو « عزبة عبد اللاه » أو عزبة « أبو سليمان » . ونظراً لقرب هذه العزب ، فيسهل على طلاب جامعة الاسكندرية ، التردد عليها أو القيام بالمسوح الزراعية والطبية ، والصناعية ، مع تقديم مختلف الحلول لتنمية هـــذه المناطق ، وعلاج ما تعانيه من مشكلات إقتصادية واجتماعية وثقافية .

ب ـ واستناداً إلى هذا الإقتراح المخطط ، تتعاون كليات الزراعة والطب والهندسة ، ومعاهد الصحـة والتمريض ، وأقسام الاجتماع فى كليـات الآداب والتربية والخدمة الاجتماعية ، بالاضافة إلى جهود طلاب كليات التجارة والحقوق فى نشر الوعى الاقتصادى والثقافى ، وقد يشارك طلاب « مدارس المعلمين العامة » فى بذل كل جهد فى جمع المادة العلمية المطلوبة . وفى محو الأمية وتعليم الكبار .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التأكيد على « وظيفة الجامعة » بالتحامها بالمجتمع ، واقتحامها لحل المشكلات ، فتخطط « هيئات التدريس » البرامج العلمية والتطبيقية ، لكيفية إستغلال هذه الامكانيات ، والطـاقات . بالاضافة إلى الافادة من ترابط الجهود وتكثيفها ، ومن أجل رفع مستوى الحياة فى هـــذه المناطق ، وتنميتها زراعياً واقتصادياً وتربوياً وثقافياً ، فتتغير بالضرورة وبفضل هذا التخطيط ، « خريطة القرية » إيكولوجياً وبيئياً واقتصادياً وسيكولوجياً ، فتتجه « ظواهر الحياة القروية » نحو ما هو « أفضل » وما هو « أمثل » .

جـ ـ وهناك إمكانيات بشرية وعلمية ، وطاقات وخبرات يمكن أن توجهها

الجامعة ، باستغلال المعامل وأماكن البحث العلمي المزودة بأحدث نتاج تكنولوجي وبالاستعانة بالآلاف من الشباب الجامعي الطموح وتتاح أيضا ، جهود مكثفة بين كليات الجامعة ، يمكن أن تتعاون لكي تنظم لنا صفوف المشتركين من الطلاب . وتحدد لجان النشاط ونوعيته ، كلجنة التربية ، ولجنة تنمية المجتمع ، ولجان الرعاية الاجتماعية والخدمة العامة ، بالاضافة إلى لجان طبية وزراعية وعلمية واقتصادية .

ومن الإمكانيات الفنية القائمة الآن، وجود إدارة الرعاية الاجتماعية في الجامعة ، التي قد تشارك في أنشطة رياضية وفنية وعلمية ، باستخدام فرق الجوالة وتحويل طاقات الطلاب إلى أعمال « اقتصادية منتجـــة ومنظمة » تحت إشراف هيئات التدريس بالجامعة ، كل في نطاق عمله ومجـال تخصصه . وهكذا تكون وظيفة الجامعة في التنمية ، ودور الأستاذ في التوجيه والإشراف ، ومن هنا يستطيع « الطالب الجامعي » أن يقوم بوظائفه العملية والاقتصادية ، فطالب الطب مثلا ، يشتغل بالجوانب المرضية والعلاجية ، عن طريق التوجيهات أو الإرشادات الصحية . وطالب الآداب والتربية والخدمة الاجتماعية ، لايفكر أو يدبر إلا في علاج مشكلة شائعة ، هي « تعليم الكبار » عن طريق « محو الأمية » ونشر الوعي بين أهل القرى .

أما طالب الزراعه ، فيقوم بالتوجيه والارشاد الزراعي ، كما « يعلم ويتعلم من الفلاح » ، حين يصطدم بخبراته العملية ، فتهتز نظراته العلمية ، ويضعف إيمانه بالنظريات الجافة التي فقدت الحياة . وهكذا يعمل ويفكر الطالب . ويمارس بالفعل « ما يفكر فيه » ، كما يطبق عملياً ماكان قد تلقاه من دروس نظرية . وهذا هو اقتراح مخطط ، للتعليم كعملية إنتاجية ، « نموذج تصوري» ، للتربية بالممارسة والخبرة والتجربة ، « برنامج عمل » أرجو أن يحظى باهتمامات رجال التخطيط

والاقتصاد والتربية فى مصر .

وتتجه الأذهان فى هذه الأيام ، نحو تغيير النظرة إلى التربية والتعليم بمنظور جديد يعالجها كعملية إنتاجية ، لأن العملية التعليمية هى عملية إقتصادية ، لا تنتج « إلا كرأسمالى مستثمر يظهر عائده فى المستقبل القريب أو حتى البعيد » . ولعلماء التنمية إهتمامات بارزة بعمليات التربية والتثقيف والتعليم ، لأن مشكلة التنمية فى جوهرها هى مشكلة « إنسانية » قبل أن تكون « مشكلة اقتصادية » لها أصول إنتاجية وجذور مادية . ومن أجل هذا يقول « السير بيرسى نن Percy Nunn » وهو من كبار المربين : Nothing good can enter the human world except in through the free acivities of every man or woman.

لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم ، إلا عن طريق النشاط المطلق الأفراد نساءاً كانوا أو رجالا » .

أ — وهناك ضرورة تربوية ملحة فى هذه الأيام ، تقتضى توظيف التربية والثقافة والفكر الجامعى الخلاق من أجل دفع عجلة التنميه الاقتصادية ، وعلينا أن نفكر فى عمق ، وفى ضوء ما تمليه تلك الضرورة فى ظرف اقتصادى عصيب ، فنعمل دوما وبلا إنقطاع ، فى ميدان التنمية مع ما يواكبها من تربية وتثقيف ، فن المقطوع به علميا أن « للتعليم دوره فى حل مشكلات التنمية الاجتماعية والاقتصادية » ، وهذا ما يقوله خبراء التنمية والتعليم .

وترتبط التنمية بالتعليم ، حين تترابط الجهود العلميـــة ، وتتعـاون كل الامكانيات التربوية والطاقات الجامعية ، وبتخطيط على منظم ، من أجل تطبيق كل ما جادت به قرائح وخبرات علماء الاجتماع الثقـافى والاقتصـادى والتربوى والتنموى من شتى الدراسات النظرية والتطبيقية ، وممارسة تلك الدراسات ممارسة عملية فى الحقل الميدانى .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نملأ ذلك الفراغ القائم بين « النظرية » و « التطبيق » ، وبالتالى يمكن الاستفادة من العلم والتجارب فى ميادين التنمية ، عن طريق تطوير العملية التعليمية وربطها باحتياجات اجتماعية ، وتخطيط برامج التربية طبقا لاحتياجات المجتمع ومطالب « الهيكل الاقتصادى » وحاجاته .

ودعما لمبادىء المشاركة العملية ، وبعثاً لروح المساهمة ، مع تعميق مفهوم « العلم للمجتمع » وتوسيع نطاق المناشط الممتدة فى حقل التطبيق والتجريب كان لزاما على الجامعات ، كمعقل أصيل من معاقل الفكر ، أن تعمل وأن تنطلق وأن تفسح طريقا الالاف من الشباب لبذل الجهود فى ميادين التنمية والرعاية والارشاد والخدمات العامة .

ب ـ ومن هنا ينبغى أن يتحول قادة التربية والفكر، ومخططو التعليم الجامعى فيتجهوا بكل طاقاتهم نحو دراسة مواقع حياتنا العملية بأسلوب علمى ومتكامل ، حين ينتشر طلاب جامعاتنا فى « قراهم » و « كفورهم » ، وينتقل علماؤنا إلى مختلف مراكز البحث العلمى ، وينطلق الباحثون والدارسون بين سائر « المعامل » و « المصانع » و « المزارع » حتى تؤدى الجامعة والمعاهد والمدارس ، دورها الاجتماعى الصحيح ، وتصبح مراكز أساسية للاشعاع الثقافى والفنى والاقتصادى والصحى .

فالمناهج الحالية التى تعتمد على الدراسة النظرية وحدها دون تجريب أو تطبيق . تصبح مناهج سلبية وعرجاء . إذ أن « النظرية » لا تستطيع الوقوف على أقدامها . حين لا تستند إلى « الممارسة العملية » . وفى هذا المعنى يقول مفيستوفيل فى مأساة « جوته Goethe » المشهورة « فاوست » إن النظرية رمادية اللون ياصديقى ، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد » . فالدراسة النظرية الجافة لا تجنى منها ثمار . إلا إذا ارتبط العلم بالعمل . والنظر بالتطبيق . ومن

هنا تتصل التربية بالحياة ، وترتبط المدرسة والجامعة بالمجتمع ، وتستند الثقافة إلى أصول اقتصادية وجذور واقعية .

ولما كان ذلك كذلك ، فإن الدراسة النظرية المجردة إنما تعجز عن القيام بدورها الاجتماعي ، حين لا تحاول في حماس علمي وفي غيرة وطنية وروح قومية جادة ، أن تعمل دوماً على فهم ودراسة تلك الدراسات النظرية الزاخرة ، وتطبيقها في واقعنا الإجتماعي الحي .

د ـ وإنطلاقاً من هذه المزاوجة بين الفكر والعمل ، والتكامل بين قطاعات الثقافة والتربية ، والتنمية والانتاج ، نستطيع أن نقترح مشروعاً ، أو أن نخطط برنامجاً تكاملياً ، تقوم به الجامعة بأساتذتها وطلابها وبكل كلياتها ومعاهدها ، فتشارك كليات الطب والعلوم والصيدلة والزراعة ، في مشروعات تنمية المجتمع ، كما تتوظف معاهد التريض ومراكز الصحة العامة ، في نشر الوعي الصحي ، وتساهم كليات الآدب والتربية ومعاهد المعلمين ، بكل أقسام الاجتماع والخدمة الاجتماعية ، في رفع المستوى التعليمي والثقافي ، بمحو الأمية وتعليم الكبار في المناطق التي تحتاج إلى مثل هذه الخدمات .

الوقت الأقتصادي :

مع صدور مشكلة الفراغ ، ظهرت السلبية واللامبالاة ، وانتشرت روح التمرد والتفكك ، وضعفت سطوة القانون ، مع فقدان المعايير ، فانتشرت فئات وجماعات الهبيز ، لشعورهم بالفراغ والخواء . ولعل السأم boardom والملل mouotony والضياع ، وكلها ظواهر تعبر عن أبلغ درجات الفراغ .

والإنسان الذي يعرف قيمة الوقت الاقتصادي ، هو إنسان يحترم العمل ولا يشعر بالملل والخواء ، لأن الفراغ دون عمل أو أمل ، يقلل من طموح الإنسان ويضعف من حماسه . وشغل الفراغ باللعب والترويح Recreation

والتسلية والانتعاش ، يصرف الطاقة الزائدة Surplus energy عن الحاجة كما يحقق « النشاط الترويحي » حالة من التوازن Equilibrium في حياة الإنسان النفسية والاجتماعية فينفس الإنسان عن الحبيس من الطاقة ، ويستهلكها فيما هو « نافع ومفيد » .

ويهتم « علم الاجتماع الشبابي » ، ببرامج شغل الفراغ وتنظيم الرحلات والسياحة . فليس الوقت فراغاً زمنياً ، وإنما هو شيء له قيمته الاقتصادية ، فالوقت لازم وضروري وشرط في كل عمل ، وبجهود في كل سلعة . ولقد ظهرت أهمية شغل الفراغ بعد أن ظهرت الانحرافات الواضحة في أنماط سلوك الشباب ، سواء أكانت بين جماعات متطرفة دينياً ، أو هدامة سياسياً ، الأمر الذي يفرض ضرورة التخلص من « أنماط السلوك الانحرافي » بين الشباب .

وعلى علماء الاجتماع ، أن يواجهوا خطر الجماعات العقائدية الدينية والسياسية وأثرها على توجيه الشباب . فتظهر أشكالا من الانحرافات الدينية واللادينية . وعلينا بالتوعية الدائمة ، والتوجيه الديني السليم ، واحترام « نقاء الشعور الديني » الخالص ، دون النظر إلى عامل سياسي أو دنيوي . ومن هنا يستطيع عالم الاجتماع الديني والثقافي والتربوي أن يخلص شبابنا من الأيديولوجيات الضارة ، عن طريق إعداد البرامج في ميدان تنظيم « شغل أوقات الفراغ Leisure » .

٤ - مشكلة الفراغ الاقتصادي :

إذا كان « الوقت من ذهب » كما يقول المثل المألوف ، فالوقت ليس شيئاً تافهاً ، وإنما هو شيء له قيمته . وليس الوقت فراغاً زمانياً ، وإنما للوقت دوره ووظيفته في تحقيق المصالح والآمال ، وقضاء حاجات الناس ومناشطهم . فالوقت لازم وضروري كشرط يتوافر في كل عمل . والعمل هو الواجهة الحقيقية لكل انتاج اقتصادي أو فني ، حيث يبدع الفنان ويخلق الأديب والفيلسوف ، كما ويعمل

الفكر دائماً من أجل الحياة ، فتزداد الخبرة ، مع زيادة عمق النمو الحضرى ، ومن هنا كان للوقت قيمته فى الثقافات الغربية ، بل وهو أكثر أهمية وقيمة منـــه فى الثقافات الاستاتيكية ، أو التقليدية . فلاقيمة للزمان والمكان عند البدائى والقروى والبدوى ، وفى دراسة عن الزمان عند الفلاح الجزائرى فى Kabyle ، قام بها « بورديه Bourdieu » . تبين أن « مفهوم الوقت هو مفهوم ثقافى ونسبى » . وليس للوقت عند الفلاح الجزائرى أية قيمة إقتصادية . وإن كانوا فى قرى الجزائر يربطون بين الوقت ومناشط إقتصادية مثل فكرة السوق الذى يقام كل أسبوع فى شتى القرى التى تختار كل منها يوما للسوق التجارى . ولذلك حين يريد الفلاح الجزائرى أن يعبر عن مفهوم زمانى مستقبل يشير إلى معنى الأسبوع القادم ، فإنه لايعرف معنى الأسبوع لغة ، وإنما يقول لنا فى « السوق القادم » ، « وفى هذا المعنى يتضمن الزمان القروى الجزائرى ، فى الواقع ، تصورات استاتيكية ومفهومات قدرية ، ومقاصد إقتصادية (1) .

وقد يسبب الملل والضيق والضجر ، كحالات نفسية تبحث على الاهتمام بالترفيه وتؤدى إلى « قتل الوقت » فى ما لا ينفع ومن ثم يستهلك الإنسان وقته دون أى تقييم إقتصادى ، بل نقول إن « وقت الملل » هو ضياع بلا قيمة إقتصادية ، وهو وقت سيكولوجى ، وليس وقت عمل أو جهد مبذول أو « قصد إقتصادى مقصود » .

ولا شك أن الفراغ هو السبب المباشر للاستهلاك ، ولذلك تمتلىء المقاهى فى أحياء العمال والفلاحين حيث تنتشر المخدرات ، نظراً لشدة الاحساس بالفراغ ، فيزداد الاستهلاك كلما إزدادت حدة الفراغ ، وشدة الإحساس به .

---

(1) Bourdieu, Pierre., The Attitude of the Algerian Peasant toward Time, article from, Mediterranean Country men, Mouton, 1963. P. 56.

ولاشك أن « الانتظار» مثلا هو حالة من الفراغ ، فيزداد الملل كلما ازدادت فترة الانتظار دون عمل أو مجهود ، فيكون المنتظر قلقاً وملولا ، فيمضى الوقت وكأنه الجمر ، فيزداد حنقه واستهلاكه للتدخين وتناول المرطبات والأطعمة ، أثناء فترات الانتظار ، وفى حالات الفراغ من العمل فى أوقات الظهيرة وفى المساء .

وفى حالات الانتظار يمر الوقت ثقيلا ، ولذلك تنجح المشروعات الاستهلاكية بجوار محطات القطار ، وفى كل أماكن الانتظار المألوفة ، وفى المطارات العالمية .

وقد يكون للوقت قيمة بورجوازية وطبقية ، ولذلك يختلف قضاء الوقت بين طبقات الناس ومشاربهم . ومن هنا صدق المثل القائل « خبرنى كيف تقضى وقتك أخبرك من أنت » .

فنحن نعرف كيف يقضى العامل وقته ، الذى يتمايز عن كيفية قضاء الوقت بين الفلاحين ، وشتان ما بين أوقات الترفية بين طبقات الادارة البيروقراطية من جهة ، وبين طبقات العمالة المنفذة ، من صغار الموظفين والمشرفين على العمال من جهة أخرى .

والإنسان فى حالات فراغه وانتظاره أو فى أجازاته أو انقطاعه عن العمل هو أكثر استهلاكا منه فى حالات إنتاجه وعمله . بمعنى أن الفراغ من العمل هو السبب الحقيقى لكل عملية استهلاكية .

ولذلك يقال إن الفراغ مفسدة ، لأنه يزيد من شعور الإنسان بعدم الرضا والضياع ، إذا ما شغل الإنسان وقته بما لا ينفع الناس ، أو يعود بالخير عليهم . هذه حقيقة تؤكدها دراسات سوسيولوجيا الشباب ، وسوسيولوجيا الأطفال Sociologie de l'enfant ولذلك علينا أن نشغل أطفال المدارس والشباب وطلاب الجامعات فى أوقات فراغهم الصيفية ، بالعمل الناجح والمفيد ، فلنشغلهم بما ينفع ، بدلا من قضاء الوقت فيما يضر الصالح العام من إنحرافات سلوكية قد

يعاقب عليها القانون . فالمشغل الناس بالضاء وقت إقتصادى نافع وممتع ، بدلا من التزام ما لا يليق من السلوك الانحرافى وارتكاب المعاصى التى تفضى إلى الجريمة والجناح . الأمر الذى يزيد من حدة التفكك والصراع مما قد يؤدى بدوره إلى التمرد والثورة . وإذا ما عرفنا قيمة الوقت الاقتصادى ، لفهمنا إختلاف قيمة هذا الوقت ، وتقييمه طبقا لمحكات خاصة نظراً لإختلاف لون الثقافة والإدراك والطبقة .

٥ - اقتصاديات شغل الفراغ Leisure Timre :

ظهرت أهمية دراسات شغل الفراغ ، بعد أن ظهرت الإنحرافات الواضحة فى أنماط سلوك الشباب ، سواء أكانت بين جماعات متطرفة دينياً ، أو هدامة سياسياً ، فينبغى أن نتخلص نهائياً من أنماط السلوك الانحرافى بين الشباب ، ولابد من الدعوة إلى « الضبط أو الانضباط » ، حتى يذوب هذا التطرف الدينى أو السياسى ذوباناً ، داخل إطار من الفهم والوعى والدراسة والعلم . ومن ثم كانت مسألة شغل أوقات الفراغ . بالنسبة للشباب هى مشكلة جوهرية من مشكلات علم سوسيولوجيا الفراغ Sociology of Leisure . ومن أجل الفهم نواجه كل « وسائل الأعلام » الفكرى وأدوات الاتصال الجماهيرى من خلال الكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية بفضل مجهودات « الصحافة وأجهزة الراديو والتليفزيون والترانستورز . وينبغى أن نشرح قضايا المجتمع ومشكلاته حين ينتقل الاعلام إلى القرية وإلى المدينـــة ، وحتى تتطور هذه المنطقة العربية كلها من التأثير الايديولوجى ، ومواجهة تلك الجماعات المنحرفة ذات « التعصب الدينى الواضح » بالمناقشة والفهم ، لأنها من أخطر هذه الجماعات المتطرفة ، وأكثرها قسوة وبطشاً وأبعدها أثراً فى نفوس الشباب تحت ستار الدين وباستغلال طهارة الشعور الدينى النقى » ، فى سبيل مصلحة « من وراء » هذه الجماعات الغريبة على الثقافة «المصرية»

والتي لا يمكن أن تكون « جماعات مصرية » لأن مصر لن تخلق مثل هذه « الجماعات الدينية المتطرفة » على الاطلاق ، فلابد من وجود مصادر وثقافات أخرى « غير مصرية » ، وراء هذه الجماعات الدينية المتطرفة .

وعلينا أن نواجه خطر الجماعات الدينية المتطرفة على إتجاهات الرأى بين الشباب المصرى ، وهو أمر من ناحية « الأمن الدولى » « خطر عالمى معروف » ينتشر بين شباب العالم فتظهر « أشكالا من الإنحرافات الدينية واللادينية » . ونحن كأساتذة فى الجامعة وكآباء لمثل هؤلاء الشباب ، ينبغى أن نعلن الحرب العلمية والفكرية ، ضد هذه الجماعات الدينية المتطرفة ، حتى يميز شبابنا بين الأصيل والدخيل ، بين الحقيقة والضلال . من أجل الحفاظ على قيم مصر ومثلها العليا ، وحتى لا تتدهور أخلاقيات الشباب وتفسد أجيالنا بتسلسل النزعات الهدامة والاتجاهات العنصرية التى تسبب الانحلال الخلقى .

لذلك كان على علماء النفس والاجتماع والدين الاهتمام بمشكلة شغل أوقات الفراغ بين أجيال الشباب فى الجامعة والمصنع ، فى القرية والمدينة ، حتى تصاغ أنشطة الشباب وتصب فى « قنوات مشروعة دينياً وإجتماعياً وخلقياً » .

ولذلك فإن نشر الوعى الدينى بين الشباب ، هو أمر مطلوب ، حتى يستطيع أن يقاوم التيارات المتطرفة ، وأن يدافع عن الدين الحق إزاء البدع والضلالات ، فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . وهناك كتب دينية من نوع خاص تنتشر فى مكاتب ودور النشر ، كما يغلب عليها الطابع الدينى المتطرف ، وعلينا أن نعيد النظر إلى هذه الكتب ، وأن نقرأ ما جاء فيها ، حتى نقدم للشباب الصالح منها ، ونبعد عنه ما قد يثير فيه « البلبلة » بفضل إنتشار الأفكار الدينية الغريبة عن الدين الإسلامى الحنيف .

وكم يكون طالب الجامعة ، فى حاجة إلى قراءة الكتب الجادة التى تنفع ، فتمكث

فى الأرض ، أما ما لاينفع فهو قبض الريح ، فيذهب كالزبد جفاء . والقراءة متعة ، وترقية للفكر والمشاعر ، وهى وسيلة جوهرية من وسائل شغل أوقات الشباب بين « جماعات الطلاب » و « عمال المصانع » فقد تحقق قراءة كتاب مفيد متعة وفهماً وتسلية ، بالنسبة للمشتغلين فى العمل الصناعى ، والمهن أو الحرف الفنية والصناعية ، التى قد تتطلب الراحة والترفية بعد مجهود العمل المضنى الذى يبذل فيه العامل مجهوداً جسمياً وعضلياً . ومن هنا تصبح القراءة ضرورة للتسلية وترفيه وتثقيف العامل والفلاح والطالب ، إذا إنتشرت الكتابات التى تثقف الإنسان وتنميه ، بتربية فكره وعقله ، وترقية مشاعره وذوقه وخلقه ، وتشبع القراءة حاجات الشباب النفسية والاجتماعية ، وتزيدهم فهماً لدينهم ودنياهم .

ولاشك أن مرحلة الشباب ، هى أهم مراحل العمر بالنسبة للانسان الفرد ، فالشباب هم « ربيع المجتمع » وأمله وقوته وعدله . هم « الطاقة الحقيقية الكامنة » فى كل مجتمع ، والتى هى فى مسيس الحاجة إلى ما يوجهها نحو « المفيد والنافع » من جهة ، كما وبعدها عن « السلبى » و « الهدام » من جهة أخرى . وحبذا لو إنتشرت الكتابات المسلية لسائر العمال ، والتى تخاطبهم والتى تثقف « الإنسان الصناعى » وترقى من مشاعره وتنمى خلقه وذوقه . وذلك لقضاء وقت فراغ مريح مع كتاب ممتع ، وسهل ، وسلس العبارة ، يتذوقه العامل والمهنى ، ويتغذى عليه بلغته القريبة إلى سيكولوجيا طبقات العمال فتشبع حاجاتهم ، وتزيدهم فهما ووعيا ، فكم يحتاج العمال كطبقة إلى ما يوجهها الى النور ، وإلى ما يدفعها نحـــو النافع المفيد للعمل والوطن ، بعيداً عن كل سلبية أو إنهزامية .

وعلينا أن نشجع العامل المثقف ، بتنمية شخصيته وقدراته وذكائه ووعيه ، ولا شك أن العامل المثقف أكثر إنتاجاً من العامل غير المثقف ، ومن ثم أصبحت الثقافة ودورها الدفاعى بالنسبة لفئات قوى الشعب العامل ، كالمذبة بالنسبة للذباب ،

حتى لا يثأر العمال بحركات «فوضوية» أو «نزعات فوضوية» . وبالثقافة يصبح العامل أكثر وعياً ونشاطاً وإعتداداً بذاته ، فلا يتشدق بكلمات ببغاوية لا يتفهمها ولا يواكب النزعات المتطرفة ، التى تقتل ملكات الإنسان الذكائية ، فيتجمد فكره حين ينخرط فى « طبقة » أو ينتمى إلى « طائفة » ، فيصبح العامل فرداً يتصرفون به باسم «الحركة الشيوعية التقدمية» ومن أجلها ، كما يتصرف بالأدوات . فأصبحت حياة العامل عارية عن الروح حين أسدل عليها الشيوعيون ستاراً « كثيفاً » فقضى على « الروح الإنسانى » قضاءاً مبرماً .

فالفراغ كما نعلم مفسدة ، والوقت كما درسنا كالسيف ، والكتاب خير صديق لكل عامل وفلاح ، والقراءة كمبدأ وهدف ، وكضرورة للتقدم ، هى الحقيقة النهائية والمستمرة التى لا تتوقف ، فلقد مات « الجاحظ » وعلى صدره كتاب .

ولكن ماذا يقرأ شباب العمال :

ينبغى أن نحدد لشباب الصناعة ماذا يقرأ ؟ فأين هى صحف العمال وقصص الشباب ، أين أدب العمال الذى يشبع حاجاتهم ، وأين كتب ومجلات ، وفلسفة الشباب ، على إعتبار أن « مشكلة شغل الفراغ الصناعى » ، هى مشكلة جوهرية من مشكلات العمال اليومية .

الايديولوجيات الضارة وتنظيم الفراغ :

ينبغى أن يقوم « خبراء الصناعة » بتنظيم برامج ترفيهية لشغل الفراغ بين جماعات العمال ، حتى تزداد قيمة الوقت بمعناه الاقتصادى ، وتتقارب وجهات النظر بين فئات العمال ، حين يشعر كل منهم بأهمية التعاون و « التضحية » و « النجاح » و « الانتاج » ، فيكون مثلنا الأعلى هو «العامل المثقف المنتج المتفوق» المدرب المهذب الذى يعرف كيف يقضى وقتا طيبا نافعا ومفيدا بعيدا عن الأيديولوجيات الضارة والأفكار الهدامة .

وعلى النقابات أن تقوم بدورها الترويحي بين جماعات العمال ، وتوجيه الأنشطة الثقافية وتحقيق البرامج الاجتماعية والرياضية . فالفراغ هو الوقت الضائع دون منفعة أو عائد ، وبلا عمل منتج ، فهناك ساعات متعددة يقضيها العامل بعد إنقضاء فترة عمله اليومية ، فيفرغ من وقته الضروري للعمل ، ويدمن الكثير من العادات الضارة كالتدخين وتعاطي المخدرات .

والبطالة مثلا ، لا تسمى فراغاً ، لأن البطالة فراغ إجباري ودون عمل ، ولكننا نقصد بالفراغ ، هو « حالة الخلو من العمل الضروري » ،وانقضاء ساعات العمل ، بوقت أكثر راحة وترفيها .

وبذلك يتأثر أسلوب شغل الفراغ من مهنة إلى أخرى ، فالذي يفرغ من العمل الذهني أو الفكري ، لايشغل وقته بنفس الطريقة التي يقوم بها من يفرغ من العمل الآلي أو اليدوي أو الميكانيكي والصناعي ، فلكل مهنة أو عمل أو حرفة أسلوبها الخاص في قطع الفراغ والتسلية ، طبقاً للون الثقافة والإدراك ، والاختلاف الايكولوجي القائم بين الثقافة الحضرية والثقافة القروية(١) .

الشباب والسلوك الانحرافي :

كثيراً ما يجنح الشباب ويتمرد ، فيحاول أن يغير من أنماطه الاستاتيكية السلوك التقليدي ، والسبب في هذا ، هو رغبة الشباب الملحة في التطوير والتغيير وميل الشباب الطبيعي إلى الأخذ بالغريب والشاذ من أساليب الفكر والنزوع .

وإذا ، درسنا السلوك الديني بين الشباب ، لوجدناه يميل إلى التطرف والتمسك بأهداب الدين ، وهذه جماعات دينية تتطرف نحو الأخذ بالمتزمت من القواعد ، بينما تأخذ جماعات أخرى بأنماط « لادينية » أو بالتحلل وبالابتعاد عن القواعد الأساسية والفرائض الدينية وقواعد الأخلاق الفاضلة .

(1) Anderson, Nels., The Urban Commuinty, Routledge Kegan, Paul, London : 1960. pp. 347-370.

ومن ناحية « الأمن العام » وأمن الدولة ، علينا أن نواجه خطر الجماعات العنصرية والدينية المتطرفة . فهو خطر عالمى معروف ، تنتشر سمومه بين سائر فئات الشباب المريضة من شباب العالم ، ودراسة أسباب انحرافاته الدينية واللادينية .

وشباب مصر ، هم أمل مصر ، كم هم فى مسيس الحاجة إلى « رعاية » ؟! وعمال مصر ، هم سواعد مصر ، كم هم فى مسيس الحاجة إلى « تثقيف وتنمية » خوفاً عليهم من الغريب والشاذ من الأفكار والمعتقدات المستوردة من خارج مصر ؟ ! وعلينا إذاً أن نرعى أبناءنا بالفهم والتثقيف والعناية والهداية ، نحو طريق الخير ، ونحو النور ، ونحو الحق ، وهذا هو حق الشباب على الآباء وحق طلاب الجامعات على أساتذة الجامعات .

فكيف نشغل وقت الفراغ بالنسبة للطالب والعامل والفلاح ، بدلا من ضياعهم بين خرافات أو خزعبلات نهباً للافكار الرجعية المخربة ، وللاتجاهات السياسية الهدامة ، تلك التى تنتشر بين أبناءنا الشباب من طلاب الكليات والمعاهد وفى المقاهى العامة بين شباب العمال ، حيث يلتقى العمال دون أى رعاية أو توجيه، بل ويترك العامل نهبا لجهالة وإدمان المخدرات والاسراف على تعاطى المكيفات ، حتى يدمن بعد ذلك كل الأفكار السياسية الهدامة والفوضوية . فعلينا كآباء وكأساتذة للجامعات أن نحارب « الانتهازية » ، ونرفض « الجمود العقائدى » ، وعلينا أن نشجع العامل على المزيد من القراءة والثقافة ، من أجل تنميته وتطويره ولقد أصبحت الثقافة ، ضرورة لازمة فى حياة العامل الشاب أو الفلاح الكادح ، لسبب بسيط جدا وهو أن حياة العمال من الشباب ، قد أصبحت فى هذه الأيام عارية عن الروح ، حين أسدلت عليها « وطأة التكنولوجيا » و « الجماعات المتطرفة على المستويين الدينى والسياسى ، ستاراً كثيفاً حجب كل شيء ، فقضى ستار المادية

على الروح ، وحجب ذلك الحجاب المادى الكثيف والمانع عن التوصل إلى الحقيقة ، مما كان له أثره على وضوح الرؤية « فانهارت القيم » .

ولكل هذه الأسباب ، أصبحت برامج القراءة والأعلام والتثقيف ، ضرورة لكشف الايديولوجيات الضارة ، الأمر الذى يجعل من القراءة « غاية فى ذاتها » أو « مبدأ أو شعار » ، يؤكد لنا دائما على أن القراءة هى منطلق فهم يفسر لنا حقيقة الأمر الآلهى الذى صدر فى القرآن الكريم مع الآية القائلة : « إقرأ باسم ربك الذى خلق » . ففى هذه الآية ما يكفى النظر إلى مبدأ القراءة كأنبل غاية ، تحقيق أهدافاً حضارية ومعرفية ، راقية ، لكل إنسان يحترم إنسانيته ، فعلينا بالقراءه دون كلل أو ملل ، فالقراءة هى غذاء الروح والقلب والذوق جميعاً كما وتحقق لنا فى نفس الوقت أهدافها البعيدة فى ميادين الاقتصاد والتنمية ، والتكنولوجيا والتربية .

ولا أقصد بالفراغ هنا ، الترويح والترفيه ، وقضاء الوقت حول التليفزيون أو فى المتنزهات والحقول حيث الهواء الطلق ، فهذا فراغ محبب إلى النفس ، بل وهناك فراغ مطلوب إقتصادياً ، لأنه يقلل من النشاط والفاعلية ، فيقبل الإنسان بعدها على عمله فى شىء من الغبطة والرئاط والجدية والنشاط ، وهو يمتلىء حيوية ، فهذا فراغ إقتصادى مرغوب فيه ومقصد مطلوب ، لأنه فراغ له قيمته ودوره فى زيادة الإنتاج ، فنحن نرفه عن أنفسنا من أجل النشاط وزيادة الانتاجية ، وهذا هو « الفراغ الاقتصادى » الحق .

ولا أقصد بالفراغ هذا المعنى الإقتصادى فحسب ، وإنما أقصد بالفراغ الوقت الذى يضيع ويتسرب دون هدف يتحقق فهو وقت يمضى دون عمل أو أمل .

فنحن نقطع الوقت أملا فى تحقيق الأمانى التى يشعر معها الانسان بالسعادة ، وكلما إرتفع مستوى الطموح aspiration عنده كلما إزدادت ورقت وارتفعت قيمة الانسان ، وكلما إزداد معها أيضا « مفهوم الوقت الاقتصادى » عزارة وغنى وخصوبة .

ولاشك الفراغ الاقتصادى ، هو فراغ دينامى ، يخلق المسرات ، أما الفراغ الاستاتيكى الذى ينقضى كزمن بلا مضمون يتوافر على نحو متطابق ، ويمضى فى شىء من الآلية ، أو النمطية التى قد تؤثر على شخصية الانسان ، فتقتل ملكاته ، فيمضى وقد فقد أعظم ما يملك ، حين ينطلق الانسان فى حياته بلا معنى ولاهدف بلا قيمة للوقت ، بلا تحقيق للامال ، مما يخلق لنا نمط « الانسان المتمرد » أو الانسان الذى يطلب « القيمة » أو « المضمون » لأنه لا يشعر إلا بالخواء .

والفراغ الاقتصادى لا يمكن أن يؤدى بنا إلى الخواء والضياع ، بل إلى العمل والإنتاج وزيادة لخلق الإبتكار .

برامج اللعب والترويح Recreation :

ولاشك أن برامج التسلية ، والانعاش ، والتنزه ، وبذل الجهد والحركة ، إنما يقصد بها بذل النشاط عن طريق الرياضة ، والسياحة بقصد الراحة ، والمتعة أو تجديد الخلايا بالجرى ، والانزلاق والفروسية ، ثم تنظيم برامج لأوقات اللعب واللهو ثم تحديد أوقات للراحة والنوم . وكلها أمور مطلوبة وضرورية فى دراسة « سوسيولوجيا شغل أوقات الفراغ » ، حتى يتجدد نشاط الشباب ويزداد حماسه وحبه للوطن .

ولاشك أن « اللعب » نشاط ترويحى ملحوظ فى حياة الأطفال أثناء مراحل نموهم سواء فى الطفولة المبكرة أو المتأخرة » ، ومن الخطأ أن نحرم الطفل من ألعابه ولعبه ، لأن لعب الطفل نشاط له ضرورته لإعداده للحياة . ولقد أثبتت الدراسات التجريبية والتربوية Pedagogique فى علم نفس الأطفال Psychologie de l'enfant عند كلاباريد Claparéde أن اللعب ضرورة فى حياة الطفل وله قيمته وجدواه فى تربية الطفل وتعليمه .

وليس اللعب ظاهرة طفلية وحسب ، بل هو ضرورة للشباب المثقف والعامل

فهناك ألعاب خاصة بالشباب كمجموعات وفرق وفرادى ، حيث يستطيع الشباب أن يتفوق فى السباحة أو المصارعة أو كرة القدم أو السلة ، وهناك فرق أخرى تهوى الفن والرسم والتمثيل ، ومجموعات إمتازت بالسمر والترفيه والغناء والرقص الجماعى الممتزج بالفلكلور الوطنى والشعبى وكلها مصادر تصرف الطاقة الزائدة عن الحاجة Surplus energy بين الشباب[1] .

(1) Ellenson, Ann., Human Relations., Prentice-Hall. 1973.

الفصل العاشر

ثقافة ذوى الياقات البيضاء

* تمهيد
* ولكن كيف تكونت طبقة ذوى الياقات البيضاء ؟
* ثقافة الإدارة الصناعية
* أنماط من ذوى الياقات البيضاء
* ثقافات هامشية Marginal Cultures
* الأحزاب السياسية فى الدول النامية
* أدوار ومستويات ذوى الياقات البيضاء

تمهيد :

لقد نجمت طبقة ذوى الياقات البيضاء ، عن إنتشار وتعقد ظواهر التصنيع والتكنولوجيا . وهى طبقة بيروقراطية تسود وتتحكم ، ظهرت كافراز صناعى ، فسادت كطبقة اجتماعية قائمة بذاتها ، وتحكمت كصفوة جديدة Neo-Elite ، تحكم باسم القانون ، وتتسلط على « بناء القوة Power Structure » داخل كل تنظيم صناعى أو اقتصادى . ولقد صدرت ثقافة ذوى الياقات البيضاء ، عمـــا أفرزته موجة التكنولوجيا وإنتشار « ثقافة التصنيع » كثورة عالمية . كما ونجمت هذه الطبقةعن ذلك « التأثير البيروقراطى Bureaucratic Influence » الحاسم فى كل «بناءاجتماعى» أو فى كل « نسق صناعى » ، والحادث فى كل التنظيمات الاقتصادية السائدة فى مجتمعات بنى البشر(1) .

ولكن كيف تكونت طبقة ذوى الياقات البيضاء ؟ :

ولقد ساعد نمو البيروقراطية ، على زيادة حجم طبقة ذوى الياقات البيضاء ، وضاعف من سلطانها ومهابتها ، حيث تتركز فى أيديها بحكم القانون كل ألوان السلطة السائدة فى كل تنظيم إدارى ، كما ويزداد نفوذ طبقة ذوى الياقات البيضاء كلمـــا إزدادت وتعقدت ميكانزمات الضوابط البيروقراطية bureaucratic controls .

ولقد أحدثت ثقافة الياقات البيضاء ، بين سائر وفئات وأدوار البناء التنظيمى للمصنع ، الكثير من « الفجوات الثقافية cultural gaps » ، وفى هـذا الصـدد ، يقول « هالفاكس Halbwachs » ، إن العامل الماهر ، قد ينفق على طعـامه أكثر من « موظف بيروقراطى كبير » له نفس الدخل والأجر والوضع الاقتصـادى . كما يرى « هومانز Homans » أن الدخل والوظيفة قد يكون لهما أثرهما فى تحديد

(1) Mills, Wright., White Collar, New York, 1951.

الوضع الطبقى ، فالعامل الماهر ، هو الذى يعطى دائما أكثر ، ويحصل دائما على ما هو أكثر ، فيشعر بأنه أكبر أجراً ، وأعلى مكانة Rank ، فيحاول أن ينفق من أجره بضع دولارات ، فيدفع فى أسلوبه الاستهلاكى قروشا أكثر من غيره حتى يشعر الآخرين بأنه أكثر ، أفضلية إذا ما قورن بغيره(١) .

وقد تتأثر شخصية العامل لما تراكم فوق رأسه وعلى حساب أعصابه ، من سائر فئات الإدارة الوسطى middle management ، من مهندسين ومديرين ومشرفين وأسطوات ، وكلها طبقات إدارية ووظائف إشرافية ، تراكمت فوق طبقة الياقات الزرقاء ، فيمرض العامل المسكين ، وتضطرب شخصيته ، وتهتز أناه الأمر الذى يستوجب ضرورة الالتفات إلى تأثير الياقات البيضاء ، وثقافتها الضاغطة الكابتة ، ومحاولة « تخفيف حدة البيروقراطية » ، عن طريق ديموقراطية السلطة والحوار والسلوك .

فالديموقراطية سبيل ومنهج Merhod ، لأنها طريقة حياة Style of life ، أما أوتوقراطية النظام البيروقراطى ، الذى تقوم به طبقة ذوى الياقات البيضاء ، كجهاز « يفرض القرار دون سابق إنذار » ، فهى أوتوقراطية مستبدة ، وقاهرة على العكس من الديموقراطية ، كأسلوب أو كطريقة لإصدار ما يرضى عنه « الكل » consensus فهو قرار الكل ، الذى يتصاعد بالمناقشة المتفتحة الواعية ، فينطلق القرار الجماعى من قاعدة ذوى الياقات الزرقاء ، إلى قمة ذوى الياقات البيضاء(٢).

وتنطلق العلاقة الديموقراطية داخل جدران المصنع ، عن طريق احترام

---

(1) Smelser, Neil., Sociology, An Introduction, Pakistan, India, 1967 pp. 66 67.

(2) Selznick. P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

الإنسان والاعتراف بقيمته وفرديته ، بدلا من أن تتمسك طبقة الياقات البيضاء بما حولها من نمطية السلطة وصولجان الادارة وهيلمـــان السلطان . فلنفتح في مصانعنا النوافذ حتى تشيع العدالة ، ويسود المناخ الديموقراطي المريح ، والجو الإنساني المنتج والمفيد ، حتى يحدث التقارب بين طبقة الإدارة المثقفة ، أو طبقة العمل والعمال من متوسطي التعليم ، ومن ذوي الخبرة الفنيـة . فيزول التعـارض ويذوب الصراع بين سائر الفئات الحرفية والمهنية والفنية .

وفيما يتعلق ببنية الجماعات المهنية Occupational Groups نشر « كنيث براندي Kenneth Prandy » مقاله المشهور عن « التكنولوجيين في المجتمع الصناعي Technologists in industrial Society » ، وفيهـا يقول « كنيث براندي » إن المهندس الذي يعمل ويشرف وينتج في جماعة الإنتاج الصغيرة ، وهو شخصية مهنية مختارة للاشراف الفـني ، على جماعة أو جماعات مهنيـة ، وتتصل قرارات المهندس وترتبط بالخطة العامة للانتاج وقد يحدث الصراع الصناعي بين « رؤساء الجماعات المهنية Gang Boss من جهة ، وبين المهندسين من جهـــة أخرى » ، وهو صراع أيديولوجي وثقافي ومهني، نظراً لوجود الفروق الفردية، والمهنية ، ولاختلاف درجة الخبرة بحيث تعمل التكنولوجيـا بصفة مستمرة على خلق الصناعات الجديدة وتطورها ، ممـا يزعج العمال غير المهرة أو يخـل بتحقيق أهداف الخطة ، كما ويعوق حركة الانتاج . ويقول « ميرتـون Merton » [٢] إن قرارات المهندسين ، إنما ينبغي ألا تمس النظام Routine كما ينبغي أن تكون

---

(1) Restivo, Sol, P., Christopher, K., Vanderpool., Comparative, Studies in Science and Society, U.S.A. 1974 P. 165.

(2) Ibid : P. 167.

إنسانية ترضى العامل ، ولاتشير قلقة أو اضطرابه أو خوفه ، وهنا يقتصر الدور الرئيسى للمهندسين على التوجيه الإنسانى ، والمتابعة الديموقراطية ، ورفع الروح المعنوية بين عماله .

ثقافة الادارة الصناعية :

لقد أشار « كارل مانهايم » فى كتاباته المتعددة إلى عدد من المسائل التى تدخل فى صلب « سوسيولوجيات » الثقافة culture و « المعرفة Knowledge » حال فيها وعلى، أثر سوسيولوجيات المعرفة فى أساليب الدعاية Propaganda والاتصال communication كما كشف عن أيديولوجية جديدة ، انبثقت مع ظهور « طبقة ذوى الياقات البيضاء (١) » .

ويقول « هربرت ماركيوز Herbert Marcuse » إن طبقة العمالة قد ذابت تحت وطأة التنظيمات الصناعية المعقدة ، فتفككت وتفتتت وتسلسلت فى مراكز إشرافية ، وأدوار فنيه ، فانقسمت العمالة على ذاتها إلى طبقات متنافسة ، إصطرعت مصالحها فى هرم العمالة (٢) . ولقد كتب « روبرت ميرتون Robert Merton » عن « الآلة والعامل والمهندس the machine, the worker and the Engineer » ووظائف الملاحظين والمشرفين (٣) .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التأكيد على تفاضل بنية المصنع ، وانقسام البناء الصناعى كتنظيم as an organization إلى « أدوار Roles » ، أو فئات

(1) Mannheim Karl., Sociology of Knowledge, trans by Paul Kecskemeti, Routledge & Kegan Paul, London 1952.

(٢) ماكنير ، الاسدير ، ماركيوز ، ترجمة عدنان كيالى ، بيروت ١٩٧١ .

(3) Merton, Robert., Social Theory and Social Structure Amerind 1968 P. 616.

من العمالة ، كالفنيين من ذوى البلاطى السوداء Black coats ، وكالعمال من ذوى الياقات الزرقاء Blue collar ، وكبار الموظفـــين والمهندسين من ذوى الياقات البيضاء white collar بكل مالهم من وظائف رسمية داخـل البناء التنظيمى للمصنع .

ولقد أحاطت طبقة ذوى الياقات البيضاء ، نفسها بهالة من المهابة Prestige التى قد تشجع على نمو الشخصيات الطفيلية ، التى تدور فى فلك طبقة الإدارة العليا ، وهذا هو « المرض البيروقراطى الخطير » الذى يصيب الآن « الإدارة الصناعية المعاصرة » . فقد يحرص الرئيس أو الإدارى من ذوى الياقات البيضاء ، على إبقاء « مسافة فاصلة » بينه وبين مرؤوسيه to Keep a distance ، وتمهـــد هذه الظاهرة السيكولوجية ، فتظهر لنا عن جوانب مرضية تكشف عن حقيقة ثقافـة ذوى الياقات البيضاء ، وخطرها وأدوارها ، وأثرها فى هبوط الانتاجية لوجود حساسيات معينة فى « ثقافة المصنع » بين العمال ورؤساء العمل ، مما يؤدى إلى وجود فجوات فى قنوات الاتصال . حين يدور حول كل « إدارى » بطانة أو « شلة » من العلاقات غير الرسمية informal التى قد تحجب عنه الرؤية الحقيقية للعمل (١) .

ولاشك أن لتعدد الإشراف الإدارى والفنى أثره على شخصية العامل ، الأمر الذى يساعد على زيادة التسلط والكبرياء من جهة الادارة ، بينما يشعر العمال بالمرارة والحقد فيكون الناتج هو الفشل ، وانفصال طبقة ذوى الياقات البيضاء ، عن ذوى الياقات الزرقاء على الرغم من ضرورة التعاون بين المهندس والعامل ، حتى لا تتميع المسئوليات Responsibilities فيحدث التسيب والتنصل من المسئولية ، على حساب « التنظيم » و « الانتاج » ، فتقل المهارات ويزداد التراخى

---

(1) Selznick. P., Leadership in Administration, American Sociological Kev'ew.

والأهمال والكسل .

ولقد اهتمت برامج العلاقات الإنسانية Human Relation بحــل هذه المشكلات الادارية ، وتهذيب بيروقراطية ذوى الياقات البيضاء ، حتى يحدث التقارب بين سائر وجهات النظر ، لإعادة التنظيم Reorganization واحداث التكامل ، وسد الثغرات الثقافية cultural gaps بين ثقافة ذوى الياقات البيضاء ومنطق العمال ، واشاعة الجو الديموقراطى بين جماعات الانتاج (١) .

فلا شك أن أوتوقراطية ذوى الياقات البيضاء ، قد تحيل الجماعات الصناعية الصغيرة إلى جماعات عددية aggregate groups وهذه بالطبع جماعات لاتنتج كما أنها جماعات « لا انسانية » أما الجو الديموقراطى، وانبثاق السبيل الإدارى الخلاق creative Method فيحيل كل جماعة عددية ، إلى جماعة عضوية organic group وهى جماعة « إنسانية منتجة » ، بل وهى أكثر انتاجا وتفاعلا ونشاطا من الجماعات اللا إنسانية العددية . فالأولى متماسكة ومتــكاملة ، والثانية مفككة ومنقسمة . ولذلك تعمل « فلسفة العلاقات الانسانية » على تغيير النظرة الثقافية لطبقة ذوى الياقات البيضاء ، لتطوير العمل ، وزيادة الألفة بين العامل والآلة ، مع التجاوب والتعاطف دون قهر أو إجبار (٢) .

ولقد أشارت « مارى فوليت Föllet فى كتابها عن « التنظيم الصناعى Industrial organization » إلى ضرورة رفع معنويات العمال ، وتنمية شخصية العامل ، وتقوية الجسور والقنوات وتوثيق العلاقات بين الياقات البيضاء والزرقاء ، وهذه حقيقة أولية من حقائق علم الادارة والتنظيم ، ومن ثم يتحرر

---

(1) Hill, Michael., the Sociology of public administration, 1972

(2) Friedman, c , Industrial Society, the Emergence of Human relation of Automation, Glencoe, 1964.

الفكر الإدارى من عادات فكرية عتيقة ، ونقل حدة السلطة وتسمح ثقافة ذوى الياقات البيضاء ، بإضفاء جو من الألفة والتعاون ، فيصبح العامل أكثر حرية فى تفكيره ومناقشاته ، كما يصبح الادارى أكثر ديموقراطية فى سلوكه وفى علاقاته بالعمال (١) .

أنماط من ذوى الياقات البيضاء :

لقد ظهرت أنماط متمايزة من ذوى الياقات البيضاء (٢) ، وصدرت كلها عن « تكنولوجيا العصر » ، وارتدت هـــذه الأنماط « رداء بورجوازياً » تارة ، واشتراكياً تارة أخرى حتى ظهرت فى هذه الأيام « أيديولوجيات اليسار الجديد » كى تخلق لنا طبقة جديدة لها سماتها الثقافية ، وتصوراتها الاقتصادية ، وتطلعاتها الاجتماعية، تلك هى طبقة الماركسية الجديدة Neo marxism وهى تمثل جناح الفكر اليسارى المتفتح الذى خرج على « اليسار الماركسى » فى قالبه الكلاسيكى ، وإطاره المعهود ، كما خرجت هذه الطبقة « ثقافياً وعقـــائدياً » على اليمين البورجوازى الخالص وحاولت طبقة « اليسار الجديد » بطريقة جدلية تذكرنا بكتابات هيجل Hegel فاستطاعت أن تؤلف جبهة أو قضية ثالثة ، تخفف من حدة الحوار القائم بين قضايا علم الاجتماع الماركســى من جهة ، والنزعة النفعية utilitarianism البورجوازية من جهة أخرى . فغالباً ما يدور ويشتد الحوار وتحتدم المناقشات الحامية ، فى مختلف ميادين الفن والأدب والسياسة والاقتصاد ، فتكونت « جبهة ثالثة » تحمل أيديولوجيات فنية وأدبية ، وترتدى أردية ثقافية ، وسياسية بعينها، تبلورت كلها وتوحدت تصوراتها ، وتماثلت تطلعاتها فى وحدة فكرية وفنية ،

---

(1) Follet, M.,P Freedom and co. - ordination Management Publication, Truste, London. 1949.

(2) Mills, Wright., White Collar, New York 1951.

تركزت فى صورة أيديولوجية بعينها ، واتفقت نظراتها فى تصورات تقدمية متفتحه ومتجانسة ، فاتحدت كلها ثقافياً واقتصادياً وعقائدياً فى وحدة فكرية ، تحققت فى « طبقة اليسار الجديد » ، تلك التى سادت الآن فى معظم دول آسيا وأوربا ، وفى سائر المجتمعات الصناعية ، والثقافات المتقدمة ، وفى معظم الاقتصاديات السائدة ، سواء التقليدية منها أو المتخلفة ، والمتطلعة منها أو النامية .

صفوة القوة Power elite :

مع ثورة التكنولوجيا والادارة والتخطيط ، ظهرت فى هذه الأيام ، طبقة تكنولوجية معاصرة وهى طبقة متطلعة سياسياً ، تتألف من كبار المديرين ورؤساء مجالس الإدارات ، كما ويدخل فى « طبقة تكنولوجيا العصر » طبقة الصفوة التكنوقراطية Technocratic Elite ، وطبقـة الصفوة البيروقراطية bureaucratic elite من كبار رجال الادارة ، وذوى الخبرة والمهارة التطبيقية ، من العلماء والمخترعين والمستشارين فى عالم الاقتصاد والتشريع ، وخبراء الصناعة والاعلام والاعلان (١).

ولقد عانت « صفوة القوة » المتمثلة فى الطبقة التكنوقراطية المعاصرة ، كثيراً من آلام الحرب العالمية الثانية ، وتمزقت أجيالنا وعانت كافة الأسر من ويلات هذه الحرب الأيديولوجية المدمرة ، التى قامت وانتهت خلال فترات الطفولة المبكرة ، تلك التى انسحقت تحت ضغط الصراع الدولى بين معسكرين سياسيين ، ومازالت

---

(١) لقـد أطلق « رايت ميلز Wright Mills » اصطـلاح صفوة القوة Power Elite فى كـتاب له أصدره ، فى نفس هذا المعنى وشرح « رايت ميلز » فى هذا الـكتاب « بناء القوة » ودور « الطبقات » ونشأة الثقافات ، وخاصة طبقة أو ثقافة ذوى الياقات البيضاء ، أنظر فى هذا الصدد :

Mills, Wright., The Power Elite, New York, Oxford university press. 1956.

هذه الطبقة تعانى من سياسة « الصراع والتقارب » بين أيديولوجية اليمين وأيديولوجية اليسار .

ولقد تخلت « طبقة اليسار الجديد » (١) عن أوريتها الماركسية المعهودة ، لأنها كطبقة تقدمية ، تأخذ بالتطور ، إلا أنها فى نفس الوقت ، وقد أخذت بالأمر الواقع ، ورضيت هذه الطبقة بالوضع الراهن ، وعلى نحو حيادى وإيجابى ، واختارت لنفسها الموضوعية التامة ، فلا تتجه إلى اليمين أو إلى اليسار ، وهذا هو « الحياد » بمعناه « الايجابى » لا « السلبى » .

ثقافات هامشية :

وإذا ما أردنا أن نطلق بصدد « الصفوة التكنوقراطية technocratic elite » بعض الأحكام السوسيولوجية ، فاننا ينبغى أن نناقش موقفها من قضايا العصر فى « التنمية » و « التكنولوجيا » ، مناقشة موضوعية وواعية ، وأقصد بالموضوعية هنا ، تلك الأحكام المتمثلة بقيم الصدق والحق والعدل ، ويمكن أن يطلق عليها كلها اسما واحداً ، هو « الأحكام ذات النزاهة » ، فلا تنحرف إلى يمين أو يسار .

ولا أقصد بالنزاهة هنا معناها الاقتصادى الساذج أو المألوف ، فى لغتنـــا العامية ، فالعامل النزيه هو ما يطابق فى تعبيرنا المصرى الدارج نموذج « الشخصية النزيهة » التى تنفق دخلهـا المحدود عن سعـــة ، لكى تؤكد نفسها ، وتهتم بمظـاهر الوجاهة ، إلى الدرجة التى معها قد تتشبث بعض الفئات الهامشية بكل ما هو جديد فى عالم الموضة وتتمسك بمظاهر النعمة والأبهة ، حتى تترقى طبقياً وتتسلل إلى طبقات أعلى ، وهناك ما يسمى بالإنسان الهامشى Marginal ، أو « النزهى » . وهو المعروف فى لغتنا الدارجة ، بأنه الانسـان الذى هبطت عليه فجأة ثروة

---

(١) لقد أكد على وجود مثل هذه الطبقة كل من « بول باران Paul Baran » و « مانهايم Mannheim » و « شارل بتلهايم Bettelheim » .

ضخمه ، فورث الأموال الطائلة عن أبيه « الكنزى » وجده « البخيل » فماذا يفعل هذا « النزهى » أو ذلك الانسان الهامشى الدخيل ، سوى التبذير بعد تقتير ، والسعة بعد ضيق ، حيث يعيش ويحيا فى شىء من الفتور والكسل و « اللامبالاة » « فينفق ما فى الجيب حتى يأتيه ما فى الغيب » ، ولذلك قيل فى الأمثال المصرية البلدية : « مال الكنزى للنزهى » ، وهو الانسان التافه عير الطموح ، الذى يتمايز تماماً عن « الرجل المكافح » أو « الشاب المغامر » .

فالأول « أنانى » ضيق الأفق ، ويمتاز بالجشع والضحالة والخواء ، أما الثانى فهو « الإنسان الناجح » الذى يتناول فى لذة ثمرات خبراته وطموحه ، ويعيش فى رفاهية ، وتلك ميزة طبقية ، وسمة ثقافية ، بين غالبية « الخبراء » و «المستشارين» فى مجال التكنولوجيا والتصنيع ، وكذلك بين معظم كبار « المديرين » ورؤساء مجالس الإدارات من ذوى الياقات البيضاء . حيث يؤلف هؤلاء « طبقة بعينها » ذات أبعاد واحدة من زاوية الفكر والثقافة ونمط الحياة mode de la vie على حد تعبير « موريس هالفالس Halbwachs » ، وتلك هى نفسها ، طبقة الصفوة التكنولوجية ، التى يكون لها فى كل مجتمع ، مثلها وتطلعاتها ، وتستند إلى دورها ووظيفتها ، سواء فى توجيه دفة السياسة الداخلية أو الخارجية للدولة ، إستناداً إلى مراكزها القوية فى التنظيمات الصناعية والمؤسسات الثقافية والأجهزة البيروقراطية التى تسيطر وتتحكم فى سائر أجهزة الحكومة والدولة .

ولاشك أن أجهزة التخطيط فى كل دولة نامية ، إنما يقوم بها فقهاء التشريع والقانون ، وخبراء الاقتصاد والصناعة ، ورجال الفكر والثقافة ، ويمثل كل من هؤلاء وأولئك الفئة الأساسية التى تخطط لسائر المشروعات ، وتشرع الحكومة كجهاز بيروقراطى ، سائر التشريعات المنفذة لمثل هذه « الخطط السياسية » و « الهندسات الاجتماعية social geometries » التى يضعها أمثال هؤلاء ، من

أجل تحقق التحديث الحضارى Modernization أى قيام الدولة النامية العصرية.

ولا أقصد بالطبع هذا المعنى الطبقى الاقتصادى لمفهوم النزاهة ، وإنما قصدت معناها « الفلسفى الحقيقى » الذى قد يتمشى مع « معايير » المنطق logic وفقه « القانون law » . فالقاضى النزيه هو الذى يحكم دون أى تأثير خارجى ، ومن ثم يكون حكمه حكماً موضوعياً وأميناً ونزيهاً ، والله سبحانه وتعالى هو « النزيه » المنزه عن المكانية والغرضية ، لأنه تعالى لا يتأثر بغيره ، لأنه واحد سبحانه ، فينبغى على القاضى النزيه ألا يتأثر بغيره حتى تصبح أحكامه أحكاماً موضوعية ذات نزاهة . ولعل النزاهة فى حد ذاتها هى ميزة جوهرية من ميزات « طبقة اليمين المعتدل » أو حتى « طبقة اليسار الجديد » لأنها كطبقة موضوعيه لا تتأرجح بين اليمين واليسار ، ولاتتأثر إلا بظروفها الوضعيه ، ولاتتجه إلا إلى مصالح شعوبها ، ولا تحقق سوى آمال هذه الشعوب ، وهذا هو الهدف البعيد من أهداف علم « اجتماع التنمية » .

ولعل الدرس الحقيقى الذى تعلمته المجتمعات النامية من صدور أو خلق « طبقة الياقات البيضاء » ، حين سادت وتميزت بفضل خضوعها لتجربة اليسار وتطرفه واليمين وجشعه ، فتكون اليسار الجديد ، وذاعت مبادئه ، فى كل مكان، حتى وجد طريقة فى « قلب المجتمع الأمريكى نفسه ، كى يبرهن« الثورة المضادة» أو رد الفعل كحركة مضادة counteraction ، لما يحتويه المجتمع الأمريكى من صراعات وتناقضات نجمت عن حضارة التكنولوجيـــا ، فظهرت « الأحزاب السياسية » ذات الاتجاهات المتعارضة ، لكى تهضم « ثقافة العصر ومتغيراته » ، أو حتى لكى تهدم أنماطاً تقليدية ومتخلفة ، وتشيد لنا الأنساق الحضارية ، بتحديث القيم Modernization of values وتطوير النظم ، وتغيير أردية الثقافة ، عن طريق التنمية الإدارية وثورة التخطيط .

الاحزاب السياسية فى الدول النامية :

ينبغى أن تعبر « الأحزاب السياسية » فى المجتمعات النامية ، عن آمال شعوبها وتطلعات مجتمعاتها . فتعمل هذه الأحزاب السياسية على « وضع استراتيجيات التنمية والتخطيط » لتطوير مجتمعاتها ، وتغيير تصوراتها أو عاداتها الفكرية سواء بتعديل الوضع التقليدى السائد ، وتبديله بما هو أفضل ، أو عن طريق التخطيط العلمى الذى يحقق لكل دولة نامية واقعاً أفضل ، عن طريق برامج التنمية والتعجيل بتطبيق تكنولوجيا العصر واستخدامها ، لمحاربة التخلف والبدائية والنمطية .

وعلى هذا الأساس ، يحدد كل حزب برنامجاً يميزه عن غيره من الأحزاب ، بحيث يشمل هذا البرنامج كل ما يعمل على حل المشكلات الجماهيرية الراهنة ، واقتحامها ، بما يحقق صالح الاقتصاد القومى ، وبما يتفق وامكانيات الدولة ، وبرامج الخطة التعليمية والسياسية ، التى ينادى بها الحزب ، ويخطط لها ، ويؤكد قضاياها بالشرح والتحليل ، وباستخدام أدوات الاتصال وأجهزة الأعلام .

وتنبثق برامج الحزب السياسية والاقتصادية والتربوية ، عن ظروف وضعية تعمل هى نفسها على خلق الحزب السياسى نفسه . فلقد خلقت التكنولوجيا الأحزاب السياسية القوية فى اليابان ، ويحقق كل منها مختلف البرامج العلمية التى تخدم الحزب والدولة والمجتمع اليابانى .

ولعل الظروف الوضعية والاقتصادية ، هى أقدر على خلق الأحزاب ، أكثر من الظروف أو الأحداث السياسية ، كما كان الحال فى « حزب الوفد » الذى صدر أصلا فى ظروف تاريخية بحتة ، تتعلق « بالوفد السياسى » الذى كان يمثل مصر فى المحادثات أو المفاوضات التى عقدتها مصر مع انجلترا ، برئاسة الزعيم السياسى الخالد « سعد زغلول باشا » ، حيث تفجرت « ثورة مصر المشهورة » باسم ثورة عام ١٩١٩ بعد عزل أو نفى سعد زغلول باشا ، مما أثار حفيظة المصريين ،

فخرجت المظاهرات الشعبية الصاخبة تطالب بالحرية والجلاء وعودة « الزعيم الكارزمي » سعد زغلول .

إلا أن حزب الوفد قد تألف بعد ذلك ، من « الاقطاع المتحالف مع العمال » ، وحقق فعلا بعض المشروعات الناجحة ، « كمشروع الضمان الاجتماعي » لتأمين الإنسان المصري ، من الفقر والفاقة ، مع صدور أول وزارة وفدية ومصرية للشئون الاجتماعية ، وأول وزارة وفدية ومصرية للتموين والتجارة الداخلية . كما تكونت الإدارات والمصالح التي تخدم « قضية الفلاح » ، وتقدم له الخدمات الخاصة بالتسليف وتقديم التقاوي والأعلاف والبذور ، مما يعمل على تنمية دخل الفلاح المصري ، إلا أن الأحزاب المطلوبة في دول العالم الثالث ، يجب أن تكون ذات أيديولوجية خاصة ، تخدم قضايا العمل والعمال . وتحل مشكلات التكنولوجيا ، مع تقديم الحلول الناجحة والمربحة ، لسائر المشروعات الاقتصادية التي تعجل بالتنمية الاجتماعية ، وتحقق آمال الشعوب الكادحة في دول العالم الثالث .

شخصية انسان العالم الثالث :

ويمكننا بصدد الإنسان « الأفروآسيوي » الذي يعاني الآن من إنقسام الرأي حول الأيديولوجيات المعاصرة ، بين « شرق وغرب » كما قد يعـــاني أيضا من « الحياد » بين اليمين واليسار ، فيقع الصراع بين الحياد السلبي ، والحياد الايجابي ، وقد يتردد حتى في قبول « الحياد الفلسفي » ، ولذلك ينبغي أن نستخدم المنهج الفينومينولوجي Phenomenological Method من أجل تحليل السمات العامة لشخصية الإنسان « في المجتمعات النامية » .

ومع كتابات « زمرمان Zimmerman » و « بولنر Pollner » و « وايدر Wieder » بدأت الاهتمامات المعاصرة بالعــــالم كظـاهرة The World as a Phenomenon ونشأ علم الاجتماع الفينومينولوجي واضحاً برفض الحركة

الوضعية Positivism والنزعة البنائية Structuralism والوظيفية Functionalism التى يقول بها بارسونز وميرتون ، والسلوكية Behaviorism التى يأخذ بها « هومانز » ، وظهر المنهج الفينومينولوجى فى علم الاجتماع عند « روبرت أنطونيو Robert Antonio » (١) و « الفرد شوتز Alfred Schutz » بصدد دراسة « فينومينولوجيا العالم » (٢) بالاضافة إلى وجود كتابات رائدة فى علم الاجتماع الفينومينولوجى ، بدأت عند « ماكس فيبر Weber » و « ماكس شلر Max Scheler » و « كارل مانهايم Mannheim » ، ودراسات « جيرفتش » (٣) و « كازنيف Cazeneuve » . ولقد دارت كل هذه الجهود حول تطبيق منهـــج « هوسرل Edmund Husserl » فى دراسة الظواهر الاجتماعية والسيكولوجية ، بعد أن ضاق « علم الاجتماع المعاصر » ذرعاً ، وهو يطل على مشارف القرن الحادى والعشرين ، عما يعانيه من نقاط الضعف الشديدة ، التى تعـــانى منها « النزعات الوضعية » و « السلوكية » و « الجمعية » (٤) . وغيرها من سائر ادعاءات علم الاجتماع فى ميدان « النظرية الوظيفية والبنائية » .

---

(1) Antonio, Robert., Phenomenological Sociology, New York. 1973.

(2) Schutz, Alfred., The Phenomenology of Social World, Evanston, II North Western university press 1967.

أنظر مقالنا (علم الاجتماع الفينومينولوجى) الذى نشر فى كتابنا (تيارات معاصرة فى علم الاجتماع) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ — ص ١١٦ وما بعدها .

(3) Tiryakian. Edward,, Existential Phenomenology, American Sociological Review 30 (October 1965).

(4) Tiryakian, Edward; Sociologism and Existentialism, Prentice-Hall, 1962.

أزمة الانسان الافروآسيوى :

ويمكننا بفضل تحليلات « المدرسة الفينومينولوجية » والاتجاهات الماركسية الحديثة ، أن نعقد زواجاً سوسيولوجياً خصباً ، قد يكون له نتاجه ورواجه ، بعد سنوات قليلة . حيث أن المنهج المستخدم الآن فى منظورات علوم التكنولوجيا وسائر علوم العصر ، هو المنهج الفينومينولوجى الانسانى المتحالف « ضد الوضعية anti-Positivism » مع خصوبة « اليسار الجديد » ، وقضاياه التى تتمشى دائما وبحساب دقيق مع قضايا التنمية ضد الفقر والحاجة .

ولعل أهم قضية من قضايا العصر ، هى « قضية التخلف » ، تلك التى نستطيع أن ننظر اليها من وجهة نظر الماركسية الحديثة من جهة ، ومن خلال معايير النزعة الفينومينولوجية السوسيولوجية من جهة أخرى ، فنقول « إن الانسان فى المجتمعات النامية » يمكننا أن نضعه بين فكى « الأمر الواقع » من جهة ، و « التحدى المستمر بارادة التغيير » من جهة أخرى ، وهذه هى ظروف الانسان النامى من وجهة نظر ، المنهج الفينومينولوجى وهى بمثابة ظروف الانسان المتخلف ، التى فرضت عليه من الخارج ، وجعلت منه « سجيناً » يعيش واقعه ويعانى تجربته ، بحيث يكون « النمط القروى التقليدى أو المتخلف » هو جماع السمات أو « الظروف الوضعية » بالنسبة إليه كانسان ، يعانى واقعه ، « ويخلق بالتحدى الدائم توقعات طرفيه مضادة » ومتوازنة counterbalance ، لتغير من واقعه الذى يتمثل فى ظروف « إنسان العصر التكنولوجى » القلق المتوتر الذى يشعر بالاغتراب والاحباط Frustration بل وبالضياع أحياناً .

وهنا يحدث الصراع بين أيديولوجيا القديم ، والجديد ، بين نمط البداوة وغزو التكنولوجيا ، فهناك فى كل عملية « تحديث » تعارض بين القرية والمدينة ، كما توجد مسافات وتغيرات هائلة ، يكون لها رد فعلها الحاسم على « شخصية الانسان

النامى ، الذى يعيش فى مجتمع مازال تقليدياً أو متخلفا ، ويحاول بالتطوير والتغيير أن ينتهج منهج « التنمية » .

ويحيل « منهج التنمية » كل سمات ثقافة المجتمع التقليدى من نمط استاتيكى ثابت ، إلى نمط ديناميكى فعال ، يميز بين « البساطة » و « التعقيـــد » ، ويدفع التحولات التغيرية المستمرة ، لتبديل نمط القرية الهادىء ، إلى نمط آخر تكتنفه صراعات التكنولوجيا التى تقلهف مسرعة وراء روح العصر ، الذى يدفع الحضارة civilization بخطى أقوى بكثير مما كما نتصور أو نتوقع .

ولعل السمة الرئيسية القائمة فى بناء كل شخصية من ملايين البشر التى ما زالت تعيش وتعانى « تجربة العالم الثالث المطحون » ، هى تلك السمة التى تجمع بين بساطة الريف التقليدى وسماحته ، وسمات الإنسان الحضرى الراهن ، الذى تمتاز شخصيته بالثقافة والحذر والفهم الذكى . وهذا هو قـــدر « الانسان المثقف » ، ودوره فى مجتمعات العالم الثالث ، وما يعانيه من شظف العيش ، فيهاجر ليبيع خبرته فى دولة أخرى متقدمة ، وهذا هو « النزيف » المستمر الذى لاينقطع وهو ما يسمى الان « بنزيف الخبرة » .

دور التنظيمات الثقافية المضادة :

من أجل حل أزمات الإنسان الافروآسيوى ، هناك مقترحات عاجلة ومخططة ولاشك أن لكل مجتمع من المجتمعات النامية ، تجربته الاقتصادية الخاصة ، التى لايمكن أن تتطابق مع تجربة مجتمع آخر وفى نفس الظروف . فكما توجـد « الفروق الفردية » فى درجة الذكاء وسمات الشخصية ، توجد « الفروق الثقافية » بين كل مجتمع ، فتتمايز المجتمعات فى درجة النمو أو التحضر التى تكشف عنها سمات الثقافة السائدة فيه .

فلكل مجتمع ظروفه الوضعية المفروضة ، ومشكلاته الخاصة ، تلك التى يعانى

منها ، فيحاول أن يقوم بردود أفعال كلية ، ومناشط جمعية ، من أجل « التنمية » وتغيير « الأمر الواقع » وحل المشكلات بجهود بشرية مضادة counteraction ، من أجل تعديل نمط الحياة ، وتخفيف حتمية الظروف المفروضة ، عن طريق التحدى المستمر لإعادة التوازن بعد التكيف مع الجـــديد ، فليس الإنسان فى ذاته ، إلا جماع ظروف ، فرضتها بيئته الفيزيقية ، وحتمتها شروط طبيعية ، تركت بصماتها على شخصية الانسان التقليدى ، فنميز فوراً بين « البداوة » و « التحضر » والتخلف والتقدم ، حيث تكون لكل إنسان تجربته التى فرضت عليه من الخارج ، فعاش سجيناً لها ، منحصراً بين شرطى المكان والزمان ، وبقى كل واحد منا « سجيناً لظروفه » الوجودية ، التى فرضت علينا نوعا خاصا أو موقفا بعينه من مواقف الحياة ، مع ترجيح « التوقعات المنتظرة من أنماط السلوك الاجتماعى » .

واستناداً إلى كل هذا الأساس ، وارتكانا إلى فهمنا الواضح لأزمة الإنسان « الأفروآسيوى » ، ينبغى أن تقوم مجتمعاتنا « بردود افعال مضادة عن طريق تكوين « المنظمات الثقافية المضادة » ، من أجل اعداد المنطقة ثقافيا ، وتهيئة البيئة، وخلق الجو المناسب ، والمناخ الملائم لعملية التنميـــة والتطوير الاجتماعى . وهناك ردود أفعال أخرى تقوم بها المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، لمواجهة الأزمات الاجتماعية التى خلقتها أمراض التكنولوجيا وانتشار التصنيع ، من تفكك وانحلال، وضياع . فلقد زادت الانحرافات ، وخفت حدة القانون ، واضطربت ميكانيزمات الضبط فى سائر المجتمعات الصناعيـة . الأمر الذى يفرض على الدولة الرأسمالية « تكوين تنظيمات ثقافية » مضادة يجب أن تقوى وتشتد وتتعاون ، من أجل مواجهة التهديد المستمر لتكنولوجيا العصر وتنظيماتها المعقدة من « تلوث » فى البيئة والطبيعة ، وانحرافات فى الشخصيـة والسلوك ، ولذلك تقوم فى الولايات المتحدة « التنظيمات الدينية » القوية ذات المشروعات والبرامج والنشرات ، التى

تقلل من حدة « الضياع » و « التفكك » وتزيد من درجة التكامل والتضامن .

فهناك « متغيرات » تكنولوجية لها صداها فى علم الاجتماع المعاصر ، مما أدى إلى إثارة الكثير من المسائل والمشكلات الخاصة بالمجتمعات الصناعية نفسها ، مثل مشكلة « التنظيمات الاجتماعية ، وردود أفعالها على أنماط الثقافة والشخصية ، ومثل مشكلة « البيروقراطية والديموقراطية » ، ومشكلة التلوث وايكولوجيا المصنع ، و « أمراض الإنسان فى البيئة الصناعية » .

وتسود كل هذه المشكلات فى سائر المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وتحاول بكل جهدها ، « كبيروقراطيات ناجحة ورشيدة » ، أن تقدم الحلول الفورية لمثل هذه المشكلات ، التى هى نفسها مشكلات قائمة أمام « بيروقراطية العصر الصناعى » ، التى تحاول أن تدفع عجلة التكنولوجيا والالكترونيات بدرجة رهيبة ، وبسرعة مذهلة .

الأمر الذى يتطلب منا إيجاد البديل الذى يواجه هذا التيار التكنولوجى الجارف الذى قد يجتاح العصر كله فيحيله إلى حرب أو تأهب نووى ، يؤدى إلى سلام كاذب ، يقوم على الرعب والذعر ، خوفاً من ضياع حضارة القرن العشرين .

ولا شك أن الحل هو « التيار الايديولوجى المضاد » بالتسلح بقيم الدين ، والتمسك بقواعد الخلق الرفيع ، وتبجيل المثل العليا ، وتعظيم قيم الحق والعدالة والمساواة . والدعوة إلى قيم التضامن والتماسك والتكامل نظراً لوجود وحدة الثقافة الكلية والشمولية . ولقــــد تحقق رد الفعل الايديولوجى فى نتائج « علم الاجتماع الإدارى » وظهور علوم الاجتماع الصناعى والسياسى المتفرعة عن علم الاجتماع الاقتصادى (١) ، حيث تقدم كل هذه العلوم مجتمعة ، سائر الحلول العلمية

---

(١) أنظر كتابنا « علم الاجتماع الاقتصادى ، ومشكلات الصناعة والتنمية » منشأة المعارف ١٩٨٠ .

لأزمة « الانسان الافروآسيوى » ، فكانت هذه العلوم هى المنقذ لنا من « أزمات العصر » وهى التى تقدم لنا مختلف الحلول لمشكلات « التكنولوجيا » . ولما كانت التكنولوجيا من العلوم الشمولية والتكاملية ، اعتمدت « علوم العصر » ، أيضا ، على تخصصات أخرى فرعية ودقيقة ، مما أدى إلى التعاون بين العلوم من أجل « خدمة قضايا الإنسان والتنمية » ، وحل المشكلات الناجمة عن «افرازات عصر التكنولوجيا وتلوث البيئة» .

« التكامل » و « البنائية » و « الشمولية » :

لاشك أن عملية الحياة life-Process هى فى ذاتها أهم عملية ، واستنادا إلى هذه الحجة ، تشتد سطوة البناءات البيروقراطية للدولة ، فقد تقوى الأدوار السياسية التى تقوم بها سائر أجهزة الحزب السياسى الحاكم من أجل إجراء وتنفيذ « برامج مخططة للتنمية ، وتحقيق هذه البرامج العلمية ، بتغيير « نمط الحياة » على اعتبار أن « عملية الحياة » نفسها هى أهم وأقوى من كل تلك الظروف الفيزيقية ، فتتحدى حتمية البيئة ووضعية الظروف ، كما وتخلق « المتغيرات التى تساعد على « تبدل نوع الحياة » فى المجتمع النامى .

ولاشك أن « طبيعة المجتمع البنائية » هى السبب فى استقطاب العلاقات ، وتشابك التنظيمات والأدوار ، وتعقد النظم والأنساق ، الأمر الذى أدى بدوره إلى تعدد مداخل علم الاجتماع ، نظراً لتعدد مداخل المجتمع نفسه . ومع تعدد العمليات الاجتماعية ، كالصراع والتنافس والتعاون والتكامل، تتعدد أشكال وصور المجتمع من « تنظيمات » دينية أو سياسية أو مهنية أو اقتصادية ، ويعبر كل تنظيم منها عن « جهاز System يخدم « نظام institution » ، فتتعاون الأجهزة وتتساند مع النظم السائدة فى البناء الاجتماعى .

ولما كان « الشكل المادى » هو الذى يظهر إلى العيان ، تتغير الأشكال التى تطرأ على سطح المجتمع ، فتظهر حقيقة « الوجود الاجتماعى » بداوة ، وتخلفاً أو تقدماً ، فيتجلى لنا « المضمون الاجتماعى » الذى يبرز لنا شكله الاقتصادى الذى يتبدى فى الوجود الواقعى المشخص Concrete ، فيتحقق المجتمع كثقافة ، حين نشاهد أو نرى « قبيلة بدوية » ، أو نمطا رعويا ، أو « مجتمعاً قروياً » يعيش على الصيد أو الفلاحة ، أو « نسقا صناعيا » له إيكولوجيته وبيئته ، وتنظيماته ، وفى كل هذه الأشكال والصور الاجتماعية والمضامين الثقافية ، تتابع نظما قرابية وعائليـــة وأخلاقية وتشريعات قضائية ، ومقدسات دينية ، تفصح عن نفسها فى أنمـاط سلوكية وثقافية ، طبقا لتمايز أشكال وصور الجماعات والزمر السوسيولوجية . الأمر الذى يفرض علينا فى النهاية الاتجاه نحو التساند والتفاعل interaction ، مما يؤكد وجهة النظر البنائية والوظيفية functionalism التى تتجـه نحو « التـكامل » و « البنائية » و « الشمولية Holism » .

ويهاجم « هربرت ماركيوز Marcuse » الاتجاهات الجمعية collectivism كما يهاجم « التوتاليتارية الجديدة Neo-totalitarianism » وهى نزعة كلية ، أو اتجاه أو « نظام سياسى كلى النزعة ، ويحتكر كل موارد الدولة (١) .

فلقد سيطرت الثقافة « البورجوازية » على النظام الاقتصادى الجديد ، وعجزت

---

(١) لقد ظهر الفكر « التوتاليتارى » وتحقق قبيل الحرب العالمية الثانية ، فى « النازية » و « الفاشية Fascism » فقد ظهرت فى ألمانيا وايطاليا ، منذ ذلك الحين محاولات ليبراليه وبورجوازية لمقاومة الشيوعية الروسية . والنزعة التوتاليتارية نزعة هيجلية مثالية ، أخذ بها الفيلسوف الايطالى « جنتايل » وانضم إلى « موسولينى » زعيم الفاشية ، كما أخذ بها « هيدجر » الفيلسوف الوجودى ، وانضم الى « هتلر » حيث « يتمثل الواقع الالمانى وقانونه بالفوهرر نفسه » على حد تعبير هيدجر لتلاميذه .

البورجوازية عن التوفيق بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، أو بين السعادة العامة والسعادة الخاصة . ولا شك أن السعادة هى هدف كل إنسان ، لإشباع الطاقة أو تحقيق الذاتية ، كما أن السعادة كتحقيق لكل الطاقات إنما تفترض الحرية بل « إن السعادة فى جذورها وباطنها الأصيل هى الحرية نفسها » ، ولذلك ارتبطت المتعة البورجوازية بالحرية وبفكرة الفراغ Leisure بشرط أن ننغمس فى لذاتنا إلى الحد الضرورى ، للحفاظ على إنسانيتنا وصحتنا ، على ما يقول Spinoza ومن خلال « تسييس النظام البورجوازى » ، خضع الفرد خضوعا كاملا لمطالب هذا النظام ، وحين تتحول البورجوازية إلى نظام سياسى واقتصادى فلسوف تصبح البورجوازية فى النهاية ، تلك التى تتشدق بالليبرالية ، أشد تحكما وتسلطا من النزعة التوتاليتارية totalitarianism نفسها .

أدوار ومسئوليات ذوى الياقات البيضاء :

ولاشك أن التخطيط Planning فى ذاته ، هو عملية دراسة إمكانيات المجتمع وموارده البشرية ، وطاقاته الفيزيقية والتعدينية ، وتنظيم كل هذه العناصر ، لتحقيق هدف اجتماعى أو قومى ، بشرط أن يكون هدفا ممكن التحقق والبرمجة ، وبشرط أن يسبقه دراسة استطلاعية ، للتيقن من إمكانية تطبيق برامج ومشروعات الخطة العامة ، على نحو رشيد ، وفى أقصر وقت ممكن .

وهناك تخطيط إختيارى ، وتخطيط إجبارى obligatory ، ويطبق الأول فى دول الغرب المتحررة كانجلترا وفرنسا ، بينما يطبق الثانى فى دول الكتلة الشرقية الاشتراكية ، وقد يختلف التخطيط الاختيارى عن الاجبارى ، فى درجة شمول الخطة ، فالتخطيط الاختيارى هو تخطيط جزئى Partial Planning أما التخطيط الموجه أو الاجبارى ، فهو التخطيط الشامل comprehensive Planning الذى يتحقق على المستوى القومى وبكل قطاعات الدولة الصناعية والاقتصادية .

ويمتاز التخطيط الرشيد بعنصر المركزية ، الأمر الذى يفرض وجود أو وجوب ضرورة توافر « طبقة خاصة للتخطيط ، فى كل إدارة أو مؤسسة ، بالإضافة إلى ضرورة إتصال « طبقة التخطيط » بطبقة أو أجهزة أخرى تنفيذية ، حتى لا تتأثر الحركة الروتينية الهابطة والصاعدة ، ولا يعوقها عائق يقف كعقبة كأداء فيما بين قوى التخطيط والمتابعة والتنفيذ .

وإذا كانت ظواهر المركزية واضحة فى سائر المجتمعات الشيوعية ، فانها نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها « الإدارة » فى الدول الشيوعية ، بالاضافة إلى معاناتها أيضا من « طول مدة الخطة » إلى جانب المركزية الصارمة ، ولكن دولة شيوعية مثل « الصين الجديدة المعاصرة » قد فضلت الخطط قصيرة الأمد Short term plan فلا شك أنه من المرغوب فيه التى تكون فترة الخطة من القصر بحيث يمكن التنبؤ Prediction ، أو التوقع الذى يسمح بوجود قدر من الدقة ، كما ويسمح أيضا وعلى الأقل بوجود ما يؤكد « صحة تقديرات جزئية دقيقة ومطلوبة » ، إستناداً إلى مدى سلامة التخطيط ، وصحة توقعاته ، وصدق تنبؤاته .

ويحلم الإنسان الافروآسيوى ، أو حتى الإنسان الاقتصادى العادى ، بمجتمع الرفاهية الذى يخلع « حواجز اللغة واللون والعنصر ، مـــع تكوين المقومات الاقتصادية ، لملامح وسمات « البيت السعيد » لأسرة ناجحة ، فى مجتمع نام يحارب الجوع والمرض ويعمل على احترام قيمة الإنسان ، مع تشجيع الذاتية ، والاحساس بالمسئولية ، ويتوصل إلى قانون عادل ، ينصف المظلوم ويتطلع إلى الفكر السياسى الخلاق الذى يغلق المعتقلات ، ولا يفتح السجون : هذه هى تطلعات أو قيم « الإنسان العصرى » المنفتح ، الذى يعرف كيف يؤكد ذاته فى مجتمع سريع التغير ، ومتوازن القيم ، له معاييره فى الضبط والتنشئة الاجتماعية ، مع الأخذ بكل

وسائل الرفاهية باستخدام تكنولوجيا الخدمات المنزلية ، التى تؤدى إلى « السعادة الاقتصادية » والرفاهية السهلة ، التى تحل مشكلات الإنسان الكادح ، حتى يستطيع بمدخراته القليلة أن يشترى « التكنولوجيا الرخيصة » . وتختلف هذه الأسرة الكادحة بالطبع ، عن ثقافة أسرة أخرى ، تعيشها طبقة ذوى اليسار ، من ذوى الياقات البيضاء (١) .

المسئولية الادارية :

يقال : إن المسئول عن انفاق الملايين ورسم السياسات الاقتصادية المستقلة ، هم « طبقة ذوى الياقات البيضاء » ، وهم يتربعون الآن على قمة كل تنظيم إقتصادى أو مؤسسة بيروقراطية ، أو مشروع صناعى .

ولا يعمل المسئول « الإدارى » فى فراغ ، وإنما يعمل فى « تنظيم إنسانى » ، حيث يلحظ الباحث فى علم الاجتماع الصناعى ، انماطا من السلوك داخل جدران المصنع ، كالسلوك المهنى والحرفى ، والسلوك الفنى والسلوك البيروقراطى ، إما بشكله الروتينى أو الرسمى Formal ، وإما بشكله الإدارى النشط والمنتج .

وفى كل تنظيم صناعى ، أصبح القائد مسئولا عن عمله وعن مدى تحقيقه للخطة ، وانجازه للانتاج ، كما أصبح مسئولا أيضا عن « جو العلاقات الانسانية السائد » ، ودرجة اكتسابه للمهارات الفنية والذكائية والرئاسية ، ولاشك أن سعة إطلاعه ، ودقة تخصصاته ، وشمول نظرته ، وعمق خبرته وقدراته العلمية

---

(١) تطمح كل أسرة وتطمع فى امتلاك سيارة فخمة ، وبيت عصرى مجهز ومكيف ويسمح باستخدام الأجهزة الألكترونية والأدوات الهندسية ؛ من أجل تقديم مختلف « التسهيلات Facilities » التى تحقق أفضل رفاهية ممكنة ، بتشجيع الأمكانيات وتغيير الظروف نحو حياة أسعد وتفضيلات اجتماعية أرقى وأنبل .

والتطبيقية ، كلها سمات شخصية ضرورية فى كل « قائد إدارى » يقوم على رأس كل تنظيم» .

وترتبط القيادة بموقف دائم بين القائد والمقود ، فتصبح القيادة ، حالة رئاسية دائمة ، تتمتع بالعلم والتخصص وسلطة فرض القرارات التى تصدر عن السلطة الرسمية فى التنظيم . فلاشك أن هناك حركة تفاعل interaction دائمة بين الرئيس وأعضاء جماعته ، وتلعب تلك الحركة دورهـــا بين كل رئيس ومرؤوسيه ، أو بين كل « قائد » أو « مسئول » وتابعيه ، فيكون لهذه العلاقات الإدارية رد فعلها فى عملية الانتاج Production .

ولا شك أن واقع الإدارى الناجح ، هو واقع إجتماعى ونفسى مريح ، وهذا السلوك الادارى الاجتماعى ، هو فى واقعه الأصيل « عمل سياسى » ، ولذلك تمتزج فى القائد الإدارى ، والبيروقراطى التنفيذى صفات خاصة ينبغى أن تتوافر القيام بعملية « سياسية وإدارية » فى نفس الوقت ، على إعتبار أن « المسئولية السياسية للقائد » إنما تتمثل فى مسئوليته إصدار وتنفيذ القرار الرشيد ، الذى يستند إلى « الخبرة والفاعلية » .

كما يؤمن القائد الناجح بالهدف ويعمل على دفع التنظيم ، وتطوير أجهزة « القيادة للأمام » لا للخلف ، ومن خصائص « القيادة الرشيدة نفاذ البصيرة وعمق الخبرة » ، والقدرة على تحمل المسئولية ، والتصرف السليم فى المواقف الصعبة ، باستخدام أفضل أسلوب ، أو بواسطة حسن استخدام التصرف وسرعة البديهة حينما تسوء الأمور . مع مراعاته للفلسفة الإنسانية . والصلات الروحية العميقة بينه وبين مرؤوسيه ، حتى تزداد معدلات الروح المعنوية ، والمحاولات الجادة للاتجاه الرشيد نحو إصلاح أجهزة الإدارة .

الهندسة البشرية (١) :

ويضع « خبراء الصناعة » مختلف الخطط والسياسات التى تنظم علاقة العامل بالمؤسسة ، أو بالآلات ، أو بالمديرين ، كما يضع المديرون الأسلوب الإنسانى فى أداء العمل ، وتحسين ظروفه ورفع معدلاته الكمية والكيفية ، بتنمية أساليب الأمن الصناعى ، والتأهيل المهنى ، مع التدريب والكفاية الانتاجية .

وقد يرسم « علم الاجتماع الادارى Administrative Sociology » الخطوط العريضة والمنظمة لوظائف الإدارة وأساليب الرقابة والمتابعة والتخطيط ، والاشراف والملاحظة ، بالنظر إلى تقييم الوظائف فى جو ديموقراطى مريح ، مع إستخدام مبدأ المكافآت التشجيعية ، والأجور العالية والحوافز التى ترفع من معنويات العمال وطاقاتهم الانتاجية ، تلك الدوافع التى تدفع العامل إلى المزيد من الجهد والرغبة فى الترقى و « التنقل الوظيفى » نحو الصفوف الادارية الأولى .

موقف الادارة من ذوى الياقات الزرقاء :

لا شك أن نقطة الضعف الشديدة التى انزلقت إليها التنظيمات الصناعية فى الرأسمالية المعاصرة ، هى تلك « البيروقراطية الجوفاء » التى خلقت طبقة من الادارة من ذوى الياقات البيضاء White Collar (٢) أحاطت نفسها بهالة

---

(١) يدخل نظام تدريب واختيار الأفراد فى الصناعة تحت ما يسمى باسم الهندسة البشرية Human Engineering حيث تنمى العلاقات الانسانية فى الصناعة روح التعاون بين الادارة والعمال للتوصل إلى أكبر إنتاجية ممكنة ، كما تقوم الادارة بتقسيم العمل والتخصص فى مهام التنظيم والتخطيط ووضع جداول الانتاج ، مع التزام الأفراد والامتثال للقواعد ، وتنفيذهم للعمليات الانتاجية دون إبطاء .

(2) Mills, Wright., White Collar, New York. 1951.

من المهابة Prestige التي قد تشجع على نمو الشخصيات الطفيلية ، تلك التي تخلق على حساب الانتاج ، جواً مشحوناً بالنفاق الاجتماعي ، المكشف الذي قد يغلف طبقة الادارة العليا ، مما قد يؤدي في النهاية إلى هبوط مفاجىء في الانتاجية الكلية العامة للمشروع الصناعي ، وهذا هو « المرض البيروقراطي الخطير » الذي يصيب « الثقافة الصناعية » المعاصرة . فعلى الرأسمالية الصناعية أن تعالج أمراض المصنع وأن تدرس هذه المواقف المرضية والادارية بحذف كل مراكز النفاق التي تتركز حول قيادات الادارة البيروقراطية ، وعلى المخططين الاداريين أن يطهروا مراكز الادارة العليا من النفوذ البيروقراطي واستغلال السلطات بالقضاء نهائياً على كل الأشكال المعاصرة لانماط البيروقراطية باعتبارها افرازات صناعية متراكمة ، تنجم عن الالتحام بطبقة الادارة مما يعوق بالطبع من فاعلية التنظيم ، ويكون له دوره على معدلات الانتاج في « بناء المصنع » .

وهناك سمة صناعية ثقافية تتسم بها المجتمعات الصناعية ، وهي حرص الرئيس في المصنع على إبقاء « مسافة فاصلة » بينه وبين مرؤوسيه to keep a distance وتمهد هذه الظاهرة السيكولوجية لوجود حساسيات معينة في « ثقافة المصنع » بين العمال ورؤساء العمل ، مما يؤثر على معدلات الانتاجية ، كما يساعد بالتالي على وجود « فجوات في قنوات الاتصال » ، حين يحيط كل « رئيس » أو مشرف نفسه « بشلة » أو « بمجموعة » من العلاقات الوثيقة التي قد تحجب هذه الرؤية الحقيقية للعمل (١) .

---

(1) Selznick, P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

أنظر أيضا في هذا الصدد :

Hill Michael, The Sociology of Public Administration, 1972.

والتغلب على هذه المسافات الفاصلة التى خلقها التنظيم والعمل ، ينبغى القيام بمناقشات وإجتماعات دورية وعقد لقاءات ودورات تدريبية وحفلات ترفيهية ، ورحلات سياحية ، حتى يحدث التكيف السليم بين الرؤساء والعمال ، عن طريق الاختلاط بين العامل ورؤسائه من مهندسين وملاحظين ومشرفين .

الفصل الحادي عشر

الثقافة وانحرافات الشخصية

- الثقافة والكائن العضوى
- شعار التيار الجديد
- تعميمات وقضايا
- نمط الثقافة والتركيب الدينامى للشخصية
- محددات الشخصية

تمهيد :

لقد تعالت الصيحات فى هذه الأيام تطالب بدراسة « حاملى الثقافة » والاهتمام فى نفس الوقت بالشخصية كمقـــولة أساسية من المقولات « السوسيو ثقافية Socio-Cultural » . الأمر الذى فرض على علماء الثقافة أن يصبح مصطلح « الثقافة والشخصية » هو أحدث وأهم المصطلحات السوسيولوجية الدارجة فى الدراسات الثقافية المعاصرة .

ويعالج الاستعمال المعاصر لمصطلح « الثقافة والشخصية » سلسلة مترابطة من المسائل التى تتردد فى علوم « النفس » و « الاجتماع » و « الأنثروبولوجيا » بالنظر إلى أن مسائل « الثقافة » إنما تضطرنا قسراً إلى ميادين عـــلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، على حين أن سائر الدراسات التى تدور حول « الشخصية » إنما تدخل بالضرورة فى نطاق « علم النفس الفردى » و « علم النفس الجماعى » .

ولذلك فإن كل نظرية عن الشخصية ، لاتصدر عن علوم الثقافة والتحليل النفسى والأنثروبولوجى ، هى نظرية ضعيفة الأساس ، خاوية المحتوى . حيث أن الشخصية هى مجموعة من الدلالات التى تكشف عن طبيعة البشر ، ولا شك أن الطبيعة البشرية هى طبيعة مرنة ومتغيرة وقابلة للتبدل ، ومن هنا كانت الشخصية كمجموعة دلالات ، هى متغيرة ومتطورة باعتبارهـــا « نتاج اجتماعى Social Product » وباعتبارها أيضا « نتاج تاريخى » Historical Product، ومن المجتمع والتاريخ تنبع المصادر الحضارية والثقافية لمكونات الشخصية الإنسانية فالحضارة هى مبعث إتزان الشخصية أو قلقها ومصدر مخاوفها وأمراضها .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هناك ثقافة تدلل الطفل ، وأخرى تفرض عليه سلطة وقهراً . بمعنى أن الثقافة لها مناهجها وأساليبها فى صب الشخصية فى قوالب

معينة بالذات . فيتعلم الطفل الهندي من قبيلة الغراب Crow أن يكون كريماً ، ولكنه يتعلم الشح والبخل في قبيلة يوروك Yorok ، بينما يتلقن العجرفة والكبرياء في قبيلة الكواكيوتل Kwakiutl .

ففي كل ثقافة نجد مجموعة من القواعد السلوكية التي يطبقها الآباء بأسلوب خاص . ففي الثقافة الروسية يميل الفرد إلى أن ينظر إلى العلاقات الإنسانية من زاوية السلطة Authority ، لسبب بسيط جداً ، وهو أن حياته العائلية كلها قامت على السلطة ، فالثقافة تصب الشخصية في قوالب المثل العليا للمجتمع . فاذا جيء بطفل روسي إلى أمريكا ، فإنه سيتحول إلى أمريكي في مراحل الرشد والنضج ، حيث يتصرف ويفكر وفقا لأنماط الثقافة الأمريكية . إذ أن الشخصية أيا كانت هي نتاج « التعلم » ، فيسير النمو الطبيعي أو البيولوجي جنباً إلى جنب مع النمو الاجتماعي طبقاً لعمليات التعلم المقررة ثقافياً ، إذ أن التربية ظاهرة حضارية .

من مالينوفسكي حتى كلوكهون :

لقد ربط مالينوفسكي بين أنماط الثقافة ، وحاجات الإنسان البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . وأبرز عالم الثقافة الأشهر « كليد كلوكهون Clyde Kluckhohn » أهمية الأسس البيولوجية « Biological Foundations » التي إليها يستند مجموع قيم الإنسان ومهاراته ، باعتباره الصانع الوحيد لثقافته وقيمه .

وقصد مالينوفسكي بمفهوم « الحاجات » ذلك المعنى الاجتماعي أو المضمون الثقافي ، بالنظر إليها على أنها « نسق الشروط الضرورية system of necessary Conditions بالنسبة لحياة الجماعة group » أو بقاء الكائن العضوي organism .

فالحاجة تفرض على الإنسان القيام ببعض الجهود والأعمال ، التي تظهر أمامنا في ظواهر أو وقائع Facts ، حين تتخذ هذه الأفعال والأعمال أثناء تطورها

على مر الزمان ، أشكالا من النزوع أو صوراً من السلوك تفرضها الحاجة ، فتتحول إلى عادات اجتماعية habits ، مستندة أصلا إلى دوافع بيولوجية Biological « Motivations » ، وتنتقل تلك العادات التى تتوارثها أجيال البشر عن طريق التربية والتلقين ، بمعنى أن الثقافة تلقن من جيل إلى جيل ، باعتبارها مجموعة من الاستجابات المتعلمة learned Responses (1) .

وفى كل صورة من صور النزوع أو السلوك الثقافى ، نجد « دافعا » يؤدى إلى « فعل act » ، ويقضى الفعل فى النهـــاية إلى حالة من الطمأنينة أو « الرضى Satisfaction » .

فهناك دوافع أساسية تستند إلى حاجات ، مثل الحاجة إلى التنفس ، والحاجة إلى الطعام والشراب بدافع الجوع أو العطش ، والحاجة إلى الراحة بدافع إزالة التعب .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فان الحاجة إلى التنفس ، تجعلنا نقوم « بفعـــل خاص » ، هو عملية الشهيق والزفير ، بادخال الأوكسجين إلى الرئتين وطرد ثانى أكسيد الكربون من الأنسجة ، وهنا تحـدث حالة من « التوازن » البيولوجى ، القيام بهذه الوظائف الضرورية لحياة الكائن العضوى .

وتلك هى الحاجات الأساسية Basic needs ، للكائن العضوى ، من حيث هو كائن بيولوجى أو فيزيقى يندرج تحت نوع من أنواع الحيوانات الراقية ، وهذه الحاجات الأساسية ، هى فى واقع أمرها جماع « الشروط الضرورية » لحياة الكائن العضوى ، وبقاء الزمر ودوام الجماعات .

إلا أن ما يعنينا فى هذا الصدد ، هو أن كل تلك الحاجات الأساسية ، إنما

(1) Firth, Raymond., Man and Culture., Routledge, London 1957 p. 33.

يقابلها مجموعة من الاستجابات الثقافية Cultural Responses، فهناك مثلا بعض العمليات الفسيولوجية ، مثل عملية التمثيل الغذائى metabolism ، باستحالة المواد الغذائية فى خلايا وأنسجة الجسم ، ومثل عملية التناسل Reproduction ، وهى عملية فسيولوجية بحتة ، تقابلها بعض صور من الاستجابات الثقافية ، مثل تكوين الأسرة Family ، تلك التى يترتب عليها وجود نظم معقدة ، مثل نظام الزواج والملكية والتبنى والميراث ، وكلها تدخل فيما يسمى بالنسق القرابى Kinship system.(1)

وهناك الحاجة إلى الراحة الجسمية ، وتقابلها استجابة ثقافية ، تتمثل فى البحث عن « المأوى » سواء أكان هذا المأوى يتمثل فى صورة « كهف » أو « سرداب » أو « خيمة » أو « كوخ » ، وكلها أشكال للاستجابات الثقافية لإشباع الحاجة إلى المأوى وتحقيق الراحة الجسمية وإزالة التعب .

أما الحاجة إلى الأمن فتقابلها استجابات ثقافية ، تتحقق فى محاولة القيام بالحماية أو الدفاع عن النفس ، سواء عن طريق الدفاع الذاتى ، أو عن طريق الدخول فى حماية الآخرين ، أو قد تتحقق الحاجة إلى الأمن فى الدول المتحضرة فى ظل « سيادة روح القانون » التى تفرض وتسود عن طريق وسائل اجتماعية وتشريعية ، مثل هيئات التشريع ، ورجال الضبطية القضائية ، وفرق الأمن والخفر والبوليس ،

وبالإضافة إلى كل ذلك ، هناك الحاجة إلى الحركة movement وتقابلها استجابة ثقافية ، تتمثل فى القيام ببعض المناشط الجمعية Collective Activities تلك المناشط التى تتصل بالجوانب الايكولوجية والنواحى الاجتماعية .

وجملة القول إن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على العمل Labour،

---

(1) Ibid : p. 35.

وعلى صنع الثقافة ، ومواجهة البيئة الفيزيقية الخالصة ، حيث أن التكيف البيولوجى Biological Adjustment مع البيئة هو ما يسمى فى علوم الانثروبولوجيا باسم « الثقافة » .

فالتطور العضوى الذى يصاحب نمو الأعضاء ، مثل ذلك التغير الذى يطرأ على شكل الأطراف كالأيدى والأرجل ، إنما يتصل بالضرورة بالتطور الثقافى المجتمعات الانسانية ، بمعنى أن التطور العضوى ، إنما يتجه ويتمشى فى نفس الوقت مع التطور الثقافى . الأمر الذى معه نستطيع أن نؤكد أن « للثقافة » قيمة « بيولوجية Biological Value » ، وتتعلق هذه القيمة بضرورة فيزيقية ، هى بقاء الكائن العضوى ودوام الجماعة الإنسانية .

وتنتقل سمات الثقافة فى مجتمعات الإنسان عن طريق « التربية Education » حيث لايستطيع الحيوان أن ينقل ثقافته إلى صغاره ، فالحيوان لا ثقافة له ، فان أنثى الأسد مثلا ، تلك التى تتعلم الكثير من الحركات من مدرب الوحوش ، لا تستطيع أن تعلم صغارها هذه الحركات أو أن تلقنها تلك التدريبات المدروسة ، إذ لا يمكنها أن تنقل هذه الحركات المدربة إلى أشبالها الصغار(١) .

ولقد كان مفتاح الدراسة لنظرية مالينوفسكى فى الثقافة والكائن العضوى ، يتمثل فى فكرة « المستوى الثقافى للمعيشة Cultural Standard of Living » حيث أن الإنسان ككائن مثقف ، إنما يقضى حاجاته بأساليب مختلفة طبقا للامكانيات الاقتصادية التى تقدمها البيئة والمجتمع(٢) .

ففيما يتعلق مثلا بتناول الطعام ، هناك فارق بين من يتناول طعامه بيديه وأصابعه ، وبين من يأكل مستخدما ملعقة وشوكة وسكين ، وفقاً لآداب المائدة

---

(1) Ibid : p. 37

(2) Ibid : p. 40

المعروفة فى « إيليكيت » المجتمعات المتحضرة ، ومن هنا يتمايز المستوى الثقافى للمعيشة بين الإنسان الاستوائى البدائى ، وبين الإنسان العصرى المتحضر ، هذا المستوى الذى يحدد لنا ما نسميه اليوم باسم « أسلوب الحياة Style of Life » ، فالشخصية الانسانية Human personality ، عند علماء الأنثروبولوجيا الثقافية هى « صفحة بيضاء Tabula Rasa » تنطبع عليها كل « سمات الثقافة » تلك التى تفرض على الشخصية مجموع الملامح والخصائص العامة .

شعار التيار الجديد :

ويساير التيار الثقافى الجديد « شعار » أو « نداء » الثقافة والشخصية » بالجمع أو التوليف بين مقولتى « الثقافة » و « الشخصية » مع الالمام بنتائج علوم السيكولوجيا والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا . بمعنى أننا لكى نتابع الاتجاه الثقافى الجديد ، علينا أن نعالج الإنسان « كوحدة جشطالتية » متكاملة فندرسه « كفرد » له تكوينه الجنسى الفريد ، وله ماضيه البيولوجى فى تاريخ أسرته ، كما ندرسه أيضا « كذات » أو « كشخصية » لها مكوناتها المكتسبة من سمات البناء الثقافى كله .

ولسوء الطالع هناك بعض الصعوبات التى تعترض هذا التيار الجديد ، تتصل جميعها بمسائل ومفهومات منهجية . ويشير « لينـد Lynd » فى هذا الصدد إلى مشكلة منهجية خطيرة ، تتصل بجوهر الاتجاه الثقافى السيكولوجى الجديد ، حيث أثار « ليند » مشكلة « الثنائية dualism » تلك التى تسكن فى صلب مصطلح « الثقافة والشخصية Culture and Personality » (1) .

---

(1) Kluckhohn, Clyde & Mowrer., Cutture and Personality: A Conceptual Scheme. Reprinted from The American Anthropologist. Vol : 46 1944.

وهنا يتساءل « لينـد » عن وعورة الطريق وصعوبة الدراسة ، حين نبـدأ بتركيز الإنتباه على الثقافة ثم دراستها بعـد ذلك كركيزة سيكولوجية فى بناء الشخصية ؟ أم أننـا على العكس نـدرس « الشخصيـة » أولا ، فنعرف « الذات الاجتماعية » ، ثم نثب منها إلى معرفة « سمات الثقافة » حين تتلون الشخصية طبقا للون الثقافة والحضارة والتاريخ ؟ .

ولاشك أن الخطى تتعثر إزاء هذه « الثنائية » التى تثير الصعوبات المنهجية . وإزاء هـذه المسألة ، نحن أمام أمرين ، إما أن ندرس « الثقـافة فى الشخصية Culture in Personahty» وإما أن نعالج « الشخصية فى الثقافة Personality in Culture » الأمر الذى يثير الصعوبات ويخلق المشكلات ، فيختلط الأمر على الباحث ، وتضطرب فروضه ويتعثر بحثه حين يجمع مختلف المعطيات données والوقائع .

ويذهب « كلوكهون Kluckhohn » إلى أن التعرف على الثقافة هو السبيل الحاسم لفهم الشخصية ، حيث أن الثقافة هى بعد رئيسى من أبعـاد الشخصية . ويرى كلوكهون أننا إذا ما توصلنا إلى معرفة أنماط الثقافة ، فإننا نحرز بالضرورة كسبا وتقدما فى معرفة سمات الشخصية .

ولكى يتفهم الباحث طبيعة الشخصية ، فإن المنهج الممكن الوحيد ، على حـد تعبير « كلوكهون » هو تحديد المادة الكافية التى يمكن أن يحصل عليهـا الباحث بدراسته القيم وفهمة للمثيرات والدوافــع الاجتماعية ، إما عن طريق الاتصال والعلاقة الاجتماعية Social Relationship ، وإما عن طريق استخـدام منهـج المقابلة المضبوطة أو المقننة Controlled interview » .

وقد تتجلى سمات « الشخصية » وتتبـدى ملامحهـا عنـد إجراء التجربة بعزل الشروط والمواقف التجريبية experimental situations ، كذلك التى نتوصل

إليها ،مثلا بتطبيق المنهج الاسقاطى Projective Method . وبذلك تتكشف معالم الشخصية فى ضوء المواقف والدوافع Motives وظروف الحاجة Need ، وهى معطيات ضرورية لتفسير الشخصية ، تلك التى يعرفها كاوكهون بأنها مجموعة من القيم والدافعيات التى ندرسها باجراء العمليات الموضوعية والتجارب العملية .

تعميمات وقضايا :

تأخذ كل النظريات العلمية فى اعتبارها دراسة مختلف أوجه الشبه والاختلاف، ولذلك ينبغى أن تفسر « نظرية الشخصية Theory of Personality » كل ما تتميز به الشخصية من تفرد أساسى Ultimate Uniqueness ، بحيث تتحدد فى الوقت عينه مختلف الوقائع الناجمة عن مشاهدة الفروق الفردية ، تلك التى تفسح لنا الطريق لمعرفة سمات الشخصية.

واستناداً إلى هذه النظرة فى دراسة « الثقافة والشخصية » توصل كاوكهون إلى عدد من التعميمات Generalizations أو القضايا العامة ، كما يتضح فى النقاط الخمس الآتية :

١ — هناك بعض المحددات العامة Universal determinants التى تبرز سمات الشخصية Personality traits الخاصة بكل بنى البشر ، كالبواعث والقيم والدوافع الاجتماعية ، وهى عناصر ثقافية عامة تتميز بالكلية والشمول ، حين يتسم بها «الشخص» فى كل زمان ومكان ، فهى سمات كلية وعامة Universal traits نحاول فى اطارها أن نحدد معالم الشخصية ، ومعرفة « حدودها العامة » فى كل زمان ومكان ، دون تمايز أو تمييز .

٢ — والقضية الثانية هى أقل درجة فى التعميم من القضية الأولى وتتمثل فى القول أو الحكم الآتى : يميل أعضاء أى مجتمع إلى أن يشاركوا بعضهم بعضاً فى « سمات شخصية » مشتركة ، ويسميهـــا كاوكهون بالسمات المشتركة

وقد يطلق على هذا النوع من التعميم المنخفض فى سمات Communal traits ، الشخصية ، اسم « المحددات المشتركة Communal determinants » .

٣ — ويتصل التعميم الثالث بطبيعة السلوك ، على اعتبار أن السلوك يتسم فى كل جماعة أو زمرة ببعض المميزات الثابتة والخصائص المحددة . فوراء كل سلوك « دافع » يصدر عن القيم الاجتماعية Social Values . وتلعب الدوافع والقيم الاجتماعية أدواراً بعينها تحدد لنا الكيفية العامة لسلوك الجماعة أو الزمرة موضوع الدراسة . ويطلق كلوكهون على هذا « الدور الثقافى » الذى تلعبه القيم والدوافع الاجتماعية فى تنظيم أنماط السلوك وتكوين سمات الشخصية اسم « محددات الدور Role determinants » .

٤ — وفى التعميم الرابع يقول كلوكهون : قد يختلف أفراد المجتمع الواحد ، وتمايز سمات الشخصية ، على الرغم من تشابه البواعث والدوافع والقيم الاجتماعية التى تلعب نفس الدور . والسبب فى ذلك التمايز هو وجود بعض « السمات الفريدة Uuique traits » ، باعتبارها مجموعة من السمات النوعية التى تمتاز بها وتنفرد كل شخصية على حدة ، وتسمى بالسمات أو المحددات الفطرية Idiosyncratic determinants ، وهى سمات تتصل بجبلة الشخصية وطبيعتها . الأمر الذى يفسر لنا نوعيتها وتفردها من غيرها من سائر الأنماط أو الشخوص طبقاً لمجموعة « المحددات الفطرية Idiosyncratic determinants » باعتبارها سمات فردية تتميز بالحدود الخاصة الضيقة ، وهى ما تسمى أيضا بالحدود الفريدة أو الأصلية الخاصة بالشخصية موضوع الدراسة (١) .

---

(1) Kluckhohn., Clyde.. Cullure and Personality. reprint Sĕries in the Social sciencss. Rep from. American Anthropologist Vol : 46. 1944.

٥ — وتتلخص القضية الخامسة والأخيرة فى التعميم القائل، بأنه : قد توجد بعض « المشابهات Similarities » بين أفراد مجتمعات متباينة ومتمايزة ثقافيا . ويستنتج كاوكهون أن هذا التشابه فى نمط الشخصية رغم الاختلاف البين والبون الشاسع بين سمات الثقافة ، إنما يرجع إلى تشابه المحددات الفطرية Idiosyncratic determinants وتجانس السمات والعناصر الخلقية الكامنة فى التركيب أو البناء الأساسى للشخصية Structure essentielle de la personalité » . بمعنى أن السمات الفطرية هى عناصر أو مكونات خلقية قائمة فى طبيعة الشخصية ، وكامنة فى جبلة الانسان الفرد الأصيل . ومن ثم فإن هذه العناصر والمحددات الفطرية لا تلتزم بالمجتمع are not Society-Bounded ، حيث لا تتصل هذه السمات الفريدة Unique بالضرورة بوجود المجتمع وقيمه ودافعياته . ويعنى هذا أن تركيب الشخصية لا يقتصر على مجرد الاستعدادات الفطرية والموروثات البيولوجية ، وإنما يشتمل أيضا على المؤثرات الخاصة التى يتعرض لها الفرد خلال عملية النمو . فكل فرد يستجيب للمؤثرات البيئية المختلفة بطريقته الخاصة ، وهذا هو مجال « للذات » وأسلوبها فى تكوين ما يسمى « بالشخصية الأساسية » .

وفى ثقافة «سكان جزر الالور» فى أندونيسيا ، يخضع الفرد لمؤثرات غريبة وفريدة فى نوعها ، حيث تحمل المرأة العبء الأكبر من النشاط الاقتصادى ، فتعمل طوال النهار فى الحقول وزراعة الخضراوات . الأمر الذى يفرض عليها إهمال رعاية الأطفال ، فضعف دور الأم التربوى الذى تلعبه فى بناء « الانا » أو «الذات» وتكوين الشخصية . فهى لا تستطيع رعاية أطفالها إلا قبل توجهها إلى الحقول صباحا وبعد عودتها منها مساء . فكانت رعاية الطفل تنتقل إلى كبار الأشقاء أو الأقارب ، مما أدى إلى إنهيار أسلوب التربية والتكامل فى طريقة تدريب الطفل وتعليمه فضعفت « الأنا » ومرضت وأصبحت مفعمة بحالات القلق والحيرة .

وحتى الشعائر الدينية لا يمارسها « سكان جزر الألور » إلا بشيء من التردد وتحت ضغط الظروف والحاح الحاجة أو الضرورة ، فاتسمت العلاقة بين أفراد ثقافة الألور بالتوتر والريبة والشك . ومن السمات الأساسية فى شخصية الألور محاولة تفسير إنتشار المجاعة ، بحدوث زلزال أو وقوع كارثة أو فيضان ، فهم يقرنون الجوع كظاهرة فسيولوجية بكوارث الطبيعة ، كما لوحظ « ضعف الضمير » وتشابه فى البنية الداخلية لشخصية الفرد فى ثقافة الألور ، مما يقيم الدليل على إنعكاس طريقة التربية فى هذه الثقافة ، ووجود الصلة الوثيقة بين ضعف أو قوة الضمير ، وبين أسلوب التربية وعناية الآباء بالطفل فى مراحل الطفولة .

وما يعنينا من ذلك ، هو أن نمط الشخصية يرتبط بنمط الحضارة وسمات الثقافة ، حيث يحدد نمط الحضارة إطارات نمط الشخصية تلك التى تخضع لسائر العوامل الثقافية ، فسكان الملايو يصابون أحياناً بنوبة « حب القتل » وإزدياد مشاعر التعطش لسفك الدماء — ويقوم بعض هنود كندا بإعتداءات تشبه محاولات « الكانيباليين » من أكلة لحوم البشر ، وفى ثقافة جنوب شرق آسيا ، يعتقد الناس أنهم قد إنقلبوا وتحولوا إلى نمور كاسرة . وتنتشر الشيزوفرانيا Schizophrênia بين سائر الولايات الأمريكية ، وبخاصة بين الطبقات الدنيا (١) ، على حين تنتشر فى الثقافة الأرستقراطية فى أمريكا أمراض الهياج والكآبة وبخاصة بين الطبقات العليا . وفى «سومطرة» يصاب الناس بجنون الخنازير ، وهو مرض يؤدى إلى خلل فى الجهاز العصبى ، ومن مميزاته الهياج والتصرفات الشاذة التى تذكرنا بحالة السعار التى تصيب الكلاب الضالة .

---

(١) الشيزوفرانيا مرض نفسى يطلق عليه علماء النفس اسم « إنفصام الشخصية » وهو حالة نفسية مرضية تتميز بالجمود والانحلال العقلى ، فتضطرب الشخصية وينعدم التوازن بين الفكر والشعور .

نمط الثقافة والتركيب الدينامى للشخصية :

لا شك أن « نمط الثقافة Pattern of Culture » على ما تؤكده « روث بندكت Ruth Benedict » إنما يكون له رد فعـــله العميق فى تركيب سمات الشخصية ، تلك التى قد تضطرب وتهتز ، وقد يطرأ التغير على « محتوى الشخصية » خلال إحتكاك الإنسان بالآخرين ، وأثناء تكيفه مع الثقافة التى يعيش فيها [1].

وقد تمرض الشخصية أو تنحل وتتفكك كما يؤكد علم النفس المرضى ، حين تعانى إضطراباً أو قلقاً نتيجة لعدم التكيف الثقافى ، مما يؤدى إلى إحداث خلل فى التوازن تحت وطأة أنماط الثقافة ، مما يكون له صداه فى سيكولوجية الإنسان الفرد ، وأثره فى « التركيب الدينامى للشخصية ».

وإستناداً إلى تلك الصلة الدينامية التى تصل الإنسان بثقافته ، وهى صلة تمتاز بالضرورة والحتم بل والتعسف ، حيث تظهر تحت وطأة الثقافة بعض الانحرافات التى تخلق الشخصية غير السوية ، وحتى إذا تكيف الإنسان مع بعض سماتها دون البعض الآخر يصبح « هامشياً Marginal Man » . وقد تنتشر الأمراض النفسجسمية، والاضطرابات السيكوسوماتيكية Psychosomatic disturbances، وخاصة فى الثقافة الأمريكية ، وبين أفراد الطبقة الوسطى بالذات، نتيجة العدوان المكبوت Repressed agression ، ومن ثم تنتشر بينهم أمراض القرحة تحت وطأة الاحباط Frustration .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يتعرض اليابانى فى جزر هاواى لاضطرابات سيكولوجية كالهياج وإنحرافات فى المزاج كالكآبة ، وهى أمراض لا تصيب اليابانى الذى يعيش فى وطنه وثقافته الأصيلة ، فالهياج والكآبة وانحرافات الشخصية ،

(1) Kluckhohn, Clyde., Culture and Personality, Reprint Series in the Social Sciences, Rep. Vol : 46. 1944.

جاءت كرد فعل ثقافى أو لتأثير سمات الثقافة الدخيلة على شخصية اليابانى الغريب . ومن العجيب أن تزول هذه الانحرافات المرضية بعودة اليابانى إلى الجزر اليابانية ومغادرته لجزر هاواى .

ويصاب الزنوج من الأمريكيين بارتفاع ملحوظ فى ضغط الدم ، وهذا أمر غريب ونادر بين سائر زنوج إفريقيا ما عدا بعض أجزاء روديسيا وإفريقيا الجنوبية ، حيث تنتشر العنصرية والحواجز اللونية . فالزنجى الأمريكى محاط بثقافة الرجل الأبيض الأمريكى ، وهى ثقافة عنصرية خانقة بل وقابضة للنمو ومعوقة للذكاء ، الأمر الذى معه تنتشر الأمراض والانحرافات السيكولوجية بين زنوج أمريكا ، وتؤدى شدة ضغط الثقافة البيضاء إلى إرتفاع ضغط الدم بين أصحاب الثقافة الزنجية .

مما يؤكد لنا أن هضم الثقافة وإستيعاب محتوياتها بالتعلم والاحتكاك والتربية ، إنما يؤدى بالضرورة إلى تغير فى « التركيب أو البناء الأساسى للشخصية Structure essentielle de la Personalité » . وهذا هو السبب الذى من أجله تتغير طباع وأمزجة الشعوب نظراً لتغير « المحتوى الثقافى » والميول الحضارية السائدة ، ولقد استغل « يوليوس قيصر » هذا العامل الحضارى أثناء تعامله مع قبائل البرابرة من أجل خدمة ومصلحة روما .

ولقد ربط علماء الثقافة ، بين نظرية التكامل السيكولوجى ، وتحليل نظم الثقافة التكاملية ، تلك التى تتكون عند الطفل نتيجة تراكم خبراته المتعددة أثناء مراحل النمو الذكائى والاجتماعى ، فهناك تلازم حتمى ومفروض بين قطبى « الثقافة » و « الشخصية » .

فشعائر الدين مثلا ، هى مجموعة من الصور الدينية الحسية المنقولة إلى الطفل ، أثناء عملية التربية والتدريب ، فى البيت والمدرسة والمسجد أو الكنيسة ، حيث

يترقى الشعور الدينى ، وتتضح التصورات الدينية ، و« يصبح مفهوم الإله متميزاً وعاماً ».

هذا عن نسق الدين بقيمه وأخلاقه ، وأحاسيسه العامة ، ولكن الطريقة التى يلتمسها الناس ويتخذونها فى القربة إلى الله واستدرار لطفه وعطفه ورحمته ، إنما تختلف باختلاف الخبرة الدينية ، وتتمايز طبقا لشكل أو صورة الثقافة بدائية كانت أم متحضرة . فقد يقتصر المؤمن فى ثقافة ما على إلتزام الصبر والجلد طلبا للعون الإلهى ، وفى ثقافة أخرى قد يفرض الفرد على ذاته نظاما صارما يطهر به نفسه ليتقرب إلى الإله حتى ينعم بالرحمة والمغفرة .

ولا شك أن الثقافة إنما تفرض الخبرة والميل ، وتضع القيمة وتحدد المزاج ، وكلها أمور جوهرية فى التركيب أو البناء الأساسى للشخصية . وعلى سبيل المثال ، فإن القلق السائد فى ثقافة « جزر الماركيز » ، إنما ينجم أصلا عن مشكلة الخوف من المجاعة ونقص المواد الغذائية ، فظهرت بعض النظم والقيم الخاصة ، للتعبير عن رد الفعل الثقافى الذى يتجلى فى مجموعة من الشعائر والطقوس الدينية . وفى ثقافة الماركيز تختلف ظروف الكبت الجنسى عنها فى الثقافة الأمريكية أو الأوروبية ، حيث تزداد نسبة الذكور زيادة واضحة تصل إلى الضعف بالنسبة لعدد الاناث .

ويتضح أثر النظام الاقتصادى فى تركيب شخصية الفرد فى قبيلة « التنالا » . حيث كان النظام القديم فى تلك الثقافة يعتمد على انتاج الأرز والملكية الجماعية ، وتوزيع الناتج على أفراد القبيلة تحت إشراف السلطة الأبوية ، التى هى سلطة مطلقة ومستبدة ، طالما يشبع سلطان رب العائلة وحكمه المطاق حاجات الأبناء والأتباع .

وحين طرأ التغير على ثقافة التنالا ، تبدلت أنماط العلاقات ونظم الانتاج وتوزيع الملكية ، وأدخلت نظم جديدة لرى الأرز ، وتخلى الأفراد عن مبدأ

الملكية الجماعية للأرض ، وظهرت نظم الملكية الفردية حين إشتد التنافس على إمتلاك الأراضى . مما أدى الى انهيار التنظيم العائلى القديم ، وازدادت نسبة الجرائم ودبت الانحرافات فى النفس والعقل ، وإنتشرت أمراض الهستيريا وذاعت طرق السحر والشعوذة .

وفى ضوء هذه الدراسة ، نستطيع أن نتعرف على مختلف النتائج التى نجمت عن أساليب التكيف القديمة والجديدة ومدى تأثير النظام الاقتصادى فى تركيب الشخصية ، وكيف تجابه الجديد بواجباته المرهقة التى لم تكن مستعدة لقبولها ، وإلى أى حد تنفجر حالات القلق والحيرة ، حين تتخذ الشخصية بعض الأساليب الدفاعية ، كالتنافس على الملكية وإستخدام السحر ، وإنحراف الأحداث وإزديادة نسبة الجريمة .

وفى قبيلة « الكومانش » نجد طرازاً متمايزاً من طرز الشخصية ، حيث تميزت هذه القبيلة بالحرب والغزو ، وكانت صفات الشجاعة والإقدام هى المطلوبة كى تتلاءم مع ثقافة الكومانش من أجل بقاء القبيلة وحمايتها والحفاظ عليها ، الأمر الذى معه تميزت التربية بين الكومانش ، بالحرية والديموقراطية وغرس مبادىء العدالة وإزالة الصعوبات إزاء نمو الشخصية أو تعويق تطور الذكاء ، مع تأكيد الذات وتشجيع الاعتزاز بالنفس ، وتدريب الطفل على الشجاعة والمروءة والاقدام ، وهى المثل العليا فى ثقافه « الكومانش » . ولذلك كانت معتقداتهم الدينيه خاليه من الشعور بالذنب أو العقاب لإرتكاب الآثام ، ومن ثم لا تظهر فى النسق الدينى عندهم أيه شعائر للإستغفار طلبا لغفران الآلهة ، كما تشجع تلك الثقافه مظاهر « البطولة » و « الزعامة » ، وعلى كل من يحاول الإستيلاء على السلطه السياسيه أن يقيم الدليل على بطولته وشجاعته .

محددات الشخصية :

حين نقوم بتحليل تركيب الشخصية ، يمكننا أن نحدد مختلف جوانبها ، وأن نشير إلى سائر مكوناتها البيولوجية Biological والثقافية Cultural والبيئية Environmental . وهذه هي المكونات التقليدية التي تحيل الشخصية إلى تجريد Abstraction يستند إلى « تركيب صوري » .

ولا شك أن هذه النظرة الصورية للشخصية هي مفيدة حقاً ولها أهميتها في الدراسة العلمية التي تفرض علينا أن نقوم بعزل مكونات الشخصية ، كما تقتضي طبيعة البحث العلمي أن يحاول الباحث أن يفصل بين سائر جوانبها وأجزائها ، إلا أن عزل مكونات الشخصية هو « عزل ضروري وصوري» تستلزمه الدراسة، كما أن الفصل بين محتوياتها ، هو فصل بين مجردات يعتبر من ضرورات ومقتضيات البحث (١) .

وأكد كلاكهون على العناصر الاجتماعية والفيزيقية والمكونات البيئية والحضارية التي تسهم في تشكيل سمات الشخصية . وهناك أشكال مختلفة من السمات والمحددات، وهي المحددات العامة Universal determinants والمشتركة Communal ، والفطرية Idiosyncratic ، ومحددات الدور Role .

وفي ضوء كل هذه المحددات يحدث التكامل الوظيفي لكل سلوك يتعلمه الفرد أثناء قيامه بمختلف الأدوار Roles التي تتمايز مع تمايز الفئات الاجتماعية مثل الأسرة والمدرسة ومكان العمل، تلك الأدوار التي تخلق الشخصية المتميزة ، حيث أن الادوار والمقاييس الخلقية ، بالاضافة الى مزيج مختلط من مجموع الأهداف والآراء

---

(1) Kluckhohn, Clyde., Culture and Personality, Reprint Series in the Social Sciences. Reprinted from the American Anthropologist' Vol : 46, 1944.

والعادات ، وكلها جوانب أساسية تسهم فى تكوين الشخصية ، وذلك بفضل عملية الاعداد الاجتماعى Socialization ، وهى عملية سيكو إجتماعية تتكون بفعل النظم التربوية والتعليمية السائدة فى الثقافة والتى تتقاسمها الأسرة والمدرسة والمؤسسات الدينية كالمساجد والكنيسة . على إعتبار أن الإعداد الاجتماعى هو العملية التى يتعلم فيها الفرد مختلف عادات مجتمعة ، وكيفية فهمه « لذاته » ومقدار تقييمه لها . كما يتعلم الإنسان الفرد أثناء عملية التطبع الاجتماعى ويلقن كل الأدوار التى يتحتم عليه أن يقوم بها فى ثقافته .

وفى عبارة مشهورة يقول «كلارك هل Clark Hull » يحدد لنا فيها منهجه فى دراسة الشخصية ، فيقول : « فى البدء كان الكائن العضوى Organism أولا ثم البيئة Environment ثانياً » بمعنى أننا طبقا لهذا القول ، ينبغى أن نبدأ أولا بدراسة الكائن العضوى ، حيث أن « العضوى » هو أقدم أو أسبق فى الوجود فينبغى دراسة شخصية الانسان ، من زاوية البناء الفيزيقى أو العضوى ومن وجهة النظر البيولوجية والتشريحيه ، ثم نعالج « تركيب الانسان » من ناحيه « البناء الاجتماعى » ومن وجهه النظر الاجتماعيه والثقافيه ، للكشف عن تلك الجوانب التى اكتسبها الإنسان الفرد من البيئه ، بكل ما يحويه من ظواهر إيكولوجيه وأشكال مورفولوجيه ومصادر تاريخيه ، وكلها عناصر ثقافيه وليست عضوية .

وإذا ما استخدمنا طريقه « كلارك هل » وكيفيه فهمه لدراسة الشخصية ، فينبغى أن نبدأ أولا بتحليل عناصر وسمات الشخصيه ، فبفضل التحليل نستطيع أن نضع أيدينا على تلك الاختلافات القائمه بين سائر الأفراد ، حيث ترجع الفروق الفردية Variations إلى ظروف الوراثة والتكوين البيولوجى ، وإلى شروط التكيف الاجتماعى ، بالاضافة إلى ضرورة توافر عوامل التوافق بالثقافة والانسجام مع كل الظروف البيئية والشروط الفيزيقية .

ويمكننا أن نميز فى هذا الصدد ، بين ثلاثة أشكال للبيئة ، وهى البيئة الطبيعية أو الفيزيقية Physical ، والبيئة الاجتماعية Social ، ثم البيئة الثقافية Cultural وهذا تمييز أوعزل صورى لسائر أشكال البيئة ، وهو أمر مفروض فى كل دراسة علمية ، ولذلك حاول كلاكهون أن يضع تصنيفاً لمحددات الشخصية كما نلحظ من الجدول الآتى :

المحددات	العامة	المشتركة	الفطرية	الدور
البيولوجية	الجوع - العطش الجنس - الولادة الموت	سمات العنصر Racial Traits الأمراض المتوطنة مستوى التغذية Mutrition level	السحنة - صفات القامة - وظائف الغدد وعملها	اختلاف السن والجنس التمايز الطائفى
البيئة الفيزيقية	الجاذبية الحرارة الزمن Time	المناخ علم تخطيط الأماكن والبلدان والملاجىء الطبيعية	الاحداث النوعية كالصواعق والظواهر الطبيعية الفريدة	الفروق فى حيازة المنافع المادية
البيئة الاجتماعية	رعاية الطفل Infant care الحياة الجمعية Group life	توزيع السكان الحجم Size الكثافة Dens	الاحداث الاجتماعية مثل موت الوالدين والتبنى	الزمر - الشلل الإنسان الهامشى Marginal Man
البيئة الثقافية	Symbolism الرمزية التابو Taboo القتل داخل الجماعة	التقاليد Traditions قواعد السلوك المهارات Skills	الفلكلور الآداب العادات الشعبية	الادوار المتفاضلة ثقافيا Cultural Differentiated Roles

ومن هذا الجدول يتضح لنا أن هناك قضايا أساسية ينبغى أن تكون ماثلة دائما للعيان ، وهى تتتابع كما يلى :

١ - إن الإنسان كائن عضوى ، تتوفر فيه بعض الخصائص المحددة التى يتميز بها وحده كمجموعة من الأجهزة البيولوجية .

٢ - الإنسان حيوان اجتماعى Social animal .

٣ - الإنسان حيوان ثقافى Cultural animal .

٤ - يعيش الإنسان فى عالم فيزيقى يخضع فيه لسائر القوانين الطبيعية السائدة فى العالم الطبيعى .

ومن الناحية البيولوجية ، نجد أن الانسان ككائن عضوى يتميز منذ ولادته بأعصاب حسية وحركية تتصل بالجهاز الشوكى والعصبى . ويمتاز الانسان أيضاً بقامة معتدلة ، فالانسان كائن يمشى على قدمين ، ولا نجد إنسانا يمشى على أربع أو يأكل بثلاثة أيدى ، وإنما يمتاز الانسان عن الحيوان من الناحية التشريحية والعضوية ، باعتدال القامة وإرتقاء أجهزته الشوكية والعصبية ، كما تتوافر عنده « ثنائية الأبصار Stereoscopic Vision » وهى خاصية يمتاز بها الانسان دون سائر الحيوان ، بمعنى أن اعتدال القامة واستخدام اليدين والمشى على قدمين ثنائية الأبصار ، كلها خصائص إنسانية ، وصفات ولادية بشرية .

وإذا كانت هناك بعض الفروق التشريحية التى تميز الانسان عن سائر الحيوان إلا أننا نلحظ فى الوقت عينه وجود الكثير من الخصائص الحيوانية عند سائر بنى البشر ، فاذا ما تميز الانسان عن الحيوان بالعقل واعتدال القامة وثنائية الأبصار ، فانه يشاركه فى خصائص بيولوجية أخرى ، حيث يخضع الانسان والحيوان لنفس الشروط البيولوجية والظروف الفسيولوجية ، من ناحية الميلاد والتنفس والاغتذاء والاخراج .

ولكل من الانسان والحيوان حاجاته البيولوجية ، وهى حاجات ضرورية ملحة ، كالحاجة إلى الطعام والشراب ، والحاجة إلى الشريك الجنسى ، ويتعرض كل من الانسان والحيوان فسيولوجيا لعمليات النمو والنضج ، تلك التى تنتهى أخيراً بالشيخوخة ، وفى نهاية المطاف ، لكون خاتمة الحياة واحدة ، حين يدرك الموت كل كائن حى على وجه البسيطة ، بما فيها ومن عليها .

هذا عن الانسان ككائن تشريحى عضوى ، وهو ما يميزه كلية عن الانسان ككائن أو حيوان إجتماعى Social Animal ، حين يخضع الأخير لبيئة فيزيقية وثقافية ، وعليه أن يتكيف مع ثقافته ومجتمعه ، ويعتمد على سائر الزمر والجماعات.

أما الانسان ككائن أو حيوان ثقافى Cultural Animal ، فانه يخضع للون خاص من ألوان الثقافة ، وعليه أن يتكيف كلية ، وأن يتعلم كلية ، وأن يتعلم من مجتمعه سمات ثقافته ، وأن يلقن تقاليده وفلكلوره وعاداته ، وأن يتكيف ثقافيا مع كل ما يصادفه من ، توقعات ثقافية محددة Culturally defined expectations » .

وجملة القول ـ يتكيف الانسان بالضرورة مع بيئات وبناءات فيزيقية ، وأخرى إجتماعية وثقافية ، وعليه أن يعايشها ويتوافق أو يتلاءم معها . ومن هنا يستند « التفسير » فى تحليل الشخصية إلى تلك المكونات الثابتة Constant . على إعتبار أن البيئة والمجتمع والثقافة هى خصائص عامة يخضع لها سائر البشر ، وهذه هى القضية الأولية ، أو المسلمة الجوهرية فى نظرية الشخصية Personality Theory .

وليس من شك من أن الانسان إنما يولد عاجزا ضعيفاً ، ويقف على قدميه قليل الحيلة إزاء العالم الخارجى ، ذلك العالم الذى يهدد بقاء الانسان ويتحدى وجوده ، ولولا طبيعة الانسان Human nature تلك التى تحقق تضامنه وتكامله

فى تيار الحياة الاجتماعية ، لا نقرض الجنس البشرى برمته ، لولا عملية التكيف التى تمليها طبيعة الانسان .

ولكن التكييف الانسانى Human adaptation ، واتصال الانسان بالعالم الفيزيقى الخارجى ، إنما لا يعتمد فقط على مجرد طبيعة الحياة الاجتماعية Social life ، وإنما تعتمد أيضا على مكونات الثقافة Culture ، حيث توجد الكثير من مجتمعات الحشرات وجماعات الحيوان وأسراب الطير ، إلا أنها تبقى أبداً « دون الثقافة » ، على الرغم من حياتها الاجتماعية .

فنى المجتمعات الحيوانية والحشرية ، نجد ما يحدد فى صرامة أشكال النزوع وأنماط السلوك ، تحت ضغط الدافع أو الاستعداد الفطرى ، وتنتقل هذه الدوافع والاستعدادات وراثيا بواسطة البلازما Plasm والخلايا الجرثومية . على حين أن الكائنات العضوية الأخرى ، إنما تتعلم من التجربة أو الخبرة Experience فترقى قدراتها وتنمو استعداداتها .

والانسان لا يتعلم من التجربة وحدها ، وإنما تترقى قدراته باحتكاكه بالآخرين ، على ما يقول « رالف لنتون Linton » . حيث تعتمد كل مجتمعات الانسان فى وجودها وبقائها على ذلك الكم الهائل من التعلم المتراكم Accumula - ted learning الذى ندعوه بالثقافة Culture .

بمعنى أن ثقافة الانسان ، هى ذلك المستودع الذى يجد فيه الانسان مختلف الحلول الجاهزة Ready-made Solutions ، لشتى المشكلات والمصاعب التى يواجهها الانسان أثناء احتكاكه بالعالم الفيزيقى .

ولا تقتصر القدرة الانسانية على التعلم ، بل تمتد إلى تلقين وتعليم الآخرين واتصالهم بسائر المكونات العامة للثقافة ، ويتلقى الانسان من العالم الخارجى كل صنوف الحرمان Deprivation وألوان الاحباط Frustration من قسوة

البيئة الطبيعية ، وما يتخللها من صعوبات أو يعتريها من عقبات فيزيقية ، كشدة الحرارة أو برودة الطقس . الأمر الذى يفرض على الانسان أن يواجه الطبيعة بما يدخره من « علم متراكم » ، حيث يعود الانسان دائماً إلى هذا المستودع الثقافى الهائل ، كى يتلقى عنه مختلف الحلول الجاهزة التى تمكنه من التكيف مع العالم الفيزيقى الصارم .

وحين يتلقى الانسان شيئاً من الثقافة ، يجد نفسه إزاء « عموميات Universals » و « خصوصيات Specialists » و « بديلات Alternatives » .

والعموميات مفروضة على كل أفراد الثقافه الواحدة ، لأنها مشاركه عامه فى أنماط السلوك والفكر والاستجابه ، بل وتحرص عليها الجماعه كل الحرص ، لأنها التعبير الجمعى عن تلك « الروح العامه » التى تشيع فى جوانب الثقافه ، والعموميات تتصل بكل ماهو عام كاللغه والدين والشعائر ومراعاة التقاليد وآداب السلوك والعادات التى تفرض ، ويعاقب كل من يخرج عليها .

أما « الخصوصيات » ، فهى عناصر ثقافية خاصه بزمرة أو طبقه ، ولذلك كان أغلب الخصوصيات « مهنى » أو « تخصصى » كالطب والتدريس والمحاماة والحدادة والتجارة ، فاذا كانت العموميات هى التى تعبر عن وحدة الثقافه . وهى عامل التكامل والتضامن ، فان الخصوصيات تبعث على التفاضل والتمايز ، حين تتفاوت طبقات المجتمع ويتباين تقسيم العمل فيه دون أن يتعارض ذلك مع أنماط الفكر والسلوك الشائعه فى المجتمع فاذا كانت العموميات هى التعبير عن التجانس الثقافى العام ، فإن الخصوصيات هى التعبير عن التفاضل والتجانس .

أما « البديلات » فتختلف كلية عن العموميات والخصوصيات ، ويتلقيها الانسان كاستجابة لموقف من المواقف . فالموقف الواحد كثيراً ما يحتاج إلى أساليب مختلفه من أنماط السلوك الثقافى ، تلك التى تحقق نفس الهدف ، وتشبع نفس الحاجه .

فإذا كان صيد الطير أو قنص الحيوان سمة ثقافية عامة . فإن ذلك لايستلزم ضرورة الصيد أو القنص بطريقة معينة دون غيرها ، بل إن الصيد والقنص قد يتخذ أشكالا متنوعة تختلف من عشيرة إلى أخرى ، بل ومن فرد إلى آخر فهناك في سمة ثقافية عامة تجد عدداً من البديلات أو الأنماط السلوكية البديلة التي يمكن تطبيقها في نفس الموقف الواحد . لإشباع نفس الحاجة وتحقيق نفس الأهداف والأغراض لذلك تخضع هذه البديلات للتغير الدائم ، فقد تندمج البديلات في صلب الثقافة إذا أثبتت جدارتها في تحقيق الغرض وإشباع الحاجة ، وقد تزول بزوال تلك الجدارة أو الضرورة ، وقد تتعدل وتهذب كي تصبح أكثر توافقا مع الثقافة موضوع الدراسة .وتعتبر المستحدثات الجديدة كالأزياء والموضات وطرق التعليم والتربية التي قد لا تكون مقبولة في أول الأمر قبولا جمعيا ، حيث تجد المقاومة ويختلف عليها الناس، إلا أنها متى إستقرت وإكتسبت أنصاراً ، أضيفت إلى الثقافة وساعدت على نموها .

وجملة القول ، هناك سمات عامة للسلوك الإنساني ، استناداً لأنماط ثقافية محددة بالذات ، يتعلمها الإنسان كي تساعده على حل مشكلاته . فالثقافة هي سلوك متعلم ، كما تمتاز ايضا بأنها تتراكم وتزداد بعملية نمو مستمرة خلال حركة التاريخ ولما كان المجتمع هو الحافظ الأمين لثقافته وتراثه ، فكان من الضروري أن تمتاز الثقافة إلى جانب خاصية التراكم بخاصة « الانتقال » والحركة عن طريق « التربية Education » كنظام أو نسق من أنساق البناء الاجتماعي ، يضطلع بمهمة أو وظيفة نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل . وعن طريق الاختراع تنمو الثقافة، والحاجة هي أم الاختراع ، الذي قد يتم بالمصادفة ، والاختراع مهما كان معقداً فهو ليس إلا « تركيب جديد من عناصر قديمة كانت موجودة » . وتحقق الاستمرارية الثقافية عملية التقدم الثقافي ، وتنمو الثقافة عن طريق استعادة العناصر المادية

كالآلات والأجهزة .

وبالإضافة الى كل ذلك ، فللثقافة وظيفة التماسك والتضامن بين شتى وحدات المجتمع وأجزائه ، ومن هنا كان « التـــكامل Integration خاصية جوهرية بالاضافة إلى خاصية « التكيف » وهي الوظيفة الأساسية للثقافة برمتها ، حين تأخذ بيد الإنسان ، وتقدم له « الحلول الجاهزة » التي تمكنه من التكيف مع البيئة الفيزيقية القاسية .

ويمكننا أن نعتبر « الانسان الفرد » هو « حامل الثقافة » التي يقوم الأفراد بتوصيلها إلى غيرهم ، فتنقلها الأسرة ، وينفعل المجتمع بالثقافة الطارئة الجديدة ، حين تبدأ عمليات الصراع بين ثقافات أصيلة وأخرى دخيلة . واستناداً إلى هذه العملية الدينامية في انتشار الثقافة وحلها وانتقالها عن طريق الأفراد « حاملي الثقافة » يقال . « ان النمط الثقافي لاحياة فيه Lifeless ، ويقـوم الأفراد أو الأشخاص بنقل هذا النمط إلى الآخرين . بمعنى أن الشخص هو « حامل الثقافة Carrier of Culture ، فالفرد أو الشخص هو باعث الحركة في نقل الثقافة ، وباعث الحياة في أنماطها .

وفيما يتعلق بأهمية شخصية الإنسان الفرد في دراسة الثقافة ، يقال في هذا الصدد ينبغي أن « نتفهم الفرد أو الشخص كما يعيش في ثقافته » ، كما ينبغي أن ندرس الثقافة كما يعيشها الأفراد » .

« We must understand the individual as living in his culture, and culture as lived by the individuals » .

ويعرف السلوك الثقافي إجتماعياً بأنه « نزوع » يعبر عن « حاجة » ويهدف إلى الاتصال بالآخرين ، فهو علاقة بين الفرد وأخيه ، وبين الفرد وزمرته أو ذويه . ونمط السلوك ، هو ظاهرة متكررة ، يتناقلها الناس ، ويقتدى بها الأفراد ،

حين يحاولون الإقتفاء بقوالب سلوكية يصبون فيها أشكال النزوع والسلوك .
ويحاول عالم الثقافة أن يفتش عن « نمط السلوك » أن يدرس تلك القوالب النزوعية العامة (١) .

وحين يدرس عالم الثقافة أنماط السلوك المتنوعة ، إنما يدرسها على أنها أجزاء من العالم الطبيعى أو الفيزيقى Physical world ، ولا ينظر إليها على أنها مجموعة مفككة Unconnected من الظاهرات ، وإنما ينظر إليها على أنها سلسلة من الوقائع التى تنتظم أو ترتبط بنسق System ، وتقع فى رتابة واطراد Uniformity وتحدث فى انتظام Orderliness وتتوافر فى نمط pattern .

ولا يشاهد عالم الثقافة حاضرة من الحواضر Metropolitan ، ولا يدرس مدينة من المدن بالنظر إليها على أنها « كتلة هائلة » من الأفراد ، أو مجموعة ضخمة من المبانى والمؤسسات الفخمة ، وإنما يدرسها كظاهرة حضارية باعتبارها « نسق منظم Ogarnized System » تتكامل أجزاؤه على نحو بنائى Structural ، وتتداخل أنحاؤه وضواحيه فى إطار وظيفى Functional .

وحين نقارن حضاريا بين عدد من المدن ، فإنما نعقد المقارنات العلمية على أساس منهجى ، بالنظر إلى سائر الضواحى والأنحاء فى كل مدينة وخاصة مختلف المرافق العامة كطرق المواصلات ووسائل النقل Transportation كالسيارات وعربات الترام والتاكسى بالاضافة إلى دراسة عامة لتعداد السكان ودرجة الكثافة وعدد المصانع والمستشفيات المدارس والمعلمين والأطباء والمهندسين والعمال (٢) .

---

(1) Foskett, John. M., The Social Sciences View , Printice-Hall 1965. 110.

(1) Ibid : pp. 112.

ويمكننا أيضا فى ضوء هذه الدراسة فى ميدان علم الاجتماع الحضرى ، أن نحدد مختلف الظاهرات الحضرية ، كالانتحار واصابات العمـــل ، وحوادث السيارات ، وكل ما يتصل بالتأمين ومستوى العناية بالأمن الصناعى داخل بناء المصنع .

فحوادث السيارات مثلا « لاتحدث على نحو عشوائى Random » ، وإنما ترتبط بعوامل ثقافية واجتماعية ، مثل عامل الجنس Sex وعامل السن Age بين السائقين ، كما يتصل الحادث أيضا بعناصر « الزمان Time » و « المكان Place » زمان ومكان الحادث ، وظروف السائق الاجتماعية والنفسية . كما قد يتصل عامل أو دافع « الطبقة Class أو « العنصر Race » إذا كان المجتمع عرقى طبقيا وإذا سادت الثقافة صراعات التفرقة العنصرية ، كما هو الحال فى الثقافة الأمريكية .

وهناك الكثير من العوامل الاخرى التى تتدخل فى زيادة أو انخفاض نسبة حوادث السيارات وتحدد شركات التأمين مختلف درجات التأمين Differential Insurance Rates بالنسبة لمختلف السائقين ، سواء أكانوا من الرجال أو النساء أو الصبية أو الشيوخ .

والانتحار على سبيل المثال ، لا يحدث على أنه حادث اعتباطى أو عرضى ، وإنما يحدث على أنه سلوك اجتماعى مرتبط بثقافة محددة ، كما يتصل بالدين والجنس والسن والحالة الزواجية ، الامر الذى يفرض علينا دراسة ظاهرة الانتحار دراسة علمية ، على أنها ظاهرة اجتماعية تلعب فى المجتمع نفس الدور الذى تقوم به الظاهرة الطبيعية فى العالم الطبيعى . بمعنى أن العالم الاجتماعى Social World هو جزء لايتجزأ من الطبيعة Nature . وهذه قضية أو مسلمة وضعية تدخل فى نطاق علم المناهج Methodology الذى فى ضوئه نعالج ظواهر الثقافة و، بناء المجتمع ونظامه.»

الثقافة والحاجات :

إذا كنا قد تكلمنا عن الحاجات البيولوجية الأولية . فإننا نستطيع أن ننتقل إلى القسم الثانى من الحاجات الأساسية ، وأعنى بها الحاجات المشتقة derived needs ، وهى تلك الحاجات التى تصدر أصلا عن حاجات أولية ، بمعنى أنها مشتقة عن الحاجات البيولوجية (١) .

فاذا كانت الأسرة ضرورة اجتماعية نظراً لوظائفها البيولوجية والاقتصادية ، فإن رب هذه الأسرة يكون فى حاجة ماسة إلى المأوى ، سواء أكان أحد الأكواخ أو الخيام أو السراديب الجليدية . فكل هذه الأشكال المختلفة لمأوى الإنسان فى مجتمعات الإسكيمو أو فى قبائل إفريقيا واستراليا ، وفى الثقافات الرعوية كقبائل البدو فى الصحارى ، أو حتى فى المجتمعات القروية والزراعية الحديثة ، إنما تحتاج جميعها إلى ثقافات مسبقة ، فانسان الاسكيمو فى حاجة إلى تلك المادة التى يشيد بها سردابه ، كما أن البدائى يحتاج إلى ما يقيم كوخه ، ويبحث البدوى عن تلك الجلود والانسجة التى بها يصنع خيامه .

فالحاجة إلى المأوى مشتقة من حاجة بيولوجية وشروط اجتماعية ، تفرض على الانسان الاستعانة بظروف الثقافة التى تسعفه ، وعلى سبيل المثال أيضا ، فان الحاجة إلى الطعام إنما تؤدى إلى ضرورة وجود الثقافة أو الحاجة المشتقة ، ففى ثقافة الصيد مثلا ، وهى ثقافة فى حاجة ضرورية إلى مختلف الإدوات والاسلحة كالحراب والشباك والقوس والسهم ، كما يحتاج القناصة إلى مختلف أنواع الكلاب التى يدربونها كعامل مساعد فى عمليات القنص والصيد .

وإذا كانت الحاجات الأولية ، تصدر وبالضرورة عن حاجات بيولوجية

---

(1) Firth, Raymond , Man and Culture, Routledge, London, 1957. pp. 34, 35.

ملحة ، يشارك فيها الانسان حاجات الكائنات الحية ، إلا أن « الحاجات المشتقة » إنما تشتق عن حاجات أولية ، كما أنها فى نفس الوقت لاتصدر عن حياة الانسان البيولوجية ، بقدر ما تصدر عن ظروف البيئة والشروط الجغرافية والاجتماعية التى يخضع لها الانسان فى حياته الجمعية Collective life .

وبفضل هذه الحاجات المشتقة التى تصدر عن طبيعـــة الواقع الاجتماعى وشروطه ، فإن الانسان يقوم بدوره الحضارى فى نقل الثقافة transmission of culture إلى أخيه الانسان ، حيث يكتسب الفرد كل مظاهر اللغة والدين والتكنولوجيا ، ونسق العادات والتقـاليد والفلكلور ، وغير ذلك من ظـواهر « التراث الثقافى الحضارى » .

الحاجات المتممة :

وإذا كنا قد أشرنا إلى الحاجات الأولية والحاجات المشتقة ، فإن القسم الثالث من تصنيف الحاجات ، هو ذلك القسم الذى يتعلـق « بالحاجات المتممة أو المكملة integratjve needs » كالحاجة الى « التعاون co-operation » وتبادل الخدمات والحاجة إلى « التنظيم Organization » ، تلك الحاجات الضرورية التى تمكن الانسان من ممارسة النشاط والعمل فى حياة جمعية منظمة (١) .

وقد تتعلق هذه الحاجات بالتنظيم السياسى والاجتماعى ، ومظاهر الحيـاة الاقتصادية ولاشك أن الانسان فى حاجة أيضا إلى ما يقـــيم حياته الروحية والدينية والعقلية ، فقد قيل فى هذا الصدد إن « الانسان حيوان متدين » . فلكل إنسان على ظهر الأرض معتقداته ودياناته مهما بلغت درجة بدائيتها أو تحضرها . ونحن ها هنا إنما نستخدم مفهوم الدين فى أوسع معانيه ، حيث أن الانسان لايحتاج فقط إلى ما يشبع حاجاته الفيزيقية والبيولوجية وإنمـا يبغى الانسان

(1) Ibid., pp. 36, 37.

أيضا ويحتاج إلى ما يرضى مشاعره الدينية ويرقى من قيمة الجمالية ، وكلها أمور تتصل بالوجدان وترتبط بصميم الحياة الروحية ، فالدين والعقيدة هما غذاء للروح والعقل ، ولذلك كان الانسان « كائنا متفلسفاً » ، له نظراته وقيمه وفلسفته فى الحياة .

وكلها أسلحة ميتا فيزيقية يواجه بها الانسان قدره ، ويحدد مصيره ، فيؤكد ذاته أمام كل ما يهدد وجوده ، فيصبر مثلا عند حدوث البلاء ويتجلد عند وقوع الكوارث وانتشار الأمراض ، ويقف إزاء الموت الذى يتحدى وجوده ويتهدده فى كل وقت وحين ، حيث يقف ثابتاً مؤمناً . ويجد الانسان فى تعاليم دينه التى تفرض بعض القواعد والقيم الروحية ، يجد كافة الحلول الجاهزة لتلك المشكلات الميتافيزيقية العسيرة الفهم . فكثيرا ما يقدم الدين للانسان « حلا سهلا ومريحا » لقضاياه الوجودية التى تتعلق بمقولات « الوجود » و « العدم » و « اليأس » و « الرجاء » .

وجملة القول ـ فان الحاجات المتممة أو المكملة إنما تدور كلها حول حاجات سوسيولوجية ، مثل الحاجة إلى التعاون الاجتماعى والتنظيم السياسى ، وكحاجة الانسان إلى العمل الجمعى والمشاركة فى النشاط الاقتصادى ، وفى عمليات الانتاج وإبتكار الأدوات والأجهزة كتعبير عن تقدم الظاهرة التكنولوجية ، بالاضافة إلى إختراع الآلات الالكترونية ودراسة كيفية إستخدامها وإنتقالها وإدخالها كوسائل للايضاح عن طريق عملية « التربية Educa'ion » التى تقوم بدور النقل الثقافى إلى الآخرين .

وإلى جانب كل تلك الحاجات ذات الضرورة فى الحياة الجمعية المشتركة ، تدور الحاجات المتممة أو المكملة داخل إطار « القيم الروحية » الخاصة بقضايا الأخلاق والدين والتمسك بالمثل العليا .

ومن كل هذه الحاجات المتممة أو المكملة صدرت كل أنساق مناشط الانسان

Systems of human activity ، تلك التى نسميها اليوم باسم « النظم الاجتماعيه social institution » . فالنظم الاجتماعية بهذا المعنى هى تلك الوسـائل التى يستخدمها الانسان لاشباع حاجاته الرئيسية .

وعلى هذا الأساس فإن أية سمة من سمات الثقافة ، مثل وجود « عادة » أو « تقليد » أو « آلة » أو « عقيدة » . لا يمكن أن تفسر أية سمة من هذه السمات المادية أو اللامادية ، إلا بالرجوع إلى الكل الثقافى التى هى جزء فيه ، حيث أنها جميعاً لا يمكن أن تفهم إلا باعتبارها أجزاء أساسية تفسرها سائر النظم الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .

فنحن مثلا لا نستطيع وصف أو تحديد النمط الثقافى لبناء البيت الانجليزى ، فى تكوينه ومقاييسه ، ومعرفة نوع الأحجار أو شكل الطوب الذى منه يتألف بناء البيت ، دون أن نشير أولا إلى طبيعة الحياة الاجتماعية فى انجلترا ، وإلى ما يعنيه الرجل الانجليزى بكلمة « بيت » أو « Home » ، ولذلك يقال فى الأمثال الانجليزية « إن بيت الرجل الانجليزى هو قلعته » .

٣ - الحاجة والاستجابة :

ومعنى ذلك أن أية سمة ثقافية جزئية . لا يمكن أن تفسر إلا بردها إلى سياقها الثقافى الكلى الذى يعطيها مبناها ومعناها . كما أن كل حاجة إنسانية يقابلها إستجابة ثقافية معينة ... كما يوضح لنا الجدول التالى :

ونستنتج من هذا الجدول الآتى، أن الحاجات الانسانية الرئيسية إنما تقابلها مختلف الاستجابات، التى تقوم بها الثقافة كرد فعل مباشر لإشباع هذه الحاجات وتتحدد تلك الاستجابات الثقافية cultural responses بأن تتخـذ شكل النظم institutions ، مثل النظام الاقتصادى ، والنظـام السياسى ، والنظام العـائلى ، والنظام الدينى .

الحاجات الانسانية Human needs	استجابات الثقافة cultural Responses
(أ) الحاجات الأولية Primary needs	
١ ـ الطعام	١ ـ نظام التغذية nutrition
٢ ـ العمليات الفسيولوجية ، كالتنفس والاخراج ، والحاجة إلى الراحة Rest	٢ ـ النوم والتهوية
٣ ـ الدفاع عن النفس	٣ ـ الأسلحة والرماح والدروع والحراب
٤ ـ الوقاية من ويلات الجوع والمناخ مثل شدة الحرارة أو البرودة	٤ ـ السراديب ـ الأكواخ ـ الخيام ـ المنازل ـ الأزياء ـ الملابس
٥ ـ الجنس Sex	٥ ـ التعبير الاجتماعى ـ ضبط السلوك الجنسى
٦ ـ التناسل Reproductiou	٦ ـ نظام الأسرة ـ نسق القرابة ـ الحمل ـ تربية الأطفال
٧ ـ الصحة	٧ ـ العلاج ـ الشفاء ـ الأدوية ـ عمليات السحر فى المجتمع البدائى
(ب) الحاجات المشتقة derived needs	
١ ـ انتقال الثقافة teransmission of culture	١ ـ التربيه Education
٢ ـ الاتصال	٢ ـ اللغة
٣ ـ القدرة على العمل اليدوى	٣ ـ الثقافة المادية فى النسق الاقتصادى

الحاجات الانسانية Human neede	استجابات الثقافة cultural Responses
٤ - تنظيم المناشط الجمعية ٥ - الضبط الاجتماعي Social control	٤ - القيادة Leadership ٥ - جزاءات القانون والعادات Sanctions of law and customs
(ج) الحاجات المتممة أو المكملة ١ - الشعور بالثقة والوحدة الجمعية ٢ - النزوع - اللعب - تقدير الفن - تذوق الجمال .	١ - نسق القيم الروحية والمعايير الدينية والسحرية ٢ - النشاط الترويحي الخاص بالتذوق الفني والجمالي

بمعنى أن هذه « النظم » هي وسائل الثقافة لإشباع حاجات الإنسان . كما أن كل « نظام » بعينه إنما هو بمثابة استجابة الثقافة لإشباع نوع معين بالذات من حاجات الانسان الضرورية . وتتخذ العلاقة القائمة بين الحاجات والنظم واستجابات الثقافة ، اشكالا متعددة ، تختلف باختلاف الثقافات وتمايز من مجتمع إلى آخر .

وينبغي في هذا الصدد على ما يزعم مالينوفسكي Malinowski ، أن نتخذ منهجاً محدداً لدراسة الثقافة ، بأن نقوم بمحاولة « عزل وحدات الواقع الثقافي attempt to isolate the units of cultural reality » تلك الوحدات التي يمكن ملاحظة كل وحدة منها ، بالنظر إليها كوحدة متميزة وقائمة بذاتها ،

ومتنوعة من شبكة العلاقات القائمة بين الحاجات البيولوجية والاستجابات الثقافية تلك العلاقات التي تتغير رغم عمومها في سائر الثقافات ، حيث أنهـــا وحدات وعلاقات متغيرة Variable من مجتمع إلى آخر(١)

وإذا ما تساءلنا في هذا الصدد ... ماذا ندرس في الأنثروبولوجيـا الثقافية ؟ وما هي مختلف الظاهرات والوقائع Facts التي يدرسها علم الثقافة ؟

نقول في الرد على هذه المسائل ، إنه إذا كان علم الكيمياء ينهض بدراسة مختلف التفاعلات بين الأحماض والقلويات ، وخواص الفلزات واللا فلزات ، ومعالجة ما بينها من ظواهر وعلاقات كيميائية ، في ضوئها نتوصل إلى عـدد من المعادلات الرمزية ، تعبيراً عن ذلك التفاعل القائم بين ظاهرتين أو أكثر من ظواهر ناتجة عن عمليات الكيمياء(٢) . كذلك الحقيقة الكيميائية القائلة : بأننا إذا ما أضفنا بعضاً من حامض الأيدروكلوريك hydrochloric acid وسكبناه على قطعـة من الرخام ، تكون نتيجة التفاعل عبارة عن فوران كيميائي ينجم عما يصيب الرخام بالتقائه بحامض الأيدروكلوريك ، حيث يتفاعل مع تفتت الرخام .

وإذا كانت هذه الظواهر التي يعالجها الكيميائي ، حين يدرس الحقائق الناجمة عن التفاعلات ، وحين يتعامل مع خصائص المادة ، ويقوم بعـــزل الظواهر والخصائص الكيميائية ، فإن عالم الانثروبولوجيا الثقافية ، ينبغي أن يعالج الثقافة كمجموعة من الوحدات المعزولة والمشخصة Concrete isolates of cultutre على حد تعبير مالينوفسكي .

---

(1) Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthropology, Vol : 1 Oliver and Boyd, Edinburgh. Third edition. 1960. p. 237.

(2) Ibid. p. 238.

على إعتبار أن حقائق العلم الأنثروبولوجى عند مالينوفسكى إنما تتوقف على دراسة العلاقات الثقافية cultural relation ، التى هى العلاقة القائمة بين « عناصر elements » و « سماتها its traits كما تشمل أيضا على تلك العلاقات القائمة بين تلك العناصر والسمات الثقافية من جهة ، وبين الحاجات الانسانية من جهة أخرى .

وتستند الطريقة التى تربط وتصل بين استجابات الثقافة وحاجات الانسان ، إلى نمطين عامين من أنماط السلوك الاجتماعى للانسان ... أولهما أن بنى البشر إنما يشبعون حاجاتهم بطريقة جمعية collective بالانخراط فى شتى الجماعات والزمر . وثانيهما أن اشباع تلك الحاجات إنما لا يأتى عفواً أو خبط عشواء ، وإنما ينشأ هذا الاشباع عن بعض المناشط التى تحدد مجالها قواعد العرف الاجتماعى ، حيث تخضع هذه العملية كلية لإتجاه نسق التقاليد الثقافية cultural traditions ، تلك التى تصدر عنها ما نسميه بالنظم institutions ، حيث أن النظم هى « وسائل الثقافة أو إستجاباتها ، لإشباع وسد حاجات الانسان » .

وهذه « النظم » هى ما يعبر عنها مالينوفسكى بوحدات الثقافة المنعزلة المشخصة concrete isolates of culture ، حيث أن النظم هى الوحدات الرئيسية فى أية ثقافة من الثقافات ، كما أن النظم هى التى تؤلف مادة الدراسة العلمية فى الأنثروبولوجيا الثقافية .

ويتحقق « النظام » عند مالينوفسكى ، بانبثاقه عن مجموعة أو جماعات مشخصة تربطهم رابطة الفكر والعمل ، ويتبعون نسقاً من القواعد والاجراءات تسود فى بيئة خاصة ، ومن هنا تتضح لنا العلاقة الوثيقة التى تربط بين « النظام » كوحدة ثقافية معزولة من جهة ، وبين نسق الحاجات الانسانية التى تكون عناصر الثقافة هى استجابتها ورد فعلها المباشر .

وجملة القول ، يفرض علينا منهج دراسة الثقافة ، أن نأخذ فى إعتبارنا دراسة البيئة الفيزيقية ، والنظم الثقافية cultural institutions ، وماترتبط به من ظواهر الديموجرافيا demography والايكولوجيا Ecology ، وهو أمر يتفق تماماً مع ماكنا قد أكدناه منذ البداية .

انتهى الكتاب بحمد الله

ملاحق الكتاب

ملحق المراجع والمصادر

ا - المراجع العربية :

• الدكتور حاتم الكعبي ، « الطبقة الاجتماعية » فصلة من مجلة « الاستاذ » كلية التربية بغداد المجلد الثانى عشر ١٩٦٣ - ١٩٦٤ .

• الدكتور حسن حنفى « قضايا معاصرة فى الفكر العربى » دار الفكر العربى الجزء الثانى .

• الدكتور حسن ظاظا « اللسان والإنسان ، مدخل إلى معرفة اللغة » دار المعارف ١٩٧١ .

• جان ميغو « مدخل إلى علم السياسة » ترجمة جورج يونس ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٧ .

• شيرام ، ويلبلور ، « التليفزيون وأثره فى حياة أطفالنا » ، ترجمة زكريا حسن ، مراجعة تماضر توفيق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ .

• د. جيهان احمد رشتى « نظم الاتصال ، والاعلام فى الدول النامية » ، دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى .

• دكتور محمد زكى العشماوى « الأدب وقيم الحيـــاة المعاصرة » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية .

• دكتور قبارى محمد اسماعيل « علم الاجتماع الصناعى » منشأة المعارف ١٩٨٠ .

« « « « « « العقلية البدائية عند لوسيان » ليفى بريل ، « مجلة تراث الإنسانية » عدد ابريل ١٩٦٨

• دكتور قبارى محمد اسماعيل « إميل دور كايم » منشأة المعارف ١٩٧٦ .

« « « « « علم الاجتماع الفرنسى » دار الكتب الجامعية ١٩٧١

« « « « « علم الاجتماع والايديولوجيات » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

« « « « « علم الاجتماع والفلسفة » ثلاثة أجزاء ، طبعة بيروت ١٩٦٨

• لنتون (رالف) « الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث » ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧

• جونسون ، أ. هـ « فلسفة هوايتهد فى الحضارة » ترجمة د. عبد الرحمن باغى ، بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٦٥ .

• كوبلر جورج « نشأة الفنون الانسانيه » ترجمة عبد الملك الناشف بيروت ١٩٦٥ .

• كونانت (جيمس) « مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » ترجمة الدكتور احمد زكى ، دار المعارف ١٩٦٣ .

• د. سامية أسعد ، « فى الأدب الفرنسى المعاصر » الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ب - المراجع الفرنسية :

1. Aron, Raymond., La Sociologie Allemande Contemporaine, Press. univers. Paris 1966.

2. Bergson, Henri., Essai Sur Les Donnés Immédiates De la Conscience. Félix Alcan, Neuvième Edition, Paris. 1911.

3. Blondel, Ch., Introduction à la Psychologie Collective, Paris 1952. Collection Armand Colin.

4 Comte Auguste, Cours de Philosophie Positive., Tome Prémier 5e Edition. Paris. 1907.

5. Davy, Georges., Emile Durkheim, Paris, 1927 Collection Louis-Michaud.

6. Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaires de la Vie Riligieuse, Fèlix Alcan, Paris 1912.

7. ——— Les Règles de la Mèthode Sociologique. Huitiéme Edition. Paris. 1927.

8. ——— De La Division du Travail Social, Félix Alcean, Paris 1926.

9. Gurvitch Georges. Essai de Sociologie Annales Sociologique Fasc, 4.

10. ——— La Vocation Actuelle de la Sociologie. press. Univers, de France. Paris. 1963.

11. Duvignaud, Jean., Sociologie de l'art., Press univers de France Paris. 1967.

12. Halbwachs, Maurice:, Les Cadres Sociaux De la Mèmoire, Nouvelle., Edition, Paris, 1935.

13, Halbwachs, Maurice., Marphologei Sociale, collec. A. colin, paris 1946.

14. Hubert et Mauss., Mélanges D'histoire des Religions, paris, 1929.

15. Kant, Immanuel., Critique de la Raison Pure, Presses Universitaires de France. paris 1950.

16. Le Senne. René., Traité de Morale Génèrale, Presses Universitaires De France. paris. 1949.

17. Lèvy-Bruhl, Lucien, Fonctions Mentales Dans Les Sociétés Inférieures, neuviéme Edition, paris. 1928.

18. Poincaré., Henri. La Science Et Méthode, Flammarion, Paris, 1927.

ج - المراجع الانجليزية :

19. Alan, Beals., Culture in Process, U.S.A. 1967.

20. Afsnasyev, V, Marxist Philosophy. Second Revised Moscow 1965.

21. Bergel, Egon Ernest., Urban Sociology, Mc. Graw Hill. 1955.

22. Bendix, Reinhard., Max Weber., double day Anchor Book 1962.

23. Bouglè, Celéstin., Essay on the Caste System, Trans. by Pocock Cmbridge 1971.

24. Bottomore, T. B., Sociology, A. Guide broblems and literature, London. 1963.

25. Childe, Gordon., Man Makes Himself, Fontana 1966.

26. Cicourel, Aron , Method and Measurement in Sociology., Glencoe. 1964.

27. Cohen, Percy., Modern, Social Theory, Heinemann - London: 1968.

28. Downs, James., Cultures in Crisis, Glencoe, 1971.

29. Durkheim, Emile., Sociology and Philosophy, Trans, By P F: Pocock, London. 1953.

30. Duverger, Maurice., Introduction to the Social sciences., London. 1964.

31. Emmet, Dorothey., Alasdair Macintyre, Sociological Theory and philosophical analysis. Macmillan. 1970.

32. Evans - Pritchard, E.E., Social Anthropology, Cohen & West, London. 1951.

33. ——— The Nuer., Clarendon Press, Oxford 1950.

34. Fayole, Henri., General and industrial Management., 1969.

35. Firth, Raymond , Human Types, Thomas Nelsocn, New York 1943.

36. Foskett, Johh, M., The Social Sciences View., Printice Hall, 1965.

37. Friedman, G., Jndustrial Society, The Emergence of Human Relations of Automatiron, Glencoe 1964.

38. Goode, William., Methods in Social Research, Mc. Graw Hill, London. 1952.

39. Gouldner Alvin., Modern Sociology., An introduction to the Study of Human interaction U.S.A. 1953.

40. Gurvitch, Georges., Twenteith Century Sociology., The Philosophical Library, New York, 1945.

41. Haddon, A.C., The Races of Man and Their distribution., Cambridge. 1924

42. Hardy. Rollo., Philosophy's Neglect of Social science: article from Philosophy of Science, April. 1958.

43. Hayek, F.A., Von,, Scientism and the Study of Society, Economica Vol X 1943.

44, Hawley, Amos., Human Ecology, A Theory of Community Structure, 1950.

45. Hegel, G.W.F., The Phenomenology of Mind , Trans, By J.B. Baillie, Révised Edition, London New York 1931.

46. Herskovits, Melville., Cultural Anthrpology., New York. 1964.

47. Inkeles, Alex., Social Change in Soviet Russia., New York. 1954.

48. Linton, Ralph and Harry Hoijer., An Intrduction to Anthropology, Macmillan. Second edition New York: 1959.

49. Lowie, Robert., The His'ory of Ethnolgoical Theory, London 1938.

50. Kesseing, Felix. Cultural An'hropology, New York. 1960.

51. Kroeber and Clyde Cluckhohn, Culture, New York, 1952.

52. Mannheim Karl., Essays On The Sociology of Knowledge, Trans By Paul Kecskemeti. Routledge. & Kegan Paul Londnn 1952.

53. ——— Essays On Sociology and Social Psychology., Trans by Paul Kecskemeti, London. 1953.

54. ——— Ideology and Utopia., Kegan paul., Trans. by Louis Wirth and Edward Shils, Second Impression, London 1940.

55. ——— Man and Society InAnAge of Reconstructicn,Trans. From The German By Edward Shils, Kegan Paul, London. 1942.

56. Martindale, Don. The Nature and Types of Sociological Theory. London. 1961.

57. Marx. Engels, Selected warks. Vol. I Moscow. 1962.

58. Merton. Robert., Social Theory and Social Structure, Revised and enlarged Edition The Free press of Glencoe, The Fifth printing. New York. 1962.

59. ———., The Sociology of Knowledge, The Twenteith Century Sociology, New York 1954.

60. Meyer Edgar and Borgatta., Sociological Teory., Present day Sociology, From the Past. New York. 1956.

61. Mills, Wright., White Collar, New York 1951.

62. Mills, Wright., The Elite., Power New York, Oxford University Press. 1956.

63. Myrdal. Gunner., An International Economy. New York. Harper. 1958.

64, ———— Volume in Social Theory, Routledge and Kegan Paul, London. 1968.

65. Nadel S.F., Foundations of Social Anthropoiogy. London. 1953.

66. Parson. Talcott.; Structure of Social Action. Free., press 1949.

67, Piddington Ralph. An Introduction to Social Anthropology, 1960.

68. Popper, K.R., The Open Society and its Enemies, Routledge London. 1945 Vol I, II.

69: ———— The Poverty of Historicism., Routledge, Kegan Paul London. 1957.

70. Radcliffe - Brown A.R.; Andaman Islanders, Free Press 1948.

71 ———— ., Methods in Social Anthropology., Selected by Srinivas The University of Chicago. 1958.

72. ———— Structure and Function in Primitive Society. Cohen & West, Second Impression London. 1956.

73. Riley, Matilda White, Sociological Research., A Case Approach New York. 1961.

74. Schneider, Eugone Industrial Sociology. Mc. Graw H Hill New York 1967.

75. Seligman, C.G., Races of Africa, London, Oxford, 1959.

76. Selznick, P , Leadership in Administration, American Sociological Seview.

77. Service, Elman, R ; The Hunters, Printice-Hall 1966.

78. Smelser, Neil., The Sociology of Economic Life, Printice Hall 1963.

79. Sorokin, Pitrim., Contemporary Sociological Theories, New York, London 1928.

80. ——— Society, Culture and Personality. Their Structure and dynamics Harper & Brothers publishers New York & London 1947.

81. Spencer. Herbert. The Principles of Psychology Third Editionl Vol. I London 1881.

82. ——— . First Princples., London. 1890 First Edition, William and Norgate.

83. ——— . The Study of Sociology. London. 1872.

84. Stark, Werner, The Sociology of Knowledge. Second Impression, Kegan Paul, London 1960.

85. Timasheff, Nicholas, Sociological Theory Its Nature and Growth, New York. 1955 Fordham University.

86. Tiryakian, Edward, Sociologism and Existentialism, Printice Hall. 1962.

87. Tonnies, Ferdinand, Community and Society., trans-by Loomis Harper, New York. 1963.

88. Wallace, Walter., Sociological Theory., Heinemann, London. 1969.

89. Wein, Hermann, Trends in Philosophical Anthropology and Cultural Anthropology in postwar Germany philosophy of Science, Vol No. I, January, 1957.

90. Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization, trans. by Henderson. Glencoe, 1947.

91. ———., Basic Concepts in Sociology, trans by H. p. Secher, Peter Owen, London-1962.

92. William, Michael, Human Relations., Longmans. London 1967.

93. Wolff, Kurt, The Sociology of Georg Simmel, Free Press Paperback 1964.

94. ———., Essays on Sociology and Philosophy Harper, 1964.



ب - ملحق المحتويات

المحتويات

رقم الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

رقم الصفحة

الباب الثالث

الفصل السابع

رقم الصفحة

الفصل الثامن

رقم الصفحة

الباب الرابع

رقم الصفحة

الفصل التاسع

رقم الصفحة

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

رقم الصفحة

رقم الإيداع ٤٠٥٧ / ٨٢

الترقيم الدولى ٤ - ٠٢٦ - ١٠٣ - ٩٧٧ ISBN